@ketab_n
Follow Me
22.2.2016

جوزيف كونراد

تحت أنظار غربيّة

ترجمة: توفيق الأسدي

التكوين
رواية

جوزيف كونراد

تحت أنظار غربية

ترجمة

توفيق الأسدي

التكوين

Twitter: @ketab_n

☒ لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومسبقاً.

Twitter: @ketab_n

ولد **جوزيف كونراد** في إحدى المقاطعات الأوكرانية من بولندا عام (1857) من أشهر أعماله: «**الشباب**»، «**حماقة أولماير**»، «**طريد الجزر**»، «**زنجي نارسيسوس**»، «**العميل السري**»، «**قلب الظلام**»، «الحظ» عام 1914. ويعتقد أنه كتب أعظم رواياته مع مطلع القرن: «**لورد جيم**» و«**نوسترومو**» و«**تحت أنظار غربية**».

توفي **كونراد** بعد مرض طويل أثر نوبة قلبية في الثالث من آب عام 1924 ودفن في إنكلترا في كانتربري، حيث تحمل شاهدة قبره اسمه البولوني.

JOSEPH CONRAD
UNDER WESTERN EYES
الطبعة الأولى 2015

© حقوق النشر والترجمة والاقتباس محفوظة
لـ دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر

هاتف: 00963 112236468
فاكس: 00963112257677
ص. ب: 11418، دمشق. بيروت
www.attakwin.com
taakwen@yahoo.com

Twitter: @ketab_n

الإهـداء

«إلى أغنيس توبين» التي جَلَبَت إلى بابنَا عَبقريتهَا في مجَال الصَداقة من أقصى شواطئ الغرب.

Twitter: @ketab_n

«سآخذ الحريّة من أيّة يد كما يختطف الجائع كسرة من الخبز»

الآنسة هالدين

إحدى شخصيات الرواية

Twitter: @ketab_n

ملاحظة بقلم المؤلف

لا بدّ من الاعتراف بأنه، وبسبب من الظروف، سبق أن أصبحت «**تحت أنظار غربية**» نوعاً من الرواية التاريخية التي تتعامل مع الماضي.

هذا ويعتمد هذا الرأي اعتماداً مطلقاً على حوادث الحكاية، ولكن بما أنها ككل، محاولة ليس لتقديم الحالة السياسية لروسيا بل لسيكولوجيتها بالذات، فإني أتجرأ فآمل أنها لم تفقد كل أهميتها. هذا ويشجعني على هذا الاعتقاد المداهن أني ألاحظ أن في كثير من المقالات المتعلقة بالشؤون الروسية في وقتنا الحاضر إشارة إلى بعض الأقوال والآراء الواردة في صفحات الرواية التي ستقرؤونها فيما يلي، وذلك بأسلوب يشير إلى وضوح رؤياي وصحة حكمي، ولا حاجة إلى القول إني في كتابتي لهذه الرواية لم أضع نصب عيني سوى التعبير على نحو متخيّل عن الحقيقة العامة التي تكمن وراء أحداثها، مع قناعاتي الصادقة فيما يتعلّق بالتعقيد الأخلاقي لبعض الحقائق المعروفة للعالم كله تقريباً.

أما بالنسبة إلى الإبداع الفعلي فقد أقول إني حين بدأت بالكتابة كانت لديّ فكرة واضحة عن القسم الأوّل فحسب، ولم يكن في ذهني من الشخصيات ما هو محدّد تماماً سوى «هالدين» و«رازوموف» و«المستشار ميكولين»، ولم تتكشّف لي القصة بكاملها في صفاتها التراجيدية وسير حوادثها على نحو محتوم وناضج بما فيه الكفاية، في المخطط العام لها، بحيث تُمنح غريزتي الإبداعية والإمكانيات الدرامية للموضوع كامل الحرية، إلاّ بعد أن أنهيت كتابة القسم الأول منها.

Twitter: @ketab_n

لا حاجة إلى شرح سير الحدث. لقد فرض نفسه عليّ كمسألة شعور أكثر منها مسألة تفكير. إنه ليس نتيجة لتجربة خاصة بل معرفة عزّزها التأمل الجاد. كان أعظم ما يقلقني هو تمكّني من القدرة على الوصول إلى لهجة الحيادية الدقيقة والمحافظة عليها. إن الالتزام بالعدل المطلق أمر فُرِض عَلَيَّ تاريخياً ووراثياً، بسبب التجربة الخاصة بالعِرْق والأسرة، إضافة إلى قناعتي المبدئية أن الحقيقة وحدها هي مبرر أي عمل قصصي يدّعي كأقل ما يكون صفة الفن أو يأمل في أن يحتل مكانه في ثقافة رجال ونساء عصره. لم يسبق لي أن تعرضت إلى بذل جهد أعظم من ذلك الذي بذلته هنا في سبيل التجرّد: التجرد من كل العواطف والتحيّزات وحتى الذكريات الشخصية. لم تلاقي «تحت أنظار غربية» حين صدرت في انكلترا في طبعتها الأولى شعبية لدى القراء، ربما بسبب ذلك التجرد نفسه. ولكني نلت مكافأتي بعد ذلك بست سنوات حين سمعت لأول مرة أن الكتاب قد لاقى نجاحاً هائلاً في روسيا وأنه أعيد طبعه هناك مرات عديدة.

كما أن الشخصيات التي تلعب أدواراً في الحكاية تدين بوجودها ليس إلى تجربة خاصة بل إلى معرفة عامة بأحوال روسيا وردود الفعل الأخلاقية والعاطفية الخاصة بالمزاج الروسي على ضغوط انعدام القانون استبدادياً، والتي كان يمكنها - ضمن شروط إنسانية عامة - أن تتحول إلى صيغة اليأس الأحمق الذي استفزّه الاستبداد الأحمق. إن ما كان موضع اهتمامي هو مظهر وصفة ومصير الأفراد كما بدوا تحت الأنظار الغربية لمعلّم عجوز للّغات. ولقد تم توجيه نقد كثير إليه هو بالذات، ولكني لن أقوم الآن في هذا الوقت المتأخر بتبرير وجوده. لقد كان مفيداً لي ولذا أعتقد أنه لا بدّ مفيد للقارئ كمعلّق وكشخصية تلعب دوراً في تطوير الحكاية. وبسبب رغبتي في تحقيق تأثير واقعي بدا لي أنه غير ممكن الاستغناء

Twitter: @ketab_n

عنه، وذلك ليكون هناك شاهد عيان على ما يحدث في جنيف. كما كنت في حاجة إلى صديق يتعاطف مع الآنسة هالدين التي كان من شأنها أن تكون وحيدة جداً وعزلاء جداً بحيث لا يمكن أن تكون جديرة بالتصديق على نحو كامل دون ذلك الصديق، وما كان سيكون لديها شخص تستطيع أن تمنحه لمحة من فكرها المثالي وقلبها الكبير وعواطفها البسيطة.

أما رازوموف فيعامل على نحو متعاطف. ولم لا؟ إنه شاب عادي لديه طاقة صحية على العمل وطموحات معقولة. لديه ضمير عادي. وإن كان شاذاً إلى حد طفيف فذاك بسبب حساسيته لمركزه. فكونه لا يعرف أماً أو أباً يجعله يشعر على نحو أكثر حدة من غيره بأنه روسيّ: أو هو لا شيء. إنه على حق تماماً في أن ينظر إلى روسيا كلها على أنها إرثه. ها هي العبثية الدموية للجرائم والتضحيات المتأجّجة في تلك الكومة الفوضوية تحيط به وتحطمه. ولكني لا أظنّ أنه وحش في خلافاته. ليس هناك من هو مصوَّر هنا كوحش: لا «تكلا» الساذجة ولا «صوفيا أنتونوفنا» العنيدة المتشبثة برأيها. إن بيتر ايفانوفيتش «والمدام دوسـ..» عبارة عن لعبة مشروعة. إنهما قردان من قرود الغابة الشريرة وهما يُعاملان كما تستحق تكشيراتهما. أما بالنسبة إلى «نيكيتا» الملقب بـ «نيكاتور»، فهو الزهرة الكاملة التي أنتجتها البرية الإرهابية. أما ما أزعجني أشد الإزعاج بالتعامل فلم تكن فظاعته بل ابتذاله. وقد تم عرض شخصيته على الملأ لسنوات في مقالات صحفية «فضائحية» وكتب سرية وروايات مثيرة.

أما أشد الأفكار إثارة للرعب (أتحدث الآن عن نفسي) فهو أن كل هؤلاء الناس ليسوا نتاج الاستثنائي بل العادي، نتاج عادية مكانهم وزمانهم وعنصرهم. إن شراسة وغباء نظام الحكم الفردي الذي يرفض كل المشروعية ويؤسس نفسه على الفوضوية الأخلاقية الكاملة

Twitter: @ketab_n

يثير الجواب الغبي الذي لا يقلّ وحشية، جواب الثوروية الطوباوية المحضة التي تقوم بالتدمير بأول وسيلة تتوفر في يدها، وذلك بالقناعة الغربية بأنّ التغيير الجوهري للقلوب يجب أن يلحق سقوط أية مؤسسات إنسانية معينة. هؤلاء الناس غير قادرين على رؤية أن كل ما يستطيعون إنجازه هو تغيير الأسماء. المضطهد والمضطهَد كلاهما من الروس، والعالم يواجه مرة أخرى حقيقة القَول الذي يفيد بأن النمر لا يستطيع تغيير جلده المقلّم كما لا يستطيع الفهد أن يغيِّر جلده المرقط.

1920

جوزيف كونراد

Twitter: @ketab_n

الجزء الأول

تمهيد

كبداية أقول إني أرغب في التنصّل من الادعاء بأني أمتلك تلك المواهب السامية الخاصة بالمخيّلة والتعبير والتي كان من شأنها أن تمكّن قلمي من أن يخلق للقارئ شخصية الرجل الذي كان يسمي نفسه وفق العادة الروسية «سيريل بن ايزيدور» أو «كيريلو سيدوروفيتش ـ رازوموف».

لو كنت أتمتع بتلك المواهب بأي من الأشكال الحية لكانت ستمّحي من الوجود منذ أمد بعيد تحت عدد هائل من الكلمات، الكلمات - كما هو معروف - هي العدو الأكبر للحقيقة. أنا معلّم للغّات منذ سنوات عديدة. وهي مهنة تصبح مع الزمن قاتلة لأي حصة من الخيال أو قوة الملاحظة أو البصيرة التي قد يرثها أي شخص عادي. أما بالنسبة إلى معلّم اللّغات فقد يأتي وقت يتحرك فيه العالم إلى مكان لكلمات كثيرة ويظهر الإنسان كأنه مجرّد حيوان ناطق ليس أكثر روعة من ببغاء.

وبما أن الحال على ما هو عليه فما كان يمكنني أن أراقب السيد رازوموف أو أن أخمّن حقيقته بقوة البصيرة، أو أن أتخيّله بالأحرى على حقيقته. بل حتى أن اختراع حقائق حياته المجردة ما كان شيئاً ضمن قدراتي على الإطلاق. ولكني أعتقد أنه بدون هذا التصريح حتى، سيتمكّن قارئو هذه الصفحات من أن يتبيّنوا في الحكاية آثار الدليل الوثائقي، وهذا صحيح تماماً. إنها مبنية على وثيقة: كل ما أضفتُه إليها، هو معرفتي باللغة الروسية، وهذا كاف لمحاولتي هذه.

Twitter: @ketab_n

والوثيقة، بالطبع، شيء أشبه باليوميات، بالمذكرات، ولكنها ليست كذلك بالضبط في شكلها الفعلي. مثلاً، معظمها لم يكن يومياً وإن كانت كل فقراتها مؤرخة. بعض هذه الفقرات يغطي شهوراً بحالها ويمتد على عشرات من الصفحات. الجزء الأول منها كله عبارة عن استعادة لحوادث ماضية، في شكل سردي يتعلق بحدث جرى قبل ذلك بعام واحد.

عليّ أن أذكر أني أعيش منذ فترة طويلة في جنيف. وهناك حيّ كامل في هذه المدينة يسمى «روسيا الصغيرة» وذلك بسبب كثرة الروس المقيمين فيه. وقد كانت لي علاقات واسعة في «روسيا الصغيرة» في ذلك الحين، ومع ذلك فإني أعترف أني لا أفهم أبداً الشخصية الروسية. لا يتوجب أن تطرح لا منطقية مواقفهم واعتباطية استنتاجاتهم وتكرار الاستثنائي، لا يتوجب أن تطرح هذه أية صعوبات على دارس كثير من قواعد نحو اللغات؛ ولكن لا شكّ أن هناك شيئاً ما يعترض الطريق، نزعة بشرية ما: واحد من تلك الاختلافات الدقيقة التي هي أبعد من مرمى بصر شخص عادي. إن ما يجب أن يبقى مذهلاً بالنسبة إلى معلّم اللغات هو الحب الاستثنائي الذي يبديه الروس للكلمات. إنهم يجمعونها، يدلّلونها، ولكنهم لا يدّخرونها في صدورهم؛ بل العكس هو الصحيح، فهم سيعمدون دائماً إلى صبّها، في النهار أو في الليل، بحماسة، بكميات هائلة، وعلى نحو ملائم جداً أحياناً من حيث التطبيق حتى أن المرء — كما هي الحال لدى الببغاوات الشديدة البراعة - لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الشك في أنهم يفهمون حقاً ما يقولونه. هناك كرم في حماستهم الكلامية يبعدها كأكثر ما يكون عن الثرثرة العادية؛ كما أنها لا تتحلّى بالترابط وبالتالي لا يمكن تصنيفها على أنها بلاغة... ولكن عليّ أن أعتذر عن هذا الاستطراد.

Twitter: @ketab_n

لن يكون هناك طائل في الاستفسار عن السبب الذي حدا بالسيد رازوموف إلى ترك سجله هذا. لا يمكن لأحد أن يصدق أنه كان يريد لأي عين بشرية أن تراه. وهنا يلعب دافع غامض يتعلق بالطبيعة البشرية دوراً ما. وإذا ما نحّينا جانباً «ساموئيل بيبس»[1] الذي فتح باب الخلود لنفسه بهذه الوسيلة، فإن عدداً لا يحصى من الناس، المجرمون منهم والقديسون، الفلاسفة والفتيات الصغيرات، رجال الدولة والحمقى السذّج، قد دوّنوا مثل هذه اليوميات التي تكشف عن خبايا النفس، وذلك من باب الخيلاء أو الفراغ دون شك، وربما بسبب دوافع أخرى أكثر إبهاماً. لا شك أن هناك قوة ملطّفة رائعة كامنة في الكلمات نفسها حتى أن أناساً كثيرين قد استعملوها لمطارحة الأفكار مع أنفسهم. وبما أنني شخصياً إنسان هادئ الطباع فإني أعتقد أن ما يسعى إليه الناس حقاً هو شكل ما أو ربما صيغة ما من صيغ الطمأنينة. لا شك أنهم يبكون بصوت مرتفع في سبيلها في أيامنا هذه. أي نوع من الطمأنينة كان كيريلو سيدوروفيتش رازوموف يسعى إليه حين كتب سجلّه ذاك؟ هذا ما لا يستطيع عقلي حتى أن يحاول أن يحزره.

ولكن تتبقى لدينا حقيقة أنه كتبه بالفعل.

كان السيد رازوموف شاباً طويل القامة متناسق الأعضاء، كما كان لون شعره أدكن بكثير ممّا للروس القادمين من المقاطعات المركزية. كان من شأن وسامته أن تكون كاملة لولا أن ملامحه لم تكن تتمتع بالرهافة. كان يبدو كوجه صيغ بقوة من الشمع (مع نزعة إلى دقة كلاسيكية نمطية) ثم قُرِّب من النار حتى ذابت كل حدّة الخطوط

---

(1) ساموئيل بيبس (1633 ـ 1703) كاتب يوميات إنكليزي شهير. (المترجم)

Twitter: @ketab_n

مع ذوبان المادة. ولكن رغم ذلك كان وسيماً إلى حد كاف. كان حسن السلوك أيضاً. وخلال النقاش كان من الممكن حمله على تغيير رأيه بالحجة والإقناع. مع مواطنيه الأصغر سناً كان يتخذ وضعية المستمع الغامض، مستمع من النوع الذي يصغي إليك بذكاء حتى تنتهي من كلامك وعندها بالضبط يغيّر الموضوع.

مثل هذا النوع من الحيل الذي قد ينبع من عدم كفاية فردية أو من ثقة غير كاملة بالقناعات الذاتية، أكسب السيد رازوموف شهرة على أنه عميق التفكير. فبين الكثير من المتكلمين المهذارين المعتادين على إنهاك أنفسهم يومياً بالنقاش الحماسي، فإن شخصية تتصف بقلة الكلام نسبياً من شأنها أن تجعل الناس تعتقد أن لصاحبها قدرات احتياطية. وقد كان رفاقه في جامعة سانت بطرسبورغ ينظرون إليه، هو كيريلو سيدورفيتش رازوموف، الطالب في السنة الثالثة من قسم الفلسفة، على أنه شخص ذو طبيعة تتميّز بالقوة: رجل يوحي بالثقة تماماً. وهذا، في بلد يُنظر فيه إلى الرأي على أنه جريمة قانونية يستحق عليها المرء الموت، أو ما هو أسوأ من الموت أحياناً، كان يعني أنه أهل للثقة بحيث يباح له بالأفكار المحرَّمة. كما كان محبوباً أيضاً بسبب حسن معشره واستعداده الهادئ لإرضاء رفاقه حتى على حساب راحته الشخصية.

كان من المفترض أن يكون السيد رازوموف ابناً لكبير قساوسة وأنه تحت حماية نبيل بارز... ربما ينتمي إلى مقاطعته البعيدة نفسها. ولكن مظهره الخارجي كان لا يتفق مع مثل هذا المنشأ المتواضع. لم يكن مثل هذا التحدّر من سلالة كتلك أمراً قابلاً للتصديق. بل كان البعض يعتقد أن السيد رازوموف ابن لابنة جميلة لكبير قساوسة... ممّا كان يضفي على المسألة لوناً مختلفاً بالطبع. ولكن هذه النظرية لم

Twitter: @ketab_n

تكن توضّح مسألة حماية النبيل البارز له. ولكن كل هذا لم يتم البحث فيه على نحو مسيء أو غير ذلك على أية حال. لم يكن هناك من يدري أو يهتم بمعرفة من هو ذلك النبيل موضوع البحث. كان رازوموف يتلقى منحة متواضعة إنما كافية من قبل محام غير مشهور بدا وكأنه مكلّف بالوصاية عليه نوعاً ما. وكان يظهر أحياناً في حفلات استقبال بعض الأساتذة. وبمعزل عن ذلك لم يكن يُعرف أن لرازوموف أية علاقات اجتماعية في المدينة. كان يتواجد في المحاضرات الإجبارية على نحو نظامي ويُعتبر من قبل السلطات طالباً واعداً جداً، .كان يجدّ في البيت بأسلوب رجل ينوي التقدّم، ولكنه لم يكن منغلقاً على نفسه بشدة لهذا الغرض. كان من الممكن دائماً الوصول إليه، ولم يكن في حياته ما هو سر أو متحفظ عليه،

أولاً:

يتعلق أصل سجل السيد رازوموف بحادثة واقعية جرت في روسيا المعاصرة، ألا وهي حادثة اغتيال رجل دولة بارز، كما أنها من مميزات الفساد الأخلاقي لمجتمع مقموع حيث تُعهَّر أكثر طموحات الإنسانية نبلاً والرغبة في الحرية والوطنية المتقدة وحب العدالة والإحساس بالشفقة وحتى إخلاص العقول البسيطة، وذلك لصالح شهوات الحقد والخوف، وهما الرفيقان المتلازمان للحكم الاستبدادي غير المستقر.

الواقعة المشار إليها أعلاه هي المحاولة الناجحة لاغتيال «السيد دو بـ...» رئيس «اللجنة القمعية» رديئة السمعة، وذلك قبل بضع سنوات؛ وكان هذا أيضاً وزير دولة منحت له سلطات استثنائية؛ وكانت الصحف قد جعجعت كثيراً حول تلك الشخصية المتعصّبة ذات الصدر الضيق المرتدية للبزّة المزيّنة بشرائط ذهبية، وذات الوجه الأشبه بالرق المتغضّن، والعينين التافهتين المغطاتين بالنظارات،

Twitter: @ketab_n

وصليب وسام القديس بروكوبيوس المعلق تحت الحنجرة النحيلة. لقد مرّت فترة من الزمن، وهذا أمر للذكرى، ما كان يمضي فيها شهر واحد دون ظهور صورته في إحدى صحف أوربا لمصوَّرة. كان يخدم الملكية بسجن ونفي وإرسال الرجال والنساء، الشباب منهم والعجائز، إلى المشنقة، وذلك بكدّ مضطرد لا يكلّ. في قبوله المبهم لمبدأ حكم الفرد المطلق، كان مصمماً على أن يقتلع من الأرض كل أثر لأي شيء يشابه الحرية في المؤسسات العامة؛ كما كان في ملاحقته التي لا هوادة فيها للجيل الطالع يهدف على ما يبدو إلى تدمير أي أمل في الحرية نفسها.

ويقال إن هذه الشخصية اللعينة لم تكن تحمل ما يكفي من المخيّلة لتدرك مدى الحقد الذي كانت تخلقه. من الصعب أن نصدّق ذلك، ولكنه لم يكن في الحقيقة يتخذ سوى إجراءات احتياطية قليلة لضمان سلامته. في افتتاحية إحدى الصحف الحكومية الشهيرة صرح مرّة أن «فكرة الحرية لم توجد أبداً في قانون الخالق. ومن العدد الوافر من نصائح البشر لم يخرج أي شيء عدا التمرّد والفوضى؛ والتمرد والفوضى في عالم خُلِق للطاعة والاستقرار، عبارة عن إثم. لم يكن العقل إنما السلطة هي المعبِّر عن القصد الرباني. الرب هو الحاكم الفرد للكون...». قد يكون الشخص الذي أدلى بهذا التصريح يؤمن بأن السماء نفسها ملزمة بحمايته خلال دفاعه الذي لا يستكين عن سلطة الحكم الفرد على هذه الأرض.

لا شكّ أن يقظة الشرطة قد أنقذته مرات عديدة، ولكنه حين لاقى مصيره المحتوم فإن السلطات المختصة لم تكن قادرة على إعطائه أي تحذير. لم تكن على معرفة بوجود أية مؤامرة ضد حياة الوزير، وليس لديها أي تلميح إلى وجود أية خطة عبر قنواتها العادية للمعلومات، ولم تر أية إشارات، ولا هي لاحظت وجود أي حركات تدعو إلى الشك يقوم بها أشخاص خطرون.

Twitter: @ketab_n

كان «السيد دو بـ...» متجهاً إلى محطة سكك الحديد في عربة جليد دون غطاء ومعه خادم وحوذي جالسان على الصندوق. كان الثلج قد هطل طوال الليل مما جعل الطريق غير واضحة بعد في مثل هذه الساعة المبكرة، وثقيلة جداً على الحصانين. كان الثلج لا يزال يهطل بكثافة ولكن لا بدّ وأن العربة روقبت وجرى تعليمها. وحين سارت نحو اليسار قبل أن تقوم بالدوران حول أحد المنعطفات لاحظ الخادم فلاّحاً يسير ببطء على حافة الرصيف ويداه في جيبي معطفه المصنوع من جلد الخروف وكتفاه مرفوعتان حتى أذنيه تحت الثلج المنهمر. ولدى اللحاق بهذا الفلاح وإدراكه، واجههم هذا فجأة ولوّح بذراعه. وخلال لحظة كانت هناك صدمة رهيبة، وسمع انفجار مكتوم ضمن كميات الثلج الهائلة؛ وقد تمدّد كلا الحصانين على الأرض ميتين مقطّعي الأوصال بينما كان الحوذي قد سقط بصرخة حادة من على الصندوق وقد أصيب بجراح مميتة، أما الخادم (الذي نجا) فلم يتح له الوقت الكافي لرؤية وجه الرجل المرتدي معطف جلد الخروف. بعد إلقاء القنبلة ابتعد هذا الأخير عن المكان، ولكن يُعتقد أنه حين رأى الناس يندفعون بكثرة من كل الجوانب باتجاهه، تحت الثلج المنهمر، والكل يعدو نحوْ مشهد الانفجار، ظنّ أنه من الأسلم له أن يعود معهم.

وخلال وقت قصير جداً إلى حد لا يصدّق تجمّعت جمهرة مستثارة من الناس حول العربة، خرج الوزير /الرئيس دون أن يصاب بأذى من الثلج العميق، ووقف فوق الحوذي الآخذ بالأنين وخاطب الناس مرات عديدة بصوته الضعيف الذي لا طابع له: «أرجوكم أن تبتعدوا. حبّاً بالله، أرجوكم أيها الناس الطيبون أن تبتعدوا.».

عندها تقدم شاب طويل كان قد بقي واقفاً داخل مدخل للعربات واقع على بعد بنايتين، تقدم إلى الشارع بسرعة ورمى قنبلة أخرى من فوق رؤوس الجمهرة. وقد أصابت بالفعل الوزير - الرئيس في كتفه

Twitter: @ketab_n

وهو ينحني فوق خادمه المحتضر، ثم سقطت بين قدميه وانفجرت بقوة مركّزة هائلة، فرمته ميتاً على الأرض وأجهزت على الرجل المحتضر ودمرت العربة الفارغة في لمحة عين. وبصرخة رعب تفرّق الناس وهربوا في كل الاتجاهات باستثناء أولئك الذين سقطوا ميتين أو متضررين في المكان الذي كانوا يقفون فيه كأقرب ما يكون إلى الوزير- الرئيس؛ واحد أو اثنان آخران لم يسقطا إلاّ بعد أن ركضا قليلاً.

كان الانفجار الأول قد جمع حشداً كأنما بفعل السحر، ولكن الثاني خلق عزلة في الشوارع لمسافة مئات الأمتار في كل اتجاه. وخلال الثلج المنهمر كان الناس ينظرون من بعيد إلى الكومة الصغيرة من الأجساد الميتة الممدّدة واحدها فوق الآخر قرب جثتي الحصانين الميتين. لم يتجرأ أحد على الاقتراب حتى أسرع بعض القوزاق من دورية أحد الشوارع، ونزلوا عن جيادهم وبدأوا يقلّبون الموتى. كان بين الضحايا الأبرياء للانفجار الثاني، والذين كانت جثثهم ممددة على الرصيف، جثة ذلك الرجل المرتدي لمعطف جلد الخروف الفلاّحي؛ ولكن وجهه كان غير ممكن تمييزه، كما لم يجدوا أي شيء في جيوب ملابسه البسيطة. كان الشخص الوحيد الذي لم يتم التعرّف على شخصيته.

في ذلك اليوم نهض السيد رازوموف في الساعة المعتادة وأمضى الصباح داخل أبنية الجامعة وهو يستمع إلى المحاضرات ويعمل لبعض الوقت في المكتبة. وقد سمع أول إشاعة غامضة عن شيء حدث يتعلّق بإلقاء قنبلة، وهو جالس إلى طاولة مطعم الطلبة حيث اعتاد أن يتناول وجبة الساعة الثانية. ولكن هذه الإشاعة كانت مؤلفة من همسات مجرّدة، وهكذا هي روسيا، حيث لم يكن دائماً أمراً مأموناً، وخاصة بالنسبة إلى طالب، أن يظهر الكثير من الاهتمام في أنواع معينة من الهمسات. كان رازوموف وحداً من أولئك الرجال

Twitter: @ketab_n

الذين - إذ كانوا يعيشون فترة عدم استقرار عقلي وسياسي - يواظبون على ممارسة حياة عادية عملية.كان مدركاً للتوتّر العاطفي السائد في زمانه؛ بل أنه استجاب له بأسلوب غير محدّد. ولكن اهتمامه الأساسي كان عمله ودراسته ومستقبله.

كان رسمياً وفي الواقع بلا أسرة (فابنة كبير القساوسة كانت قد ماتت منذ زمن بعيد)، ولم تكن هناك أية تأثيرات بيتية شكّلت أفكاره أو مشاعره. كان وحيداً في هذا العالم كشخص يسبح في بحر عميق. كانت كلمة (رازوموف) مجرد بطاقة تعريف للفرد الوحيد. لم يكن هناك أي أقرباء من عائلة رازوموف في أي مكان. كان أقرب نسب إليه محدّد في البيان هو أنه روسيّ، وأي خير كان سيتوقعه من الحياة كان سيعزّز آماله أو يحبطها من خلال تلك العلاقة فحسب. هذا النسب الضخم كان يعاني من آلام الخلافات الداخلية، وقد كان ينفر ذهنياً من هذا النزاع كما قد ينفر رجل دمث من الانحياز إلى هذا الجانب أو الآخر في نزاع عائلي عنيف.

بينما كان رازوموف في طريقه إلى البيت راح يفكّر في أنه طالما جهّز كل المسائل الخاصة بالامتحان القادم، فإنه يستطيع الآن أن يكرّس وقته لموضوع المقالة ذات الجائزة. كان يتوق إلى الميدالية الفضية. وهذه الجائزة كانت مطروحة من قبل وزارة التعليم؛ وكانت أسماء المتنافسين ستقدم إلى الوزير نفسه. إن حقيقة المحاولة بحد ذاتها ستعتبر أمراً جديراً بالتقدير في الأوساط العليا؛ وكان رابح الجائزة سينال حقّ التعيين الإداري في وظيفة من النوع الأفضل وذلك بعد أن ينال درجته الجامعية. لقد نسي الطالب رازوموف في نوبة من الابتهاج المخاطر التي تهدّد استقرار المؤسسات التي تمنح الجوائز والوظائف. ولكنه إذ تذكّر حامل الوسام في العام السابق، وهو الشاب الذي لا نسب له، صحا فجأة. لقد حدث أن اجتمع هو وآخرون في

Twitter: @ketab_n

غرفة أحد الرفاق في ذلك الوقت بالـذات حـين اسـتلم هـذا الإشـعار الرسمي بنجاحه. كان شاباً هادئاً متواضعاً: قال بابتسامة اعتذارية وهـو يتناول قبعته: «اعذروني سأخرج لأطلب بعض النبيذ. ولكن علـيّ أوّلاً أن أرسل برقية إلى أهلي في البيـت. مـا رأيكـم؟ ألـن يحتفـل والـداي العجوزان ويولما للجيران على مسافة تمتدّ عشرين ميلاً من منزلنا؟»

فكّر رازوموف في أنه لن يكون له مثل هذا النوع من الاحتفال في أي مكان في العالم. سيكون نجاحه أمراً لا يهمّ أحداً. ولكنـه لم يـشعر بأية مرارة ضد النبيل حاميه الذي لم يكن قطباً محلياً كما كان مفترضـاً عموماً، بل كان في الواقع شخصاً لا يقل منزلة عـن «الأمـير كــ...»، الذي سبق له وكان شخصية عظيمة ورائعة في هـذا العـالم. أمـا الآن، وقد انقضى عصره الذهبي، فهو عضو مجلس شيوخ ومريض مـصاب بالنقرس، يعيش بأسلوب لا يزال فخماً وإن كان أكثر التـصاقاً بالحيـاة المنزليـة. كـان لديـه بعـض الأولاد صـغيري الـسن وزوجـة شـديدة الأرستقراطية والاعتداد بالنفس بقدر ما كان هو بالضبط.

خلال حياته كلها لم يُسمح لرازوموف أن يحتكّ شخصياً بـالأمير سوى مرة واحدة.

وكان لذلك اللقـاء جـوّ الاجتمـاع بالـصدفة، وذلـك في مكتـب المحامي الضئيل الحجم. ففي أحد الأيـام جـاء رازومـوف بنـاء علـى موعد إلى مكتب المحامي ليجـد رجـلاً غريبـاً واقفـاً هنـاك: شخـصية طويلة القامة، أرستقراطية الهيئة، لها شاربان خـديّان شـائبان أزغبـان. قال المحامي، وهو الرجل الضئيل البارع الأصلع: «ادخل، ادخـل يـا سيد رازوموف»، وذلك بنـوع مـن الحماسـة الـساخرة. ثم التفـت إلى الشخص الغريب ذي الهيئة المهيبـة بـاحترام وقـال: «شـاب موضـوع تحت وصايتي يا صاحب السعادة، واحد من أفضل الطلاّب الواعـدين في كلّيته في جامعة سانت بطرسبورغ».

Twitter: @ketab_n

وأمام دهشة رازوموف العظيمة رأى يداً بيضاء جميلة تمتدّ نحوه. أخذها وهو في حالة من الاضطراب العظيم (كانت اليد طرية وسلبية) وسمع في الوقت نفسه همهمة متعطّفة استطاع أن يلتقط منها كلمتين فحسب: «جيد» و«واظب». ولكن أكثر الأمور إدهاشاً كان إحساسه فجأة بضغط واضح من اليد البيضاء الجميلة قبل أن تُسحب: ضغط خفيف كإشارة سرية، كان رد فعل رازوموف على هذا رهيباً، فقد بدا قلبه وكأنه سيقفز إلى حلقه. وحين رفع عينيه كانت الشخصية الأرستقراطية تشير جانباً إلى المحامي الضئيل الحجم وتفتح الباب وتخرج.

نقّب المحامي في الأوراق التي على مكتبه لبعض الوقت. ثم سأل فجأة: «هل تعرف من هو هذا؟».

هزّ رازوموف رأسه في صمت بينما راح قلبه يخفق بقوة.

- إنه «الأمير كـ...». لا شك أنك تتساءل عن سبب وجوده في جحر جرذ قانوني فقير مثلي، أليس كذلك؟ هؤلاء الناس العظام جداً لهم أطوار عاطفية غريبة شأنهم شأن الخاطئين العديدين.

ثم استأنف وهو ينظر نظرة خبيثة ويشدّد على اسم الأب:

- ولكني لو كنت مكانك يا كيريلو سيدوروفيتش لما كنت سأتفاخر علناً بهذا اللقاء. لن يكون في ذلك أي حكمة يا كيريلو سيدوروفيتش. كلا يا عزيزي كلا! سيكون في ذلك خطر على مستقبلك في الواقع.

احمرّت أذنا الشاب أشد الاحمرار وأصابت نظره غشاوة. كان رازوموف يقول لنفسه: «ذلك الرجل إذن! هو!».

ومنذ ذلك الحين أصبح السيد رازوموف يشير بينه وبين نفسه إلى ذلك الرجل ذي الشاربين الخديين الأشيبين بذلك المقطع الأحادي: «هو». ومنذ ذلك الحين أيضاً أصبح حين يمشي في الأحياء الأكثر

Twitter: @ketab_n

رقياً يلاحظ باهتمام الجياد والعربات العظيمة التي نقش على صندوقها شعار «الأمـير كــ...». ومـرة رأى الأمـيرة خارجـة- كانـت تتسوّق - وتتبعها فتاتان إحداهما أطول بكثير من الأخرى. كان شعرهما الأشقر مدلّى بحرية فوق ظهريهما وفق الأسلوب الإنكليزي؛ وكانـت لهمـا عيون مرحة. كان معطفاهما وغطاءا أيديهما المصنوعان من الفرو متشابهة تماماً، وكانت خدودهما وأنفاهما قد قرصها البرد فاكتسبت اللون الوردي البهيج. عبرن الرصيف أمامه بينما استأنف رازوموف طريقه وهو يبتسم بخجل في نفسه. إنهما ابنتا «هـو»، وهما تشبهان «هو». أحسّ الشاب بوهج المودة تجاه هاتين الفتاتين اللتين لـن تعلما بوجوده أبداً. لا شك أنهما ستتزوجان من جنرالين أو شخصين من آل «كـامرهر» وتنجبان بنات وأولاداً ربما سيكونون على علم به كبروفسور عجوز شهير، حامل للأوسمة، وربما كعضو في المجلس الاستشاري، أحد أمجاد روسيا.. لا شيء أكثر من ذلك!

ولكن البروفسور الشهير شخص ذو اعتبار. ستحوّل شهرته اسم رازوموف إلى اسم محترم. لم يكن هناك ما هو غريب في رغبة الطالب رازوموف في أن يكون متميزاً وذا اعتبار. إن حياة الإنسان الحقيقية هي تلك التي تُضفى عليه في أذهان الناس الآخرين بسبب الاحترام أو الحب الطبيعي. خلال العودة إلى البيت في ذلك اليوم الذي جرى فيه اغتيال «السيد دو بـ....» قرر رازوموف أن يبذل جهده لنيل الوسام الفضي.

وبينما كان يصعد المجموعات الأربع من الدرج المعتم القذر في المبنى الذي يسكن فيه، أحسّ بثقة النجاح. سيُنشر اسم الرابح في صحف يوم رأس السنة الجديدة. وقد توقّف رازوموف للحظة حين فكّر أن «هو» سيقرأ على الأرجح اسمه فيها، ثم استأنف الصعود وهو يبتسم لانفعاله. قال لنفسه: «هذا مجرد خيال ولكن الوسام سيكون بداية راسخة».

Twitter: @ketab_n

وبتلك الأفكار المتعلقة بالمثابرة في رأسه كان دفء غرفته مقبولاً ومشجّعاً. فكّر: «سأعمل أربع سعات بجد.» ولكنه ما أن أغلق الباب حتى أجفل على نحو مروّع. فقد كان هناك شخص غريب يقف أسود تماماً أمام المدفأة العالية المألوفة المبنية من البلاط الأبيض المتوهّجة في نور الغسق، وكان هذا الشخص يرتدي معطفاً ضيقاً من القماش البني اللون وله حاشية من الوسط إلى الأسفل، كما كان مزنّراً حول الخصر، ويرتدي جزمة طويلة وقبعة صغيرة من فرو الأستراخال على رأسه. لاح رشيقاً وذا كيان مادي. كان رازوموف مذهولاً تماماً. ولم يستعد قدرته على النطق إلاّ حين تقدّم الشخص خطوتين وسأل بصوت جدّي لا أثر للاضطراب فيه إن كان الباب الخارجي موصداً.

ـ هالدين!... فيكتور فيكتوروفيتش!... هل هو أنت؟... أجل الباب الخارجي موصد، ولكن هذا غير متوقع بالفعل.

لم يكن فيكتور هالدن، وهو طالب أكبر سناً من كل زملائه في الجامعة، واحداً من الطلاّب المجدّين. ما كان يُرى في المحاضرات إلاّ ما ندر، وكانت السلطات قد وسمته بصفتين: «القلق» و«الفساد»، وهما صفتان سيئتان جداً. ولكن كان له احترام شخصي كبير لدى رفاقه وكان له تأثير على أفكارهم. لم يكن رازوموف على صلة حميمة به أبداً. كانا يتقابلان بين الحين والآخر في التجمّعات التي تجري في منازل الطلاّب الآخرين. بل تناقشا مرّة معاً نقاشاً حول المبادئ الأولى العزيزة على عقول الشباب المتفائل.

تمنّى رازوموف لون أن الرجل قد اختار وقتاً آخر للمحادثة. كان يشعر بنفسه مهيّئاً لمعالجة المقالة ذات الجائزة. ولكن بما أن هالدين لم يكن شخصاً يمكن صرفه بسهولة فقد اتخذ رازوموف لهجة الضيافة وطلب منه أن يجلس ويدخّن.

Twitter: @ketab_n

قال الآخر وهو يرمي بقبعته بقوة:

ـ يا كيريلو سيدوروفيتش، لسنا على الأرجح في معسكر واحد. إن حكمك على الأمور أكثر فلسفية. أنت رجل قليل الكلام ولكني لم أقابل شخصاً تجرّأ على الشكّ في كرم مشاعرك. هناك متانة في شخصيتك لا يمكن أن توجد دون شجاعة.

أحسّ رازوموف بالإطراء وبدأ يهمهم بخجل بشيء ما حول سعادته في أن يكون له هذا الرأي الجيد به، وذلك حين رفع هالدين يده.

استأنف قائلاً:

ـ هذا ما كنت أقوله في نفسي وأنا أسير جيئة وذهاباً في فناء مخزن الخشب قرب النهر: «هذا الشاب يتمتع بشخصية قوية.» هذا ما كنت أقوله في نفسي. «إنه لا يرمي بروحه إلى الرياح.» لقد فتنني تحفّظك دائماً يا كيريلو سيدوروفيتش. لذلك حاولت أن أتذكّر عنوانك. ولكن انتبه إليّ: كان ذلك مجرد حظ. كان بوّاب بنايتك بعيداً عن البوابة يحادث سائق عربة جليد على الطرف الآخر من الشارع. لم أقابل أي شخص على الدرج، ولا شخصاً واحداً. وحين صعدت إلى طابقك شاهدت صاحبة المنزل تخرج من غرفتك. ولكنها لم ترني. لقد عبرتْ من بابك إلى بابها وعندها تسلّلتُ داخلاً. أنا أنتظرك هنا منذ ساعتين على أمل أن تصل في أية لحظة.

كان رازوموف يصغي مندهشاً، ولكنه قبل أن يفتح فمه أضاف هالدين بتعمّد:

ـ أنا من قتل «دو بـ....» هذا الصباح.

كتم رازوموف صرخة رعب. لقد عبّرت فكرة أن حياته قد دُمِّرت تماماً بسبب هذه الصلة مع مثل هذه الجريمة، عبَّرت عن نفسها بغرابة، بنوع من الصرخة الذهنية نصف الساخرة: «ها قد ولّى وسامي الفضّي!».

Twitter: @ketab_n

استأنف هالدين بعد أن انتظر قليلاً فقال:

ـ أنت لا تقول شيئاً يا كيريلو سيدوروفيتش. والواقع أني لا أستطيع أن أتوقع منك بأسلوبك الإنكليزي البارد أن تعانقني. ولكن لا بأس الآن بأسلوبك. لديك قلب كبير بحيث أنك لا شكّ سمعت صوت البكاء وصرير الأسنان اللذين أثارهما هذا الشخص في البلاد. في هذا ما يكفي لتجاوز أية آمال فلسفية. كان يقتلع النبتة الطرية من جذورها. كان لا بدّ من إيقافه عند حدّه. كان رجلاً خطراً... رجلاً ذا قناعة. كان من شأن ثلاثة أعوام أخرى من الجهد الذي يبذله أن تعيدنا خمسين عاماً إلى عالم الرقّ.... وانظر إلى كل تلك الحيوات التي ستضيع وكل تل الأرواح التي ستُنْقذ خلال تلك الفترة.

وفجأة فقد صوته الأجش الواثق من نفسه رنّته وأضاف بلهجة فاترة:

ـ أجل يا أخي، قتلتُه. إنه لعمل مضن.

كان رازوموف قد غرق في أحد الكراسي، وكان يتوقع في كل لحظة أن تقتحم جمهرة من الشرطة المكان. لا شكّ أن هناك آلافاً منهم في الخارج يبحثون عن ذلك الرجل الذي يذرع غرفته جيئة وذهاباً الآن. كان هالدين قد عاد ليتحدث مرة أخرى بصوت منضبط وثابت. بين الحين والآخر كان يلوّح بذراعه ببطء ودون استثارة.

حكى لرازوموف كيف فكّر لمدة عام كامل وكيف أنه لم ينم كما يجب منذ أسابيع. كان لديه ولدى «آخر» معلومات عن تحركات الوزير من «شخص معيّن» في الليلة الماضية. وقد قام هو و«الآخر» بتحضير «آلتيهما» وقررا ألاّ يناما حتى يتم «العمل». لقد سارا في الشوارع تحت الثلج المنهمر ومعهما «الآلتان». ولم يتبادلا كلمة واحدة طوال الليل كله. وحين كان يصدف أن يريا دورية شرطة كان كل منهما يأخذ الآخر

Twitter: @ketab_n

من ذراعه ويتظاهران بأنهما فلاّحان ثملان ثم يترنّحان ويتحدّثان بصوت أجش سكير. وباستثناء تلك العربدات الغريبة كنا يبقيان صامتين، وهما يتحركان دون توقف. كان قد تمّ إعداد خطتهما مسبقاً. وعند الفجر سارا نحو البقعة التي كانا يعرفان أن العربة ستمرّ بها. وحين ظهرت تبادلا الوداع بغمغمة ثم انفصلا. بقي «الآخر» عند الزاوية، بينما اتخذ هالدين موقعاً أبعد بقليل على امتداد الشارع.

بعد أن رمى بـ «آلته» أسرع يبتعد ولكن سرعان ما كانت جمهرة من الناس المذعورين الذين راحوا يهربون من المنطقة بعد الانفجار الثاني قد أدركته. كانوا مجانين من الذعر. لقد دُفع بخشونة مرة أو مرتين. ثم أبطأ قليلاً حتى تتجاوزه الجمهرة المندفعة وانعطف نحو اليسار في شارع ضيّق. وهناك وجد نفسه وحيداً.

كان يتعجب من هذا الهرب المباشر. لقد أنجز العمل. ما كان قادراً على تصديق ذلك. ثم راح يصارع رغبة لا تقاوم في التمدّد على الرصيف والاستغراق في النوم. ولكن مثل هذا الشعور بالإعياء - الإعياء الوسنان - سرعان ما غادره. مشى بسرعة أكبر وهو يتجه نحو واحد من الأحياء الفقيرة في المدينة لكي يبحث عن زيميانيتش.

وقد فهم رازوموف أن زيميانيتش هذا كان فلاّحاً من سكان المدينة أحرز بعض النجاح. كان يملك عدداً صغيراً من عربات الجليد والجياد المخصصة للاستئجار. توقف هالدين عن سرد حكايته ليصيح:

- روح نيّرة! روح جريئة! أفضل سائق في سانت بطرسبورغ. لديه طقم من ثلاثة جياد هناك... آه! يا له من رجل!

لقد أبدى هذا الرجل استعداده لأخذ شخص أو شخصين إلى المحطة الثانية أو الثالثة للسكة الحديد على أحد الخطوط الجنوبية، وذلك في أي وقت من الأوقات، على أن يوصلهما بأمان إلى هناك،

Twitter: @ketab_n

ولكن لم تتح له الفرصة لإبلاغه بذلك في الليلة السابقة. كان يتردّد عادة على مطعم رخيص يقع في ضواحي المدينة. حين وصل هالدين إلى هناك لم يكن الشخص موجوداً، وما كان متوقعاً وصوله قبل المساء. وهكذا راح هالدين يتجول على غير هدى.

ثم رأى باب فناء مخزن الخشب مفتوحاً ودخل ليحتمي من الريح التي كانت تجتاح الشارع العريض المكشوف. كانت الأكوام الضخمة المستطيلة من الخشب المقطوع المغطاة بالثلج الكثيف تماثل أكواخ القرية. في البداية تحدث إليه الحارس الذي وجده مقرفصاً بينها بأسلوب ودّي. كان رجلاً عجوزاً أعجف يرتدي معطفين عسكريين مهترئين الواحد منهما فوق الآخر، وكان وجهه الذاوي الصغير مربوطاً تحت الفكّ وفوق الأذنين بمنديل أحمر قذر يبدو مضحكاً. ثم تجهّم فجأة وراح يصيح بجنون دون نظام أو منطق:

ـ ألن تخرج من هنا أبداً أيها المتسكّع؟ نعرف كلّ شيء عنكم يا عمّال المصانع. شاب ضخم وقويّ! لست ثملاً حتى. ما الذي تريده هنا؟ أنت لا تخيفنا. هيا خذ ذاتك وعينيك القبيحتين وارحل عنّا.

توقّف هالدين أمام رازوموف الجالس. كان جسده الرشيق والجبين الأبيض الذي كان الشعر الأشقر ينتصب فوقه مباشرة يتمتعان بمظهر الجرأة الشامخة.

قال:

ـ لم تعجبه عيناي. وهكذا... تراني هنا.

بذل رازوموف جهداً ليتكلّم بلهجة هادئة:

ـ اعذرني يا فيكتور فيكتوروفيتش. نحن لا نعرف بعضنا إلاّ قليلاً جداً... لا أعرف لماذا...؟

Twitter: @ketab_n

قال هالدين:

ـ إنها الثقة.

هذه الكلمة ختمت شفتي رازوموف كأنما صُفع على فمه. كان عقله يتأجّج بالجدالات.

همهم من بين أسنانه:

ـ وهكذا ... أراك هنا.

لم يلحظ الآخر لهجة الغضب. لم يشك بوجودها حتى.

ـ نعم. ولا أحد يعرف بوجودي هنا. أنت آخر شخص يمكن أن يكون موضع الريبة... هذا إذا ما قبض عليّ. وهذه ميّزة كما ترى. كما أني إذا أخاطب عقلاً متفوّقاً مثل عقلك أستطيع أن أقول كل الحقيقة. لقد خطر لي أنك... أنه ليس لك أي شخص ينتمي إليك... لا روابط، لا أحد يعاني لو حدث وانكشف هذا الأمر بوسيلة ما أو بأخرى. هناك ما يكفي من البيوت الروسية المهدّمة. ولكني لا أعرف كيف يمكن لتسلّلي إلى غرفتك أن يُعرف. ولو أُلقي القبض عليّ فسأعرف كيف أبقى صامتاً... مهما فعلوا بي.

وقد أضاف هذه الجملة الأخيرة متجهّماً.

بدأ يمشي من جديد بينما جلس رازوموف ساكناً مروّعاً.

قال متلعثماً وهو يشعر بالغثيان من شدة السخط:

ـ ظننت أن...

ـ أجل رازوموف. أجل يا أخي. يوماً ما ستساهم في البناء. أنت تفترض أني إرهابيّ الآن... مدمِّر لما هو كائن. ولكن عليك أن تعتبر أن المخربين الحقيقيين هم أولئك الذين يخربون روح التقدم والحقيقة، وليس المنتقمين الذين يقومون بمجرد قتل أجساد

Twitter: @ketab_n

مضطهدي الكرامة الإنسانية. الأشخاص من أمثالي ضروريون لإفساح المجالِ أمام أشخاص مفكّرين يتمتعون بضبط النفس من أمثالك. حسناً، لقد ضحينا بأرواحنا ولكني أودّ أيضاً أن أنجو لو أتيح لي ذلك. إني لا أريد إنقاذ حياتي بالذات، ولكن قدرتي على الفعل. لا ترتكب أي خطأ يا رازوموف. الرجال من أمثالي نادرون. وعلاوة على ذلك فإن مثلاً كهذا أكثر إثارة لرعب الظالمين حين يختفي مرتكب الفعل دون أي أثر. إنهم يجلسون في مكاتبهم وقصورهم ويرتعدون. كل ما أريده منك هو أن تساعدني على الاختفاء. وهذه ليست مسألة صعبة. كل ما عليك أن تقوم به هو أن تذهب لترى زيميانيتش في ذلك المكان الذي ذهبت إليه في الصباح وتقول له: «ذاك الذي تعرفه يريد عربة جليد جيدة الأحصنة تتوقف بعد منتصف الليل بنصف ساعة عند عمود الإنارة السابع على اليسار انطلاقاً من النهاية العلوية من شارع كارابيلنايا. وإذا لم يدخل أحد إلى العربة فإن عليها أن تدور حول المكان قليلاً ثم تعود إلى البقعة نفسها بعد عشر دقائق».

تعجّب رازوموف من عدم مقاطعته لذلك الحديث وأنه.لم يقل لهذا الرجل أن ينصرف منذ مدة طويلة. أهو ضعف أم ماذا؟

وقد استنتج أن غريزته كانت على صواب. لا بد وأن أحداً ما رأى هالدين. من المستحيل ألاّ يكون بعض الناس قد لاحظوا وجه ومظهر الرجل الذي ألقى القنبلة الثانية. كان هالدين شخصاً لافتاً للنظر. لا بد وأن لدى الآلاف من رجال الشرطة أوصافه الآن. ومع مرور كل لحظة كان الخطر يتعاظم. وبما أنه سيخرج ليتجوّل في الشوارع فلن يستطيع الإفلات في النهاية.

سرعان ما ستعرف الشرطة كل شيء عنه. ثم ستنتشر إشاعة عن اكتشافها لمؤامرة. كل من سبق وعرف هالدين على الإطلاق سيكون

Twitter: @ketab_n

في خطر عظيم. التعابير غير الحذرة، الحقائق الصغيرة البريئة بحد ذاتها، ستعتبر جرائم. تذكّر رازوموف كلمات معيّنة سبق له أن قالها والخطابات التي استمع إليها والاجتماعات البريئة التي حضرها... كان مستحيلاً على أي طالب أن يبتعد عن ذلك النوع من الأمور دون أن يصبح مشكوكاً فيه من قبل زملائه.

رأى رازوموف نفسه سجيناً في قلعة، قلقاً، متضايقاً على نحو متواصل، وربما في حالة من سوء المعاملة. رأى نفسه منفيّاً بأمر إداري، حياته محطّمة، مدمّرة ودون أي أمل. رأى نفسه - في أفضل الحالات - يعيش حياة بائسة تحت مراقبة الشرطة، في بلدة صغيرة بعيدة في المقاطعات، دون أصدقاء يساعدونه في حاجاته الأساسية أو يمدّون له يد العون حتى، وذلك لمواساته في مصيره البائس... كما يحدث للآخرين. للآخرين أمهات وآباء وأقرباء وعلاقات، وفي وسع هؤلاء أن يقيموا السماء والأرض ويقعدوها من أجلهم... أما هو فليس له أحد. والموظفون الذين سيحكمون عليه في الصباح سينسون أنه موجود قبل غروب الشمس.

رأى شبابه يهرب منه في بؤس وجوع... وقوته تنهار، وعقله وقد أصبح فارغاً. رأى نفسه يزحف، محطّماً رثّ الملابس، في الشوارع، محتضراً، وحيداً في جحر قذر هو غرفته، أو على سرير وسخ في مستشفى حكومي.

ارتعد. ثم حلّ عليه سلام الهدوء المرّ. الأفضل أن يبقي هذا الرجل بعيداً عن الشوارع حتى يستطيع التخلّص منه بفرصة من فرص النجاة. كان ذلك أفضل شيء يمكنه فعله. أحسّ رازوموف طبعاً بأنّ أمان حياته الوحدانية سيكون في موضع الخطر الدائم. يمكن لحوادث هذا المساء أن تنقلب ضدّه في أيّ وقت طالما كان هذا الرجل على قيد الحياة

Twitter: @ketab_n

والمؤسسات الحالية قائمة. بدت له كلها عقلانية وغير قابلة للتدمير في تلك اللحظة. بدت وكأن لها قوة الإيقاع... بالتعارض مع اللا انسجام الرهيب الذي يتصف به حضور هذا الرجل. لقد كره ذلك الرجل. قال بهدوء:

ـ أجل، بالطبع سأذهب. عليك أن تعطيني توجيهات دقيقة، أما بالنسبة للبقية فاعتمد عليّ.

ـ آه! أنت شخص رائع! رابط الجأش... بارد كخيارة انكليزية تماماً. من أين جئت بروحك هذه؟ ليس هناك كثيرون من أمثالك. انتبه إليّ يا أخي! الرجال من أمثالي لا يخلّفون أية ذرّية، ولكن أرواحهم لا تضيع. ليست هناك روح بشرية تضيع. إنها تعمل من أجل ذاتها... وإلاّ فأين معنى التضحية بالنفس، الشهادة، القناعة، الإيمان... مخاضات الروح؟ ما الذي سيحدث لروحي حين أموت بالطريقة التي عليّ أن أموت بها... عاجلاً... وربما عاجلاً جداً؟ إنها لن تفنى. لا ترتكب غلطة يا رازوموف. هذه ليست جريمة قتل... إنها حرب، حرب. ستبقى روحي تقاتل في جسد روسيّ آخر حتى يتم اجتياح كل البهتان من هذا العالم. الحضارة المعاصرة مزيفة، ولكن ستخرج من روسيا رؤيا جديدة. ها! أنت لا تقول شيئاً. أنت متشكّك. أحترم تشكّك الفلسفي يا رازوموف, ولكن لا تقرب الروح. الروح الروسية التي تعيش فينا جميعاً. إن لها مستقبلاً. لها مهمّة وأؤكد لك ذلك، وإلاّ لماذا اندفعت لأفعل ما فعلتُه.. بطيش... كالجزّار... في وسط كل أولئك الناس الأبرياء... ناثراً الموت... أنا! أنا!... أنا الذي لا يؤذي ذبابة!

حذّره رازوموف بشدّة:

ـ لا ترفع صوتك إلى هذا الحد!

جلس هالدين على نحو مفاجئ، ثم مال برأسه على ذراعيه المطويتين وانفجر بالبكاء. بكى لفترة طويلة. كان الغسق قد تعمّق في

Twitter: @ketab_n

الغرفة. وقد راح رازوموف يصغي إلى نشيج الآخر دون حراك وفي حالة من العجب الممزوج بالكآبة.

رفع الآخر رأسه ونهض، وسيطر على صوته بعد جهد. ثم كرّر بلهجة ملطّفة:

ـ أجل، الرجال من أمثالي لا يخلفون أية ذرية، ولكن لديّ أخت على أية حال. إنها مع أمي العجوز، لقد أقنعتهما بالرحيل إلى خارج البلاد هذا العام والحمد لله. ليست فتة صغيرة شريرة أختي تلك. إن لها عينان هما أكثر عينين تحملان الثقة في هذا العالم كلّه قديماً وحديثاً. وآمل أنها ستتزوج زيجة جيدة. وقد تنجب أولاداً... ذكوراً ربما. انظر إلي! كان أبي موظفاً حكومياً في المقاطعات. كانت لديه قطعة أرض صغيرة أيضاً. خادم بسيط من خدم الرب... كان روسياً حقيقياً. كانت روحه هي روح الطاعة. ولكنني لست مثله. يقولون أني أشبه خالي الأكبر، وكان هذا ضابطاً. وقد قتلوه بالرصاص عام (1828) أبّان حكم نيكولاس كما تعرف[1]. أو لم أقل ذلك إنها حرب، حرب...؟ ولكن الرب عادل! هذا عمل مضن.

قال رازوموف وهو يتكئ برأسه على يده، وكأنه يتحدّث من قعر هوّة:

ـ أتؤمن بالله يا هالدين؟

ـ ها أنت تحاول اصطياد الكلمات التي تنتزع مني عنوة. وما يهمّ ذلك؟ ما الذي قاله ذلك الرجل الإنكليزي: «هناك روح مقدّسة في الأشياء...» ليأخذه الشيطان.. لا أتذكر ذلك جيداً الآن. ولكنه نطق

---

(1) يعني هنا نيكولاس الأول قيصر روسيا بين عامي (1825 ـ 1855) الذي سحق انتفاضة الديسمبريين وحكم بالحديد والنار. أما نيكولاس الثاني فهو آخر القاصرة الروس. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

بالحقيقة. حين يأتي يومكم أيها المفكرون لا تنسوا ما هو مقدّس في الروح الروسية... ألا وهو الإذعان. احترموا ذلك في قلقكم الفكري ولا تدعوا حكمتكم الوقحة تفسد رسالتها إلى العالم. أخاطبكم الآن كرجل محاط عنقه بحبل. من تتصوّرني؟ كائناً متمرداً؟ لا. أنتم أيها المفكرون هم المتمردون على نحو أبدي. أنا واحد من الذاعنين. حين وصلت ضرورة هذا العمل المضني إليّ وفهمت أنه لا بدّ من فعله... ما الذي فعلته؟ هل ابتهجت؟ هل افتخرت بمقصدي؟ هل حاولت أن أزن قيمته ونتائجه؟ لا! لقد كنت مذعناً. لقد فكّرت قائلاً: «إنها إرادة الله ولا بد من إنجازها.»

ألقى بنفسه بكامل طوله على سرير رازوموف ثم وضع ظهري يديه فوق عينيه وبقي دون حراك وصامتاً تماماً. ولا حتى صوت تنفسه كان مسموعاً. وهكذا بقي سكون الغرفة الميت دون أي تعكير حتى قال رازوموف في الظلمة بصوت كئيب:

ـ يا هالدين.

ـ نعم.

هكذا أجاب الآخر فوراً، وقد أصبح الآن غير مرئي في السرير، ودون أن يتحرك.

ـ ألم يحن وقت ذهابي؟

ـ أجل يا أخي.

هذا ما سمع الآخر يقوله وهو متمدد هناك في صمت الظلمة وكأنه يتحدث في نومه.

ـ لقد حان وقت اختبار القدر.

صمت، ثم قدّم توجيهات قليلة واضحة بالصوت الهادئ المجرّد

Twitter: @ketab_n

لشخص في غشية. جهّز رازوموف نفسه للخروج دون أن يتلفّظ بكلمة واحدة كجواب. وبينما كان يغادر الغرفة قال له الصوت من السرير:

ـ اذهب وليكن الله معك أيتها الروح الصامتة.

وفي الفسحة أمام الباب أقفل رازوموف الباب. وهو يتحرك بخفّة، ووضع المفتاح في جيبه.

ثانياً:

لا بد أن كلمات وحوادث ذلك المساء قد انحفرت كأنما بأداة فولاذية في ذهن السيد رازوموف حيث أنه كان قادراً على كتابة حكايته بكل تلك التفاصيل والدقة بعد حدوثها بأشهر عديدة.

أما سجل الأفكار التي هاجمته في الشارع فهو أكثر دقة ووفرة حتى. ويبدو أنها اندفعت نحوه بحرية أكبر لأن قدراته على التفكير لم تعد مسحوقة بحضور هالدين، ذلك الحضور المرعب لجريمة عظمى والقوة المذهلة لتعصّب هائل. ولدى النظر إلى صفحات مذكرات السيد رازوموف فإني أعترف أن عبارة «اندفاع الأفكار» ليست بالصورة الملائمة.

سيكون أكثر الأوصاف ملاءمة هو أن نصفها بـ «جلبة الأفكار».. الانعكاس الصحيح لحالة مشاعره. تلك الأفكار في حد ذاتها لم تكن عديدة.. كانت أشبه بأفكار معظم البشر، أي قليلة وبسيطة... ولكن لا يمكن إعادة صياغتها هنا في كل تكراراتها التعجبية التي استمرت في اهتياجها المتعب الذي لا نهاية له... فقد كان المشوار طويلاً.

وإذ بدت للقارئ الغربي مثيرة للصدمة وغير ملائمة أو حتى غير لائقة، فلا بد أن نتذكر أنه فيما يخص الأولى فإن هذا قد يكون من تأثير بياني الفج، أما بالنسبة للبقية فسوف ألاحظ هنا فحسب أن هذه ليست حكاية عن غرب أوروبا.

Twitter: @ketab_n

ربما قامت الأمم بتشكيل حكوماتها، ولكن الحكومات دفعت لها بالمقابل بالعملة نفسها. لا مجال للتفكير في أن يجد أي إنكليزي شاب نفسه في موضع رازوموف. وبما أن الحال هو على هو عليه فسيكون من العبث أن نتصور ما يمكن أن يفكر به هذا الشاب الإنكليزي. والظن المأمون الوحيد الذي يمكن القيام به هو أنه لا يمكن له أن يفكر كما فكر السيد رازوموف في هذه الأزمة التي كان مصيره يواجهها. لن تكون له أية معرفة موروثة وشخصية حول الوسائل التي تستعملها حكومة فردية مطلقة تاريخية بكبح الأفكار وحماية سلطتها والدفاع عن وجودها. وبواسطة مبالغة عقلية قد يتخيل نفسه وقد ألقي اعتباطياً في السجن، ولكن لن يخطر له ما لم يكن محموماً (وربما لن يخطر له ذلك ولو كان محموماً) أنه سيُضرب بالسياط كنوع من الممارسة العادية التي تجري خلال التحقيق أو كعقوبة.

هذا مجرد مثال بسيط وواضح على الشروط المختلفة للفكر الغربي. لا أعرف إن كان هذا الخطر قد مرّ بفكر السيد رازوموف خصوصاً. لا شك أنه دخل دون وعي إلى الخوف العام وحالة الترويع العام النابعين عن الأزمة. كان رازوموف، كما رأينا، مدركاً لبعض الوسائل الدقيقة التي تحطم معنويات وآمال وسمعة فرد ما عن طريق إجراءات حكومة استبدادية. الطرد من الجامعة بكل بساطة (أقل ما يمكن أن يحدث له)، مع استحالة إكماله لدراسته في مكان آخر، كان كافياً لتدمير حياة شاب، يعتمد على نحو مطلق على تطوير قدراته الطبيعية ليكون له مكان في العالم، تدميراً كاملاً. كان روسيّاً: وبالنسبة إليه فإن تورطه يعني ببساطة أن يغرق في أدنى الأعماق الاجتماعية بين اليائسين والمعوزين: خفافيش المدينة.

كانت الظروف الغريبة المحيطة بأبوة رازوموف وأصله ونسبه، أو بالأحرى افتقاره إلى كل ذلك، تلعب دوراً في أفكاره. وقد تذكرها

Twitter: @ketab_n

أيضاً، لقد سبق تذكيره بها مؤخراً بطريقة فظيعة على نحو خاص وذلك من قبل «هالدين» المميت. «ألأني لا أملك ذلك، هل يتوجب أن يؤخذ كل شيء آخر مني؟» هذا ما فكر به.

شجّع نفسه لبذل مجهود آخر للاستمرار. على امتداد الطريق كانت عربات لجليد تنزلق كالأشباح وتجلجل أجراسها عبر بياض مرفوف فوق الوجه الأسود للّيل. كان يقول لنفسه: «إنها جريمة. القتل هو القتل. رغم أن نوعاً من المؤسسات الليبرالية بالطبع...».

طغى عليه شعور بغثيان رهيب. حضّ نفسه عقلياً: «عليّ أن أكون شجاعاً». كانت قوته قد انهارت فجأة كأنها أخذت منه باليد. ثم عادت إليه بجهد إرادي هائل لأنه كان يخشى أن يغمى عليه في الشارع ثم تمسك به الشرطة ومفتاح سكنه في جيبه. وهناك ستجد هالدين وثم سيكون أمره قد انتهى بالفعل.

ويا لغرابة الأمر، قد جعله خوفه يسير حتى النهاية. كان المارة نادرين. كانوا يظهرون له فجأة، ويلوحون سوداً ضمن رقاقات الثلج قريباً منه، ثم يختفون مرة واحدة... دون وقع أقدام.

كان ذلك حياً للفقراء المدقعين. رأى رازوموف امرأة عجوزاً ملفوفة بشالات رثة. تحت نور مصباح الشارع كانت تبدو كشحادة في عطلة إذ كانت تمشي ببطء في العاصفة الثلجية وكأنه ليس لها بيت تهرع إليه، وكانت تتأبط رغيفاً مدوراً من الخبز الأسود ولها هيئة من يحرس غنيمة ذات ثمن لا يقدر، وقد أشاح عنها رازوموف بنظره وهو يحسدها على طمأنينة فكرها ورضاها بقسمتها.

إن من يقرأ حكاية رازوموف كما رواها هو سيستغرب فعلاً كيف استطاع أن يستمر في السير في شارع لا متناه إثر آخر، على أرصفة كانت تنسدّ تدريجياً بالثلج. كان التفكير في هالدين الذي أقفل عليه

Twitter: @ketab_n

باب غرفته والرغبة اليائسة في التخلص من وجوده هما اللـذان يحثانـه على التقدم. لم يكن لأي تصميم عقلاني أي دور في جهوده. وهكذا، حين وصل إلى المطعم الرخيص وسمع أن رجل الجياد زييميانيتش لم يكن هناك، كان كل ما استطاع أن يفعله هو أن يحدق بغباء.

صاح النادل، وهو شاب ذو شعر أشـعث وجزمـة مطليـة بالقـار وقمـيص قرنفلـي، كاشـفاً عـن لثـة فاتحـة اللـون بابتـسامة بلـهاء أن زييميانيتش قد سكر فترة ما بعد الظهر وأنه خرج مع زجاجة تحت كـل إبط وذلك ليواصل الشرب بين الجياد، كما يعتقد.

كان مالك هذا الوكر الوضيع، وهو رجل قصير نحيل في قفطـان قماشي متسخ يصل حتى كاحليه، يقف قريباً ويداه مدسوسـتان تحـت حزامه. وقد أومأ هذا برأسه مصدقاً علـى كـلام النـادل. كانـت رائحـة الكحول الكريهة والبخار الزنخ الشحمي للطعام قد أمسكا برازومـوف من خنّاقه. ضرب إحدى الطاولات بقبضة يده وصاح بعنف:

ـ أنت تكذب.

التفتـت وجـوه غائمـة غـير مغـسولة باتجاهـه. ابتعـد متنشرد في ملابس رثة وذو عينين رقيقتين. وكان يتناول الشاي، إلى طاولـة أبعـد. صعدت همهمة تعجب مع صـوت خفـيض معبّـر عـن الخـوف. كمـا سمعت ضحكة أيضاً وهتـاف يقـول «حـسناً! حـسناً» بلهجـة سـاخرة ملطّفة. نظر النادل فيما حوله وصاح معلناً للمكان:

ـ هذا السيد لا يصدق أن زييميايننش ثمل.

ومن زاوية بعيدة سمع صوت خشن ينتمي إلى كـائن رهيـب فـظ يصعب وصفه له وجه أسود كخطم دب، ينخر بغضب قائلاً:

ـ سائق اللصوص اللعين. ما الذي تريده من هذا السيد هنا؟ نحن جميعاً أشخاص شرفاء في هذا المكان.

Twitter: @ketab_n

لحق رازوموف بمالك الوكر وهو يعض على شفته حتى أدماها ليمنع نفسه من الانفجار منزلاً اللعنات. كان هذا قد همس له قائلاً: «تعال معي قليلاً.» وها هو يقوده الآن إلى مكان هو عبارة عن جحر صغير خلف منضدة خشبية، وحيث يغسل الكؤوس منحنياً فوق حوض خشبي على نور شمعة شحمية.

قال الرجل المرتدي للقفطان الطويل بلهجة كئيبة:

ـ أجل يا أبي الصغير.

كان له وجه أسمر خبيث ولحية خفيفة تميل إلى اللون الرمادي. راح يحاول إشعال قنديل من الصفيح كان يضمه إلى صدره ويهذر طوال الوقت.

سيقوم بجعل السيد يرى زيميانيتش ليثبت له أنه لم يكن هناك أي كذب وسيريه أيضاً أن هذا ثمل. يبدو أن زوجته قد هجرته وهربت في الليلة الماضية. «يا لها من ساحرة شمطاء! نحيلة! تفو!» ثم بصق. «كلهن كن يهربن من سائق الشيطان هذا... وهو في الستين من عمره أيضاً، ولم يستطع أن يتعوّد على ذلك. ولكن كل قلب يأسى بطريقته الخاصة، وقد ولد زيميانيتش أحمق وما يزال، وبعدها سيلجأ إلى الزجاجة. قال: «ومن يستطيع تحمل الحياة في أرضنا دون الزجاجة؟» يا له من رجل روسي حقيقي... ذلك الخنزير الصغير. «... أرجو أن تتبعني».

عبر رازوموف مساحة مربعة من الثلج العميق محاطة بجدران عالية ذات نوافذ عديدة لا تحصى. هنا وهناك كان نور أصفر غائم قد علّق داخل الكتلة المربعة من الظلمة. كان المنزل عبارة عن بيت زريّ ضخم، خلية لحشرات بشرية، مسكن تذكاري للبؤس مشرف على حافة الجوع واليأس.

Twitter: @ketab_n

عند زاوية كانت الأرض تنحدر بشدة إلى الأسفل، ولحق رازوموف نور القنديل عبر مدخل صغير إلى مكان كهفي متطاول كطريق فرعي تحت أرضي مهمل. في عمق المكان كانت ثلاثة أحصنة شعثاء صغيرة مربوطة إلى حلقات ترفع رؤوسها معاً، وكانت تبدو دون حراك ومعتمة في نور القنديل الباهت، لا بد وأنه الطقم الشهير الخاص برحلة فرار هالدين. حدق رازوموف بخوف في الظلمة. نبش مرافقه القش بقدمه.

- هاهو. آه! يا للحماقة الصغيرة. رجل روسي عن حق. إنه يقول: «لا قلوب مثقلة عندي. أخرج الزجاجة وأبعد فمك القبيح عن ناظري.» ها! ها! ها! هاهو الرجل على حقيقته.

رفع القنديل فوق شكل منبطح لرجل يرتدي ملابس الخروج. كان رأسه موضوعاً ضمن قبعة قماشية مدبّبة. على الجانب الآخر من كومة برز زوج من الأقدام من جزمة سميكة هائلة.

علّق صاحب المطعم:

- دوماً مستعد للسياقة. سائق روسي حقيقي. قديساً كان أم شيطاناً، ليلاً أم نهاراً، الكل سيان لدى زيميانيتش حين يكون قلبه متحرراً من الحزن. يقول: «لا أسألك من أنت، بل إلى أين ذاهب.» سيقود الشيطان نفسه إلى مسكنه ويعود مغنّياً إلى أحصنته. لقد ساق الكثيرين ممن يقعقعون بسلاسلهم الآن في مناجم نيرتشنيسك.

ارتعد رازوموف. ثم قال متلعثماً:

- ناد عليه، أيقظه.

وضع الآخر قنديله أرضاً، وخطا نحو الخلف ثم رفس النائم المنبطح. اهتزّ الرجل بسبب تأثير الصدمة ولكنه لم يتحرك. وعند الرفسة الثالثة نخر ولكنه بقي ساكناً كما من قبل.

Twitter: @ketab_n

كفّ صاحب المطعم عن العمل وتنهّد بعمق.

ـ ها أنت ترى بنفسك كيف هي الحال. لقد فعلنا ما بوسعنا لأجلك.

التقط القنديل من على الأرض. كانت البرامق[1] السوداء الكثيفة للظلّ تتأرجح في دائرة النور. ثم تملّكت رازوموف نوبة من الجنون الرهيب... إنه الغضب الأعمى النابع من حفظ الذات.

صرخ بلهجة لا أرضية جعلت القنديل يقفز ويرتجف:

ـ آه! يا للوحش الحقيرّ سأوقظك! أعطني... أعطني...

نظر فيما حوله بجنون، ثم أمسك بمقبض شوكة الاصطبل واندفع إلى الأمام وضرب الجسد المنبطح وهو يصرخ صرخات غير مفهومة.

وبعد فترة توقفت صرخاته وتوقف سيل الضربات في صمت وظلال الاصطبل الأشبه بالقبو. لقد كال رازوموف الضربات لزيميانيتش بجنون لا يرتوي، وانهال عليه بوابل من الضربات الرنانة. وباستثناء الحركات العنيفة لرازوموف لم يتحرك أي شيء، لا الرجل المضروب ولا الظلال الأشبه بالبرامق على الجدران. لم يكن يسمع سوى صوت الضربات. كان مشهداً غريباً.

وفجأة سمع صوت طقطقة. لقد انكسرت العصا وطار نصفها بعيداً في العتمة إلى ما وراء النور. وفي هذا الوقت نفسه جلس زيميانيتش. ولدى رؤيته لهذا أصبح رازوموف دون حراك كالرجل حامل القنديل... ولكن صدره كان يعلو طالباً للهواء وكأنه يكاد يتفجر.

---

(1) البرامق: جمع برمق وهو شعاع الدولاب. (المترجم)

Twitter: @ketab_n

لا شكّ أن إحساساً كليلاً بالألم قد اخترق أخيراً ليل الثمالة المواسي المحيط بـ «الروح الروسية اللامعة» كما وصف هالدين مطرياً عليه بحماسة. لم يكن زيميانيتش يرى أي شيء على الإطلاق. طرف محجر عينيه بلون أبيض شامل لمرة أو مرتين... ثم انطفأ الشعاع. جلس للحظة في القش بعينين مغلقتين في حالة عجيبة من التأمّل المرهق، ثم سقط ببطء على جنبه دون أن يحدث أي صوت. القش هو الذي خشخش قليلاً فحسب. حدّق رازوموف بجنون وهو يناضل ليسترجع أنفاسه. وبعد ثانية أو ثانيتين سمع شخيراً خفيفاً.

رمى بعيداً قطعة العصا التي تبقت في قبضته، ثم خرج بخطوات عريضة سريعة دون أن ينظر إلى الخلف مرة واحدة.

بعد أن سار دون وعي مسافة خمسين ياردة على امتداد الشارع وجد نفسه ضمن ثلج كثيف دفعته الريح. وقد وصل الثلج حتى ركبتيه قبل أن يتوقف.

كان من شأن هذا أن يعيده إلى نفسه؛ ثم نظر فيما حوله فاكتشف أنه يسير في الاتجاه الخاطئ. عاد ليسير على آثار خطواته، ولكنه يمشي الآن بسرعة أقل. وحين مرّ أمام البناء الذي غادره قبل قليل شهر قبضته مهدّداً المأوى الكئيب للبؤس والجريمة القائم على ذلك النحو الغريب فوق الأرض البيضاء. كانت للبناء هيئة التأمّل. ترك ذراعه تسقط إلى جانبه وقد ثبطت همته.

لقد أربكه استسلام زيميانيتش الانفعالي للحزن والسلوان. هذا هو الشعب. رجل روسيّ عن حقّ .كان رازوموف سعيداً لأنه ضرب ذلك الشخص المتوحش... «تلك الروح اللامعة» للآخر. هاهما: الشعب والمتحمّس.

وبين الاثنين قضي عليه. بين ثمالة الفلاح غير القادر على الفعل

Twitter: @ketab_n

والنشوة الحالمة للمثالي غير القادر على إدراك علّة الأشياء، والخصيصة الحقيقية للبشر. كان ذلك نوعاً رهيباً من الطفولية. ولكن للأطفال معلّموهم. فكّر رازوموف وهو يتوق للقوة على الإيذاء والتدمير: «آهٍ العصا، العصا، القبضة الصارمة!»

أحسّ بالسعادة لأنه ضرب ذلك الشخص المتوحش. لقد جعل الجهد الجسدي جسمه في حالة من التوهّج المريح، كما أن استثارته العقلية قد توهّجت أيضاً وكأن كل الحمى قد خرجت منه في نوبة من العنف الخارجي. ومع الإحساس الدائم بالخطر الرهيب كان مدركاً الآن لحقد هادئ لا يمكن إخماده.

سار ببطء فأبطأ. وبالفعل، فإننا لو أخذنا في الاعتبار الضيف الذي كان في غرفته، لا يكون مستغرباً أنه كان يتمهّل في سيره. كان الأمر أشبه بمن يؤوي مرضاً وبائياً لن يودي بحياتك ربما، ولكنه سيأخذ منك كل الذي جعل حياتك تستحق أن تعاش: وباء رقيق يحوّل الأرض إلى جحيم.

ما الذي كان يفعله الآن! أهو ممدد على الفراش كالميت، وظهر يديه فوق عينيه؟ كانت رؤيا حية ومروّعة تلك التي تصورها رازوموف لهالدين على سريره... الوسادة البيضاء تجوّفت من ثقل الرأس، والساقان في جزمة طويلة، والقدمان المقلوبتان إلى أعلى. وعبر اشمئزازه قال لنفسه: «سأقتله حين أصل إلى لبيت.» ولكنه كان يعرف جيداً أن لا فائدة من ذلك. ستكون الجثة المعلّقة فوق رقبته مميتة كالرجل الحي نفسه. لا شيء أقل من الإبادة الكاملة سيكون فعّالاً. وكان ذلك مستحيلاً. ماذا إذن؟ هل على المرء أن يقتل نفسه حتى ينجو من هذا العقاب الإلهي؟

كان يأس رازوموف مشوباً على نحو عميق جداً بالحقد بحيث لم تكن مقبولة لديه هذه القضية.

Twitter: @ketab_n

ومع ذلك فقد كان اليأس - ولا شيء أقل - هو الكامن من وراء فكرة اضطراره إلى أن يعيش مع هالدين لعدد غير محدود من الأيام في قلق قاتل لدى أي صوت. ولكن، حين يعرف أن «الروح اللامعة» لزيميانيتش كانت تعاني من خسوف مخمور، فقد يأخذ «إذعانه» الجهنمي إلى مكان آخر. ولم يكن ذلك محتملاً على ما يبدو من ظاهر الأمور.

فكّر رازوموف: «يجري الآن تحطيمي... ولا يمكنني الهرب حتى.» للناس الآخرين ركن في هذه الأرض... منزل صغير ما في المقاطعات يتمتعون بحق اصطحاب مشاكلهم إليه. مأوى ماديّ. أما هو فلا شيء لديه. ليس لديه حتى المأوى الأخلاقي... مأوى الثقة. إلى من سيذهب ليفضي إليه بهذه الحكاية... في كل هذه الأرض العظيمة العظيمة؟

ضرب رازوموف الأرض بقدمه... وتحت البساط الطري من الثلج أحسّ بأرض روسيا الصلبة، غير الحية، الباردة، الساكنة، كأم كئيبة مفجوعة تخفي وجهها تحت كفن... تربة وطنه الأم!... وطنه هو... وليس له فيه لا مدفأة ولا مصطلى!

رمى بعينيه نحو الأعلى ووقف مذهولاً. كان الثلج قد توقف عن الهطول، والآن، وكأنما بمعجزة، رأى فوق رأسه السماء السوداء الجليّة للشتاء الشمالي، مزينة بنيران النجوم السخية. كانت سقفاً مناسباً للنقاء المتألق للثلوج.

تلقى رازوموف انطباعاً مادياً مباشراً من الفضاء اللامتناهي والملايين التي لا تحصى.

وقد استجاب لها بجاهزية روسي ولد لإرث من الفضاء والأرقام. تحت الاتساع السخي للسماء، كان الثلج يغطي الغابات التي لا نهاية لها، الأنهار المتجمدة، سهوب بلد هائل المساحة، ماسحة معالم

Twitter: @ketab_n

الحدود وحوادث الأرض، ومسويّة كل شيء تحت بياضها المنسّق المتماثل، كصفحة سوداء هائلة تنتظر سجل تاريخ لا يصدّق. كانت تغطي الأرض بحيوات آلاف البشر من أمثال زيميانيتش وحفنتها من المحرّضين من أمثال هالدين... الذين يقتلون بحماقة.

كان نوعاً من الجمود المقدس. أحس رازوموف بالاحترام له. بدا وكأن هناك صوتاً يبكي في داخله «لا تلمسه.» كانت ضمانة للبقاء، للأمان، بينما يستمر عمل القدر الآخذ بالنضج... عمل ليس لأجل الثورات بالطيش الانفعالي لفعلها ودوافعها المتقلّبة... بل لأجل السلام. ما كانت الحاجة تدعو إليه لم يكن الطموحات المتصارعة لشعب، بل إرادة قوية وواحدة: لم تكن تريد هذيان الأصوات الكثيرة، بل تريد رجلاً ... قوياً وواحداً!

وقف رازوموف عند نقطة تحوّل. كان مفتوناً باقترابه، بمنطقه الطاغي. فسلسلة الأفكار لا تكون مزيفة أبداً، إذ يكمن الزيف عميقاً في ضرورات الوجود، في المخاوف السرية والطموحات نصف المتشكلة، في الثقة السرية المتحدة مع انعدام الثقة السرية بأنفسنا، في حب الأمل والخوف من الأيام المتقلّبة.

في روسيا، أرض الأفكار الشبحية والمطامح المتحرّرة من الجسد، كانت عقول جريئة كثيرة قد انصرفت أخيراً عن الصراع العبثي الذي لا نهاية له نحو حقيقة تاريخية واحدة وعظيمة هي الأرض. لقد التفتت إلى سلطة الفرد المطلقة من أجل سلام ضميرها الأبوي، كما يلتفت ملحد مُنْهَك، لَمَسَهُ العفوُ الإلهي، إلى دين آبائه من أجل أن ينال نعمة الراحة الروحية. وهاهو رازوموف، شأنه شأن الروس الآخرين من قبله، يحسّ وهو في صراع مع نفسه، بلمسة العفو الرباني على جبينه.

Twitter: @ketab_n

فكّر في نفسه وقد بدأ يمشي ثانية: «هالدين يعني التمزيق. ما قيمته هو وسخطه وكل حديثه عن الرق وحديثه عن العدالة الربانية؟ كل هذا يعني التمزيق. الأفضل أن يعاني الآلاف من أن يصبح شعب كتلة متفسّخة، لا حول له كما لا حول للغبار أمام الريح. الظلامية[1] خير من مشاعل الحريق المتعمّد. البذرة تنبت في الليل. ومن التربة المعتمة تبرز النبتة الكاملة. ولكن الثوران البركاني عقيم، فيه دمار للأرض الخصبة. وهل عليّ أنا، أنا الذي أحبّ بلدي... أنا الذي لا يملك شيئاً سوى ذلك الحب والذي أضع إيماني فيه... هل عليّ أن أترك مستقبلي، وربما قدرتي على النفع، يُخَرَّبان من قبل هذا المتعصّب المتعطّش للدماء؟

دخلت الرحمة الإلهية إلى قلب رازوموف. إنه يؤمن الآن بالرجل الذي سيأتي في الوقت المحدد.

ما هو العرش؟ بضع قطع من الخشب منجّدة بالمخمل. ولكن العرش مركز للسلطة أيضاً. شكل الحكومة هو شكل أداة... وسيلة. ولكن عشرين ألف مثانة ممتلئة بأكثر العواطف نبلاً والمحتكّة ببعضها البعض في الهواء تعيق الفضاء على نحو بائس، وليس فيها أية سلطة، ولا تملك أية إرادة، وليس بقدرتها أن تمنح أي شيء.

وهكذا استمر يمشي مفكراً دون أن ينتبه إلى الطريق، محاوراً نفسه بوفرة وسهولة استثنائيتين. في العادة كانت جمله ترده ببطء، بعد سعيٍ واعٍ ومجهد. ولكن قوة ما أسمى كانت تلهمه الآن بسيل من المجادلة البارعة كما يحدث حين يصبح الآثمون التائبون العائدون إلى الإيمان ثرثارين إلى حد هائل.

أحسّ بجذل قاتم.

---

(1) الظلامية: نزعة إلى إعاقة التقدم وانتشار المعرفة. (المترجم)

Twitter: @ketab_n

فكر في نفسه متسائلاً: «ما هي النتاجات الفكرية الغامضة على نحو رهيب لذلك الشخص بالمقارنة مع الإدراك والفهم الواضحين لذكائي؟ أليست هذه بلدي! أوليس لي أربعون مليوناً من الأخوة؟» وإنه لمنتصر حتماً ضمن الصمت الذي يلف قلبه. بدت له الضربات المخيفة التي كالها لزيميانيتش فاقد الوعي علامة على الوحدة الصميمية، ضرورة قاسية على نحو مثير للشفقة للحب الأخوي. «لا! إن كان علي أن أعاني فلأعاني على الأقل في سبيل قناعاتي، وليس في سبيل جريمة يرفضها عقلي... عقلي البارد السامي».

توقف من التفكير لبرهة. كان الصمت في صدره كاملاً. أحس بقلق شكّاك، كما قد نحس به حين ندخل مكاناً غريباً دون إضاءة... الإحساس اللاعقلاني بأن شيئاً ما قد يقفز علينا في الظلام... الخوف العجيب من اللامرئي.

طبعاً هو بعيد عن أن يكون رجعياً عتيق الطراز. لم يكن كل شيء يسير نحو الأفضل. هناك البيروقراطية الاستبدادية... إساءة استعمال السلطة... الفساد... وهلم جرا.... الحاجة تدعو إلى رجال قادرين. إلى عقول متنوّرة. إلى قلوب مخلصة. ولكن لا بد من المحافظة على السلطة المطلقة- الأداة الجاهزة للإنسان- لحاكم المستقبل المستبّد. كان رازوموف على إيمان به. كان منطق التاريخ قد جعله أمراً يتعذر تجنبه. كانت حالة الناس تتطلب وجوده. سأل نفسه بحماسة: «ما هو الشيء الآخر الذي يمكنه أن يحرك كل تلك الكتلة باتجاه واحد؟ لا شيء آخر. لا شيء سوى إرادة فرد واحد؟»

اقتنع بأنه كان يضحي بتطلعاته الشخصية إلى الحرية... رافضاً الخطأ الجذّاب لقاء الحقيقة الروسية الصارمة. قال لنفسه: «هذه هي الوطنية»، ثم أضاف: «لا مجال للتوقف في منتصف هذا الطريق.» ثم لاحظ بينه وبين نفسه: «لست جباناً».

Twitter: @ketab_n

ومن جديد كان هناك صمت شامل في صدر رازوموف. سار برأس مطأطئة دون أن يفسح الطريق لأحد. سار ببطء وكانت أفكاره العائدة إليه تتحدث في داخله ببطء رزين.

«ما هو هالدين هذا؟ وما أنا؟ مجرد حبتين من الرمال. ولكن الجبل العظيم مؤلف من مثل هذه الحبات التافهة. وموت شخص واحد أو كثير من الأشخاص مسألة غير ذات أهمية. ومع ذلك نحارب وباء سارياً. هل أريد موته؟ لا! كنت سأنقذه لو استطعت... ولكن لا يمكن لأحد أن يفعل ذلك... إنه العضو الذاوي الذي لا بدّ من اجتثاثه. وإذا كان عليّ أن أفنى من خلاله، فدعني لا أفنى معه، وأكون متضامناً ضد إرادتي مع حماقته الكئيبة التي لا تفهم شيئاً عن الناس أو الأشياء. لماذا أترك ذكرى مزيفة؟»

ثم مرّ بخاطره أنه لا أحد هناك في هذا العالم يهتم بنوع الذكرى التي سيتركها وراءه. صاح في نفسه على الفور: «أموت من أجل شيء مزيف!... يا له من مصير بائس!»

أصبح الآن في جزء أكثر حيوية من المدينة. لم يلاحظ حادث الاصطدام الذي وقع لعربتي جليد قرب المنحنى. كان سائق إحداهما يصرخ باكياً بالآخر:

ـ أيها البائس الخسيس!

هذه الصرخة المبحوحة التي أطلقت في أذنه تقريباً، شوّشت رازوموف. هزّ رأسه برماً ومضى في طريقه وهو ينظر باستقامة نحو الأمام. وفجأة، رأى هالدين، ممدداً على ظهره فوق الثلج في طريق سيره، رآه محسوساً، واضحاً، حقيقياً، وبيديه المقلوبتين فوق عينيه، مرتدياً معطفاً ضيقاً بني اللون وجزمة طويلة. كان ممدداً بعيداً عن الطريق قليلاً، وكأنه قد اختار ذلك المكان عن عمد. كان الثلج من حوله غير مداس.

Twitter: @ketab_n

كان لهذه الهلوسة مظهر محسوس بحيث أن أول حركة لرازوموف كانت أنه مدّ يده إلى جيبه ليتأكد من أن مفتاح غرفته كان لا يزال هناك. ولكنه كبح هذا الدافع بأن قوّس شفتيه باشمئزاز. لقد فهم. كان فكره المتركز بكثافة على الجسم الذي تركه ممدّداً فوق سريره، قد انتهى إلى هذه الصورة الغريبة الخادعة للبصر، عالج الشبح بهدوء. بوجه صارم، ودون توقف. سار إلى الأمام محدقاً بعيداً عن الطيف، وهو لا يحس بشيء سوى بضيق خفيف في الصدر. بعد المرور التفت برأسه لإلقاء نظرة، ولم ير سوى آثار أقدامه غير المنقطعة فوق المكان الذي كان صدر الشبح المتمدّد.

استأنف رازوموف السير وبعد قليل همس باستغراب لنفسه:

«كما لو أنه حي! بدا كأنه يتنفس! وفي طريقي تماماً أيضاً! لقد كانت تلك تجربة استثنائية.»

تقدم بضع خطوات ثم همهم من خلال أسنانه المطبقة:

«سأسلّمه إلى السلطات.»

ثم كان هناك فراغ كامل أمامه مسافة عشرين ياردة أو تزيد. لفّ معطفه حول نفسه على نحو أوثق. ثم أنزل قبعته حتى غطت عينيه.

«الخيانة. كلمة عظيمة. ما هي الخيانة؟ يتحدثون عن رجل يخون وطنه، أصدقاءه، حبيبته. لا بد من وجود رابط أخلاقي أوّلاً. كل ما يمكن للمرء أن يخونه هو ضميره. وكيف يمكن لضميري أن يكون متورطاً هنا؟ أي رابط من روابط الإيمان المشترك أو العقيدة المشتركة سيلزمني أن أترك هذا الأحمق المتعصّب يجرّني إلى الدرك الأسفل معه؟ على العكس، إن كل التزام يتصف بالشجاعة الحقيقية أمر مخالف لهذا.»

نظر رازوموف فيما حوله من تحت قبعته.

Twitter: @ketab_n

«ما الذي يمكن للتحامل المسبق للعالم أن يلوموني عليه؟ هل حرضته على منح ثقته فيّ؟ لا! هل أعطيته ولو بكلمة أو نظرة أو إيماءة واحدة سبباً يدعوه إلى الافتراض بأني قبلت ثقته فيّ؟ لا! صحيح أني وافقت على الذهاب لمقابلة زيميانيتش ذاك. حسناً، لقد ذهبت لأراه. وقد كسرت عصا على ظهره أيضاً... ذلك المتوحش.»

بدا شيء ما وكأنه يتقلّب في رأسه جاعلاً إلى الأعلى واجهة قاسية واضحة على نحو استثنائي من دماغه.

قال بلهجة ذهنية مختلفة تماماً: «سيكون من الأفضل على أية حال أن أحتفظ بهذه الحادثة بيني وبين نفسي.»

كان قد تجاوز المنعطف المؤدّي إلى مسكنه، وقد وصل الآن إلى شارع عريض وعصري لا تزال بعض الدكاكين فيه مفتوحة وكذلك المطاعم كلها. كانت الأنوار تسقط فوق الرصيف حيث كان رجال في معاطف ثمينة من الفرو، وامرأة أنيقة هنا أو هناك، يمشون مشية الفراغ. نظر إليهم رازوموف باحتقار المؤمن المتزّمت للجمهرة العابثة. كان ذلك هو العالم: أولئك الضباط وأصحاب المقامات والرجال العصريون والموظفون الرسميون وأعضاء «نادي اليخت». كان حادث الصباح قد أثّر فيهم كلهم. ما الذي سيقولونه لو عرفوا ما الذي سيقوم به هذا الطالب المرتدي معطفاً فضفاضاً؟

«ولا واحد منهم يقدر على الإحساس والتفكير بالعمق الذي أستطيعه. كم واحداً منهم يستطيع إنجاز فعل من أفعال الضمير؟»

تمهل رازوموف في الشارع جيد الإضاءة. كان مصمّماً تماماً. ولكن من الصعب تسمية ذلك بالتصميم على قرار ما. لقد اكتشف ببساطة ما الذي كان ينوي فعله. ومع ذلك شعر بالحاجة إلى مصادقة شخص آخر على ما سيفعله.

Twitter: @ketab_n

قال لنفسه بما يشبه الألم:

«أريد أن أكون مفهوماً.»

كان الطموح الشامل بكل معناه العميق والسوداوي قد أغار على رازوموف بشدة، وهو الشخص الذي يعيش بين ثمانين مليوناً من بني جلدته، وليس لديه قلب واحد يستطيع أن يفتح له قلبه.

لم يكن المحامي الشخص المطلوب. كان يحتقر كثيراً الوكيل الضئيل الحجم صاحب الحيل الشرعية ذاك. لا يمكن للمرء أن يذهب ويفتح قلبه أمام ذلك الشرطيّ الواقف عند الزاوية. ولا كان رازوموف راغباً في الذهاب إلى رئيس مخفر الشرطة في حيّه... وهو شخص عاديّ المظهر كان يراه أحياناً في الشارع مرتدياً بزة متسخة ولفافة تبغ مشتعلة ملتصقة بشفته السفلى. «سيبدأ بأن يحبسني على الأرجح. وعلى أية حال، سيستثار بالتأكيد ويثير اضطراباً هائلاً».

لا بدّ من القيام بالفعل الذي يمليه الضمير باحترام ظاهري.

كان رازوموف يتوق بيأس إلى كلمة نصح، إلى دعم أخلاقي. من الذي يعرف ما هي الوحدة الحقيقية... ليس الكلمة التقليدية، إنما الرعب المجرّد؟ بالنسبة إلى الوحيدين بالذات ترتدي هذه الكلمة قناعاً. إن أكثر المنبوذين بؤساً يعانق ذكرى ما أو وهماً ما. وبين الحين والآخر فإن دمجاً قاتلاً للحوادث قد يرفع الستار للحظة. وللحظة فحسب. لا يمكن لكائن بشري أن يتحمّل رؤية ثابتة للعزلة الأخلاقية دون أن يجنّ.

كان رازوموف قد وصل إلى نقطة الرؤيا تلك. وللهرب منها عانق مدة دقيقة كاملة هذياناً مؤدّاه أن يندفع إلى مسكنه ويرمي بنفسه على ركبتيه بالقرب من السرير والجسم المعتم عليه، يقدم اعترافاً كاملاً بكلمات انفعالية من شأنها أن تهز كيان ذلك الرجل كله حتى أعمق أعماقه؛ وهذا من شأنه أن ينتهي بعناق ودموع ضمن صداقة روحية لا تصدّق... صداقة لم يشهد لها العالم مثيلاً. يا للسمو!

Twitter: @ketab_n

داخلياً كان يبكي ويرتجف مسبقاً. ولكنه كان واعياً بأن العيون التي كانت ترنو إليه عرضاً كانت تراه طالباً هادئاً في معطف فضفاض، قد خرج ليمارس المشي في روية. كما لاحظ أيضاً النظرة البرّاقة الجانبية لامرأة جميلة... ذات رأس دقيقة الملامح وقد تسترت بالجلود المشعرة لحيوانات برية... حتى قدميها، كانت أشبه بشخص متوحش ضعيف وجميل... النظرة التي تدوم لبرهة بنوع من الرقة الساخرة من ذلك الذهول العميق لشاب وسيم.

وفجأة وقف رازوموف ساكناً. كانت مشاهدته الخاطفة لشاربين شائبين، رآهما وغابا عنه منذ لحظة، قد أوحت إليه بصورة كاملة لـ «الأمير كـ...»، الرجل الذي ضغط على يده مرة كما لم يفعل أي رجل آخر من قبل... ضغط بخفة إنما بمتمهل كإشارة سرية، كتربيت نصف متمنّع.

ثم استغرب رازوموف من نفسه، كيف لمن يخطر له من قبل!؟

«عضو مجلس شيوخ، صاحب مقام رفيع، شخصية عظيمة، إنه الشخص المطلوب... «هو»!»

طغى عليه انفعال ملطّف غريب... ممّا جعل ركبتيه ترتجفان قليلاً. وقد كبح ذلك بقسوة حديثة الاكتشاف. كل ذلك الانفعال عبارة عن هراء مميت. لم يكن قادراً على أن يكون سريعاً بما فيه الكفاية؛ وحين صعد إلى إحدى عربات الجليد صرخ بالسائق:

ـ إلى قصر «الأمير كـ...». هيا. طِرْ.

أجاب الموجيك (الفلاّح) المروّع الملتحي حتى بياضي عينيه بخنوع:

ـ أسمعك يا صاحب الفخامة.

Twitter: @ketab_n

من حسن حظ رازوموف أن «الأمير كـ...» لم يكن رجلاً جبانـاً، ففي يوم اغتيال «السيد دو بـ...» كان القلق والجزع سـائدين إلى حـد كبير في أوساط الرسميين الكبار.

كان «الأمير كـ..» جالساً بحزن، وحيداً في مكتبه حين أبلغه أحـد الخدم، وقد أصابه الذعر أن شاباً غـامض الهيئـة قـد دخـل عنـوة إلى البهو، ورفض أن يبلغ عن اسمه وطبيعة الغرض الذي جاء من أجلـه، وأنه لن يتحرّك من هناك حتى يرى صاحب السمو على انفـراد. وبـدلاً عن أن يقفل على نفسه الباب ويهتف إلى الشرطة، كما كان تـسع مـن كل عشر من الشخصيات الهامة ستفعل في مثـل ذلـك المسـاء، فـإن الأمير استسلم أمام الفضول وخرج بهدوء إلى باب مكتبه.

في البـهو، كـان البـاب الأمـامي مفتوحـاً علـى آخـره، فميّـز رازوموف على الفور، وكان هذا شاحباً كـالموت، وعيناه متقـدتان، ومحاطاً بالخدم المرتبكين.

اغتاظ الأمير إلى أبعـد حـد، بـل شـعر بالـسخط أيـضاً، ولكـن غرائـزه ذات الميـول الإنـسانية وإحـساسًا رقيقـاً بـالاحترام لنفـسه لم يسمحا له أن يترك الشاب يُرمى به إلى الشارع من قبل خدم وضـيعين. تراجع إلى غرفته دون أن يـراه رازومـوف، وبعـد هنيهـة رنّ الجـرس. سمع رازوموف في البهو صوتاً أجش عاليـاً منـذراً بالـشؤم يقـول مـن مكان بعيد:

ـ أدخلوا السيد إلى هنا.

دخل رازوموف دون رعشة واحدة. أحسّ بنفسه منيعاً.... مرتفعـاً فـوق سـطحية الحكـم الـسطحي. ورغـم أنـه رأى الأمـير ينظـر إليـه بامتعاض كئيب، إلاّ أن وضوح ذهنه، وكان واعياً له تماماً، منحه ثقـة استثنائية. لم يطلب منه الجلوس.

Twitter: @ketab_n

بعد نصف ساعة ظهرا في البهو مرة أخرى. وقف لهما الخدم، وقد تمت مساعدة الأمير، الذي كان يتحرك بصعوبة على قدميه المصابتين بالنقرس، على ارتداء فرائه. كان قد طلب إحضار العربة مسبقاً. وحين فتحت البوابة المزدوجة بضجيج كبير، سمع رازوموف، الذي كان يقف صامتاً وتحديقة تدلّ على الضياع في عينيه، وإن كانت كل قدرة من قدراته في أقصى حالات الانتباه، صوت الأمير يقول:

ـ ذراعك أيها الشاب.

كان الذهن السطحي سريع الحركة لضابط الحرس السابق، رجل المهمات المبهرجة، الذي لا خبرة له إلاّ في فنون الخداع الغزلي والنجاح الدنيوي، قد تأثّر تماماً بالصعوبات الأشدّ وضوحاً لمثل هذه المواقف وبوقار رازوموف الهادئ وهو يدلي بها.

كان قد قال:

ـ لا، إجمالاً لا أستطيع إدانة الخطوة التي أقدمت عليها بأن أتيت إليّ بحكايتك. إنها ليست قضية من مستوى رجال الشرطة الصغار. والأهم في المسألة متعلق بـ.... لا تقلق. سأخرجك من هذا الموقف شديد الغرابة والصعوبة.

ثم نهض الأمير عند ذلك ليرنّ الجرس، وكان رازوموف، الذي انحنى له انحناءة قصيرة، قد قال باحترام:

ـ لقد وضعت ثقتي في حدسي. شاب لا حق له يطالب به أي شخص في هذا العالم استجار في ساعة امتحان تتضمّن أعمق قناعاته السياسية بروسيّ لامع... هذا كل ما في المسألة.

وكان الأمير قد صاح على الفور:

ـ لقد فعلتَ ما هو صواب.

Twitter: @ketab_n

في العربة - وكانت هذه عبارة عن مركبة خفيفة مقفلة على زلاّجة - حطّم رازوموف الصمت بصوت كان يرتجف قليلاً:

ـ إن امتناني يتجاوز عظمة جرأتي.

لهث، وهو يشعر دون توقّع، في الظلام، بضغط خاطف على ذراعه.

كرّر الأمير:

ـ لقد فعلتَ ما هو صواب.

وحين توقفت العربة همهم الأمير لرازوموف الذي لم يتجرأ فيسأل ولو سؤالاً واحداً:

ـ منزل «الجنرال تـ...».

في وسط الطريق المغطّى بالثلج كانت نار كبيرة قد أضرمت في الهواء الطلق؛ وكان بعض فرسان القوزاق، وقد وضع كل منهم لجام حصانه فوق ذراعه، يدفئون أنفسهم من حولها. وقف خفيران عند الباب، وراح عدد من رجال الدرك يتسكّع تحت بوابة مدخل العربات. وفي منبسط الدرج الخاص بالطابق الأوّل نهض حاجبان ووقفا باستعداد. كان رازوموف يسير بمحاذاة الأمير.

كان عدد كبير إلى حد الإدهاش من أصص نباتات الدفيئة تثقل أرضية حجرة الانتظار. تقدم بعض الخدم. وصل شاب في ملابس مدنية مسرعاً، وقد هُمس له، ثم انحنى انحناءة عميقة، وصاح بحماسة:

ـ بكل تأكيد... في هذه اللحظة.

ثم دخل إلى مكان ما. أشار الأمير إلى رازوموف.

مرّا عبر جناح من غرف الاستقبال، كلها مضاءة على نحو هزيل، وإحداها قد جهّزت للرقص. كانت زوجة الجنرال قد أرجأت حفلتها

Twitter: @ketab_n

وجوّ من الذعر يسود المكان. ولكن أنوار غرفة الجنرال الشخصية، ذات الستائر الثقيلة الداكنة والمكتبين الضخمين والكنبات العميقة، كانت مضاءة كلها. أغلق الحاجب الباب خلفهما وراحا ينتظران.

كانت هناك نار فحم في موقد إنكليزي. لم يكن قد سبق لرازوموف أن رأى مثل هذا النار؛ وكان صمت الغرفة مثل صمت القبور؛ كاملاً، لا قياس له، بل حتى الساعة فوق الموقد كانت صامتة. كان يملأ إحدى الزوايا على قاعدة سوداء تمثال لمراهق ذي أعضاء ملساء له ربع الحجم الحقيقي، وهو في حالة الجري. قال الأمير بلهجة خفيضة:

- إنه من أعمال «سبونتيني» ويدعى «فرار الشباب»، جميل!

وافقه رازوموف بصوت ضعيف:

- مثير للإعجاب.

ولم يقولا أي شيء بعد هذا، بل بقي الأمير صامتاً بكل وقاره، بينما راح رازوموف يحدّق بالتمثال. كان هناك إحساس يزعجه أشبه بعضّات الجوع.

لم يلتفت حين سمع باباً داخلياً يفتح ووقع قدمين سريعتين تخمده السجادة.

صاح صوت الأمير فوراً، أجشّ من الاستثارة:

- لقد أمسكنا به... ذلك البائس[1]. لقد حضر إليّ شاب محترم... لا! هذا لا يصدق...

---

(1) وردت هذه العبارة بالفرنسية وسترد عبارات أخرى في هذا الفصل بالفرنسية وقد أشرت إليها بالإشارة التالية (*). (المترجم)

Twitter: @ketab_n

أمسك رازوموف بأنفاسه أمام البرونز وكأنه يتوقع صوت تحطيم. سمع من وراء ظهره صوتاً لم يسبق له أن سمعه من قبل يلحّ بلطف:

ـ تفضلوا بالجلوس(*).

صاح الأمير بصوت يكاد يكون زاعقاً:

ـ ولكن أتفهمني يا عزيزي؟ إنه القاتل(*) المجرم... لقد أمسكنا به...

دار رازوموف حول نفسه. كانت وجنتا الجنرال الكبيرتان الناعمتان قد ارتاحتا فوق القبة القاسية لبزّته. لا بدّ وأنه كان سبق له وراح ينظر إلى رازوموف لأن هذا الأخير رأى العينين الزرقاوين فاتحتي الزرقة مثبتتين عليه ببرود.

لوّح الأمير من كرسيه بيده مؤثرة.

ـ هذا شاب شريف جداً أرسلته العناية الإلهية نفسها... السيد رازوموف.

كان ردّ فعل الجنرال على تقديم رازوموف إليه أن عبس وهو ينظر إليه، ولكن هذا لم يقم بأية حركة.

ثم أصغى الجنرال بشفتين مزمومتين وهو جالس إلى مكتبه. كان من المستحيل ملاحظة أية إشارة تدلّ على الانفعال في وجهه.

راقب رازوموف سكونية الصورة الجانبية البدينة لوجه الجنرال. ولكن ذلك استمر للحظة واحدة، حتى أنهى الأمير كلامه؛ وحين التفت الجنرال إلى الشاب الذي أرسلته العناية الإلهية، فإن بشرته المتوردة، وعينيه غير المصدقتين، واللمعة البيضاء السريعة لابتسامة آلية، كان لكلّ هذا جو القسوة المرحة اللامكترثة. لم يعبّر عن أي استغراب من هذه القصة العجيبة ـ لا عن سرور ولا عن استثارة ـ ولا عن عدم التصديق أيضاً. لم يبد انفعالاً يذكر. ولكنه اقترح بأدب كاد يكون مراعياً لرغبات الآخرين: «ربما يكون الطائر قد أفلت بينما السيد... السيد رازوموف يجري في الشوارع.»

Twitter: @ketab_n

تقدم رازوموف إلى وسط الغرفة وقال:

ـ الباب مقفل والمفتاح في جيبي.

كان كرهه للرجل شديداً. لقد خطر له على حين غرّة أنه أحسّ أنه قد كشف عن ذلك بصوته. نظر إليه مفكّراً وابتسم رازوموف.

كل هذا مرّ من فوق رأس «الأمير كـ...» الجالس في كنبة عميقة، متعباً ونافد الصبر جداً.

قال الجنرال مفكراً:

ـ طالب يدعى هالدين.

توقف رازوموف عن الابتسام.

قال بصوت عال دون ضرورة:

ـ هذا هو اسمه. فيكتور فيكتوروفيتش هالدين... طالب.

عدّل الجنرال من جلسته.

ـ ما الذي يرتديه؟ هل لك أن تتلطّف فتصف لي ذلك؟

وصف رازوموف بغضب ملابس هالدين بكلمات قليلة متشنجّة. كان الجنرال يحدق طوال الوقت ثم قال مخاطباً الأمير بالفرنسية:

ـ لم نكن دون بعض العلامات. هناك امرأة طيبة كانت في الشارع وصفت لنا شخصاً يرتدي ملابس من النوع نفسه ألقى بالقنبلة الثانية. لقد حجزناها في السكرتاريا وكل من نلقي القبض عليه وهو يرتدي معطفاً شركسياً نجلبه لها لتنظر إليه. لقد ظلت ترسم إشارة الصليب على نفسها وتهزّ رأسها كلما رأت أحدهم. كان ذلك أمراً يدعو إلى السخط..

التفت إلى رازوموف وقال بالروسية وبمعاتبة ودية:

ـ تفضل واجلس يا سيد رازوموف... تفضل. لماذا أنت واقف؟

Twitter: @ketab_n

جلس رازوموف بلا مبالاة ونظر إلى الجنرال.

فكّر في نفسه: «هذا الأحمق جاحظ العينين لا يفقه شيئاً.»

بدأ الأمير يتكلم بشموخ:

ـ السيد رازوموف شاب ذو قدرات رائعة. وآمل ألاّ يكون مستقبله عرضة...

قاطعه الجنرال بحركة من يده وهو يقول:

ـ بكل تأكيد، هل معه أي سلاح يا سيد رازوموف؟

استخدم الجنرال صوتاً موسيقياً لطيفاً. أجاب رازوموف بسخط مكبوت:

ـ لا، ولكن أمواس حلاقتي في أنحاء المكان... أنت تعرف ما أعني.

أومأ الجنرال برأسه علامة الموافقة.

ـ بالضبط.

ثم قال الأمير وهو يشرح بلطف:

ـ نريد ذلك الطائر حياً، سيكون من المؤسف جداً ألا نجعله يغنّي قليلاً قبل أن ننتهي من أمره.

سقط صمت الغرفة الأشبه بصمت القبور مع صمت الساعة البكماء على التضمين المهذّب لجملته الرهيبة. لم يصدر الأمير، المختبئ في كنبته، أي صوت.

طوّر الجنرال فكرة جديدة على غير متوقع.

ـ الإخلاص لمؤسسات مهدَّدة تعتمد عليها سلامة عرش ليس لعب أطفال. نحن نعرف ذلك يا أميري، وتفضل(*)...

ثم قال بنوع من القسوة المداهنة:

ـ لقد بدأ السيد رازوموف يفهم ذلك أيضاً.

Twitter: @ketab_n

بدت عيناه اللتان وجههما نحو رازوموف كأنهما تخرجان من رأسه. هذه الغرابة في المظهر لم تعد تصدم رازوموف. قال بقناعة حزينة:

ـ لن يتكلم هالدين أبداً.

همهم الجنرال:

ـ سنرى ذلك.

ألحّ رازوموف:

ـ أنا واثق من ذلك. رجل كهذا لا يتكلم أبداً... هل تتخيّل أني هنا بسبب الخوف؟

هذا ما أضافه بعنف. أحس أنه مستعد للدفاع عن رأيه في هالدين حتى آخر حد.

اعترض الجنرال قائلاً ببساطة كبيرة:

ـ طبعاً لا. ولا يسعني سوى أن أقول لك يا سيد رازوموف إنه لو لم يأت بحكايته إلى روسي مخلص ووفيّ مثلك، لكان قد اختفى كالحجر في الماء...

ثم أضاف بابتسامة لامعة قاسية من تحت تحديقته الحجرية:

ـ ومن شأن ذلك أن يكون له تأثير كريه. وكما ترى، فليس هناك من شك بوجود أي خوف هنا.

تدخل الأمير وهو ينظر إلى رازوموف من وراء ظهر الكرسي:

ـ لا أحد يشكّ بأخلاقية تصرفك. كن مرتاح البال في هذا الخصوص، أرجوك.

التفت إلى الجنرال بقلق:

ـ لهذا أنا هنا. قد تدهش عندما تعرف أني...

Twitter: @ketab_n

أسرع الجنرال يقاطعه:

ـ لا إطلاقاً. طبيعي جداً. لقد رأيت أهمية...

قاطعه الأمير:

ـ نعم، وأجازف بأن أطالب بإلحاح ألاّ يشيع أمر تدخلي وتدخل رازوموف في هذه المسألة. إنه شاب واعد ذو جدارة.

همهم الجنرال:

ـ لا شكّ عندي في ذلك. إنه يوحي بالثقة.

ـ كلّ أنواع الآراء الضارة منتشرة في هذه الأيام... إنها تلوّث أحياء غير متوقّع حدوث ذلك فيها... ورغم أن ذلك قد يبدو شديد البشاعة، إلاّ أنه قد يعاني ... دراسته... و...

وضع الجنرال رأسه بين يديه ومرفقاً، فوق المكتب.

ـ أجل، أجل. أنا أفكّر في حلّ للموضوع... منذ متى تركته في مسكنك يا سيد رازوموف؟

ذكر رازوموف الساعة التي غادر بها البناء الكبير فقير الحال بسرعة وشرود. كان قد قرّر أن يبقي زيبميانيتش خارج المسألة تماماً. إن مجرد ذكره سيعني السجن لـ «الروح اللامعة»، وربما الضرب المبرّح الشديد، وفي النهاية رحلة إلى سيبيريا بالقيود الحديدية. كان رازوموف، الذي ضرب زيبميانيتش، يحسّ الآن برقة غامضة متسمة بالندم.

صاح الجنرال باحتقار وهو يفسح المجال لأول مرة للتعبير عن عواطفه الخبيثة:

ـ وتقول إنه جاء هكذا ليسرّ إليك بالمسألة... هكذا... لقاء لا شيء... لقاء لا شيء!(*)

Twitter: @ketab_n

أحسّ رازوموف بخطر في الجو. كان ارتياب السلطة المطلقة عديمة الرحمة قد نطق بصراحة أخيراً. ختم خوف مفاجئ شفتي رازوموف. كان صمت الغرفة أشبه الآن بصمت زنزانة عميقة، حيث لا قيمة للزمن، والشخص موضع الشكّ يُنسى إلى الأبد. ولكن الأمير سارع إلى النجدة.

ـ لقد دفعت العناية الإلهية ذلك البائس في لحظة من الاضطراب العقلي إلى أن يلتجئ إلى السيد رازوموف على أساس أنهما تبادلا مرة الأفكار، وإن كل ذلك قد حدث منذ زمن بعيد وأسيء فهمه... كان ذلك حواراً عديم الجدوى وتأملياً... جرى منذ أشهر... كما قيل لي... وكان السيد رازوموف قد نسيه تماماً حتى الآن.

تساءل الجنرال بتأمل بعد صمت قصير:

ـ يا سيد رازوموف هل تنغمس دائماً في حوارات تأملية؟

أجاب رازوموف ببرود، وبثقة مفاجئة بالنفس:

ـ لا، أنا رجل قناعات عميقة. هناك آراء فجة في الجو. إنها لا تستحق دائماً القتال. ولكن حتى الاحتقار الصامت لعقل جدّي قد يساء فهمه من قبل الطوباويين الطائشين.

حدّق الجنرال من بين يديه. همهم «الأمير كـ....»:

ـ شاب جدّي. «روح متفوّقة»(*).

قال الجنرال:

ـ أرى ذلك يا «عزيزي الأمير»(*). السيد رازوموف في مأمن معي. أنا مهتم بأمره. لديه، على ما يبدو، مزية مفيدة، إنه يوحي بالثقة. إنّ ما كنت أتساءل عنه هو لماذا يتذكّر ذلك الآخر أي شيء؟ أعني أنه حتى هذه الحقيقة العارية وحدها... إن كان هدفه الحصول على ملجأ مؤقت لعدد من الساعات. فعلى أية حال، لا شيء أسهل

Twitter: @ketab_n

من أن تقول شيئاً ما حول ذلك ما لم يكن يحاول، بسبب سوء فهم مجنون لعواطفك الحقيقية، أن يطلب مساعدتك... أليس كذلك يا سيد رازوموف؟

بدا لرازوموف أن الأرض كانت تتحرك قليلاً. هذا الرجل غريب المظهر في البزّة الضيقة كان رهيباً. من الضروري أن يكون رهيباً.

- أفهم ما في ذهنك يا صاحب السعادة. ولكن جوابي هو أني لا أدري لماذا.

همهم الجنرال بدهشة لطيفة:

- لا شيء في ذهني.

فكّر رازوموف: «أنا طريدته... طريدته التي لا حول لها.»

كان التعب والاشمئزاز مما حدث في عصر هذا اليوم ومسائه، والحاجة إلى أن ينسى الخوف الذي لم يستطع إبعاده عنه، قد أيقظا كرهه لهالدين.

- إذن لا أستطيع مساعدتكم يا صاحب السعادة. لا أعرف ما كان يعنيه من ذلك. أعرف فحسب أني مررت بلحظة تمنيت معها أن أقتله. كما كانت هناك لحظة تمنيت فيها أن أموت. لم أقل شيئاً. كنت مغلوباً على أمري. لم أجعله يثق بي... لم أطلب منه أية تفسيرات...

بدا على رازوموف أنه قد خرج عن طوره، ولكن ذهنه كان صافياً. كان ذلك انفجاراً محسوباً في الواقع.

قال الجنرال:

- إنه بالأحرى لأمر مؤسف أنك لم تفعل ذلك. ألا تعرف إطلاقاً ما الذي ينوي أن يفعله؟

هدأ روع رازوموف ورأى انفجاراً في الجو.

Twitter: @ketab_n

ـ قال لي إنه يأمل أن تقابله عربة جليد بعد حوالي نصف ساعة من منتصف الليل عند عمود النور السابع على اليسار من الجهة العليا من نهاية شارع كارابيلنايا. وعلى أية حال فإنه ينوي الذهاب إلى هناك في هذا الموعد. هو لم يطلب مني حتى أن أعيره بعضاً من ملابسي.

قال الجنرال وهو يلتفت إلى «الأمير كـ... » بلهجة تدل على الرضا:

ـ حسناً!(*) هناك طريقة نجعل معها «محميّك»(*)، السيد رازوموف، دون أية علاقة بالاعتقال الفعلي. سنكون مستعدين لذلك السيد في كاربيلنايا.

عبّر الأمير عن امتنانه. كان هناك انفعال حقيقي في صوته. أما رازوموف، الساكن، الصامت، فقد جلس محدّقاً إلى السجادة. التفت الجنرال إليه.

ـ نصف ساعة بعد منتصف الليل. حتى ذلك الحين سيكون علينا أن نعتمد عليك يا سيد رازوموف. ألا تعتقد أنه قد يغير خطته؟

قال رازوموف:

ـ وكيف لي أن أعرف؟ مثل هؤلاء الرجال ليسوا من النوع الذي يغيّر خطته.

ـ أي رجال تعني؟

ـ محبّو الحرية المتعصّبون عموماً. الحرية المطلقة يا صاحب السعادة. الحرية التي لا تعني شيئاً محدداً. الحرية التي تُرتكب الجرائم باسمها.

همهم الجنرال:

ـ أكره المتمردين من كل نوع. لا أستطيع مغالبة ذلك. إنها طبيعتي!

أطبق قبضته وهزّها، وهو يجرّ ذراعه نحو الخلف.

ـ سيدمّرون إذن.

Twitter: @ketab_n

قال رازوموف بسرور خبيث وهو ينظر إلى الجنرال في وجهه مباشرة:

ـ لقد ضحّوا بحياتهم سلفاً. وإذا ما غيّر هالدين خطته الليلة، يمكنك أن تطمئن إلى أنه لن يفعل ذلك لينقذ حياته بالهروب بطريقة أخرى. سيكون قد فكّر في محاولة شيء آخر. ولكن هذا غير محتمل.

كرّر الجنرال كأنما لنفسه:

ـ سيُدمَّرون.

اتخذ رازوموف تعبيراً لا سبيل إلى فهمه.

صاح الأمير:

ـ يا لها من ضرورة رهيبة!

أنزل الجنرال ذراعه ببطء.

ـ هناك عزاء واحد. ذلك الجنس لا يخلف ذرية، كنت أقولها دائماً: جهد واحد، لا هوادة فيه، متواصل وثابت... وننتهي منهم إلى الأبد.

فكّر رازوموف في أن هذا الرجل الذي أوكل إليه الكثير من السلطة الاستبدادية قد صدق دون شك ما قاله له وإلاّ لما كان يستمرّ في تحمّل المسؤولية.

كرّر الجنرال مرة أخرى بحقد مفرط:

ـ أكره المتمردين. هذه العقول المدمّرة! هؤلاء «الفاسقون»(*) المثقفون! لقد بُني وجودي على الإخلاص. إنه شعور. وللدفاع عنه أنا مستعد للتخلّي عن حياتي ـ بل وشرفي ـ إذا ما تطلّب الأمر ذلك. ولكن أرجو أن تقول لي أي شرف يمكن أن يكون هناك ضد المتمرّدين.. ضد أناس ينكرون الرب نفسه.. ملحدون مائة بالمائة! وحوش! إنه لرهيب حتى مجرد التفكير في الأمر نفسه.

Twitter: @ketab_n

خلال هذه الخطبة العنيفة كان رازوموف - المواجه للجنرال- قد طأطأ برأسه بخفة مرتين. همهم الأمير الواقف جانباً بهيئته الوقورة وهو يرفع عينيه:

- «يا للأسى!»(*)

ثم أخفض من بصره وصرّح بتصميم كبير:

- هذا الشاب، يا جنرال، قادر تماماً على فهم مغزى كلماتك الجديرة بالذكر.

تغيّر تعبير الجنرال كله من الامتعاض المضجر إلى الدماثة الكاملة. قال:

ــ أودّ أن أطلب الآن من السيد رازوموف أن يعود إلى بيته. لاحظ أني لم أسأل السيد رازوموف إن كان قد برّر غيابه أمام ضيفه. لا شكّ أنه فعل ذلك على نحو مرضٍ. ولكني لا أسأل، فالسيد رازوموف يوحي بالثقة. وهذه هبة عظيمة. ولكني أودّ أن أقترح فحسب أن غياباً أطول قد يوقظ شكوك المجرم ويدفعه بالتالي إلى تغيير خططه ربما.

نهض بكياسة واضحة ليرافق زائريه إلى غرفة الانتظار الممتلئة بأصص النباتات.

افترق رازوموف عن الأمير عند زاوية أحد الشوارع. في العربة كان قد أصغى إلى أحاديث كانت تختلط فيها العاطفة بالحذر. من الواضح أن الأمير كان يخشى من تشجيع أية آمال في إجراء أية اتصالات أخرى في المستقبل. ولكن كانت هناك لمسة من الرقة في صوته الناطق في الظلام بعبارات التشجيع والودّ. وقد قال الأمير:

- لديّ ثقة كاملة بك يا سيد رازوموف.

Twitter: @ketab_n

فكّر رازوموف بملل: «للكُلّ مثل هذه الثقة على ما يبدو.» كان يشعر باحتقار مشوب بالتساهل تجاه الرجل الجالس إلى جانبه كتفاً إلى كتف في ذلك المكان المغلق. ربما كان يخشى من شجار مع زوجته. لقد سمع عنها أنها متكبرة وعنيدة.

بدا له غريباً أن تلعب السرية مثل هذا الدور الكبير في راحة وأمان الحياة. ولكنه أراد أن يترك الأمير مرتاح البال فقال بتشديد مناسب إنه طالما كان واعياً ببعض إمكانياته الصغيرة وواثقاً من قدرته على العمل، فإنه سيترك مستقبله لجهوده الخاصة. كما عبّر عن امتنانه لمدّه يد المساعدة إليه. ثم أضاف أن مثل هذه المواقف الخطرة لا تحدث مرتين خلال مجرى حياة واحدة.

قال الأمير بجلال:

ـ وقد واجهت هذا الموقف بثبات في الذهن ودقة في الشاعر جعلاني أعرف قدرك السامي. وعليك الآن أن تواظب... أن تواظب.

لدى نزوله إلى الرصيف رأى رازوموف يداً دون قفاز تمتدّ إليه عبر النافذة المفتوحة. أخّرت هذه اليد يده للحظة، بينما كان نور مصباح الشارع يسقط فوق وجه الأمير الطويل وشاربيه الخديين الشائبين التقليديين.

ـ آمل أن تكون على ثقة تامة الآن فيما يخص العواقب...

ـ بعد الذي تنازلت سموّك وفعلتَه من أجلي لا يمكنني سوى أن أعتمد على ضميري.

ثم قال الرأس ذو الشاربين الخديين "وداعاً"(*) وبمودّة.

انحنى رازوموف. ابتعدت العربة مع صوت خفيف في الثلج... كان وحيداً على حافة الرصيف.

قال لنفسه إنه لا يوجد ما يفكّر فيه، ثم بدأ يمشي نحو البيت.

Twitter: @ketab_n

سار بهدوء. كانت تلك تجربة عادية بالنسبة إليه أن يسير إلى البيت لينام بعد أمسية ينفقها في مكان ما مع زملائه في مقعد رخيص من مقاعد المسرح. وبعد أن سار قليلاً لفتت نظره ألفة الأشياء. لا شيء قد تغيّر. كانت هناك الزاوية المعهودة التي ما أن التفّ من حولها حتى رأى النور الشاحب لدكان المؤن الذي تملكه امرأة ألمانية. كانت هناك أرغفة من الخبز «البائت» وباقات من البصل، وخيوط المقانق خلف زجاج الواجهة. كانوا على وشك إغلاق الدكان. تعثّر الرجل المريض الأعرج الذي يعرفه جيداً بالثلج وهو يعانق مصراعاً كبيراً.

لا شيء سيتغيّر. كانت هناك البوابة المألوفة المتثائبة، سوداء مع أشعة من الوميض الضعيف كانت تدلّ على أقواس الأدراج المختلفة.

كان الإحساس باستمرارية الحياة يعتمد على انطباعات مادية تافهة، وكانت تفاهات الوجود اليومي درعاً للروح. وقد دعمت هذه الفكرة الهدوء الداخلي لرازوموف حين بدأ يصعد الدرج المألوف. لم يكن ممكناً للاستثنائي أن يتغلب على العلاقات المادية التي تجعل أي يوم مشابهاً ليوم آخر. سيكون الغد كالبارحة.

على المسرح فحسب يمكن الإقرار خارجياً بما هو غير اعتيادي.

فكّر رازوموف: «أعتقد أني لو صمّمت على أن أنسف دماغي على منبسط الدرج لكنت سأصعد هذه الدرجات بالهدوء نفسه الذي أصعدها به الآن. ما الذي على المرء أن يفعله؟ المحتوم محتوم. الأمور الاستثنائية تحدث هي أيضاً. ولكنها إذ تحدث تنتهي. وكذلك الأمر حين يكون العقل قد صمّم على شيء. تلك القضية تنتهي. والهموم اليومية، تلتهمها ألفة أفكارنا... وتستمر الحياة كما في السابق بجوانبها الغامضة والسرية وقد غابت عن الأنظار، كما يتوجّب عليها. الحياة أمر عمومي.»

Twitter: @ketab_n

فتح رازوموف الباب بعد أن أدار القفل ثم أخرج المفتاح من القفل، ودخل بكثير من الهدوء ثم أرتجه وراءه بحذر.

فكّر في نفسه: «إنه يسمعني»، وبعد أن أرتج الباب وقف ساكناً ممسكاً بأنفاسه. لم يكن هناك صوت واحد. عبَر الغرفة الخارجية العارية وسار بتعمّد في الظلام. وحين دخل الغرفة الأخرى، تلمّس طاولته كلّها بحثاً عن علبة الثقاب. كان الصمت عميقاً باستثناء صوت تلمّس علبة الثقاب. هل ذلك الشخص نائم بهذا العمق؟

أشعل عوداً ونظر إلى السرير. كان هالدين ممدّداً على ظهره كالسابق، ولكن يديه كانتا تحت رأسه وقد فتح عينيه وراح يحدّق إلى السقف.

رفع رازوموف العود عالياً. رأى الملامح الحادة والذقن القوية، الجبين الأبيض والشعر الأشقر الذي يكسو قمة الرأس فوق الوسادة البيضاء، هاهو هناك، يتمدّد على ظهره... فكّر رازوموف فجأة: «لقد دُسْتُ على صدره.»

استمرّ في التحديق حتى انطفأ العود. ثم أضرم عوداً آخر وأشعل المصباح في صمت دون أن ينظر باتجاه السرير بعد ذلك. كان قد التفت بظهره إليه وعلى وشك أن يعلّق معطفه على المشجب حين سمع هالدين يتنهّد بعمق ثم يسأله بصوت منهك:

ـ حسناً، ما الذي فعلته؟

كان الانفعال كبيراً إلى حد أن رازوموف كان سعيداً في أن يضع يديه على الجدار. اعتراه دافع شيطاني فكاد يقول: «لقد وشيت بك إلى الشرطة»، وقد أخافه ذلك إلى حد هائل. ولكنه لم يقل ذلك. قال دون أن يلتفت وبصوت كظيم:

ـ لقد تمّ الأمر.

Twitter: @ketab_n

وقد سمع هالدين يتنهّد من جديد. سار نحو الطاولة، ثم جلس والمصباح أمامه، وعندها فحسب نظر باتجاه السرير.

في الزاوية البعيدة من الغرفة الكبيرة، بعيداً عن المصباح الذي كان صغيراً وله كمّة من البورسلان، بدا هالدين كشكل معتم ممطوط.. قاسياً مع سكونية كسكونية الموت. بدا الجسم وكأنه ذا مادة أقل من مادة شبحه الذي عبر فوقه رازوموف في الشارع الأبيض الثلجي. كان ذلك أكثر إزعاجاً في واقعه المعتم الملحاح من الشبح الجليّ إنما المتلاشي.

سمع هالدين يتكلم من جديد:

ـ لا شكّ أنك قد سرت فترة طويلة... يا له من مشوار طويل...

ثم همهم مستنكراً:

ـ في مثل هذا الطقس...

أجاب رازوموف بحيوية:

ـ مشوار رهيب... كابوس!

ارتجف بصوت مسموع. تنهّد هالدين مرة أخرى، ثم قال:

ـ إذن رأيت زيميانيتش... يا أخي؟

ـ لقد رأيته.

ثم تذكّر رازوموف الوقت الذي أمضاه مع الأمير ورأى أنه من الحكمة أن يضيف:

ـ كان عليّ أن أنتظر بعض الوقت.

ـ يا له من شخصية... أليس كذلك؟ إنه لغريب ذلك الكمّ من الحسّ بضرورة الحرية المتواجد في ذلك الرجل. وله أقواله المأثورة أيضاً... وهي بسيطة؛ في صميم الموضوع، كما لا يمكن سوى للناس البسطاء أن يخترعوه بحصافتهم غير المصقولة. شخصية...

Twitter: @ketab_n

همهم رازوموف من خلال أسنانه:

ـ لم تتح لي فرصة كبيرة كما ترى...

استمر هالدين يحدّق في السقف.

ـ أنت ترى يا أخي أني كثيراً ما ارتدت ذلك المكان مؤخراً. اعتدت أن آخذ معي كتباً إلى هناك... كرّاسات. القادرون على القراءة من الفقراء سكّان ذلك المبنى ليسوا قلّة. وكما ترى فإنه يتوجّب البحث عن ضيوف وليمة الحرية في الطرق الفرعية والأسيجة. والحقيقة هي أني كدت أكون من سكان ذلك المبنى مؤخراً. كنت أنام أحياناً في الإسطبل. هناك إسطبل..

قاطعه رازوموف بلطف:

ـ هناك أجريت مقابلتي مع زيميانيتش.

ثم انتابته روح ساخرة فأضاف:

ـ كانت مرضية بمعنى من المعاني. لقد عدت منها مرتاحاً جداً.

استأنف هالدين وهو يخاطب السقف ببطء:

ـ آه! يا له من شخص مثير للإعجاب. لقد تعرّفت عليه بتلك الطريقة، كما ترى. ومنذ أسابيع خلت، ومنذ أن صمّمت على أن أفعل ما كان يتوجّب فعله، حاولت أن أعزل نفسي. لقد تخلّيت عن مسكني الذي كنت قد استأجرته. ما الفائدة من تعريض امرأة أرمل شريفة إلى خطر القلق حتى الجنون من ملاحقة الشرطة لها؟ كما توقفت عن مشاهدة معظم الرفاق...

سحب رازوموف نصف لوح من الورق وراح يرسم خطوطاً بقلم الرصاص.

Twitter: @ketab_n

فكّر في نفسه غاضباً:

ـ يا إلهي! يبدو أنه فكّر بسلامة كل شخص عداي!

كان هالدين لا يزال يتكلّم.

ـ هذا الصباح... آه! هذا الصباح... كان ذلك مختلفاً. كيف أشرح لك ذلك؟ قبل القيام بالمهمّة كنت أتجوّل ليلاً وأختبئ نهاراً، مفكّراً. وكنت أحسّ بالاطمئنان. ما الذي كان لديّ لأعذّب نفسي به؟ ولكن في الصباح... بعد أن تمّ ما تمّ! ثم أصبحتُ قلقاً. ما كان يمكنني أن أمكث في ذلك المبنى الكبير المليء بالبؤس. لا يستطيع بؤساء هذا العالم أن يمنحوك السلام. وحين بدأ ذلك الوكيل الأحمق يصرخ، قلت في نفسي: «هناك شاب في هذه المدينة يسمو فوق كل التحيّزات العادية».

سأل رازوموف نفسه وهو لا يزال يرسم دون هدف مثلثات ومربعات: «هل يضحك عليّ» ثم فكّر فجأة: «لا شكّ أن سلوكي يبدو له غريباً. لو أصيب بالذعر من سلوكي واندفع هارباً إلى مكان ما لقضي عليّ تماماً. ذلك الجنرال الجهنمي ...»

أسقط قلم الرصاص والتفت بحدّة نحو السرير والجسم الشبحي ممدّد بكامل طوله فوقه... أقل وضوحاً بكثير من ذلك الذي سار فوق صدره دون تعثّر في الشارع. هل يكون هذا أيضاً شبحاً؟

كان الصمت قد دام فترة طويلة. «لم يعد هنا» كانت تلك هي الفكرة التي راح رازوموف يناضل بيأس، خائفاً تماماً من غرابتها. «لقد سبق له ورحل وهذا... مجرّد...».

لم يعد قادرً على المقاومة. قفز واقفاً وهو يقول بصوت مرتفع: «أنا قلق إلى حد لا يحتمل.» وسار خطوات قليلة غير مترددة ليقف قرب السرير. سقطت يده بخفة على كتف هالدين، فأحس مباشرة بوجودها الفعليّ وقد تملّكته رغبة مجنونة في أن يقبض على تلك

Twitter: @ketab_n

الحنجرة العارية ويخنق أنفاس ذلك الجسد حتى لا يهرب من رعايته فلا يترك وراءه سوى شبحه.

لم يحرّك هالدين عضواً واحداً، ولكنّ عينيه المحجوبتين بالظلال تحركتا قليلاً وحدّقتا إلى الأعلى باتجاه رازوموف بامتنان حزين لهذا التعبير عن الشعور.

أشاح رازوموف بوجهه وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. همهم لنفسه: «ربما كان ذلك لطفاً». وقد فزع لطبيعة ذلك الاعتذار عن نيّة مهلكة والذي يبدو أن ذهنه قد وجده في مكان ما من داخله. ومع ذلك لم يستسلم. أصبح صافي التفكير فيما يخصّ هذه المسألة. فكّر في نفسه: «ما الذي يستطيع هو توقعه؟ حبل المشنقة... في النهاية... وأنا...»

قاطع صوت هالدين هذه المجادلة:

ــ لم تشعر بالقلق عليّ؟ يستطيعون قتل جسدي ولكنهم لا يستطيعون نفي روحي بعيداً عن هذا العالم. سأقول لك رأيي.... أؤمن بهذا العالم كثيراً جداً بحيث لا أستطيع أن أتصوّر الأبدية إلا كحياة طويلة جداً. ولهذا السبب أنا مستعد جداً للموت.

تنحنح رازوموف، واستمر يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وقد عضّ على شفته، كما استمر الجدال الغريب في ذهنه.

أجل، بالنسبة إلى رجل في مثل هذا الموقف... سيكون بالطبع نوعاً من اللطف. والمسألة، على أية حال، لم تكن مسألة كيف يكون لطيفاً بل حازماً. كان زبوناً مراوغاً....

قال بقوة:

ـ وأنا أيضاً يا فيكتور فيكتوروفيتش أؤمن بهذا العالم، عالمنا، أنا أيضاً طالما أنا حيّ... ولكنك تبدو مصمماً على أن تسكنه كشبح. لا يمكنك أن تعني جدياً أن...

Twitter: @ketab_n

انطلق صوت هالدين الهادئ:

ـ أسكنه كشبح! حقاً إن قامعي الفكر الذي يحيي العالم، مدمّري الأرواح التي تطمح إلى كمال الكرامة الإنسانية، هؤلاء ستسكنهم الأشباح. أما بالنسبة إلى مدمّري جسدي فقط، مجرد جسدي فقط، فقد غفرتُ لهم مقدّماً.

كان رازوموف قد توقف ليصغي، ولكنه كان في الوقت نفسه يراقب أحاسيسه الخاصة. كان حانقاً على نفسه لأنه يعلّق أهمية كبيرة على ما يقوله هالدين.

فكّر بحزم: «الشخص مجنون»، ولكن رأيه لم يخفّف من حدّة كرهه لهالدين. كان ذلك نوعاً من الجنون الوقح على نحو خاص... وحين ينطلق حرّاً في مجال الحياة العامة لبلد ما، فقد كان من الواضح أن من واجب كل مواطن صالح...

انقطعت سلسلة الأفكار هذه وتبعتها نوبة من الكره الصامت لهالدين، نوبة شديدة إلى حد أن رازوموف سارع إلى التكلّم كيفما اتفق:

ـ أجل، الأبدية طبعاً. وأنا أيضاً لا أستطيع تخيّلها بنفسي... أنا أتصوّرها على أية حال كشيء هادئ وممل. لن يكون هناك شيء غير متوقع... ألا ترى معي ذلك؟ أما عنصر الزمن فسيكون مفقوداً.

أخرج ساعته ونظر إليها. انقلب هالدين على جنبه وراح يحدق بتصميم.

خاف رازوموف من هذه الحركة. كان زبوناً زلقاً هذا الشخص ذو الشبح. لم يكن منتصف الليل قد حان بعد. أسرع يقول:

ـ وأسرار غامضة لا قعر لها. هل يمكنك أن تتصوّر أماكن سرية في الأبدية؟ مستحيل. بينما الحياة مليئة بها. هناك أسرار الولادة مثلاً. يحملها المرء معه إلى القبر. هناك شيء مضحك... ولكن لا بأس. وهناك دوافع السلوك السرية. إن لأكثر أفعال المرء انفتاحاً جانبها

Twitter: @ketab_n

السري. هذا هام ولا يمكن الوصول إلى قراره! مثلاً، يخرج الرجل من غرفته ليتمشى، لا شيء يبدو أكثر تفاهة من حيث المظهر. ومع ذلك فقد يكون ذلك هاماً جداً. إنه يعود.. ربما يكون شخصاً متوحشاً سكيراً نظر باهتمام إلى الثلج على الأرض... وهاهو لم يعد الشخص نفسه الآن. للأشياء غير المحتملة إطلاقاً قدرة سرية على أفكار المرء... الشاربان الخديان الأشيبان لشخص معين... العينان الجاحظتان لآخر.

كان جبين رازوموف مندّى. دار دورة أو اثنتين في الغرفة برأس مطأطئة وهو يبتسم لنفسه على نحو شرير.

- هل سبق لك وفكرت في قدرة العينين الجاحظتين والشاربين الخديين الشائبين؟ اعذرني. تبدو وكأنك تفكر في أني مجنون حتى أتحدث بهذه اللهجة في مثل هذا الوقت. ولكني لا أتحدث باستخفاف. لقد رأيت أمثلة. لقد حدث لي مرة أن كنت أتحدث إلى رجل كان مصيره متأثراً بحقائق مادية من ذلك النوع. ولم يكن الرجل على علم بذلك. وبالطبع، كانت تلك حالة ضمير، ولكن الحقائق المادية مثل هذه هي التي صنعت الحل... وأنت تطلب مني يا فيكتور فيكتوروفيتش ألا أكون قلقاً! عجباً! أنا مسؤول عنك.

وهنا كان رازوموف على وشك أن يزعق.

تجنّب بصعوبة انفجار ضحكة شيطانية[1]. أما هالدين فقد رفع نفسه مستنداً على مرفقيه، شاحب الوجه جداً.

---

(1) في الأصل: ميفيستوفيليس أحد الشياطين السبعة في أساطير القرون الوسطى، وهو الشيطان الذي يبيع له روحه الدكتور فاوست في الحكاية الشهيرة. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

استمر رازوموف بعد أن رمق الآخر بقلق:

ـ أما مفاجآت الحياة، فما عليك سوى أن تدرس طبيعتها المدهشة. إن دافعاً غامضاً يحفزك على القدوم إلى هنا. لا أقول إنك أخطأت. فأنت من وجهة نظر معينة، ما كان يمكنك أن تفعل ما هو أفضل من ذلك. ربما كنت ستذهب إلى شخص ذي عواطف وروابط عائلية. أنت شخصياً لديك مثل هذه الروابط. أما بالنسبة إليّ فأنت تعرف أني ترعرعت في مؤسسة تعليمية ما كانوا يقدمون لنا فيها حتى الطعام الكافي. أما الحديث عن العاطفة فيما يخص مثل هذه العلاقة... فأنت تدرك بنفسك... أما الروابط، إن الروابط الوحيدة التي لديّ في هذا العالم هي روابط اجتماعية. عليّ أن أحظى ببعض الاعتراف بطريقة ما قبل أن استطيع أن أفعل أي شيء. أجلس هنا وأعمل... ألا تظن أني أعمل من أجل التقدم أيضاً؟ عليّ أن أجد أفكاري الخاصة بالطريقة الصحيحة... اعذرني.

ثم أردف رازوموف بعد أن أخذ نفساً للراحة وبضحكة قصيرة حلقية:

ـ ولكني لم أرث إلهاماً ثورياً مع شبَهٍ لأحد أخوالي.

ثم نظر مرة أخرى إلى ساعته ولاحظ باشمئزاز مثير للغثيان أنه قد تبقت دقائق كثيرة قبل حلول منتصف الليل. انتزع الساعة والسلسلة من صدريته ووضعهما على الطاولة تحت دائرة نور المصباح اللامع تماماً. لم يتحرك هالدين المتكئ على مرفقه. أحس رازوموف بالقلق من موقفه: «ما الحركة التي يفكر فيها بكل هذا الهدوء؟ لا بد من منعه. عليّ أن أستمر في محادثته.»

رفع صوته:

«أنت ابن، أخ، ابن أخت، ابن عم... لا أعرف ماذا أيضاً... أنت قريب لأناس كثيرين. أما أنا فمجرد رجل. هاأنذا أقف هنا أمامك. رجل

Twitter: @ketab_n

ذو عقل. هل خطر لك أبداً كيف يمكن لشخص لم يسمع في حياته كلمة دافئة أو مديحاً أن يفكّر في قضايا ستفكّر أنت بها أولاً على أساس أنها مع أو ضد طبقتك، وتراثك البيتي... الأحكام المسبقة المعهودة التي يجري الحديث عنها قرب المدفأة؟... هل سبق لك أن فكّرت قط كيف يشعر شخص كهذا؟ ليس لديّ تراث بيتي. لا شيء لديّ أفكّر في محاربته. تراثي تاريخي. ما الذي لديّ حتى أتطلع إليه كجزء من الماضي سوى ذلك الماضي القومي الذي تريدون أن تنتزعوا منه أيها السادة مستقبلكم؟ هل عليّ أن أترك ذكائي، طموحاتي إلى مصير أفضل، هل أتركها ليُسلب منها الشيء الوحيد الذي تعمل وفقه وذلك بسبب رغبة بعض المتحمسين العنيفين؟ أنت تنتمي إلى مقاطعتك، ولكن كل هذه الأرض لي... أو لا شيء. لا شكّ أنك ستُعتَبر شهيداً في أحد الأيام - بطلاً من نوع ما- قديساً سياسياً. ولكن أرجو أن تعذرني. أنا قانع بتحضير نفسي لأصبح عاملاً. وما الذي تستطيعونه أنتم أيها الناس بإراقة بضع نقاط من الدم على الثلج؟ فوق هذا الاتساع كله! فوق هذا الاتساع البائس! أقول لكم... ».

وهنا صرخ بصوت متردد مكتوم وهو يتقدم خطوة واحدة نحو السرير:

- إن الحاجة لا تدعو إلى الكثير من الأشباح المتابة التي أستطيع أن أمشي خلالها... ولكن إلى رجل!

رمى هالدين بذراعيه نحو الأمام وكأنما يريد أن يبعد عنه شيئاً مرعباً.

صاح بفزع مروّع:

- أفهم كلّ شيء الآن. أفهمه... أخيراً.

ترنّح رازوموف متراجعاً نحو الطاولة. تعرّق جبينه بينما سرت رعشة باردة حتى أسفل عموده الفقري.

Twitter: @ketab_n

سأل نفسه: «ما الذي كنت أقوله؟ هل تركته ينزلق من بين أصابعي أخيراً؟»

أحسّ بشفتيه تجفّان كالجلد الخاص بتجليد الكتب، وبدلاً عن أن يبتسم ابتسامة توحي بالثقة استطاع أن يكشّر على نحو غير أكيد.

ثم بدأ بصوت استرضائي أصبح ثابتاً بعد الكلمات الأولى المرتجفة:

ـ ما الذي ستناله؟ ما الذي ستناله؟ تأمّل في قضية رجل ذي عادات هادئة وموله بالدراسة... وفجأة يصبح هكذا... لست متمرّساً في المحادثات اللطيفة... ولكن...

أحسّ بغضب شرير يتملّكه.

ـ ما الذي كنّا سنفعله معاً حتى منتصف الليل؟ هل نجلس هنا واحدنا مقابل الآخر ونفكّر في... في... أرضك المخضّبة بدماء القتلى؟

كان لهالدين موقف الخاضع المفجوع. أخفض رأسه ويداه معلّقتان بين ركبتيه. كان صوته خفيضاً متألماً إنما هادئاً.

ـ أرى الآن ماهيّة الأمر يا رازوموف... يا أخي. أنت روح شهمة، ولكن ما فعلتُه أنا يثير اشمئزازك... يا للأسف...

حدّق رازوموف إلى الفراغ. كان قد صرّ على أسنانه بقوّة إلى حدّ أن وجهه كله كان يؤلمه. كان مستحيلاً أن يصدر عنه صوت واحد.

أضاف هالدين بكآبة، بعد توقّف قصير، وهو ينظر إلى الأعلى للحظة ثم يثبّت نظره إلى الأرض:

ـ وحتى شخصي أيضاً يثير كرهك أيضاً ربما. وبالفعل، فما لم يكن المرء...

Twitter: @ketab_n

قطع كلامه، إذ كان يبدو عليه أنه ينتظر كلمة ما، ولكن رازوموف بقي صامتاً. أومأ هالدين برأسه مرتين بحزن.

همهم:

ـ طبعاً، طبعاً. آه! عمل مضن!

بقي ساكناً تماماً للحظة، ثم جعل قلب رازوموف المثقل يخفق خفقة ثقيلة بأن نهض برشاقة.

صرح بحزن وبصوت خفيض واضح:

ـ وداعاً إذن.

حدّق رازوموف إلى الأمام، ولكن مشاهدته ليد هالدين المرفوعة صدّته قبل أن يستطيع الابتعاد عن الطاولة. استند إليها بتثاقل وهو يصغي إلى الصوت الضعيف لإحدى ساعات المدينة تدّق معلنة منتصف الليل. هاهو هالدين قد سبق له ووقف عند الباب، طويلاً ومستقيماً كسهم، بوجهه الشاحب ويده المرفوعة باحتراس. إنه يصلح لأن يكون موديلاً لتمثال لشاب جريء يصغي إلى صوت داخلي. نظر رازوموف آليّاً إلى ساعته. وحين نظر إلى الباب مرة أخرى كان هالدين قد اختفى. كان هناك صوت خفيض في الغرفة الخارجية، وصوت طقطقة ضعيفة لمزلاج يرفع بخفة. لقد رحل... دون ضجة تقريباً. كالأشباح.

ركض رازوموف نحو الأمام مترنّحاً، بشفتين منفرجتين صامتتين. كان الباب الخارجي مفتوحاً. خرج مترنّحاً إلى منبسط الدرج، ثم اتكأ على الدرابزون. حدّق في بئر الدرج العميقة التي كان في آخرها شعلة ضئيلة واهية، ثم تابع بأذنه الهبوط اللولبي السريع لشخص ما ينزل الدرج على رؤوس قدميه. كان صوتاً خفيفاً سريعاً مطقطقاً قد غرق مبتعداً عنه في الأعماق. ظلّ متلاشٍ مرّ عبر النور الواهي: غمزة الشعلة الضئيلة. ثم سكون.

Twitter: @ketab_n

ظلّ رازوموف معلّقاً هناك، يتنفّس الهواء البارد الرطب الممزوج بالروائح الخبيثة للدرج غير النظيف. هدوء تام.

عاد إلى غرفته ببطء وهو يغلق الأبواب من خلفه. كان النور المسالم الثابت لمصباح المطالعة يلتمع فوق الساعة. وقف رازوموف وهو ينظر إلى القرص الأبيض. كانت تشير إلى ثلاث دقائق قبل منتصف الليل. أمسك الساعة بيده وهو يتحسّسها.

همهم: «متأخرة»، ثم اعترته نوبة غريبة من الوهن. ارتجفت ركبتاه، وانزلقت الساعة والسلسلة من بين أصابعه في لحظة وسقطتا على الأرض. جفل حتى كاد يسقط هو نفسه. وحين استعاد أخيراً ثقة كافية بأعضائه بحيث ينحني ليلتقطها، رفعها إلى أذنه فوراً. وبعد برهة هدر قائلاً: «لقد توقّفت». ثم تردّد فترة طويلة قبل أن يهمهم لنفسه بغضب: «لقد تمّ الأمر... والآن هيا إلى العمل.»

جلس ومدّ يده كما اتفق إلى كتاب وفتحه في المنتصف وبدأ يقرأ، ولكن بعد أن قرأ بوعي حوالي السطرين فقد سيطرته على ما هو مكتوب أمامه ولم يحاول استعادتها. فكّر: «كان هناك بالتأكيد عميل للشرطة من نوع ما يراقب المنزل عبر الشارع.»

تخيّل نفسه متوارياً في مدخل معتم، جاحظ العينين، متلفّعاً بعباءة حتى أنفه وعلى رأسه قبعة جنرال ذات ريش ومن النوع المرتدّ. هذا الخاطر الغريب جعله يجفل في كرسيه متشنّجاً. كان عليه أن يهزّ رأسه بعنف ليتخلّص منه. ربما يكون الرجل متنكّراً كفلاّح... كشحّاذ... وربما يكون مرتدياً لمعطف داكن ويحمل بندقية محشوّة... ربما يكون وغداً ذا عينين خادعتين تفوح منه روائح البصل والكحول الحامضة.

هذه الفكرة المستحضرة جعلته يشعر بغثيان حقيقي. «لماذا أريد إزعاج نفسي بذلك؟» هذا ما فكّر به رازوموف باشمئزاز. «هل أنا دركيّ؟ علاوة على ذلك فالأمر قد تم.»

Twitter: @ketab_n

نهض في حالة استثارة شديدة. لم يكن الأمر قد تم. ليس بعد. ليس قبل حلول الساعة الثانية عشرة والنصف. وساعته قد توقفت. جعله هذا يصل إلى حالة من اليأس. من المستحيل أن يعرف الساعة! كانت صاحبة المنزل ووجميع الجيران نائمين الآن. كيف يمكنه أن يذهب و... الله وحده يعلم ما يمكن أن يتصوّروه، أو كم سيتصورون. لم يجرؤ على الخروج إلى الشارع ليعرف كم هي الساعة. قال بمرارة: «أنا مشبوه الآن. لا فائدة من التهرّب من هذه الحقيقة.» ولو استطاع هالدين لسبب ما أو لآخر أن يهرب فلا يظهر في شارع كاريبلنايا فإن الشرطة ستغزو مكان سكناه. وإذا لم يكن في المنزل فلن يستطيع أن يبرئ ساحة نفسه. إطلاقاً. نظر رازوموف بجنون في أرجاء الغرفة وكأنه يبحث عن وسيلة للقبض على الزمن الذي بدا وكأنه قد هرب منه تماماً. لم يسمع إطلاقاً، كما يتذكّر، ضربات ساعة المدينة في غرفته قبل هذه الليلة. ولم يكن واثقاً حتى فيما إذا كان قد سمعها فعلاً في هذه الليلة.

ذهب إلى النافذة ووقف هناك برأس محنيّة قليلاً على الساعة علّه يسمع منها ولو صوتاً ضعيفاً. قال لنفسه: «سأبقى هنا حتى أسمع شيئاً ما». وقف ساكناً، وأذنه مصوبة نحو ألواح النافذة الزجاجية. اعتراه خدر مؤلم ضار راح يرسل ومضات الألم إلى ظهره بينما راحت ساقاه تعذّبانه. لم يتزحزح. كان ذهنه يحوم عند حدود هذيان الحمى. سمع نفسه يقول فجأة: «أنا أعترف»، وكأنه شخص ممدّد على آلة تعذيب. فكّر: «أنا فوق آلة تعذيب.» أحسّ أنه يكاد يغمى عليه. ولكنّ الدويّ الخفيف العميق لساعة بعيدة بدا وكأنه ينفجر في رأسه... سمعها بوضوح كبير.. إنها الواحدة!

لو لم يظهر في الموعد والمكان المحددين لكانت الشرطة تفتش الآن المنزل. لم يصله أي صوت. لقد تم الأمر إذن هذه المرة.

Twitter: @ketab_n

جرّ نفسه بألم إلى الطاولة وسقط في الكرسي. رمى بالكتاب بعيداً وتناول قطعة مربّعة من الورق. كانت تشبه تلك الكومة من الأوراق المغطاة بكتابته الدقيقة، ولكنها فارغة. ثم أخذ قلماً بفظاظة وغمسه في الدواة مع فكرة غامضة تدور في ذهنه حول الاستمرار في كتابة مقالته... ولكن قلمه بقي ثابتاً فوق الورقة. ظل معلّقاً هناك بعض الوقت قبل أن ينزل ويشكّل حروفاً طويلة أشبه بالخربشة.

بوجه ساكن وبشفتين مزمومتين بقوة بدأ رازوموف يكتب. وحين كتب بخط كبير فقدت يده خطها الدقيق الأنيق... أضحت يده غير ثابتة، طفولية تقريباً. كتب خمسة أسطر الواحد تحت الآخر:

«التاريخ وليس النظرية.

الوطنية وليس الأممية.

الارتقاء وليس الثورة.

التوجيه وليس التدمير.

الوحدة وليس التمزيق.»

حدّق إليه بكلل. ثم التفتت عيناه إلى السرير وبقيتا مثبتتين هناك دقائق كثيرة، بينما كانت يده اليمنى تتلمّس فوق الطاولة كلها الموسى.

نهض أخيراً، وسار بخطوات مقيسة ثم طعن الورقة بالموسى على الجدار الخشبي المجصص فوق رأس السرير. وبعد أن فعل ذلك خطا نحو الخلف خطوة واحدة ولوّح بيده وهو يدور بنظره في أرجاء الغرفة.

بعد ذلك لم ينظر ثانية إلى السرير. أنزل عباءته الكبيرة عن المشجب ولفّ نفسه جيداً وتمدّد على الأريكة القاسية المغطاة

Twitter: @ketab_n

بغطاء من شعر الحصان في الطرف الآخر من الغرفة. ثم أغلق نوم رصاصي ثقيل عينيه فوراً. استيقظ عدة مرات في تلك الليلة وهو يرتجف من رؤيته لحلم يرى نفسه فيه يسير ضمن عواصف ثلجية في بلد اسمه روسيا حيث كان وحيداً تماماً كأي حاكم فرد استبدادي تمت خيانته؛ روسيا هائلة الاتساع، شتائية، يستطيع بصره بطريقة ما أن يعانقها كلها في اتساعها الهائل وكأنها خريطة. ولكن بعد كل مرة يجفل فيها وتعتريه الرجفة كان جفناه الثقيلان يسقطان فوق عينيه المغشاتين فينام ثانية.

ثالثاً:

مع اقترابنا من هذا الجزء من حكاية رازوموف، فإن ذهني، الذهن المحتشم لمعلم عجوز للغات، يشعر أكثر فأكثر بصعوبة المهمة.

والمهمة ليست في الحقيقة كتابة «تلخيص» بشكل سردي لوثيقة إنسانية غريبة، بل هي وصف - وأرى ذلك الآن بوضوح - الشروط الأخلاقية السائدة فوق جزء كبير من وجه هذه الأرض؛ شروط لا يسهل فهمها بله اكتشافها في حدود حكاية، حتى يتم إيجاد الكلمة المفتاح لها؛ الكلمة التي يمكن أن تقف خلف كل الكلمات التي تغطي الصفحات، الكلمة التي، إن لم تكن هي الحقيقة نفسها، فقد تحمل، صدفة، من الحقيقة ما يكفي لتساعد على الاكتشاف الأخلاقي الذي يتوجب أن يكون هدف كل حكاية.

ها أنذا أقلّب للمرة المائة أوراق سجل السيد رازوموف، ثم أضعها جانباً، أتناول القلم... فالقلم مستعد لمهمته، مهمة التسجيل بالأسود على الأبيض، ولكني متردد. فالكلمة التي تلحّ على الزحف تحت النقطة ليست سوى عبارة «السخرية».

Twitter: @ketab_n

إذ أن هذه هي علامة الحكم الفردي الاستبدادي الروسي والثورة الروسية. ففي افتخارها بالكثرة، في ادعاءاتها الغريبة بالقداسة، وفي استعدادها السري لتحقير نفسها من خلال المعاناة، فإن روح روسيا هي روح السخرية. إنها تتكوّن من تصريحات السياسيين، نظريات الثوار، والتنبؤات السرية للأنبياء إلى حد جعل الحرية تبدو شكلاً من الفسوق، والفضائل المسيحية تبدو هي نفسها بذيئة... ولكن عليّ أن أعتذر عن هذا الاستطراد. إنه ينطلق من دراسة المسار الذي اتخذته حكاية السيد رازوموف بعد أن أصبحت قناعاته المحافظة، المشوبة بليبرالية تناسب طبيعة حماسة سنّه، متبلورة بسبب الصدمة المتأتية عن احتكاكه بهالدين.

استيقظ رازوموف للمرة العاشرة ربما وهو يرتجف بشدة. وما أن رأى ضوء النهار في نافذته، حتى قاوم الرغبة في التمدّد من جديد. لم يتذكر أي شيء، ولكنه لم يحس بالغرابة أن يجد نفسه ممدداً على الأريكة بعباءته وقد وصل البرد حتى عظامه. بدا النور الداخل من النافذة كئيباً على نحو غريب، لا يحوي أي وعد كما هو شأن نور كل يوم جديد بالنسبة إلى شاب. كان ذلك استيقاظ رجل مصاب بمرض عضال، أو رجل في التسعين من عمره. نظر إلى المصباح الذي كان اشتعل حتى نفد وقوده. كان منتصباً هناك، المنارة المطفأة بجهوده، شيء بارد من النحاس والبورسلان، بين الصفحات المتناثرة من مذكراته الدراسية وأكوام صغيرة من الكتب... مجرد ركام من الورق المسودّ... مادة ميتة... دون أهمية أو فائدة.

نهض على قدميه، ثم خلع عنه عباءته وعلقها على المشجب، وقد قام بكل هذه الحركات آلياً. كان هناك ملل لا يصدق، أحس بركود كركود مياه حفرة وكأن الحياة قد انسحبت من كل الأشياء بل وحتى من أفكاره. لم يكن هناك صوت واحد في المبنى.

Twitter: @ketab_n

فكر وهو يلتفت مبتعداً عن المجشب بذلك الأسلوب نفسه الفاقد للحياة في أنه لا بد وأن الوقت لا يزال باكراً؛ ولكنه حين نظر إلى الساعة فوق الطاولة رأى كلا العقربين واقفين عند الثانية عشرة.

همم لنفسه: «آه! نعم!» وألقى، كأنما بدأ يستيقظ قليلاً، نظرة فاحصة على غرفته. لفتت نظره الورقة المعلقة على الحائط وقد طعنت بالموسى. نظر إليها من بعد دون موافقة أو ارتباك، ولكنه حين سمع الخادم وقد بدأت تعمل بنشاط في الغرفة الخارجية وتسخن «الساموفار» لتصنع له شاي الصباح، سار نحو الورقة وأنزلها دون أي اكتراث.

وبينما كان يفعل ذلك نظر نحو السرير الذي لم ينم عليه الليلة الفائتة. كان التجويف في الوسادة والذي تركه وزن رأس هالدين واضحاً جداً.

حتى غضبه على هذه العلامة التي تدل على مرور الرجل بمسكنه كان قليلاً. لم يحاول أن يغذيه ليحييه. لم يفعل شيئاً طوال ذلك اليوم، بل حتى أنه لم يمشط شعره. لم تخطر له أبداً فكرة الخروج من غرفته.. وإذا لم يكن قد بدأ بسلسلة مترابطة من الأفكار فلم يكن ذلك لأنه غير قادر على التفكير. بل كان السبب هو أنه لم يكن مهتماً بما فيه الكفاية.

تثاءب مراراً. شرب كميات كبيرة من الشاي، تجوّل دون هدف، وحين جلس لم يتزحزح فترة طويلة. أمضى بعض الوقت وهو ينقر على النافذة ببنانه بهدوء. وخلال تجوله القلق حول الطاولة رأى انعكاس وجهه في المرآة وقد أوقفه ذلك عن التجول. كانت العينان اللتان ردتا تحديقته أتعس عينين رآهما في حياته. وكان ذلك أول شيء حرك الركود الذهني لذلك اليوم.

Twitter: @ketab_n

لم يتأثر شخصياً، بل فكر فحسب في أن الحياة دون سعادة أمر مستحيل. ما هي السعادة؟ تثاءب واستأنف التجوّل بين جدران غرفته. التشوّف كان سعادة... هذا كل ما في الأمر... ولا شيء آخر. إن التشوّف إلى إشباع رغبة ما، إشباع عاطفة ما، الحب، الطموح الكراهية... الكراهية على نحو لا سبيل إلى الشك فيه. الحب والكراهية. والنجاة من أخطار الوجود، أن تعيش دون خوف، هي سعادة أيضاً. لم يكن هناك شيء آخر. غياب الخوف... التشوّف. «أوه! يا لمصير البشرية التعس!» هذا ما صاح به ذهنياً، ثم أضاف في ذهنه: «يجب أن أكون سعيداً بما فيه الكفاية فيما يخص هذه المسألة.» ولكنه لم يشعر بالإثارة بسبب تلك الثقة. بل حدث العكس، إذ تثاءب ثانية كما كان يتثاءب طوال النهار. وقد دهش قليلاً إذ اكتشف أن الليل قد حل دون أن يدري. سادت العتمة الغرفة بسرعة رغم أن الزمن بدا وكأنه ساكن. كيف حدث أنه لم يلحظ مرور ذلك اليوم؛ طبعاً لأن الساعة قد تعطلت...

لم يشعل مصباحه، بل ذهب إلى السرير ورمى بنفسه فوقه دون تردّد. وبينما كان متمدداً على ظهره، وضع يديه تحت رأسه وحدق نحو الأعلى. بعد لحظة فكر قائلاً: «أنا أتمدد هنا كما كان يفعل ذلك الرجل. وأتساءل إن لم يكن قد نام يا ترى بينما كنت أصارع العاصفة الثلجية في الشوارع. لا، لم ينم. ولكن لم لا أنام أنا؟» ثم أحس بصمت الليل يضغط بثقل على أعضائه كافة.

في هدوء الجليد الرهيب في الخارج اخترقت ضربات ساعة المدينة التي أشارت إلى منتصف الليل هدوء حياته المعلّقة.

ومن جديد بدأ يفكر. لقد مرّت أربع وعشرون ساعة منذ أن غادر ذلك الرجل غرفته. كان لدى رازوموف إحساس واضح بأن

Twitter: @ketab_n

هالدين كان ينام في القلعة في تلك الليلة. هذا اليقين أغضبه لأن لم يكن يريد التفكير بهالدين، ولكنه برّر ذلك لنفسه بأسباب فيزيولوجية وسيكولوجية. لم يكن ذلك الشخص قد نام إلا بالكاد منذ أسابيع بحالها كما أقرّ هو بنفسه، والآن فإن كل انعدام لليقين هدف له. لا شك أنه كان يتشوف إلى اكتمال استشهاده. الشخص الذي يصمم على القتل ليس عليه أن يفعل الكثير حتى يصل إلى التصميم على الموت. ربما كان هالدين ينام بعمق أكثر من «الجنرال تـ... » الذي كانت مهمته ـ وهي مهمة متعبة ـ لم تنته بعد، وعلى رأسه كان معلقاً سيف الانتقام الثوري.

عندما تذكر رازوموف الرجل الضخم ذا الوجنتين الثقيلتين المستريحتين فوق قبّة بزّته، بطل الحكم الاستبدادي، الذي لم يترك أمارة دهشة أو عدم تصديق أو مرح تفلت منه، والذي كانت عيناه الجاحظتان قادرتين على التعبير عن حقد قاتل لكل ما هو ثورة... تقلّب رازوموف في فراشه بقلق.

فكّر: «لقد كان يشكّ بي. أعتقد أن عليه أن يشكّ بكل شخص. سيكون قادراً على الشكّ بزوجته، هذا لو دخل إلى مخدعها باعترافه ذاك».

جلس منتصباً في فراشه وقد أصابه الكرب. هل سيبقى مشبوهاً سياسياً طوال عمره؟ هل سيقضي حياته كرجل غير ممكن الوثوق به تماماً... مع ملاحظة غير نظيفة وسرية من الشرطة ملصقة بملفّه؟ ما نوع المستقبل الذي يستطيع أن يتشوّف إليه؟

فكّر مرّة أخرى: «أنا الآن مشبوه.» ولكن عادة التأمّل والرغبة في السلامة، في حياة طبيعية، واللتان كانتا قويتان جداً لديه حضرتا لنجدته مع انقضاء ساعات الليل. كان وجوده الهادئ، الثابت، المجدّ، سيبرهن في النهاية على إخلاصه. هناك طرق عديدة مسموح

Twitter: @ketab_n

بها يستطيع المرء من خلالها خدمة بلده. هناك نشاط يخدم التقدّم دون أن يكون ثورياً. حقل التأثير عظيم ومتنوع إلى حد غير محدود... ما أن يحقّق المرء شهرة لنفسه.

كان تفكيره يعود كطائر محوّم بعد أربع وعشرين ساعة إلى الميدالية الفضية، وحدث أن رفرف هناك.

حين بزغ الفجر لم يكن قد نام، ولا للحظة واحدة، ولكنه نهض فلم يشعر بالكثير من التعب بل أحسّ أنه متمالك نفسه إلى حدّ كاف لممارسة الأمور العملية كلها.

خرج وحضر ثلاث محاضرات في الصباح. ولكن العمل في المكتبة كان مجرد ادعاء غبي بالقيام بالبحث. جلس والكثير من الكتب مفتوح أمامه محاولاً كتابة الملاحظات والاقتباسات. كان هدوءه الجديد أشبه بثوب رقيق، وبدا كأنه سيطير تحت رحمة أية كلمة عرضية. الخيانة! عجباً! لقد فعل ذلك الشخص كل ما هو ضروري لخيانة نفسه. ما كانت الحاجة تدعو إلاّ إلى القليل القليل لخداعه. جادل نفسه قائلاً:

«لم أقل له أية كلمة غير صادقة. ولا كلمة واحدة».

وما أن يبدأ بالتفكير على هذا المنوال حتى لا تعود مسألة العمل المفيد قائمة. تمرّ الأفكار نفسها عبر ذهنه، ويلفظ ذهنياً الكلمات نفسها مكرّراً إياها المرة تلو الأخرى. أغلق الكتب كلها ثم دسّ أوراقه كلها في جيبه بحركات تشنّجية وهو حانق داخلياً على هالدين.

وبينما كان يغادر المكتبة انضمّ إليه طالب نحيل بارز العظام يرتدي معطفاً بالياً وسار إلى جانبه بكآبة. ردّ رازوموف على تحيته المهمهمة دون أن ينظر إليه إطلاقاً.

Twitter: @ketab_n

فكّر بخوف غريب من اللامتوقّع: «ما الـذي يريـده مـني؟» وقـد حاول أن يطرح هذا الخوف جانباً حتى لا يهيمن على حياته إلى الأبد. ولكن الآخر همهم بحذر وبعينين مسبلتين، مفترضاً أن زميله قد عرف بأخبار «جلاّد دو بـ...» (هذا هـو التعـبير الـذي اسـتعمله)، وأنـه قـد قبض عليه في الليلة قبل الماضية.

همهم رازوموف من خلال أسنانه:

ـ كنت مريضاً... لم أخرج من غرفتي.

دفع الطالب الطويل، وهو يرفع كتفيـه، بيديـه عميقـاً في جيبـه. كانت له ذقن خالية من الشعر، مربّعة الشكل وشحمية، ترتجف قلـيلاً عندما يتكلم؛ أما أنفه الذي قرصه الهواء البارد حتى احمرّ تمامـاً فبـدا كأنف مزيّف مصنوع من الـورق المقـوّى الملـوّن وذلـك بـين وجنتيـه الغائرتين. كان مظهره بأكمله موسوماً بطابع البرد والجوع. سـار بـبطء وتعمّد قرب رازوموف وعيناه على الأرض.

استأنف بالهمهمة الحذرة نفسها:

ـ إنه بيان رسمي. قد تكون تلـك كذبـة. ولكـن تمّ القـبض علـى شخص ما بين منتصف الليل والواحدة مـن صـباح يـوم الثلاثـاء. هـذا أمر مؤكد.

كان يتحدّث بـسرعة تحـت سـتار عينيـه النـاظرتين إلى الأرض، فأخبر رازوموف أن هذا الأمر تمت معرفته من خـلال كاتـب حكـومي صغير يعمل في السكرتاريا المركزية. كان هذا الرجل ينتمي إلى إحدى الحلقات الثورية. قال الطالب:

ـ الحلقة نفسها التي أنتمي إليها.

كانا يعبران ساحة رباعياً محاطة بالأبنية. حلّ قنـوط لا حـدود لـه

Twitter: @ketab_n

على روح رازوموف، فأحبط طاقته وبدا له كل شيء مشوشاً بل متلاشياً. لم يتجرأ على وداع ذلك الشخص هناك. كانت الفكرة التي مرّت في ذهنه هي: «قد يكون منتمياً إلى الشرطة. من يدري؟» ولكنه إذا راح ينظر إلى الشخص البائس الذي كان يرافقه وقد عضه الجوع والبرد، أحس بغرابة شكوكه.

ـ ولكني ـ كما تعرف ـ لا أنتمي إلى أية حلقة. أنا...

لم يجرؤ على قول المزيد. ولا حتى أن يعدّل من سرعة خطواته. راح الآخر، الذي كان يرفع قدمه ذات الحذاء المثير الشفقة ثم ينزلها بتروٍ دقيق، يحتجّ بلهجة خفيفة أنه لم يكن من الضروري أن ينتمي كل شخص إلى أحد التنظيمات. إن أكثر الشخصيات قيمة قد بقيت خارجها. إن بعضاً من أفضل الأعمال أنجزت خارج التنظيمات. ثم قال بسرعة كبيرة وهو يهمس بشفتين محمومتين:

ـ الشخص الذي اعتقل في الشارع كان هالدين.

وقد ظنّ هذا صمت رازوموف المروّع على أنه رد فعل طبيعي فأكد لنفسه أنه لم يكن مخطئاً. كان لدى ذلك الكاتب الحكومي مناوبة ليلية في تلك الليلة في السكرتارية. لقد سمع ضجة هائلة في القاعة من كثرة وقع الأقدام، وبما أنه يعرف أن السجناء السياسيين كان يؤتى بهم أحياناً في الليل من القلعة، فقد فتح باب الغرفة التي كان يعمل فيها فجأة. وقبل أن يستطيع الدركي المناوب أن يدفعه إلى الخلف ويغلق الباب في وجهه بقوة، رأى سجيناً يُحمل جزئياً ويُجرّ جزئياً على امتداد القاعة من قبل عدد كبير من رجال الشرطة. كان قد ضرب بوحشية. وقد استطاع هذا الكاتب أن يميز السجين تماماً على أنه هالدين. وبعد أقل من نصف ساعة وصل «الجنرال تـ... » إلى السكرتارية ليستجوب السجين شخصياً.

Twitter: @ketab_n

اختتم الطالب النحيل كلامه قائلاً:

ـ ألست مندهشاً؟

أجاب رازوموف بخشونة بالنفي ولكن سرعان ما ندم على هذا الجواب.

ـ الكل كانوا يظنون أن هالدين في المقاطعات... مع ذويه. ألم تكن تظن ذلك أنت أيضاً؟

ركز الطالب عينيه الكبيرتين الغائرتين على رازوموف الذي قال دون احتراس:

ـ ذووه خارج البلاد.

كان قادراً على عضّ لسانه حتى يقطعه من شدة حنقه. أجاب الطالب بلهجة توحي بالمعنى العميق.

ـ هكذا إذن! كنت الوحيد الذي يدري...

ثم توقف عن الكلام.

فكر رازوموف في نفسه. «لقد أقسموا على دماري.»

ثم سأل الطالب بفضول مرير:

ـ هل تحدثت عن هذا الموضوع إلى أي شخص آخر؟

هزّ الآخر رأسه.

ـ لا، إليك فحسب. كانت حلقتنا تظن أنه بما أن هالدين قد سمع وهو يعبّر مراراً عن تقديره الودي لشخصك...

لم يستطع رازوموف أن يكبح إيماءة تعبّر عن يأسه الغاضب، ولكن الآخر أساء فهمها على ما يبدو، لأنه توقف عن الكلام وأشاح بعيداً بعينيه السوداوين الخابيتين.

Twitter: @ketab_n

تحركا وهما يسيران جنباً إلى جنب في صمت. ثم بدأ الطالب النحيل يهمس مرة أخرى دون أن ينظر إلى رازوموف:

ـ بما أنه ليس لدينا في داخل القلعة شخص من حلقتنا حتى نستطيع تزويده بالسم، فدق سبق ودرسنا مسألة القيام بعمل انتقامي سياسي سريعاً جداً...

قاطعه رازوموف وهو يمشي مجهداً:

ـ هل كنت على معرفة بهالدين؟ هل كان يعرف مكان سكنك؟

أجاب رفيقه بهمس محموم يتباين مع الفتور الكئيب لوجهه ومظهره:

ـ سعدت بالاستماع إليه مرتين. لم يكن يعرف مكان سكناي... مسكني بائس جداً... إذ أسكن مع عائلة حرفيّ... لديّ زاوية من غرفة فحسب. ليس بالأمر العملي زيارتي هناك، ولكن إن كنت في حاجة إلى أي شيء فأنا جاهز...

ارتجف رازوموف من الغضب والخوف. فقد سيطرته على نفسه ولكنه أبقى صوته خفيضاً.

ـ إيّاك أن تقترب مني. إياك أن تكلمني. لا تخاطبني ولا بكلمة واحدة. أحظّر عليك ذلك.

قال الآخر بخضوع دون إبداء أية دهشة تذكر على هذا الحظر المفاجئ:

ـ حسناً، أنت لا ترغب في ذلك لأسباب سرية... تماماً... أفهمك.

ابتعد على الفور، دون أن يرفع عينيه حتى؛ ورأى رازوموف شخصه النحيل، الرثّ، الذي عضّه الجوع، يقطع الشارع على نحو مائل برأس مطأطئة وتلك الحركة الغريبة التي لقدميه.

Twitter: @ketab_n

راقبه كما يراقب المرء شبحاً خارجاً، من كابوس، ثم استمر في طريقه محاولاً ألاّ يفكّر. عند منبسط الدرج قرب غرفته بدت صاحبة المنزل وكأنها في انتظاره. كانت امرأة قصيرة بدينة، لا شكل لها، ذات وجه أصفر كبير محاط أبدياً بشال صوفي أسود. وحين رأته يصعد مجموعة الدرجات الأخيرة رفعت ذراعيها معاً إلى الأعلى منفعلة ثم شبكت يديها أمام وجهها.

ـ كيريلو سيدوروفيتش ـ يا أبي الصغير ـ ما الذي كنت تفعله؟ وأنت ذلك الشاب الصغير أيضاً! لقد رحلت الشرطة للتوّ بعد أن فتشت غرفتك.

حدّق إليها رازوموف باهتمام صامت مدقّق فحسب. كان وجهها الأصفر البدين يتحرك بانفعال. أغمضت عينيها نصف إغماضة متوسلة.

ـ مثل هذا الشاب العاقل! يمكن لأيّ شخص أن يرى أنك شخص عاقل. والآن – هكذا – دفعة واحدة... ما الفائدة من اختلاطك بهؤلاء «العدميين»؟ تخلّ عن ذلك يا أبي الصغير. إنهم أشخاص بؤساء.

هزّ رازوموف كتفيه قليلاً.

ـ أم هل هو عدو لا تعرفه افترى عليك يا كيريلو سيدوروفيتش؟

العالم مليء بالقلوب السوداء والاتهامات المزيّفة في هذه الأيام. هناك خوف شديد في كل مكان.

ـ هل سمعت أن شخصاً ما قد وشى بي؟

هذا ما قاله لها رازوموف دون أن يرفع عينيه عن وجهها المرتجف.

ولكنها لم تكن قد سمعت شيئاً. لقد حاولت أن تعرف عن طريق توجيه السؤال إلى نقيب الشرطة بينما كان رجاله يقلبون الغرفة عاليها سافلها. كان نقيب شرطة المنطقة يعرفها منذ أحد عشر عاماً وهو شخص إنساني النزعة. ولكنه قال لها على منبسط الدرج وهو يبدو شديد التشاؤم والغضب:

Twitter: @ketab_n

- أيتها المرأة الطيبة. لا تطرحي أية أسئلة. أنا شخصياً لا أعرف أي شيء. الأمر أتى من سلطات أعلى.

وقد ظهر بالفعل، بعد وصول شرطة المنطقة بقليل، رجل عالي المقام جداً يرتدي معطفاً من الفرو وقبعة لامعة، وقد جلس في الغرفة ونقّب في كل الأوراق بنفسه. لقد أتى وحيداً وخرج وحيداً دون أن يأخذ معه شيئاً. كانت تحاول إعادة الغرفة إلى وضعها السابق منذ أن رحلوا.

انصرف عنها رازوموف بفظاظة ودخل إلى غرفته.

لاحظ أن كتبه كلها قد تمّ نفضها ثم رميها إلى الأرض. لحقت به صاحبة المنزل وانحنت متألمة وراحت تلتقط الكتب الواحد في إثر الآخر وتضعها في مريلتها. كانت أوراقه ومذكراته التي يبقيها دائماً مصنّفة على نحو أنيق (كلها متعلقة بدراسته) قد خلطت دون نظام وكوّمت معاً في كومة غير مرتّبة في منتصف الطاولة.

أثّرت فيه هذه الفوضى إلى حد عميق دونما سبب عقلاني. جلس وراح يحدق. كان لديه إحساس مميّز بأن وجوده بالذات قد تمّ تقويضه بأسلوب غامض ما، وبأنّ دعائمه الأخلاقية تتهاوى بعيداً عنه الواحدة إثر الأخرى. بل أحسّ أيضاً بدوار خفيف وتحرّك كأنما يريد الوصول إلى شيء ما ليثبت نفسه به.

نهضت المرأة على قدميها وهي تئنّ، ثم رمت بالكتب التي جمعتها في مريلتها على الأريكة وغادرت الغرفة وهي تهمهم وتتنهّد.

عندها فحسب لاحظ أن قطعة الورق التي بقيت ليلة وحدة مطعونة على الجدار فوق سريره الفارغ كانت موضوعة فوق أعلى الكومة.

حين أنزلها من مكانها في اليوم السابق طواها أربع طيات، بشرود، وذلك قبل أن يسقطها على الطاولة. وهاهو يراها الآن فوق أعلى الكومة، دون طيّ، ممهّدة حتى وتغطي كومة الصفحات الملخبطة

Twitter: @ketab_n

كلها، سجل حياته الفكرية في السنوات الثلاث الماضية. لم تكن قد رميت هناك، بل وضعت هناك... ممهّدة أيضاً! لقد أحس بوجود مقصد ذي مغزى عميق في ذلك... أو ربما سخرية غامضة المعنى.

جلس محدقاً إلى قطعة الورق حتى بدأت عيناه تؤلمانه. لم يحاول أن يعيد تنظيم أوراقه لا في ذلك المساء ولا في اليوم التالي... الذي أنفقه في البيت في حالة من التردد الغريب. هذا التردد كان مردّه إلى مسألة ما إذا كان عليه أن يستمر في العيش... لا أكثر ولا أقلّ. ولكن طبيعته كانت بعيدة عن تردّد رجل يفكر في الانتحار. إن فكرة معاملة جسده بعنف مسألة لم تخطر لرازوموف. لم تكن العضوية غير ذات العلاقة والتي تحمل الصفة، المشي، التنفّس، ارتداء هذه الملابس، تهمّ أي شخص، سوى صاحبة المنزل ربما. كان كيان رازوموف الحقيقي في المستقبل المرغوب المقرَّر... في ذلك المستقبل المهدّد من قبل لاقانونية الحكم الفردي - فالحكم الفردي لا يعرف أي قانون - ولاقانونية الثورة. إن الشعور بأن شخصيته الأخلاقية كانت تحت رحمة هذه القوى اللاقانونية، كان قوياً إلى حد أنه سأل نفسه بجدية إن كان الأمر يستحق أن يستمر في إنجاز الوظائف العقلية لذلك الوجود الذي لم يعد يبدو له وكأنه يخصه هو.

سأل نفسه: «ما الفائدة من ممارسة ذكائي ومتابعة التطوير المنظم لقدراتي وخطط عملي كلها؟ أريد أن أوجّه سلوكي بقناعات معقولة، ولكن ما الضمانة التي لديّ ضد شيء ما... ضد رعب مدمّر... يداهمني بينما أنا جالس هنا؟...»

نظر رازوموف بخوف نحو باب الغرفة الخارجية وكأنه يتوقع أن يقوم شكل من أشكال الشرّ بإدارة القبضة والظهور بصمت أمامه.

Twitter: @ketab_n

قال لنفسه: «إن اللص العادي ليجد ضمانات أكثر في القانون الذي يخرج عليه، وحتى شخص متوحّش مثل زيميانيتش له ما يعزّيه.» حسد رازوموف مادية اللص وعاطفة العاشق العنيد. إن عواقب أعمالهما واضحة دائماً كما تبقى حياتهما ملكاً لهما.

ولكنه نام بعمق في تلك الليلة وكأنه كان يعزّي نفسه بأسلوب زيميانيتش. لقد سقط فجأة على السرير وتمدّد كجذع ساقط، ولم يتذكر أي حلم حين استيقظ. ولكن بدا له وكأن روحه قد خرجت في الليل لتجمع زهور الحكمة الغاضبة. نهض من الفراش في مزاج من التصميم الكئيب وكأنما لديه معرفة جديدة بطبيعته. نظر بسخرية إلى كومة الأوراق على طاولته؛ ثم خرج من غرفته ليذهب للاستماع إلى المحاضرات وهو يهمهم لنفسه: «سنرى».

لم يكن في أي مزاج للتكلم مع أي شخص أو أن يسمع نفسه يجب عن سبب غيابه عن المحاضرات في اليوم السابق. ولكن كان من الصعب أن يصدّ بفظاظة زميلاً طيباً ذا وجه قرنفلي ناعم وشعر أشقر، ويحمل لقباً بين زملائه الطلاب هو: «كوستيا الطائش». كان هذا هو الابن الوحيد المعبود لمتعهّد حكمي شديد الثراء وأمّي، وكان لا يذهب إلى المحاضرات إلاّ خلال النبوات الدورية من الندم التي تنتابه بعد احتجاجات أبوية باكية. كان يتخبّط في كلامه مصدراً ضجيجاً كما يفعل جرو مستعاد، فيملأ صوته التيّاه بنفسه وإيماءاته العظيمة ممرات الأكاديمية الفارغة بمرح الحياة الشهوانية الخالية من التفكير، مما يثير ابتسامات متسامحة من مسافة كبيرة. كانت حواراته تتركز عادة على جياد النزهة وحفلات النبيذ في المطاعم الفاخرة، ومحاسن أشخاص ذوي فضيلة رخوة؛ وكانت له وجهة نظر ساذجة ملطفة. وقد انقضّ على رازوموف في حوالي الظهر، بصخب أقلّ من المعتاد ثم اقتاده جانباً.

Twitter: @ketab_n

ـ لحظة واحدة يا كيريلو سيدوروفيتش. بضع كلمات في هذه الزاوية الهادئة.

أحسّ بتردّد رازوموف دسّ يده تحت ذراعه ملاطفاً:

ـ لا، أرجوك أن تأتي معي. لا أريد أن أحدثك عن أي من ورطاتي الحمقاء. وما هي ورطاتي؟ لا شيء إطلاقاً. مجرد أفعال طفولية. في ليلة مضت رميت بشخص خارج مكان معين كنت أقضي فيه وقتاً طيباً جداً. كان وحشاً استبدادياً صغيراً، مجرد كاتب في دائرة الخزينة... كان يزعج أصحاب الدار. لقد عنّفته: «أنت لا تتصرّف بإنسانية مع مخلوقات الرب اللواتي هن أعظم منك فضلاً».

لا أستطيع أن أتحمّل مشاهدة أي استبداد يا كيريلو سيدوروفيتش. أقسم لك أني لا أستطيع. ولم يحمل كلامي محمل الجد. بدأ يصرخ قائلاً: «من هذا الجرو الوقح؟» كنت في حالة بدنية ممتازة وقتها وقد خرج من النافذة المغلقة على نحو مفاجئ تماماً. طار مسافة بعيدة عبر الفناء أيضاً. كنت ثائراً مثل... مثل... مينوطور[1]. تشبّثت النساء بي ورحن يزعقن، واختبأ عازفو الكمان تحت الطاولة... يا لها من متعة! لقد اضطر والدي إلى دفع مبلغ كبير من المال.

ضحك بينه وبين نفسه.

ـ والدي رجل مفيد جداً. وهذا أمر مناسب جداً لي. إني أتورط فعلاً في أزمات فظيعة.

خفّت حدّة تعاليه. هذا كل ما في الأمر. ما هي حياته؟ لا شيء، لا فائدة فيها لأي شخص. مجرد لهو ولعب. وستنتهي في أحد الأيام

---

(1) المينوطور: حيوان خرافي نصفه على صورة رجل ونصفه الآخر على صورة ثور. (المترجم)

Twitter: @ketab_n

الجميلة بأن يسبّب في كسر جمجمته بزجاجة شمبانيا في شجار مخمور. «هذا كان يحدث في مثل تلك الأوقات التي كان فيها الناس يضحون فيها بأرواحهم من أجل الأفكار. ولكنه لم يكن قادراً على إدخال أية أفكار إلى رأسه. لم تكن رأسه تساوي أي شيء سوى أن تُكسر بزجاجة شمبانيا».

حاول رازوموف التملّص بحجة أنه مشغول ولا وقت لديه. ولكن لهجة الآخر تغيرت لتصبح جدية وسرية.

ـ أستحلفك بالله يا كيريلو، يا روحي العزيزة، اسمح لي بالقيام بتضحية ما. لن تكون تضحية تماماً. لديّ والدي الغني ورائي. يبدو أنه لا سبيل إلى الوصول إلى قعر جيبه.

ثم رفض باحتقار تعليق رازوموف بأن هذا هذر شخص مخمور، وعرض عليه أن يقرضه بعض المال ليهرب إلى خارج البلاد به. يمكنه أن يحصل على المال من والده دائماً. كل ما عليه هو أن يقول له إنه خسر في لعب الورق أو شيئاً من هذا القبيل، ويعده في الوقت نفسه بكل وقار أنه لن يفوت محاضرة واحدة مدة ثلاثة شهور متواصلة. كان من شأن ذلك أن يقنع الرجل العجوز، وهو، أي كوستيا، قادر على القيام بالتضحية، رغم أنه لا يرى فائدة ترجى من المحاضرات. إنها غير مفيدة إطلاقاً.

راح يتوسل إلى رازوموف الصامت: «ألن تمنحني فرصة لأن أكون ذا فائدة؟» ولكن هذا الذي كان ينظر بعينيه إلى الأرض لم يكن قادراً على معرفة ما يرمي إليه الآخر فعلاً، فأحس بتردد غريب حين أراد أن يستوضح المسألة:

سأله بهدوء شديد:

ـ ما الذي يجعلك تظنّ أني أريد السفر إلى الخارج؟

Twitter: @ketab_n

أخفض كوستيا صوته:

ـ كانت الشرطة في مسكنك البارحة. لقد سمع بذلك ثلاثة أو أربعة منا. لا تكترث كيف عرفنا. يكفي أننا عرفنا. ولذلك كنا نتشاور معاً.

همهم رازوموف دون اهتمام:

ـ آه! لقد عرفتم ذلك خلال وقت قصير جداً.

ـ أجل. وقد دهشنا أن رجلاً مثلك...

قاطعه رازوموف قائلاً:

ـ ما نوع الرجال الذي تظنون أني أنتمي إليه؟

ـ رجل أفكار... ورجل أفعال أيضاً. ولكنك عميق جداً يا كيريلو. لا مجال للوصول إلى قعر دماغك. أشخاص مثلي لا يسعهم ذلك. ولكننا اتفقنا جميعا على أنه لا بدّ من المحافظة عليه في سبيل وطننا. نحن لا نشكّ في هذا الموضوع أبداً... أعني نحن الذين استمعنا إلى هالدين يتحدّث عنك في مناسبات معينة... جميعنا. لا تفتّش الشرطة منزل شخص ما دون أن يكون هناك عمل شيطاني ما معلّق فوق رأسه... لذلك إن كنت تظنّ أنه من الأفضل لك الهروب فوراً...

انتزع رازوموف نفسه وسار على امتداد الممر، تاركاً الآخر دون حراك وبفم مفتوح. ولكنه استدار فوراً ووقف أمام كوستيا المندهش الذي أغلق فمه ببطء. نظر رازوموف إليه وجهاً لوجه في العينين، قبل أن يقول بتعمد واضح وكل كلمة على حدة:

ـ أشكرك... جداً.

ابتعد مسرعاً، ولكن كوستيا الذي صحا من صدمة المفاجأة التي سببتها هذه المناورات، جرى خلفه بإلحاح:

ـ لا! اسمع! أنا أعني ما قلته. ذاك أشبه بتعاطفك مع شخص

Twitter: @ketab_n

جائع. هل تسمعني يا كيريلو؟ وأي تنكّر تريده أستطيع أيضاً أن أجلبه لك من خيّاط يهودي أعرفه. دع المجنون يقدم خدماته وفق جنونه. ربما ستحتاج إل لحية مستعارة أيضاً أو إلى شيء من هذا القبيل.

التفت رازوموف محرجاً.

ـ لا حاجة إلى أي لحى مستعارة في هذه القضية يا كوستيا، أيها المجنون الطيب القلب. ما الذي تعرفه أنت عن أفكاري؟ قد تكون أفكاري سمّاً لك.

بدأ الآخر يهزّ رأسه باحتجاج شديد.

ـ ما علاقتك أنت بالأفكار؟ من شأن بعضها أن يضع حداً لأكياس نقود والدك. توقف عن التدخل فيما لا تفهمه. عد إلى جياد نزهتك وفتياتك وعندها ستكون على ثقة على الأقل من أنك لا تؤذي أحداً ولا شخصك أيضاً.

غُلب الشاب المتحمس على أمره بسبب هذا الاحتقار.

ـ أنت ترسلني عائداً إلى معلف الخنازير الخاص بي يا كيريلو. هذا يحسم المسألة. أنا وحش بائس... وسأموت كوحش أيضاً: ولكن انتبه: إن احتقارك هو الذي قتلني.

انطلق رازوموف بخطى طويلة. لقد أحس أن مسألة وقوع هذه الروح البسيطة الاحتفالية جداً التي هي أيضاً ضحية اللعنة الثورية عارض شؤم من عوارض هذا العصر. عاتب نفسه على إحساسها بالاضطراب. كان عليه أن يشعر شخصياً بالاطمئنان. فهناك ميزة واضحة في مؤامرة الحكم الخاطئ حيث أن الناس تظنه على ما هو ليس عليه. ولكن أو لم يكن ذلك غريباً؟

ومن جديد أحس بأن تصرفه قد انتزع من يديه بسبب استبدادية هالدين الثورية. لقد تم تدمير وجوده الانعزالي والمجدّ... الشيء

Twitter: @ketab_n

الوحيد الذي كان قادراً على أن يسميه خاصته على وجه هـذه الأرض. بأي حق؟ سأل نفسه بغضب. بأي اسم؟

ولكن ما أحنقه أشد ما يكون الحنق هو إحساسه بـأن «مفكّـري» الجامعة كانوا يربطون بينه وبين هالدين، وهـذا أمـر واضـح للعيـان... على أساس أنه شخص موثوق به، علـى أن يبقـى في الخلفيـة. رابطـة غريبة! ها! ها!... لقـد تحـول إلى شخـصية هامـة دون أن يعـرف أي شيء حول الموضوع. كيف كان هالدين البـائس ذاك يتحـدث عنـه يـا ترى؟ ولكن من المحتمل أن هالدين لم يقل سوى القليل جـداً. كانـت كلمات ذلك الشخص، حتى العرضية منها، تُلتقط وتُدّخر ويُفكّر بهـا من قبل أولئك المغفلين جميعاً. أو لم يكـن كـل ذلـك الفعـل الثـوري السري مبنياً على الحماقة وخداع الذات والأكاذيب؟

غمغم رازوموف لنفسه: «من المستحيل التفكير بأي شـيء آخـر. سأتحول إلى معتوه. الأوغاد والمغفّلون يدمرون عقلي.»

فقد كل أمل في إنقاذ مستقبله الذي كان يعتمـد علـى الاسـتعمال الحرّ لعقله.

وصل إلى باب منزله في حالة من الثبوط العقلي مكّنته من أن يـستلم دون اكتراث واضح مغلّفاً رسمي المظهر من اليد القذرة للبواب.

قال الرجل:

- جلبه دركيّ. سأل إن كنتَ في البيت. وقد قلت لـه: «لا، لـيس في البيت» وهكذا تركه لي وقال: «أعطه إياه باليد.» وها قـد وصـلك، أليس كذلك؟

عاد إلى مسح الأرض وصعد رازوموف الدرج والمغلف في يده. وما أن وصل إلى غرفته لم يهرع إلى فتحه. بالطبع كانت هـذه الرسـالة الرسمية من الإدارة العليا للشرطة. مشبوه! مشبوه!

Twitter: @ketab_n

حدّق في دهشة كئيبة مفكّراً في غرابة موقفه. فكّر بنوع من الحزن الموضوعي غير العاطفي بأن ثلاث سنوات من الجهد الطيب، وربما مسار أربعين سنة أخرى أضحت في معرض الخطر... تحولت من الأمل إلى الفزع، لأن الحوادث التي تشرع بها الحماقة البشرية تترابط ضمن تتابع لا يمكن لأي حصافة أن تتنبأ به ولا لأية شجاعة أن تقطعه. يدخل الشؤم إلى بيتك حين تلتفت صاحبة منزلك نحو الخلف. تأتي إلى البيت وتجده مستملكاً حاملاً اسم رجل ومكتسياً باللحم... مرتدياً معطفاً من القماش البني وجزمة طويلة... متسعكاً عند المدفأة. يسألك: «هل الباب الخارجي موصد؟»... وأنت لا تملك من المعرفة ما يدفعك إلى أن تمسك به من الحنجرة وترمي به إلى آخر السلم. أنت لا تدري. ترحب بالمصير المجنون. تقول: «اجلس». وتكون نهاية كل شيء. لا تستطيع أن تتخلص منه أبداً. سيلتصق بك إلى الأبد. لا يمكن لا للحبل ولا للرصاصة أن يعيدا إليك حرية حياتك وصحّة تفكيرك.... كان يكفي القيام بضرب رأسك مرة واحدة بالجدار.

تلفّت رازوموف ناظراً إلى الجدران وكأنه يبحث عن بقعة يضرب بها رأسه. ثم فتح الرسالة . كان فيها أمر بأن يذهب الطالب كيريلو سيدوروفيتش رازوموف ليقدم نفسه دون تأخير إلى السكرتاريا العامة.

تخيّل رازوموف عينيّ «الجنرال تـ...» الجاحظتين تنتظرانه... القوة المجسّدة لحكم الفرد، الغريبة والرهيبة. كان يجسّد قوة حكم الفرد كلها لأنّه كان حارسه. كان الشكّ مجسّداً، الغضب مجسّداً، اللارحمة مجسّدة، لا رحمة نظام سياسي واجتماعي في حالة الدفاع عن النفس. كان يكره التمرّد بالغريزة. وقد فكّر رازوموف في أن ذلك الرجل لم يكن قادراً - وهذا أمر واضح - على فهم التزام معقول بمبدأ الاستبداد.

Twitter: @ketab_n

سأل نفسه: «ما الذي يريده مني بالضبط يا ترى؟»

وكأنما استدعى هذا السؤال الذهني الشبح المعتاد، فقد وقف هالدين فجأة وبكمال استثنائي في التفاصيل. ورغم أن اليوم الشتائي القصير كان قد سبق له ومضى متحولاً إلى الغسق الغريب لأرض مدفونة في الثلج، رأى رازوموف بوضوح الحزام الجلدي الضيق حول المعطف الشركسي. كان وهم ذلك الوجود الكريه كاملاً إلى حدّ أنه كاد يتوقع منه أن يسأله: «هل الباب الخارجي موصد؟». نظر إليه بحقد واحتقار. لا تتخذ الأرواح شكل الملابس، وعلاوة على ذلك لم يكن هالدين ميتاً بعد. خطا رازوموف نحو الأمام مهدّداً؛ اختفى الشبح... ثم استدار على كعبه وخرج من غرفته بازدراء لا متناه.

ولكنه بعد أن هبط المجموعة الأولى من الأدراج خطر له أن السلطات العليا للشرطة كانت تنوي مواجهته بهالدين شخصياً. وقد صعقه هذا الخاطر كرصاصة، ولولا أن تمسّك بكلتا يديه بالدرابزون لكان قد تدحرج حتى المنبسط التالي للدرج على الأرجح. لم تعد قدماه قادرتين على الوقوف فترة طويلة... ولكن لماذا. لأيّ سبب ممكن إدراكه. لأي غرض؟

لم يكن هناك أي جواب عقلاني على هذه الأسئلة؛ ولكن رازوموف تذكّر الوعد الذي بذله الجنرال لـ «الأمير كـ.....». كان من المفروض أن يبقى ما فعله سراً.

نزل إلى أسفل الدرج ببطء شديد من درجة إلى أخرى، مستنداً على الدرابزون. تحت البوابة استعاد الكثير من ثبات فكره وأعضائه. خرج إلى الشارع دون أن يترنّح على نحو ملحوظ. في كل لحظة كان يشعر أنه أثبت فأثبت ذهنياً. ومع ذلك كان يقول لنفسه إن «الجنرال تـ.....» كان قادراً تماماً على حجزه في القلعة لفترة غير محددة من الزمن. كان طبعه مناسباً لوظيفته، كما كانت سلطته المطلقة تجعله بعيداً عن متناول تأثير المجادلة العقلانية.

Twitter: @ketab_n

ولكن حين وصل رازوموف إلى السكرتاريا اكتشف أن لا علاقة لـ «الجنرال تـ...» بالموضوع. كان واضحاً من مذكرات السيد رازوموف أن هذا الشخص المرهوب الجانب كان سيبقى في الظلّ. استقبله رجل مدنيّ ذو رتبة عالية في غرفة خاصة بعد فترة انتظار في مكاتب خارجية كان يجري فيها الكثير من الكتابة على طاولات عديدة في جوّ مدفأ خانق.

قال الكاتب المرتدي للبزّة الرسمية والذي رافقه حين كانا في الممرّ:

- ستقابل غريغوري ماتيفييتش ميكولين.

لم يكن هناك ما هو مخيف في الرجل الذي كان يحمل ذلك الاسم. كانت نظراته الرقيقة المترقبة قد سبق لها وتركزت على الباب حين دخل رازوموف. أشار على الفور، وبالريشة التي كان يمسكها بيده، إلى أريكة عميقة بين نافذتين. تابع رازوموف بعينيه وهو يعبر الغرفة ويجلس. استقرت النظرة الرقيقة عليه، دون فضول أو تساؤل - وبالتأكيد دون ارتياب - وحتى دون تعبير تقريباً. في إلحاحها اللاانفعالي كان هناك ما يشبه التعاطف.

أحسّ رازوموف، الذي جهزّ إرادته وذكاءه لمواجهة «الجنرال تـ...»، أحسّ باضطراب عميق. كان كل استجماعه لقواه لأخلاقية لمجابهة الإفراطات الممكنة في السلطة والانفعال قد ذهب أدراج الرياح أمام هذا الرجل الشاحب الذي كانت له لحية كاملة غير مشذبة؛ لحية شقراء رقيقة وجميلة جداً. سقط النور في أشعة نحاسية فوق بروزات جبين عالٍ متجعد. كانت سيماء الوجه العريض المريح شديدة البساطة والعادية بحيث بدا الفرق المتوسط الدقيق للشعر نوعاً من التكلّف المشوب بالتظاهر.

Twitter: @ketab_n

تشير مذكرات السيد رازوموف إلى بعض الحنق فيما يخص هذا الموضوع. وأودّ أن أعلّق هنا أن السيد رازوموف بدأ بكتابة المذكرات الأصلية المؤلفة من اليوميات في ذلك المساء بالذات وذلك حين عاد إلى بيته.

لقد أصيب السيد رازوموف بالحنق إذن، فقد انهارت فرديته المغلقة على نحو مفاجئ جداً.

حذّر نفسه في الصمت الذي جلسا فيه يحدقان فيه واحدهما إلى الآخر: «عليّ أن أكون حذراً معه.» وقد دام هذا الصمت بعض الوقت، وتميّز (فللصمت بأنواعه ميزات وخصائص) بنوع من الحزن الذي أضفاه عليه ربما الأسلوب التأملي الرقيق للموظّف الملتحي. وقد علم رازوموف لاحقاً أنه رئيس دائرة في السكرتاريا العامة وله رتبة في السلك المدني تعادل رتبة العقيد في الجيش.

أصبح شكّ رازوموف حاداً. ولم تكن المسألة الرئيسية هي أن يُستجرّ إلى الكثير من الكلام. لقد تمّ استدعاؤه إلى هناك لسبب ما. أي سبب؟ أن يتمّ إفهامه أنه مشبوه ... وأنه سيتمّ استجوابه على الدوام. وعن أي موضوع بالضبط؟ لم يكن هناك شيء محدد. أو أن هالدين كان يروي الأكاذيب ربما... كان كل شكّ مقلق يسبّب له الضيق. لم يعد يحتمل الصمت أكثر من ذلك وراح يشتم نفسه على ضعفه وهو يباشر بالحديث رغم أنه وعد نفسه بألاّ يفعل ذلك مهما حدث.

قال بلهجة خشنة استفزازية:

ـ لم أضيّع دقيقة واحدة...

وبعد ذلك بدا له أن قدرة النطق قد تخلّت عنه ودخلت جسد المستشار ميكولين الذي قاطعه بلهجة استحسانية:

ـ جيد جداً. جيد جداً. رغم أنه في الواقع...

Twitter: @ketab_n

ولكن السحر كان قد انجلى، فقاطعه رازوموف بجرأة وبقناعة مفاجئة أن ذلك كان أفضل المواقف أماناً. وقد راح بسيل عارم من الكلمات يشكو من كونه قد تعرّض لسوء الفهم الشامل. وحتى وهو يتحدث مع وعي بجرأته كان يفكّر بأن كلمة «سوء الفهم» أفضل من كلمة «عدم الثقة»، وقد كرّرها مرة أخرى بإلحاح. وفجأة توقف عن الكلام وقد انتابه الخوف أمام السكون المجامل للمستشار. فكّر في نفسه وهو ينظر إليه نظرة غامضة: «ما الذي أتحدّث عنه؟» «عدم الثقة» وليس «سوء الفهم» كان الرمز المناسب لأولئك الناس. كان «سوء الفهم» هو النوع الآخر من اللعنة. وقد جلب عليه كلا الأمرين ذلك الشخص: «هالدين». وقد راح رأسه يؤلمه إلى حد هائل. مرّر يده على جبينه... وهي أمارة لا إرادية تدلّ على المعاناة لم يحرص على كبحها.

في تلك اللحظة رأى رازوموف دماغه وهو يعذّب فوق آلة التعذيب... شخص طويل شاحب مشدود أفقياً بساقين متباعدتين وبقوة هائلة وذلك في ظلام سرداب، ذو وجه لم يستطيع هو رؤيته. كان ذلك أشبه بمن يحلم لبرهة وجيزة جداً من الزمن بصورة معتمة لمحاكم التفتيش...

لا يتوجّب أن نفترض بجدية أن رازوموف قد غفا فعلاً ورأى حلماً، في حضور المستشار ميكولين، بصورة قديمة لمحاكم التفتيش؛ بل كان بالفعل مجهداً إلى آخر حد، وقد دوّن في مذكراته تجربة حلميّة غريبة عن العذاب ولكن لم يكن هناك أي شخص آخر إطلاقاً قرب الشخص الشاحب المشدود على آلة التعذيب. كانت عزلة الضحية المشدودة أمراً مرعباً مشاهدته على نحو خاص. كانت استحالة رؤية الوجه، تلك الاستحالة الغامضة، كما لاحظ هو، قد بثّت فيه نوعاً من الخوف. كل هذه الصفات الخاصة بحلم قبيح كانت حاضرة. ولكنه كان على ثقة من أنه لم يفقد وعيه أبداً بوجوده على

Twitter: @ketab_n

الأريكة، منحنياً نحو الأمام ويداه بين ركبتيه وهو يقلّب قبعته بين أصابعه. ولكن اختفى كل شيء لدى سماعه صوت المستشار ميكولين. أحسّ رازوموف بامتنان عميق للبساطة العادية للهجته.

ـ أجل. لقد استمعت باهتمام. أفهم نوعاً ما... ولكن أنت مخطئ بالفعل فيما يخص...

نطق المستشار ميكولين سلسلة من الجمل غير الكاملة. وبدلاً عن أن يكملها راح ينظر إلى لحيته. كان ذلك اختصاراً متعمّداً يجعل الجمل أكثر تأثيراً. ولكنه كان قادراً على التحدث بطلاقة كافية كما تبيّن ذلك حين غيّر لهجته إلى لهجة الإقناع فقال:

ـ حين أصغيت إليك كما فعلت للتو فذلك لأقدمّ الدليل على أني لا أعتبر حديثنا رسمياً تماماً. وفي الحقيقة فإني لا أريد أن تكون له هذه الصفة إطلاقاً... أوه أجل! أعترف بأنّ طلب حضورك إلى هنا كانت له صفة رسمية ـ ولكني أترك لك مسألة ما إذا كانت تلك صيغة كانت ستستعمل لاستدعاء...

صاح رازوموف وهو ينظر مباشرة إلى عيني المستشار:

ـ مشبوه!

كانت له عينان واسعتان بأهداب ثقيلة، وقد ردّتا جرأته بتحديقة غامضة ثابتة. «مشبوه». كان التكرار الصريح لتلك الكلمة التي كانت تستحوذ على تفكيره في ساعات اليقظة قد أعطت رازوموف نوعاً غريباً من الشعور بالرضا. هزّ المستشار ميكولين رأسه قليلاً.

ـ لا شكّ أنك تعرف أن غرفتي قد فتّشت من قبل الشرطة؟

لمّح المستشار ميكولين بهدوء:

ـ كنت سأقول «شخصاً مساء فهمه» حين قاطعتني.

Twitter: @ketab_n

ابتسم رازوموف دون مرارة. كان الإحساس المتجدّد بتفوّقه الفكري قد دعمه في ساعة الخطر. قال باحتقار نوعاً ما:

ـ أعرف أني مجرّد قصبة. ولكني أرجو أن تسمح لي بأن أكون متفوّقاً كقصبة مفكرة على القوى غير المفكّرة التي هي على وشك تحطيمها نهائياً. التفكير العمليّ في المثال الأخير مجرّد نقد. قد يسمح لي مثلاً أن أعبّر عن استغرابي لهذا التصرّف الذي قامت به الشرطة والذي تأخّر يومين كاملين، وكان من شأني طبعاً أن أدمّر في تلك الفترة أي شيء مشبوه بواسطة الحرق... أو لنقل أتخلص حتى من الرماد... فيما يخصّ تلك المسألة.

قال المستشار ملاحظاً ببساطة غير منطوقة في اللهجة والأسلوب:

ـ أنت غاضب. هل هذا معقول؟

ـ أنا معقول. أنا حتى - لو سمحت لي - مفكّر، رغم أنّ هذا الاسم يبدو في هذه الأيام وكأنه حكر على الباعة الجوالين للبضائع الثورية، عبيد فكر فرنسي أو ألماني ما... الشيطان وحده يعرف أية آراء أجنبية! ولكني لست هجيناً مثقفاً. أنا أفكّر كروسي. أفكّر بإخلاص... وأسمح لنفسي أن أدعو شخصي بالمفكّر. هذه ليست كلمة ممنوعة حسب ما أعرف.

ـ لا، لماذا يجب أن تكون كلمة ممنوعة؟

التفت المستشار ميكولين وهو جالس في كرسيه بساقين متصالبتين، ثم وضع مرفقه على الطاولة وأسند رأسه على براجم يد نصف معلقة. لاحظ رازوموف سبابة غليظة يحيط بها خاتم ذهبي كبير محلّى بحجر بلون الدم... خاتم يستعمل كختم، ويبدو وكأن وزنه يعادل نصف باوند[1]، يا لها من زينة مناسبة لذلك الرجل الذي يفرق شعره اللامع في المنتصف بدقة فوق جبين سقراطي مجعّد.

(1) الباوند يعادل 453 غراماً. (المترجم)

Twitter: @ketab_n

وجد رازوموف نفسه وهو يتساءل بتجرّد غير متوقع: «هل هذا شعر مستعار؟» كانت ثقته بنفسه قد تزعزعت كثيراً. قرّر ألا يثرثر أكثر من ذلك. تحفّظ! تحفّظ! كل ما كان عليه أن يفعله هو أن يبقى حادثة زيميانيتش سراً دفيناً، وبتصميم مطلق، وذلك حين يتمّ سؤاله عن هذا الموضوع. دع زيميانيتش خارج كل الأجوبة تماماً.

نظر إليه المستشار ميكولين نظرة غامضة. تخلّت عن رازوموف ثقته بنفسه تماماً. بدا له مستحيلاً إبقاء زيميانيتش خارج المسألة. سيؤدي كل سؤال إليه، لأنه لم يكن هناك من أمر آخر طبعاً. حاول أن يتماسك ولكنه فشل. ولكن المستشار ميكولين كان متجرداً هو أيضاً على نحو مدهش.

كرّر:

ـ لماذا تكون ممنوعة؟ أنا أيضاً أعتبر نفسي رجلاً مفكّراً، أؤكد لك ذلك. الشرط الأساسي هو التفكير على نحو صحيح. وأقرّ بأنه من الصعب أحياناً في البداية على شاب وحيد... ذي دوافع خيّرة غير منظّمة كما يقال... واقع تحت رحمة كل ريح عنيفة تهبّ. الإيمان الديني بالطبع أمر...

رمقه المستشار ميكولين من خلال لحيته، فغمغم رازوموف بتذمر كئيب، وهو الذي خفّ توتره بذلك المنحى غير المتوقّع والاستطرادي للحديث.

ـ ذلك الرجل، هالدين، كان يؤمن بالله.

ـ آه، أنت تعرف ذلك!

هذا ما قاله المستشار ميكولين بلهجة لطيفة، كأنما بتحفّظ، ولكنه عبّر عن ذلك بوضوح كاف، كأنه قد خرج هو أيضاً عن حذره بسبب ملاحظة رازوموف. احتفظ الشاب بوجه جامد نكد، رغم أنه راح يوبّخ

Twitter: @ketab_n

نفسه بمرارة على أنه أحمق إلى حد قاتل إذ أنه أعطى انطباعاً مزيفاً تماماً عن أنه كان على علاقة حميمة بهالدين. أبقى عينيه مثبتتين على الأرض. «عليّ أن أمسك لساني حتماً إلاّ إذا اضطررت إلى الكلام». هكذا راح يحدّث نفسه، ولكن سؤالاً طرح نفسه عليه فوراً وضد إرادته: «أليس من الأفضل أن أخبره بكل شيء؟» وقد طرح هذا السؤال بقوة إلى حد أنه اضطر إلى عضّ شفته السفلى. ويبدو أن المستشار ميكولين لم يكنْ يحمل أية آمال بسماع اعتراف، وقد استأنف كلامه قائلاً:

ـ ما تقوله لي هو أكثر مما استطاع القضاة انتزاعه منه. لقد حاكمته لجنة من ثلاثة قضاة، ولم يخبرهم بأي شيء إطلاقاً. بعد كل سؤال كتب في التقرير: «يرفض الإجابة... يرفض الإجابة»، وهكذا دواليك الصفحة تلو الأخرى. وكما ترى، فقد طُلِب مني القيام بالمزيد من التحقيق في مسألته. لم يَتْركْ لي ما أبدأ به تحقيقاتي. وغد متمرِّس. إذن فهو كما تقول كان يؤمن بـ...

ومن جديد نظر المستشار ميكولين عبر لحيته مع تكشيرة ضعيفة، ولكنه لم يتوقف طويلاً عن الكلام، إذ عاد ليقول ببعض الاحتقار إن المجدّفين على الرب لديهم أيضاً ذلك النوع من الإيمان، ثم استنتج أن السيد رازوموف قد تحادث مرات عدة مع هالدين حول هذا الموضوع.

قال رازوموف بصوت عال دون أن يرفع بصره:

ـ لا، كان يتحدث وأنا أصغي. وهذه ليست محادثة.

قال ميكولين بجملة اعتراضية:

ـ الإصغاء فنّ عظيم.

همهم رازوموف:

ـ وجعل الناس يتكلّمون فنّ عظيم آخر.

Twitter: @ketab_n

قال ميكولين ببراءة:

- لا... ليس هذا صعباً جداً، إلاّ في حالات خاصة بالطبع. مثلاً: هالدين هذا. لا شيء يدفعه إلى الكلام. لقد أحضر أربع مرات أمام القضاة المندوبين، أربع جلسات تحقيق سرية... وحتى خلال الجلسة الأخيرة، حين طُرِح اسمك...

كرّر رازوموف وهو يرفع رأسه بفظاظة:

- حين طُرِح اسمي...؟ لا أفهم.

التفت المستشار نحو الطاولة وأخذ من عليها بعض الأوراق الرمادية كبيرة القطع ثم أسقطها الواحدة إثر الأخرى، محتفظاً بالأخيرة فقط في يده. رفعها أمام عينيه وهو يتكلّم:

- لقد اعتُبِر ذلك ضرورياً كما ترى. في قضية جدية إلى هذا الحد يتوجّب عدم إهمال اتخاذ أية وسيلة ضد المتهم. أنت تفهم ذلك، وأنا على ثقة من ذلك.

حدّق رازوموف بعينين واسعتين كبيرتين إلى الصورة الجانبية لوجه المستشار ميكولين الذي لم يكن ينظر إليه الآن.

- لذلك تقرِّر (وقد استشارني «الجنرال تـ....») أن يُطرح سؤال معيّن على المتهم، ولكن نزولاً عند الرغبة الملحّة لـ «الأمير كـ...» بقي اسمك خارج الوثائق بل وحتى بعيداً عن علم القضاة أنفسهم. ولكن «الأمير كـ...» أدرك ملاءمة وضرورة اقتراحنا، وإن كان قلقاً على سلامتك. هناك تسرّب في الأسرار فعلاً... هذا ما لا أستطيع إنكاره. لا يستطيع المرء أن يضمن دائماً حفظ الأسرار من قبل الموظّفين الصغار. كان هناك طبعاً أمين سرّ المحكمة الخاصة ودركيّ أو اثنان في الغرفة. وفضلاً عن ذلك، وكما سبق وقلت، ونزولاً عند رغبة «الأمير كـ...» فحتى القضاة أنفسهم تُركوا دون علم. ولكن السؤال الذي صيغ على

Twitter: @ketab_n

الفور قد أرسل إليهم من قبل «الجنرال تـ....» (كتبته بيدي هذه) مع تعليمات بأن يُطرح على السجين كآخر سؤال. وهاهو.

أرجع المستشار ميكولين رأسه نحو الخلف ليركّز بصره وراح يقرأ بصورة رتيبة:

ـ سؤال: هل كانت للرجل المعروف لك جيداً، والذي مكثت في غرفته ساعات عدة يوم الاثنين، والذي تم اعتقالك بناء على المعلومات التي أدلى بها... هل كانت له معرفة سابقة بنيّتك ارتكاب اغتيال سياسي؟ ... السجين يرفض الإجابة. يكرر السؤال عليه. السجين يحتفظ بالصمت العنيد نفسه. ثم استدعي قسيس القلعة الموقّر وحَض السجين على التوبة ورجاه أيضاً أن يفكّر عن جريمته بالاعتراض الكامل الصريح الذي من شأنه أن يحرّره من خطيئة التمرّد على القوانين الإلهية وجلالة الحاكم المقدسة، ووطننا المسيحي... وقد فتح السجين فمه للمرة الأولى منذ جلسة الصباح ورفض بصوت عال وواضح خدمات القسيس الكهنوتية. وفي الساعة الحادية عشرة نطقت المحكمة موجز قرار الحكم بالإعدام. وتم تثبت موعد الإعدام في الساعة الرابعة بعد الظهر، ولكنه خاضع لتعليمات لاحقة من السلطات الأعلى.

أسقط المستشار ميكولين الورقة ونظر عبر لحيته ثم التفت نحو رازوموف مضيفاً بلهجة بسيطة تفسيرية:

ـ لم نر أي دافع لتأخير الإعدام. وقد أرسل أمر التنفيذ بالتلغراف عند الظهر. لقد كتبت تلك البرقية شخصياً. وقد تمّ شنقه في الساعة الرابعة من بعد ظهر هذا اليوم.

هذه المعلومات التي لا لُبس فيها حول موت هالدين منحت رازوموف إحساساً عاماً بالتراخي الذي يعقب الجهد العظيم أو الاستثارة الهائلة. بقي ساكناً تماماً على الأريكة، ولكن همهمة ما أفلتت منه:

Twitter: @ketab_n

ـ لديه إيمان بالوجود المستقبلي.

هزّ المستشار ميكولين كتفيه بلا مبالاة ونهض بجهد. لم يعد هناك شيء يستحق البقاء من أجله في تلك الغرفة. لقد شُنق هالدين في الساعة الرابعة. ولا شكّ في ذلك. يبدو أنه قد دخل وجوده المستقبلي، جزمته الطويلة، قبعته من فرو الأستراخان، وكل شيء آخر، حتى الحزام الجلدي حول خصره. نوع من الوجود المومض المتلاشي. لم تكن تلك روحه. بل مجرد شبحه الذي خلّفه وراءه على هذه الأرض... هكذا قرّر رازوموف وهو يبتسم بسخرية في نفسه خلال عبوره الغرفة ناسياً تماماً مكان وجوده بل وحتى وجود المستشار ميكولين. كان يمكن لهذا المستشار أن يقرع أجراساً كثيرة في هذا المبنى دون أن يغادر كرسيّه. وعلى كل حال ترك رازوموف يذهب حتى الباب قبل أن يقول له:

ـ تعال يا كيريلو سيدوروفيتش... ما الذي تفعله؟

التفت رازوموف برأسه ونظر إليه بصمت. لم يضطرب أبداً. كانت ذراعا المستشار ميكولين ممدودتين على الطاولة أمامه وجسده منحن نحو الأمام قليلاً وهو ينظر بجهد عبر تحديقته الغائمة.

تساءل رازوموف بينه وبين نفسه بوجه جامد: «هل كنت سأخرج حرّاً هكذا»؟ وقد كان واعياً لجمود وجهه الذي كان يخفي دهشة واضحة.

فكّر: «من الواضح أني كنت سأخرج لولا أنه تكلّم. ما الذي كان سيفعله آنذاك؟ عليّ أن أنهي هذه القضية بطريقة ما أو بأخرى. عليّ أن أجعله يكشف عن نيّاته».

فكّر للحظة أخرى وراء القناع، ثم ترك مقبض الباب وعاد إلى منتصف الغرفة.

Twitter: @ketab_n

قال محتداً دون أن يرفع صوته:

ـ سأقول لك ما تفكّر به. أنت تظنّ أنك تتعامل مع شريك سري لذلك الرجل البائس. لا، لا أعلم أنه كان بائساً. لم يقل لي. كان بائساً من وجهة نظري أنا، لأن إبقاء فكرة مزيفة حيّة جريمة أشدّ هولاً من قتل إنسان. أعتقد أنك لن تنكر ذلك، أليس كذلك؟ لقد كرهتُه! الحالمون يسببون شروراً دائمة للأرض. إن أحلامهم الطوباوية تبثّ في جمهرة العقول العادية اشمئزازاً من الواقع واحتقاراً للمنطق الدنيوي للتطور البشري.

هزّ رازوموف كتفيه بلا مبالاة وراح يحدّق. فكّر: «يا لها من خطبة مسهبة!» لقد أثّر فيه صمت وسكون المستشار ميكولين. جلس البيروقراطي الملتحي في موقعه، متمالكاً نفسه على نحو غامض، أشبه بوثن ذي عينين غائمتين غامضتين. تغيّر صوت رازوموف رغماً عنه.

ـ إذا كنت ستسألني عن ضرورة كرهي لهالدين، فسوف أجيبك... لا شيء عاطفي في ذلك. لم أكرهه لأنه ارتكب جريمة القتل. الاشمئزاز ليس الكره. لقد كرهته ببساطة لأني شخص عاقل. ضمن تلك الصفة كان يثير حنقي. كان موته...

أحسّ رازوموف بصوته وهو يثخن في حنجرته. بدت غائمية عيني المستشار ميكولين وكأنها تنتشر على وجهه فتجعله غير واضح أمام نظر رازوموف. حاول أن يتجاهل هذه الظواهر.

تابع وهو يلفظ كل كلمة بعناية:

ـ بالفعل، ما هو موته بالنسبة إليّ؟ لو كان متمدداً هنا على الأرض لاستطعت أن أمشي فوق صدره... ذلك الشخص مجرد شبح...

Twitter: @ketab_n

وهنا سكت صوت رازوموف رغماً عنه. لم يسمح ميكولين لنفسه من راء طاولته أن يقوم بأية حركة على الإطلاق. ساد الصمت بعض الوقت قبل أن يستأنف رازوموف كلامه مرة أخرى:

ـ لقد استمر يحادثني... أولئك المثقفون يجلسون في غرف بعضهم البعض ويسكرون على الأفكار الأجنبية بالطريقة التي يسكر بها ضباط الحرس الشبان بالخمر الأجنبية. فسوقٌ محض... وأقسم على ذلك.

ثم أخفض رازوموف صوته مكرهاً حين تذكّر فجأة زيبميانيتش:

ـ أقسم أننا نحن الروس شعب سكّير. إن علينا أن نكون منتشين بنوع ما من النشوة: أن نجنّ من الحزن أو نبكي من الاستسلام؛ أن نبقى هامدين كجذع شجرة أو نحرق البيت. ما الذي سيفعله رجل صاحٍ؟ أحب أن أعرف، أن يقطع المرء صلاته كلها بجنسه، هذا أمر مستحيل. وحتى أن يعيش في صحراء عليه أن يكون قديساً. ولكن أن يخرج رجل مخمور من حانة فينهار على عنقك ويوسع وجنتيك قُبَلاً لأن في مظهرك ما أثار اهتمامه، ماذا إذن، هيا قل لي؟ قد تكسر هراوة على ظهره ومع ذلك لا تنجح في إبعاده عنك...

رفع المستشار ميكولين يده ومرّها على وجهه بتعمّد.

قال بلهجة خفيضة:

ـ هذا... أمر بديهي.

كانت الجدية الهادئة لتلك الحركة قد جعلت رازوموف يتوقف عن الكلام، كان ذلك غير متوقع أيضاً. ما الذي كانت تعنيه؟ كان لها تحفظ مزعج. تذكر رازوموف نيته في جعله يكشف مقاصده.

بدأ بلهجة من اللامبالاة المصطنعة:

ـ لقد قلت هذا كله لـ «الأمير كـ...».

Twitter: @ketab_n

ولكنه لم يعد قادراً على المتابعة وهو يرى المستشار ميكولين يومئ برأسه ببطء علامة الموافقة.

ـ أتعرف ذلك؟ لقد سمعت... إذن لماذا أُستدعى إلى هنا لإخباري بإعدام هالدين؟ هل كنت تريد مواجهتي بصمته بعد أن أصبح الرجل ميتاً؟ ما الذي يعنيه صمته لي؟ هذا غير مفهوم. أنت تريد أن تزعزع توازني الأخلاقي.

غمغم المستشار ميكولين بصوت يكاد يكون مسموعاً:

ـ لا ، ليس ذاك. الخدمة التي قدمتها تُثَمّن...

قاطعه رازوموف بسخرية:

ـ هل هي كذلك؟

لم يرفع المستشار ميكولين صوته وهو يتابع:

ـ ... ووضعك أيضاً. ولكن فكّر فحسب! لقد سقطت على حجرة مكتب «الأمير كـ...» كأنما من السماء بمعلوماتك المذهلة... أنت لازلت تدرس يا سيد رازوموف، ولكن سبق لنا نحن وجدنا... لا تنس ذلك... وبالطبع كان هناك بعض الفضول...

نظر المستشار ميكولين عبر لحيته. ارتجفت شفتا رازوموف.

استمرت الهمهمة غير المتكلفة:

ـ حدوث أمر من هذا النوع يميّز الرجل بسمة خاصة. أعترف بأني كنت أشعر بفضول تجاهك وأتوق إلى رؤيتك. وقد ظنّ «الجنرال تـ...» أن ذلك سيكون مفيداً أيضاً... لا تظنَنّ أني غير قادر على فهم مشاعرك. حين كنت شاباً مثلك درست...

قال رازوموف بلهجة الكراهية العظيمة:

ـ أجل... رغبتَ في أن تراني. طبعاً لك الحق... أعني السلطة.

Twitter: @ketab_n

كلّه سيّان. ولكن لن يفيدك أبداً أن تنظر إلي وتستمع إليّ مدة عام كامل. لقد بدأت أعتقد بأن هناك شيئاً ما فيّ لا يبدو أن الناس قادرين على فهمه. هذا من سوء الحظ. وأتصوّر على أية حال أن «الأمير كـ...» يفهم ذلك. لقد بدا لي الأمر كذلك.

تحرّك المستشار ميكولين قليلاً، ثم نطق فقال:

- «الأمير كـ...» على علم بكل ما تمّ فعله، وليس عندي مانع من أن أخبرك بأنه وافق على رغبتي في التعرّف إليك شخصياً.

أخفى رازوموف خيبة أمل هائلة تحت صرخات احتجاج ودهشة:

- إذن، فهو فضولي أيضاً!... حسناً، على أية حال فإن «الأمير كـ...» لا يعرفني إلاّ قليلاً جداً. هذا بالطبع من سوء حظي الشديد... ولكن ذلك لا يعود إليّ بالضبط.

رفع المستشار ميكولين يداً سريعة مستنكرة وأحنى رأسه قليلاً على كتفه.

- والآن يا سيد رازوموف.... هل من الضروري فهم المسألة على هذا النحو؟ كل شخص، وأنا على ثقة من ذلك، قادر على أن....

نظر بسرعة عبر لحيته، وحين نظر إلى الأعلى مرة أخرى كانت هناك برهة من التعبير الذي يدلّ على الاهتمام في عينيه الغائمتين. وقد ثبطه رازوموف بابتسامة باردة صادّة.

- لا، ليس لهذا أية أهمية وكن على ثقة من ذلك... باستثناء أنه فيما يخصّ كل هذا فإن الفضول قد أثير بسبب مسألة بسيطة جداً.... ما الذي يمكن أن نفعله به؟ إنه غير قابل للإشباع. أعني أن أقول إنه لا شيء يمكنه إشباع ذلك الفضول. لقد ولدت روسياً بغرائز وطنية صادقة... ولست في معرض القول إن كانت موروثة أم لا.

Twitter: @ketab_n

تحدث رازوموف بوعي وبثبات محكم.

ـ أجل، غرائز وطنية نمّتها القدرة على التفكير المستقل... التفكير الحيادي. في ذلك الخصوص أنا أكثر حرية من قدرة أية بؤرة ديموقراطية اجتماعية على جعلي حراً. ويبدو أنه من المحتمل جداً أني لا أفكّر كما تفكّر أنت بالضبط. وبالفعل، كيف يمكن ذلك ربما تفكّر في هذه اللحظة أني أكذب عن عمد لتغطية آثار توبتي.

توقف رازوموف. لقد أصبح قلبه أكبر بكثير من قدرة صدره على الاستيعاب. لم يتراجع المستشار ميكولين.

قال ببساطة:

ـ ولم هكذا؟ لقد ساعدتُ شخصياً في تفتيش غرفتك. كما نظرت في كل أوراقك بنفسي. وقد تأثّرت إلى حد كبير بنوع من الاعتراف السياسي بمعتقدك. وثيقة رائعة جداً. والآن هل لي أن أسألك لأيّ هدف؟

قال رازوموف بوحشية:

ـ لأخدع الشرطة طبعاً.... ما هذه السخرية كلها؟ طبعاً تستطيع أن ترسلني من هذه الغرفة إلى سيبيريا على الفور. سيكون ذلك مفهوماً. أستطيع أن أخضع لما هو مفهوم... ولكنني أحتجّ على كوميديا الملاحقة هذه. لقد أصبحت المسألة كلها أكثر كوميدية ممّا يستطيع ذوقي احتماله. كوميديا الأخطاء، الأشباح والمفاجآت. هذا أمر غير شريف إطلاقاً...

كان المستشار ميكولين يصغي باهتمام.

غمغم:

ـ هل قلت «الأشباح»؟

Twitter: @ketab_n

قال رازوموف:

ـ أستطيع أن أدوس على عشرات منها.

ثم استأنف بتلويحة نافذة الصبر من يده:

ـ ولكن عليّ أن أطالب عن حق بأن أتخلص من هذا الرجل نهائياً. وحتى ننفّذ ذلك علّ أن أطلب السماح بأن...

انحنى رازوموف قليلاً عند الجانب من الطاولة الذي يقف عنده، وذلك للبيروقراطي الجالس.

ـ .... أن أخلو إلى نفسي... ببساطة.

هذا ما قاله بتصميم ممتاز.

سار عبر الباب وهو يفكّر: «والآن عليه أن يكشف عن خططه. لا شكّ أنه سيقرع الجرس ويأمر بإلقاء القبض عليّ قبل خروجي من المبنى، أو عليه أن يتركني أرحل. وأي الأمرين...»

قال بصوت غير عجول:

ـ يا كيريلو سيدوروفيتش.

التفت إليه رازوموف وهو عند الباب وكرر:

ـ أخلو إلى نفسي.

سأله المستشار ميكولين برقة:

ـ ولكن إلى أين؟

* * *

Twitter: @ketab_n

الجزء الثاني

أولاً:

في إدارة قصة مخترعة هناك لا شك بعض الخواص التي لابدّ من مراعاتها في سبيل الوضوح وتحقيق التأثير. إن للرجل صاحب المخيّلة، مهما كان قليل التجربة في فهم القصّ، غريزته التي ترشده في اختيار الكلمات وتطوير الفعل. الحبة الواحدة من الموهبة تبرّر أخطاء كثيرة. ولكن هذا ليس عملاً من أعمال المخيّلة. وأنا لا أملك الموهبة، وعذري لقيامي بهذه المهمة لا يكْمُنُ في فنِّها، بل في لافنِّها. ربما أني مدرك لنواحي عجزي وقوتي في صدق عزيمتي، فلن أحاول (إن استطعت) أن أخترع أي شيء. سأدفع بشكوكي بعيداً بحيث لن أخترع فصلاً انتقالياً.

إذن نترك هنا مذكرات السيد رازوموف في ذلك الموضع الذي يرد فيه سؤال المستشار ميكولين: «ولكن إلى أين؟» بعزم هو عزم المشكلة غير القابلة للحلّ، وليس عليّ سوى أن أقول إني تعرفت بهاتين السيدتين قبل ذلك الحين بأشهر ستة وأعني بـ «هاتين السيدتين» طبعاً أم وأخت هالدين تعيس الحظ.

بأية حججٍ أَقْنَعَ أمّه حتى تبيع ملكيتهم الصغيرة وتسافر إلى الخارج لفترة غير محددة، لا أعرف بالضبط، لديّ فكرة مفادها أن السيدة هالدين، بناء على رغبة ابنها، كانت ستشعل النار في منزلها وتهاجر إلى القمر دون أية إمارة من إمارات الدهشة أو الخوف، وأن الآنسة هالدين - ناتالي أو ناتالكا بلغة الملاطفة- كان ستمنح موافقتها على الخطة.

Twitter: @ketab_n

لقد توضّح لي تفانيهما المشوب بالاعتزاز بحب ذلك الشاب خلال وقت قصير جداً. وقد قامتا بناء على توجيهاته بالاتجاه إلى سويسرا فوراً - إلى زيوريخ - حيث بقيتا مدة عام تقريباً، ومن زيوريخ- التي لم ترق لهما - وصلتا إلى جنيف. هذا وقد كتب إليّ صديقي لي في «لوزان»، وهو محاضر في التاريخ يعمل في الجامعة (ومتزوج من سيدة روسية على قرابة بعيدة مع السيدة هالدين)، مقترحاً عليّ زيارة هاتين السيدتين؛ وكان ذلك اقتراحاً عملياً ولطيفاً. لقد رغبت الآنسة هالدين في أن تتبّع دورة في المطالعة لأفضل المؤلّفين الإنكليز مع أستاذ قدير.

استقبلتني السيدة هالدين استقبالاً لطيفاً جداً. وقد قضت فرنسيتها الرديئة، التي كانت هي واعية برداءتها وبابتسامة دائمة، على رسمية الزيارة الأولى. كانت امرأة طويلة ترتدي ثوباً حريرياً أسود اللون، ذات جبين واسع وملامح منتظمة وشفتين رقيقتين، مما يشهد على جمال غابر. كانت تجلس باستقامة في كرسي مريح وقالت بصوت ضعيف رقيق بالأحرى إن «ناتالكا» متعطشة للمعرفة. كانت يداها النحيلتان قابعتين في حضنها، ويوحي سكون وجهها بشيء من الرهبنة. قالت:

- في روسيا، المعرفة كلها مفسدة بالزيف. ليس الكيمياء وما شابهها، بل التعليم عموماً.

ثم شرحت لي أن الحكومة كانت تفسد التعليم ليتلاءم مع أهدافها. لقد أحسّ ولداها كلاهما بذلك. فناتالكا نالت شهادة الدبلوم من المدرسة العليا للبنات كما كان ابنها طالباً في جامعة سانت بطرسبورغ. وهو ذكي لامع الذكاء. ذو طبيعة نبيلة غيرية جداً، كما كان موضع ثقة زملائه. كانت تأمل في أن ينضم إليهما في بداية العام

Twitter: @ketab_n

المقبل وعندها سيذهبون إلى إيطاليا معاً. كانت على ثقة أنه في أي بلد آخر غير بلدهم فإن مستقبلاً عظيماً كان ينتظر شخصاً له القدرات الاستثنائية والشخصية السامية التي لابنها.... ولكن في روسيا....

التفتت الشابة الجالسة قرب النافذة وقالت:

- يكفي يا أمي، حتى لدينا فإن الأمور تتغير بمرور السنين.

كان صوتها عميقاً، بل أجش حتى، ومع ذلك فهو ملاطف في خشونته. وكانت لها بشرة داكنة وشفتان حمراوان وجسم ممتلئ. كانت توحي بالحيوية المتدفقة. تنهّدت السيدة العجوز.

- كلاكما شابان... أنتما الاثنان. سهل عليكما الأمل. ولكني لست بفاقدة للأمل أنا نفسي. وبالفعل أستطيع أن أكون كذلك ولي ابن مثل هذا؟

خاطبتُ الآنسة هالدين فسألتها عن المؤلّفين الذين ترغب في مطالعة أعمالهم. وقد وجّهت إليّ عيناها الرماديتين المظلّلتين بأهداب سوداء، فأصبحت مدركاً - بغض النظر عن سنّي -كم كانت شخصيتها جذابة جسدياً بالنسبة إلى رجل قادر على أن يقيّم في امرأة شيئاً آخر غير هبة الأنوثة مجردة. كانت نظرتها مباشرة وصادقة كنظرة شاب لم تفسده بعد دروس العالم الحكيمة. وكانت جريئة، ولكن دون عدوانية. الثقة الساذجة إنّما عميقة التفكير تعريف أفضل لها. كان قد سبق لها ومارست التأمل (في روسيا يبدأ الشباب بالتأمّل في سنّ مبكرة)، ولكنها لم تعرف الخداع أبداً لأنها لم ترزح حتى الآن كما يبدو تحت حكم العاطفة. كانت - والتطلع إليها كان يكفي - قادرة جداً على أن تُستثار بفكرة أو بشخص بكل بساطة. على الأقل، هذا كان حكمي عليها دون تحيّز؛ فشخصي لم يكن هو الشخص المطلوب... أما بالنسبة إلى أفكاري!...

Twitter: @ketab_n

أصبحنا صديقين ممتازين خلال المطالعة. كان ذلك أمراً ممتعاً جداً. ودون الخوف من أن أثير ابتساماتكم فسوف أعترف بأني أصبحت شديد التعلق بتلك الفتاة. وما أن مضت أربعة شهور حتى قلت لها إنها تستطيع أن تتابع قراءة الإنكليزية وحدها. لقد حان موعد رحيل المعلّم. وقد بدا على تلميذتي الدهشة المترعة بالانزعاج.

ولكن السيدة هالدين بسكون ملامحها ولطافة التعبير في عينيها، قالت من كنبتها بلغتها الفرنسية غير الموثوق بها: «ولكن الصديق سيعود». وهكذا تقرر الأمر. أصبحت أعود: ليس مرات أربع في الأسبوع كما من قبل، بل أقل من ذلك. في الخريف قمنا ببعض النزهات القصيرة مع بعض الروس الآخرين. لقد منحتني صداقتي مع هاتين السيدتين مكانة في الجالية الروسية ما كان ممكناً الوصول إليها لولاهما.

في اليوم الذي رأيت فيه في الصحف خبر اغتيال «السيد دو ب....» - وكان يوم أحد- قابلت السيدتين في الشارع ورافقتهما بعض مسافة الطريق. كانت السيدة هالدين ترتدي معطفاً رمادياً فضفاضاً وثقيلاً، كما أتذكر، وذلك من فوق ثوب حريري أسود، وقد التقت عيناها الجميلتان بعينيّ بتعبيرٍ هادئ جداً.

قالت:

ـ كنا في الصلاة المتأخرة، وكانت ناتالكا معي. أما رفيقاتها، الطالبات هنا، فهن لا يذهبن طبعاً إلى الصلاة.... بالنسبة إلينا نحن الروس فإن الكنيسة تتطابق مع القمع، لذا يبدو ضرورياً تقريباً أن يتخلى المرء - إذا أراد أن يكون حراً في هذه الحياة- عن كل أمل في وجود آخر مستقبلي. ولكني لا أستطيع التخلي عن الصلاة من أجل ابني.

ثم أضافت بنوع من الكآبة المتحجرة وبالفرنسية: «قد يكون بحكم العادة فحسب».

كانت الآنسة هالدين تحمل كتاب الصلوات. لم تنظر إلى أمها.

Twitter: @ketab_n

قالت:

- أنت وفيكتور عميقا الإيمان كلاكما.

نقلت إليهما ذلك الخبر الوارد من بلدهما الذي قرأته وأنا في المقهى. ولمدة دقيقة كاملة رحنا نسير معاً بسرعة وبصمت. ثم همهمت السيدة هالدين:

- سيكون هناك المزيد من الاضطراب، ومن الملاحقة، بسبب ما حدث. وربما سيغلقون الجامعة. لا سلام ولا راحة في روسيا للإنسان إلاّ في القبر.

- أجل. الطريق صعبة.

هذا ما قالته الابنة وهي تنظر نحو الأمام إلى سلسلة جبال «جورا» المغطاة بالثلج، كجدار أبيض يغلق نهاية الشارع.

- ولكن الوئام ليس بعيداً إلى ذلك الحد.

قالت لي السيدة هالدين:

- هذا ما يظنه ولداي.

لم أخف شعوري بأن تلك الأوقات لم تكن مناسبة للحديث عن الوئام. وقد أدهشتني ناتالي هالدين بأن قالت، وكأنها قد فكرت كثيراً في الموضوع، إن الغربيين لا يفهمون الوضع. كانت هادئة جداً ومتفوقة على نحو مترع بالشباب.

- أنت تظن أنه صراع طبقي، أو صراع مصالح، كما هي حال الخلافات الاجتماعية لديكم في أوربا. ولكن الأمر لدينا ليس هكذا إطلاقاً. إنه شيء مختلف تماماً.

قلت مسلِّماً:

- من الممكن تماماً أني لا أفهم.

Twitter: @ketab_n

تلك النزعة الطبيعية إلى رفع كل مشكلة من مستوى ما هو مفهوم بواسطة نوع من التعبير الغامض السري، مسألة روسية جداً. كنت أعرفها بما فيه الكفاية بحيث اكتشفت احتقارها لكل الأشكال العلمية للحرية السياسية المعروفة من قبل العالم الغربي. أعتقد أن على المرء أن يكون روسياً ليفهم البساطة الروسية، وهي بساطة رهيبة أكّالة تقوم فيها جمل غامضة بتغطية سخرية ساذجة ويائسة. وأعتقد أحياناً أن السر السيكولوجي للاختلاف العميق لذلك الشعب يكمن هنا، في حقيقة أنهم يكرهون الحياة، حياة الأرض التي يستحيل علاجها، بينما نتمسّك بها نحن الغربيين بمبالغة مماثلة لقيمتها العاطفية. ولكن هذا استطراد بالفعل.

ساعدت هاتين السيدتين على ركوب الحافلة فسألتاني أن أزورهما في فترة بعد الظهر. على الأقل طلبت مني ذلك السيدة هالدين وهي تصعد إلى الحافلة، وابتسمت ناتالكا للغربيّ الغبيّ بتسامح من المنصة الخلفية للحافلة الآخذة بالتحرك. كان نور صدر النهار الشتائي الواضح قد خفت حدته في عينيها الرماديتين.

تُحيي مذكرات السيد رازوموف لديّ - وكأنها كتاب القدر المفتوح - ذكرى ذلك اليوم كشيء عديم الرحمة إلى حد مذهل في تحرّره من كل التنبؤات بشرٍّ مقبل. كان فكيتور هالدين لازال بين الأحياء، ولكنهم الأحياء الذين لا اتصال لهم مع الحياة إلاّ عن طريق توقع الموت. كان قد سبق له وراح يشير إلى آخر نزوعاته الأرضية، ساعات ذلك الصمت العنيد، الذي تم تمديده بالنسبة إليه إلى الأبد. في عصر ذلك اليوم استضافت السيدتان عدداً كبيراً من مواطنيهما.. عدداً أكبر مما اعتادتا استضافته في المرة الواحدة. وكانت غرفة الاستقبال في الطابق الأرضي من ذلك المنزل الكبير في «شارع الفلاسفة» شديدة الازدحام.

Twitter: @ketab_n

بقيتُ حتى غادر الجميع، وحين نهضتُ وقفتِ الآنسة هالدين أيضاً. أخذت يدها وأحست بالرغبة في أن أعود إلى موضوع حديثنا الصباحي في الشارع.

ـ أسلّم بأننا نحن الغربيين لا نفهم خاصية شعبك...

بدا وكأنها كانت قد جهزت نفسها لي بالتنبؤ مسبقاً على نحو غامض بما سأقوله. صدّتني بلطف...

ـ دوافعهم... أعني...

فتّشتْ عن التعبير المناسب ثم وجدته، ولكنها قالته بالفرنسية:

ـ نزعاتهم النفسية.

لم يرتفع صوتها أعلى من همسة.

قلت:

ـ حسناً، ولكننا لا نزال ننظر إلى صراع. تقولين إنه ليس صراع طبقات وليس صراع مصالح. افترضي أني أقر بذلك. هل يمكن للأفكار المتعارضة أن تتفق على نحو أسهل... هل يمكن أن تُعزّز بالدم والعنف لتصبح ذلك الوفاق الذي تصرحين بأنه قريب جداً؟

نظرت إليّ متفحصة بعينيها الرماديتين الصافيتين، دون أن تجيب على سؤالي المعقول.... سؤالي الواضح، سؤالي غير القابل للإجابة.

أضفتُ بشيء كالانزعاج:

ـ أمر لا يمكن تصوّره.

قالت:

ـ كل شيء لا يمكن تصوّره. العالم كله لا يمكن تصوّره أمام المنطق الصارم للأفكار. ومع ذلك فالعالم موجود بالنسبة إلى حواسنا، ونحن موجودون فيه. لا بد أن هناك ضرورة متفوقة على تصوراتنا. وإنه لأمر شديد البؤس والزيف أن ينتمي المرء إلى الأغلبية. نحن الروس سنجد

Twitter: @ketab_n

شكلاً أفضل من أشكال الحرية القومية من مجرد الصراع المصطنع للأحزاب... وهو صراع خاطئ لأنه صراع، وهو جدير بالازدراء لأنه مصطنع. الأمر متروك لنا نحن الروس لاكتشاف أسلوب أفضل.

كانت السيدة هالدين تنظر إلى الخارج عبر النافذة. التفتت إلي بجمال وجهها الذي يكاد يخلو من الحياة، وبالنظرة الصريحة الممتلئة بالحياة لعينيها الداكنتين الواسعتين.

قالت:

ـ هذا ما يعتقده ولداي.

قلت مخاطباً الآنسة هالدين:

ـ أعتقد أنك ستصابين بصدمة إذا قلت لك إني لم أفهم... لن أقول كلمة واحدة... لقد فهمت كل الكلمات... ولكن ما هو الاتفاق المتحرر من الجسد هذا الذي تتشوفين إليه. الحياة شيء متعلق بالشكل. إن لها شكلها التشكيلي ومظهراً فكرياً محدداً. لا بد لأكثر المفاهيم المثالية عن الحب والتجمّل بالصبر أن تكتسي لحماً كما كانت قبل أن أصبح ممكناً فهمهما.

ودّعت السيدة هالدين التي لم تتحرك شفتاها الجميلتان أبداً. ابتسمت بعينيها فحسب. رافقتني ناتالي هالدين حتى الباب وبكل ودّ.

ـ تعتقد أمي أني الصدى الخانع لأخي فيكتور. والأمر ليس كذلك. إنه يفهمني أكثر ممّا أفهمه. حين سينضم إلينا وتتعرّف أنت عليه سترى أية روح رائعة يتحلى بها.

توقفت ثم أضافت:

ـ ليس هو بالرجل القوي بالمعنى التقليدي كما تعرف، ولكن شخصيته تخلو من أي خلل.

ـ أعتقد أنه لن يكون صعباً عليّ أن أصادق أخاك فيكتور.

Twitter: @ketab_n

قالت بخبث نوعاً ما:

- لا تتوقع أن تفهمه تماماً. إنه ليس غريباً في أعماقه، إطلاقاً، إطلاقاً.

وغادرت الغرفة بهذا التحذير غير الضروري مع انحناءة أخرى عند البوابة للسيدة هالدين في كنبتها عند النافذة. كان ظل الحكم الفردي الاستبدادي الذي لم أكن أدركه قد سبق له وسقط على «شارع الفلاسفة»، في المدينة الحرة، المستقلة والمستقلة والديموقراطية: جنيف، حيث يوجد حيّ يسمى «روسيا الصغيرة». وكلما التقى شخصان روسيان معاً، فإن ظل الحكم الفردي الاستبدادي موجود معهما، يشوب أفكارهما، آراءهما، وأكثر مشاعرهما حميمية، حياتهما الخاصة وتصريحاتهما العلنية... ساكناً سرّ صمتهما.

إن ما صعقني لاحقاً خلال أسبوع أو نحوه كان صمت هاتين السيدتين. اعتدت أن أقابلهما تسيران في الحديقة العامة قرب الجامعة. كانتا تحيّياني بودّهما المعتاد، ولكنني لم أستطع سوى أن ألاحظ صمتهما. في ذلك الحين أصبح معروفاً للجميع أن قاتل السيد «دوبـ...» قد ألقي القبض عليه وحوكم وأعدم. لقد أعطيت وكالات الأنباء الكثير من المعلومات الرسمية. ولكن اسمه بقي مغفلاً للعالم كله. لقد قررّت السلطات الرسمية أن تبقي اسمه سراً. ولا أستطيع أن أتصوّر السبب بالفعل.

وفي أحد الأيام رأيت الآنسة هالدين تسير وحيدة في الشارع الرئيسي للحصن تحت الأشجار العارية.

قالت:

- أمي ليست في حالة جيدة.

وبما أن السيدة هالدين، كما بدا، لم تصب بالمرض في حياتها، فإن هذا التوعك كان أمراً يدعو إلى القلق. ولم يكن هناك شيء محدد أيضاً.

- أعتقد أنها قلقة لأننا لم نستلم خبراً من أخي منذ فترة طويلة نسبياً.

Twitter: @ketab_n

قلت بمرح:

ـ لا خبر... نبأ جيد.

ثم بدأنا نسير ببطء جنباً إلى جنب.

قالت بصوت خفيض جداً بحيث لم أستطع إلا بالكاد سماع كلماتها:

ـ ليس في روسيا.

نظرت إليها باهتمام أشد.

ـ أنت أيضاً قلقة؟

أقرّت بعد لحظة من التردّد أنها كانت تشعر بالقلق.

ـ لقد مرّت بالفعل فترة طويلة منذ أن سمعنا...

وقبل أن أستطيع تقديم الاقتراحات المبتذلة المعتادة أسرّت إلي قائلة:

ـ أوه ولكن المسألة أسوأ من ذلك بكثير. كتبت إلى أسرة أعرفها في بطرسبورغ. قالوا إنهم لم يروه منذ أكثر من شهر. إنهم يظنون أنه قد سبق له وانضم إلينا هنا. كانوا منزعجين قليلاً حتى لأنه غادر بطرسبورغ دون أن يزورهم. لقد ذهب زوج السيدة إلى مكان سكنه ولكن فيكتور كان قد غادر المسكن ولا يعرف أحد عنوانه.

أتذكر أنها التقطت أنفاسها على نحو مثير للشفقة بالأحرى، فأخوها لم يعد يُرى في المحاضرات منذ فترة طويلة أيضاً. لقد اعتاد أن يمرّ بين الحين والآخر على بوابة الجامعة ليسأل البواب إن كانت هناك رسائل له. ولكن الجنتلملن الصديق قال إن هالدين لم يحضر لاستلام آخر رسالتين له، وإن كانت الشرطة قد جاءت لتسأل إن كانت قد وصلت للطالب هالدين أية رسائل إلى الجامعة وأخذت هاتين الرسالتين.

Twitter: @ketab_n

قالت:

ـ آخر رسالتين بعثتُهما إليه.

وقفنا وجهاً لوجه. تراقصت بضع رقيقات من الثلج تحت الأغصان العارية. كانت السماء داكنة.

سألتها:

ـ ما تظنين أنه حدث؟

تحركت كتفاها قليلاً:

ـ في روسيا لا يمكن للمرء أن يحزر أبداً.

رأيت آنذاك ظل الحكم الفردي الاستبدادي مخيماً فوق الحيوات الروسية في خنوعها وفي تمرّدها. رأيته يلمس وجهها الوسيم الصريح المحتضَن في قبتها المصنوعة من الفرو ويعتّم عينيها الصافيتين اللتين كانتا تشعان بلون رمادي لامعٍ تحت نور العصر الغائم العاصف.

قالت:

ـ فلنمشِ. الطقس اليوم بارد على الوقوف.

ارتجفت قليلاً وضربت الأرض بقدميها الصغيرتين. تحركنا بسرعة إلى نهاية الشارع ثم عدنا إلى البوابة الضخمة للحديقة.

تجرأت فسألتها:

ـ هل أبلغت أمك؟

ـ لا، ليس بعد. لقد خرجتُ لأتمشى وأتخلص من تأثير هذه الرسالة.

سمعت خشخشة ورق في مكان ما. جاء الصوت من غطاء يديها المصنوع من الفرو. كانت الرسالة معها هناك.

Twitter: @ketab_n

سألتها:

ـ ما الذي تخشينه؟

بالنسبة إلينا نحن أوربيي الغرب فإن أفكار المؤامرات والمكائد السياسية كلها تبدو طفولية، وكاختراعات فجّة للمسرح أو الرواية. لم أرغب في أن أكون أكثر تحديداً في سؤالي.

ـ بالنسبة إليّ... إلى أمي خصيصاً، فإن ما أخشاه هو اللايقين. الأشخاص يختفون فعلاً. أجل، إنهم يختفون. أترك لك أن تتخيل الموضوع... قسوة الأسابيع الخرساء... الشهور... السنوات! لقد تخلّى صديقنا هذا عن استعلاماته حين سمع أن الشرطة قد أخذت الرسالتين. وأعتقد أنه خشي من التورط شخصياً. لديه زوجة وأطفال... ولماذا يتوجب عليه ذلك على أية حال؟... وعلاوة على ذلك، فإنه لا علاقات له مع ذوي النفوذ والسلطة، وهو ليس غنياً أيضاً. ما الذي كان يستطيع أن يفعله؟... أجل، أنا خائفة من الصمت... على أمي المسكينة. لن تستطيع تحمل ذلك. أما بالنسبة لأخي فأنا أخشى... عليه من أي شيء.

وقد قالت هذه العبارة الأخيرة بصوت يكاد لا يكون مسموعاً.

أصبحنا الآن قريبين من البوابة المواجهة للمسرح. رفعت صوتها قائلة:

ـ ولكن الأشخاص الضائعين يظهرون ثانية حتى في روسيا. أتعرف ما هو آخر أمل لي؟ ربما يكون الشيء التالي الذي سيحدث هو أن نراه وهو يدخل إلى بيتنا.

رفعت قبعتي وخرجت هي من الحديقة، رشيقة وقوية، بعد حركة خفيفة من الرأس باتجاهي، ويداها في غطاء الفرو تجعلكان رسالة بطرسبورغ القاسية.

Twitter: @ketab_n

لدى عودتي إلى البيت فتحت الصحيفة التي استلمتها من لندن، وحين نظرت إلى زاوية المراسلات من روسيا، ليس البرقيات بل المراسلات... فإن أول شيء رأته عيناي كان اسم هالدين. لم يعد موت «السيد دو بـ....» حدثاً مثيراً الآن، ولكن مراسل الصحيفة المغامر كان فخوراً بمقدرته على الحصول على معلومات غير رسمية عن تلك الواقعة الخاصة بالتاريخ المعاصر. لقد أمسك باسم هالدين واستطاع معرفة حكاية الاعتقال في منتصف الليل في الشارع. ولكن الإثارة الصحفية كان قد سبق لها وتخطّت هذه القضية، فلم يُكرس لها أكثر من عشرين سطراً من عمود كامل. ولكن ذلك كان كافياً ليحرمني من النوم الليل بطوله. قد تصوّرت أنه سيكون هناك نوع من الخيانة في أن أدع الآنسة هالدين تتعرف دون سابق إنذار على هذا الاكتشاف الصحفي الذي سيعاد نشره لا شكّ غداً من قبل الصحف السويسرية والفرنسية. عانيت الكثير حتى الصباح، وقد بقيت متيقّظاً من القلق العصبي وانتابتني كوابيس اليقظة مع إحساس بتشوّش مردّه إلى شيء مسرحي ومصطنع على نحو مرضيّ. إن تنافر مثل هذا التعقيد في حياة هاتين السيدتين كان مُدركاً من قبلي خلال الليل كله على شكل ألم مطلق. لقد بدا، بسبب من بساطته المرهفة، أنه يتوجّب إخفاؤه عنهما حتى الأبد. ولدى وصولي في ساعة مبكّرة إلى حد غير معقول إلى باب شقتهما، أحسستُ أني على وشك ارتكاب عمل من أعمال التخريب....

قادتني الخادم متوسطة العمر إلى غرفة الاستقبال حيث كان هناك منفضة غبار على كرسي ومكنسة مسندة إلى طاولة في الوسط. كانت دقائق الغبار تتراقص في نور الشمس. وقد ندمت لأني لم أكتب رسالة بدلاً عن القدوم بنفسي، وقد كنت ممتنّاً لأن الجوّ كان صافياً ذاك اليوم. خرجت الآنسة هالدين، في ثوب أسود بسيط، بخفة من غرفة أمها، وابتسامة غامضة على شفتيها.

Twitter: @ketab_n

أخرجت الصحيفة من جيبي. لم أكن أتصوّر أن عدداً من صحيفة «ستاندرد» سيكون له تأثير رأس ميدوزا[1]. لقد تحجّر وجهها خلال لحظة.. وعيناها... وأعضاؤها. ولكن الأمر الأشد هولاً هو أنها رغم تحجّرها بقيت حية. كان يمكن للمرء أن يشعر بقلبها الخائف. وآمل أن تغفر لي بسبب التأخير الناجم عن مواربتي الخرقاء. ولكن ذلك لم يطل كثيراً؛ ما كان ممكناً أن تبقى ساكنة إلى هذا الحد من الرأس إلى القدم لأكثر من ثانية أو ثانيتين، ثم سمعتها تتنفس. كأنما شلّت الصدمة مقاومتها المعنوية، وأثرت على صلابة عضلاتها، وبدت الخطوط الكفافية لوجهها كأنها قد انهارت. لقد تبدّلت على نحو مخيف. بدت عجوزاً... مهدمة. ولكن لبرهة واحدة. قالت بتصميم:

ـ سأذهب أبلغ أمي فوراً.

اعترضت قائلاً:

ـ هل سيكون ذلك مأموناً وهي في مثل تلك الحالة؟

ـ ما الذي يمكن أن يكون أسوأ من الحالة التي كانت عليها في هذا الشهر الأخير؟ نفهم هذا بطريقة أخرى. الجريمة لم تحدث عند باب بيته. تتخيّل أني أدافع عنه أمامك؟

ذهبت إلى باب غرفة النوم ثم عادت لتسألني في همهمة خفيفة ألاّ أخرج حتى تعود. ولمدة عشرين دقيقة لا متناهية لم يصلني أي صوت. وأخيراً خرجت الآنسة هالدين وسارت عبر الغرفة بخطواتها الخفيفة السريعة. وحين وصلت إلى الكنبة سقطت فيها بثقل وكأنها منهكة تماماً.

---

(1) في الأساطير اليونانية كان يحيل كل من ينظر إليه إلى تمثال من الحجر. (المترجم)

Twitter: @ketab_n

قالت لي إن السيدة هالدين لم تذرف دمعة واحدة. كانت جالسة في سريرها وكان سكونها وصمتها يدعوان إلى القلق. وأخيراً تمددت برقّة وطلبت من ابنتها الابتعاد.

أضافت الآنسة هالدين:

ـ ستطلبني على الفور. لقد تركت لها جرساً قرب السرير.

أعترف بأن تعاطفي الحقيقي ذاته لم تكن له وجهة نظر. إن القرّاء الغربيين الذين كتبت لهم هذه الحكاية سيفهمون ما أعنيه. كان ذلك هو انعدام التجربة إن كان يمكنني قول ذلك. الموت لص عديم الشفقة. إن ألم الخسارة التي لا يمكن تعويضها مألوفة لدينا جميعاً. لا حياة هناك وحيدة إلى حدّ أنها مضمونة ضد مثل هذه التجربة. ولكن كان للحزن الذي جلبته لهاتين السيدتين تداعيات مخيفة، كانت له تداعيات تتعلّق بالقنابل والمشانق... تلوين روسي مثير جعل لون بشرة تعاطفي أمراً غير أكيد.

كنت ممتنّاً للآنسة هالدين لأنها لم تحرجني بعرض خارجي للشعور العميق. لقد أعجبت بها لتلك السيطرة الرائعة على نفسها، حتى وأنا خائف عليها من مثل سيطرتها تلك. كان ذلك سكون توتّر عظيم. ماذا لو انهار فجأة؟ حتى باب غرفة السيدة هالدين، والأم العجوز وحيدة فيها، كان له بالأحرى مظهر رهيب.

غمغمت ناتالي هالدين بحزن:

ـ أعتقد أنك تتساءل عن ماهية مشاعري؟

كان هذا صحيحاً من الناحية الجوهرية. وكن ذلك التساؤل نفسه هو الذي يزعزع تعاطفي، تعاطف الشخص الغربي جداً. لم أستطع نطق أي شيء عدا بضع جمل عادية، تلك الجمل التي لا طائل منها والتي هي مقياس عجزنا أمام امتحان أحدنا للآخر. غمغمت بشيء ما

Twitter: @ketab_n

بمعنى أنه بالنسبة إلى الشباب فإن الحياة لا زالت تحمل آمالها وتعويضاتها. وتحمل واجباتها أيضاً... ولكني كنت متأكداً من أنه لا حاجة إلى تذكيرها بذلك.

كانت تحمل منديلاً بين يديها وتعصره بعصبية.

قالت:

- ليس وارداً أن أنسى أمي. لقد اعتدنا أن نكون ثلاثة. والآن نحن اثنتان... امرأتان. ليست هي مسنة جداً. قد تعيش طويلاً بعد. ما الذي يمكننا أن نتشوّفه من المستقبل الآن؟ أي أمل وأي سلوان؟

قلت بتصميم:

- عليك أن تتمتعي بوجهة نظر أوسع.

وكنت أفكّر حينها أنه مع مثل هذه المخلوقات الرائعة فإنه يتوجّب الضرب على هذا الوتر بالذات. نظرت إليّ بثبات للحظة ثم تدفّق الدمع الذي كانت تكبحه دون أي عائق الآن. قفزت من مكانها ووقفت عند النافذة وظهرها إلي.

تسلّلتُ مبتعداً دون أن أحاول حتى الاقتراب منها. وفي اليوم التالي قيل لي عند الباب إن السيدة هالدين قد تحسنّت حالتها. ثم قالت لي الخادم متوسّطة العمر إن روساً كثيرين قد زاروا المنزل اليوم، ولكن الآنسة هالدين لم تستقبل أحداً منهم. وبعد أسبوعين، حين كنت أقوم بزيارتي اليومية، طلب مني الدخول فوجدت السيدة هالدين جالسة في مكانها المعتاد قرب النافذة.

في البداية قد يتخيّل المرء أنه لم يتغير أي شيء، رأيت عبر الغرفة الصورة الجانبية المعتادة لوجهها، ولكنها أكثر حدة الآن في خطوطها وقد انتشر عليها شحوب شامل كذاك الذي يتوقّع المرء مشاهدته على إنسان مريض. ولكن ليس هناك من مرض يمكن أن

Twitter: @ketab_n

يكون سبباً في تغيير في عينيها السوداوين، اللتين ما عادتا تبتسمان بسخرية لطيفة. رفعتهما وهي تعطيني يدها. وقد لاحظت عدد صحيفة «ستاندرد» ، الذي عمره ثلاثة أسابيع. مطوياً على الصفحة الوارد فيها خبر المراسل من روسيا. وقد وضع على منضدة صغيرة قرب الكنبة. كان صوت السيدة هالدين ضعيفاً وحيادياً إلى حدّ مذهل. كانت أول كلمات خاطبتني بها عبارة عن سؤال:

ـ هل كان هناك المزيد في صحفكم؟

أطلقتُ يدها الطويلة النحيلة وهززت رأسي علامة النفي، ثم جلستُ.

ـ الصحافة الإنكليزية رائعة. لا يمكن إبقاء أي شيء سراً عنها، وعلى العالم كلّه أن يصغي. أخبارنا الروسية ليست سهلة على الفهم. ليست سهلة دائماً... ولكن الأمهات الإنكليزيات لا يبحثن عن أخبار كتلك...

وضعت يدها على الصحيفة ثم أبعدتها مرة أخرى. قلت:

ـ ونحن أيضاً مررنا بأوقات عصيبة في تاريخنا.

ـ منذ زمن بعيد. بعيد جداً.

ـ أجل.

قالت الآنسة هالدين التي كانت قد اقتربت منّا:

ـ هناك أمم عقدت صفقة رابحة مع القدر. لسنا في حاجة إلى أن نحسدها.

سألت بلطف:

ـ لم هذا الاحتقار؟ ربما لا تكون صفقتنا ثمينة جداً. ولكن الشروط التي ينالها الناس وتنالها الأمم من القدر يضفي عليها الثمن القدسية.

Twitter: @ketab_n

أشاحت السيدة هالدين برأسها بعيداً ونظرت إلى الخارج عبر النافذة لفترة من الوقت، بتلك التحديقة الجديدة الكئيبة المنطفئة لعينيها الغائرتين والتي صنعت منها امرأة أخرى تماماً.

خاطبتني فجأة:

ـ ذلك الإنكليزي، ذلك المراسل، هل تعتقد أنه من الممكن أن يكون قد عرف ابني؟

وعلى هذا السؤال الغريب ما استطعت أن أقول إن ذلك كان أمراً ممكناً بالطبع. وقد لاحظت هي دهشتي.

غمغمت:

ـ لو كان لنا أن نعرف أي نوع من الرجال هو لأمكننا الكتابة إليه.

شرحت الآنسة هالدين الواقفة بيننا وإحدى يديها تستريح على ظهر الكرسي الجالس أنا عليه:

ـ تعتقد أمي أن أخي المسكين لم يحاول على الأرجح إنقاذ نفسه.

نظرت إلى الآنسة هالدين في رعب متعاطف، ولكنها كانت تنظر بهدوء إلى أمها. قالت هذه الأخيرة:

ـ لا نعرف عنوان أي من أصدقائه، بل نحن لا نعرف بالفعل أي شيء عن رفاقه في بطرسبورغ. كان لديه عدد كبير من الأصدقاء ولكنه لم يتحدث عنهم كثيراً. يمكن للمرء أن يحزر أنهم كانوا ينظرون إليه على أنه مثلهم الأعلى. ولكنه كان شديد التواضع. المرء قد يعتقد أنه مع وجود كل هؤلاء الرفاق المخلصين...

أشاحت برأسها بعيداً ونظرت إلى «شارع الفلاسفة»، وهو شارع قاحل ومغبر على نحو فريد، ما كان ممكناً أن ترى فيه في تلك اللحظة سوى كلبين وفتاة صغيرة في مئزر تحجل على ساق واحدة، وعامل يقود دراجته من بعيد.

Twitter: @ketab_n

همست كأنما لنفسها ولكن كأنها كانت تنوي أن تجعلني أسمعها:

- حتى بين تلامذة المسيح كن هناك يهوذا.

تجمّع الزوّار الروس في زمر صغيرة وهم يتحدّثون فيما بينهم في هذه الأثناء، في همهمات خفيضة ونظرات عجلى في اتجاهنا. وكان ذلك يتعارض تماماً مع الهذر المرتفع المعتاد في مثل هذه الاجتماعات. لحقت بي الآنسة هالدين إلى الحجرة الصغيرة الملحقة.

قالت:

- الناس سيأتون. لا نستطيع إغلاق أبوابنا في وجوههم.

وبينما كنت أرتدي معطفي بدأت تتحدّث عن أمها. كانت السيدة هالدين المسكينة تتوق إلى المزيد من الأخبار. كانت تريد الاستماع إلى المزيد عن ابنها البائس الحظ. لم تكن قادرة على التصميم على التخلّي عنه بهدوء إلى المجهول الصامت. كانت ستثابر على ملاحقته إلى هناك عبر أيام الصمت الطويل وجهاً لوجه مع شارع الفلاسفة الفارغ. لم تكن قادرة على أن تفهم السبب في أنه لم يهرب، كما فعل ثوار ومتآمرون كثيرون آخرون في مثل هذه المواقف. لم يكن مفهوماً كيف أن وسائل التنظيمات الثورية السرية قد فشلت إلى هذا الحد الذي لا يمكن غفرانه في الحفاظ على ابنها. ولكن في الواقع كان ما هو غير مفهوم والذي كان يؤثر على عقلها هو الوقاحة الوحشية للموت الذي مرّ فوق رأسها ليصيب ذلك القلب العزيز الشاب.

قدمت لي الآنسة هالدين قبعتي آلياً وبنظرة منهمكة. وقد فهمت منها أن المرأة المسكينة تستحوذ عليها فكرة بسيطة واحدة مفادها أن ابنها قد مات لأنه لم يرغب في أن ينجو ولم يكن السبب هو يأسه من مستقبل وطنه. كانت ذلك مستحيلاً. هل كان ممكناً أن أمه وأخته لم تكونا موضع سرّه، وأنه بعد أن فعل ما كان مرغماً على فعله، فإن روحه أصبحت مدمّرة بفعل شكّ لا يمكن احتماله وأن ذهنه قد تشتّت بفعل ارتياب مفاجئ؟

Twitter: @ketab_n

لقد صدمني هذا الابتكار المفاجئ إلى حد كبير.

ـ كانت حيواتنا الثلاث هكذا!

وهنا شبكت الآنسة هالدين أصابع يديها الاثنتين معاً كنوع من الشرح، ثم فصلتهما ببطء وهي تنظر مباشرة إلى وجهي. ثم أضافت الفتاة العجيبة:

ـ هذا ما وجدته أمي المسكينة لتعذّب نفسها به وتعذّبني أنا به طوال السنوات القادمة.

وقد انكشفت لي في تلك اللحظة فتنتها العصيّة على التعريف وذلك من خلال دمج العاطفة بالرواقية[1]. وقد تخيلت كيف ستكون حياتها إلى جانب سكونية السيدة هالدين الرهيبة المسكونة بتلك الفترة الثابتة. ولكن اهتمامي تحوّل إلى صمت بسبب جهلي بأساليب شعورها. إن اختلاف الجنسية عائق رهيب أمام طبائعنا الغريبة المعقّدة. ولكن ربما كانت الآنسة هالدين أبسط من أن تشكّ في حرَجي. لم تنتظر مني أن أقول أي شيء، ولكن كأنما كانت تقرأ أفكاري على وجهي إذ استأنفت الكلام بشجاعة:

ـ في البداية أصيبت ماما بالخدر كما يقول فلاّحونا؛ ثم بدأت تفكّر وستبقى تفكّر وتفكّر ضمن ذلك التوتّر البائس. أنت ترى بنفسك كم هو قاس هذا....

---

(1) الرواقية: وهي المذهب الذي أنشأه زينون اليوناني عام (300) ق.م. والذي قال بأن الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من لانفعال ولا يتأثر بالفرج أو الترح وأن يخضع من غير تذمر للضرورة القاهرة. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

لكم كنت صادقاً حين وافقتها على رأيها بأنه سيكون أمراً مؤسفاً إلى آخر حدّ. وقد تنفّست بقلق.

ثم صاحت فجأة:

ـ ولكن كل هذه التفاصيل الغريبة في الصحيفة الإنكليزية! ما هو مغزاها؟ أعتقد أنها صحيحة، أليس كذلك؟ ولكن أليس رهيباً أن يُعتقل أخي المسكين وهو يتجوّل وحيداً، كأنما في يأس، في الشوارع ليلاً...

كنا نقف قريبين جداً واحدنا الآخر في الغرفة الصغيرة المعتمة حتى أني رأيتها تعضّ شفتها السفلى لتكبح نشيجاً دون دموع. وبعد وقفة قصيرة قالت:

ـ لقد قلت لأمي إنه ربما تتعرض للخيانة من صديق مزيف أو ربما من قبل أي مخلوق جبان. ربما يكون أسهل عليها تصديق ذلك.

سلّمتُ معها بأنه سيكون أسهل، وأنا أتعجب داخلياً من صراحة ورقة نظرة هذه الفتاة. كانت تتعامل مع الحياة كما صُنعت لها من خلال الشروط السياسية لبلدها. كانت تواجه حقائق قاسية، ليس تخيّلات مريضة من صنعها بالذات. لم أستطع مغالبة شعور معين بالاحترام حين أضافت ببساطة:

ـ يقولون إن الزمن يخفف كل أنواع المرارة. ولكني لا أعتقد أن له أية سلطة على الندم. أعتقد أنه من الأفضل أن تظن أمي أن شخصاً ما هو المذنب في موت فيكتور على أن تربطه بضعف في ابنها أو عيب فيها.

شرعت في القول:

ـ ولكنك، أنت بالذات، لا تفترضين أن...

Twitter: @ketab_n

ضغطت شفتيها وهزت رأسها. لم تكن تضمر أية أفكار شريرة ضد أحد، هذا ما صرحت به... ربما لا شيء مما حدث كان غير ضروري. وبهذه الكلمات التي نطقت بها بخفة وبلهجة توحي بالغموض ضمن نصف العتمة السائد في الغرفة الجانبية، افترقنا بمصافحة بالأيدي معبّرة ودافئة. كانت لقبضة يدها القوية الجميلة صراحة مغوية، نوع من القوة الفاتنة. لا أعرف سبب شعورها الودّي جداً تجاهي. ربما ظنّت أني أفهمها أكثر من قدرتي على ذلك. كانت أكثر أقوالها دقة تبدو لي دائماً وكأنها فيها إطالات ملغزة تتلاشى في مكان ما أبعد من متناولي. وقد أكرهت على الافتراض بأنها كانت تثمّن اهتمامي وصمتي. إن الاهتمام الذي كانت قادرة على رؤيته كان صادقاً، ولذا فإنه ما كان ممكناً الشك في الصمت على أنه برودة. يبدو أنه كان يرضيها. ولا بد من ملاحظة أنها إن كانت تثق بي فقد كان ذلك ليس بناء على أمل بكسب النصيحة ـ وهو أمر واضح - إذ هي لم تطلبها أبداً.

ثانياً:

لقد حدث أن انقطعت علاقاتنا اليومية في تلك الفترة لمدة أسبوعين تقريباً، فقد اضطررت إلى أن أتغيّب عن جنيف لسبب لم يكن متوقعاً. ولدى عودتي توجهت بأسرع ما استطعت إلى «شارع الفلاسفة».

عبر الباب المفتوح لغرفة الاستقبال انزعجت إذ سمعت زائراً يلقي بصوت عميق مداهن خطبة متواصلة.

كانت كنبة السيدة هالدين قرب النافذة فارغة. وعلى الأريكة كانت ناتالي هالدين ترفع عينيها الرماديتين الفاتنتين بنظرة محيّية مرفقة بما لا يمكن أن يكون سوى شبح ابتسامة ترحيب. ولكنها لم تتحرّك. وبيديها البيضاوين القويتين القابعتين مقلوبتين في حجر ثوب

Twitter: @ketab_n

الحداد كانت تواجه رجلاً كان يدير إليّ ظهراً قوياً مغطى بجوخ أسود ينسجم مع الصوت العميق. التفت برأسه بحدّة من فوق كتفه، ولكن للحظة واحدة فقط.

ـ آه! صديقك الانكليزي. أعرف. أعرف. لا يهمّ.

كان يضع نظارتين لهما زجاج مدخّن، وكانت قبعة حريرية عالية قابعة على الأرض قرب كرسيّه. لوّح بخفة بيد كبيرة ناعمة واستأنف حديثاً مسرّعاً إلقاءه قليلاً.

ـ لم أغيّر أبداً القناعة التي كنت أحملها وأنا أتجوّل في غابات ومستنقعات سيبيريا. لقد غذّتني بأسباب الحياة آنذاك... ولا تزال. إن القوى العظمى في أوربا محتّم عليها أن تختفي... وسبب انهيارها سيكون بسيطاً جداً. ستستنزف نفسها في صراع مع طبقتها البروليتارية. أما في روسيا فالأمر مختلف. في روسيا ليس لدينا طبقات تتصارع فيما بينها، تملك إحداها سلطة الغنى والأخرى قوة التعداد والكثرة. كل ما لدينا هو بيروقراطية غير نظيفة في مواجهة شعب عظيم وغير قابل للفساد شأنه شأن المحيط. لا، ليس لدينا أي طبقات ولكن لدينا المرأة الروسية. المرأة الروسية المثيرة للإعجاب! أتلقى رسائل رائعة جداً موقّعة من نساء. وهي رفيعة جداً في لهجتها، جريئة جداً وذات حرارة نبيلة جداً، معبّرة عن رغبة في تقديم الخدمات. إن أكبر جزء من آمالنا يكمن في النساء. ألاحظ تعطّشهنّ للمعرفة. شيء مثير للإعجاب. أنظر كيف يستوعبنها وكيف يجعلنها شيئاً يخصّهنّ. هذا معجز ولكن ما هي المعرفة؟... أفهم أنك لا تدرسين شيئاً خاصاً... الطبّ مثلاً. لا؟ هذا صحيح. لو أتيح الشرف وسئلت أن أقدم لك النصح حول كيفية قضاء وقتك حين وصلتِ إلى هنا لعارضتُ بشدّة دورة المطالعة تلك. المعرفة بحدّ ذاتها مجرد نفاية.

Twitter: @ketab_n

كان له واحد من تلك الوجوه الروسية الملتحية التي لا شكل لها، مجرد مظهر من اللحم والشعر دون ملمح واحد ذي خصوصية. كانت عيناه مخفيتين خلف نظارتين داكنتين وبالتالي لم يكن هناك أي تعبير إطلاقاً. كنت أعرفه بالمشاهدة فحسب. كان لاجئاً روسياً شهيراً تعرف جنيف كلها شخصه الضخم في المعطف الأسود. وفي وقت من الأوقات كانت أوربا كلها على معرفة بقصة حياته التي كتبها بنفسه وتُرجمت إلى سبع لغات أو أكثر. في شبابه عاش حياة الدعة والفجور، ثم ماتت فتاة مجتمع كان على وشك الزواج بها فجأة فهجر عالم الطبقات الاجتماعية العليا وبأ يتآمر بروح انتقامية، وبعد ذلك اهتمت سلطة الفرد الاستبدادية في بلده به وتلقّى المعاملة المعتادة في مثل هذه الحالات. لقد سجن في قلعة وضرب حتى كاد يفارق الحياة ثم حكم عليه بالعمل في المناجم مع المجرمين العاديين. ولكن النجاح العظيم الذي لاقاه كتابه كان يعود إلى أية حال إلى موضوع القيود.

لا أتذكر الآن تفاصيل وزن وطول القيود التي كانت مثبّتة إلى أعضائه بأمر «إداري»، ولكن الوزن وسماكة السلاسل كانا يؤكدان على نحو مفزع الحق المقدّس للسلطة الاستبدادية. أمر مفزع وبلا طائل أيضاً. لأنّ هذا الرجل الضخم استطاع أن يحمل تلك الآلة الحكومية البسيطة إلى الغابات. إن صلصلة هذه القيود تسمع خلال هذه الفصول التي تصف هربه... وقد كان هذا موضوعاً أثار الإعجاب في قارتين. استطاع أن يخفي نفسه بنجاح بعيداً عن الخفراء في حفرة على ضفة نهر، وكان النهار قد انقضى، وبجهد لا متناه استطاع أن يحرّر إحدى ساقيه. وخلال ذلك هبط الليل. كان سيبدأ بتحرير ساقه الأخرى حين حلّ به كرب عظيم. لقد أسقط المبرد.

Twitter: @ketab_n

كل هذا دقيق إنما رمزي؛ وكان للمبرد حكايته التي تثير الشفقة. لقد أعطي له دون توقع في إحدى الأمسيات من قبل فتاة هادئة شاحبة الوجه. كانت هذه المخلوقة المسكينة قد خرجت إلى المناجم لتنضمّ إلى أحد رفاقه من المحكومين، وهو شاب رقيق يعمل ميكانيكياً وينتمي إلى الديموقراطيين الاجتماعيين، وكانت له وجنتان عريضتان وعينان واسعتان محدّقتان. لقد شقّت طريقها عبر نصف روسيا وسيبيريا كلها تقريباً على أمل مساعدته على الهروب. ولكنها وصلت متأخرة فقد كان حبيبها قد مات قبل ذلك بأسبوع واحد فقط.

عبر هذه الحادثة المغمورة، كما يصفها، في تاريخ الأفكار في روسيا، فإن المبرد وصل إلى يديه وألهمه بتصميم حماسي على استعادة حريته. وحين انزلق من بين أصابعه، اختفى المبرد كأنما ابتعلته الأرض. لم يستطيع بأية وسيلة أن يجده في الظلام، راح يتلمّس بحثاً عنه بطريقة منظمة في التربة اللينة، في الطين، في الماء؛ وكان الليل قد أوشك على الانقضاء، الليل الثمين الذي كان يعتمد عليه للتوغّل في الغابات، فرصته الوحيدة للهروب. وللحظة واحدة أغراه اليأس بالاستسلام، ولكنه حين تذكّر الوجه الحزين الهادئ للفتاة البطلة، أحسّ بالخجل العميق من ضعفه. لقد اختارته لتهبه هدية الحرية، وعليه أن يبرهن على أنه يستحق هذه المنّة التي جادت بها روحها الأنثوية التي لا تُقهر. بدت تلك الثقة مقدّسة. وأن يخونها كان أشبه بخيانة لقداسة التضحية بالنفس والحب الأنثوي.

في كتابه صفحات كاملة من التحليل الذاتي التي تبرز منها القناعة بتفوّق المرأة الروحي كما قد يبرز جسم أبيض من خضم بحر داكن مضطرب... ومنذ ذلك الحين استغرقت قناعاته الجديدة مجلّدات عدة. كان أول عربون وفاء قدمه لقاء ذلك هو ذلك العمل العظيم: أي اعتناقه للمذهب الجديد ووجوده الاستثنائي في الغابات اللامتناهية

Twitter: @ketab_n

لمقاطعة «أوخوتسك»، والطرف الفالت من القيد ملفوف حول خصره، لقد مزق قطعة من قميص السجن وربط هذا الطرف على نحو ثابت: كما كانت خرق أخرى يربطها بين الحين والآخر فوق ساقه اليسرى حتى يكتم صوت الصلصلة وليمنع الحلقات المتدلية من أن تعلق في الشجيرات. أصبح شديد القسوة. وقد نمت لديه عبقرية لا شك فيها في فنون الوجود البّري المطارّد. لقد تعلم أن يزحف إلى القرى دون أن يكشف وجوده ودون أن يسبب في أي ضجيج خلا جلجلة صغيرة أحياناً. كان يقتحم المباني الجانبية بفأس استطاع سرقتها من معسكر للحطابين. وفي الأصقاع المهجورة من الريف كان يعيش على التوت البري ويبحث عن العسل، لقد تساقطت عنه ملابسه بالتدريج. كان جسمه العاري الملفوع والذي يحدق بغموض عبر الشجيرات وغمامة من البعوض والذباب محوّمة فوق رأسه الأشعث، قد سبب في انتشار حكايات رعب عبر مناطق بأكملها. لقد أصبح مزاجه وحشياً مع مرور الأيام وكان سعيداً باكتشاف كل تلك الوحشية في نفسه. لم يعد لديه ما يضع ثقته فيه، فقد كان الأمر أشبه بوجود كائنين بشريين متحدين لا ينفصلان، الإنسان المتمّدن، المتحمس للمثاليات الإنسانية المتقدمة، المتعطش لانتصار الحب الروحي والحرية السياسية؛ والمتوحش البدائي المختلس، الخدّاع على نحو لا شفقة فيه من أجل الحفاظ على حريته من يوم إلى يوم، كوحش طريد.

كان الوحش يتجه غريزياً نحو الشرق باتجاه المحيط الهادئ، والإنسان المتمدن يراقب ما يجري برعب وباتكال قلق خائف على الآخر. وخلال هذه الأسابيع كلها لم يستطع أن يصمم على الاحتكام إلى العاطفة الإنسانية. في الوحش البدائي الحذر قد يكون هذا الخجل طبيعياً، ولكن الآخر أيضاً، المخلوق المتحضّر، المفكّر، «السجين

Twitter: @ketab_n

السياسي» الهارب، قد طوّر شكلاً غريباً من التشاؤمية، شكلاً من الجنون المؤقت، الناشئ ربما عن الإرهاق الجسدي وإزعاج سلسلة القيود له. هذه القيود، كما يتخيّل، جعلته بغيضاً في نظر بقية البشر. كانت حملاً كريهاً وموحياً. ما كان أي شخص قادراً على الشعور بالشفقة تجاه المرأى المثير للاشمئزاز لرجل هارب بقيد مكسور. لقد تأثرت مخيلته بقيوده على نحو واقعي دقيق. بدا له مستحيلاً أن يقاوم الناس إغراء ربط الطرف الفالت إلى رزّة في جدار والانطلاق إلى أقرب شرطي. لقد حاول عن طريق الاختباء في الحفر أو الأدغال أن يقرأ وجوه المستوطنين الأحرار غير المدركين لوجوده وهم في أراض مقطوعة الشجر أو سائرين على امتداد الممرات على مبعدة قدم واحدة أو اثنتين من عينيه. وكان إحساسه هو أنه لا يوجد شخص على الأرض يمكن ألاّ تغويه القيود.

وفي أحد الأيام حدث أن مرّ بامرأة وحيدة. كان ذلك على منحدر مفتوح من العشب القاسي خارج الغابة. كانت جالسة على ضفة جدول ضيق وتضع منديلاً أحمر على رأسها، وسلّة صغيرة على الأرض قرب يدها. على مسافة صغيرة كانت هناك مجموعة من الأكواخ المصنوعة من جذوع الأشجار من طاحونة مائية تشرف على بركة مسوّرة تظللها أشجار البيتولا وتبدو لامعة كزجاج تحت نور الغسق. اقترب منها ببطء وفأسه مدسوس في حزامه الحديدي، وهراوة ثخينة في يده. كان في شعره المتشابك ولحيته المتلبدة أوراق شجر وقطع صغيرة من الأغصان، وقد ربط خرقاً حول السلسلة النازلة من خصره. جلجلت قيوده قليلاً مما جعل المرأة تلتفت برأسها. أصيب بالخوف لمشاهدتها هذا الشبح المتوحش وإلى حد أنها لم تستطع أن تقفز أو حتى أن تصرخ، ولكنها كانت شجاعة أيضاً إلى حد أنه لم يغم عليها... وقد غطت عينيها بيديها متوقعة أن تُقتل

Twitter: @ketab_n

في مكانها على أقلّه، وذلك لتتجنب مشاهدة الفأس النازلة عليها. وحين وجدت الشجاعة أخيراً لتنظر مرة أخرى، رأت الرجل المتوحش الأشعث جالساً على الضفة على بعد ستة أقدام منها. كانت ذراعاه النحيلتان القويتان تعانقان ساقيه العاريتين واللحية الطويلة تغطي الركبتين اللتين كانت ذقنه تستريح عليهما. كانت كل هذه الأعضاء المتشابكة المطوية، والكتفان العاريتان والرأس المتوحش ذو العينين الحمراوين المحدقتين، تهتز وترتجف بعنف بينما المخلوق الوحشي يبذل جهداً ليتكلم. كانت قد مرت ستة أسابيع منذ أن سمع صوته لآخر مرة. بدا وكأنه فقد القدرة على النطق. لقد أصبح وحشاً أبكم يائساً، حتى أعادته الصرخة غير المتوقعة والمفاجئة التي أطلقتها المرأة عن شفقة عميقة، إذ اكتشفت بصيرة عطفها الأنثوي البؤس المركب لهذا الإنسان تحت المظهر المرعب لوحش، أعادته إلى صفوف الإنسانية. وجهة النظر هذه مذكورة في كتابه وبخطابية مؤثرة. ويقول إن هذه المرأة ذرفت الدموع عليه، دموعاً خائفة مخلصّة، بينما بكى هو أيضاً من الفرح، وبأسلوب شخص آثم عاد إلى الإيمان. ثم طلبت منه أن يختفي بين الأدغال والانتظار بصبر (كان يتوقع وصول دورية للشرطة إلى المستوطنة)، وذهبت نحو البيوت واعدة إياه بالعودة ليلاً.

وكأنما بلعبة من لعبات القدر كانت هذه المرأة زوجة حداد القرية وهما متزوجان منذ وقت قريب. وقد أقنعت المرأة زوجها أن يخرج معها حاملاً بعض أدوات مهنته من مطرقة وإزميل وسندان صغير... يقول الكتاب: «كسرت قيودي على ضفاف الجدول في نور نجوم ليلة هادئة من قبل شاب رياضي البنية سكُوت، ركع عند قدميّ بينما كانت المرأة كروح محرّرة تقف على مقربة منا بيدين متشابكتين». من الواضح أنهما زوجان رمزيان. وفي الوقت نفسه زوّدا

Twitter: @ketab_n

إنسانيته المستعادة ببعض الملابس المحتشمة، وأعادا الروح إلى الرجل الجديد بالمعلومات التي مفادها أن شاطئ المحيط الهادئ لم يكن يبعد عن القرية أكثر من أميال قليلة جداً. كان من الممكن مشاهدته في الواقع من قمة التل التالي.

أما بقية حكاية هروبه فلم يعالجها بتلك الطريقة الغامضة والتفسير الرمزي. وقد أنهاها بأنه وجد طريقه إلى غرب أوربا عن طريق قناة السويس بالأسلوب العادي. وحين وصل إلى شواطئ أوربا الجنوبية جلس ليكتب سيرة حياته... وقد حققت نجاحاً أدبياً كبيراً في ذلك العام. وقد تبع هذا الكتاب كتب أخرى ألفها بهدف واحد صريح هو السمو بالإنسانية. وقد نادى في هذه الكتب بمذهب عبادة النساء. وقد كان هو يمارسه وفق طقوس التفاني في حب المزايا الفائقة لسيدة تدعى «مدام دو سـ....»، وهي سيدة ذات آراء متقدمة، لم تعد بالشابة الآن، وإن كانت ذات مرة الزوجة الأسرة لدبلوماسي مات ونُسي منذ زمن بعيد. كانت تلتجئ، بادعاءاتها الصارخة بأنّها واحدة من قادة الفكر المعاصر والرأي المعاصر (كما فولتير ومدام دوشتال إلى أراضي جنيف الجمهورية وكانت إذ تسير بعربتها عبر الشوارع في عربتها الكبيرة تعرض أمام عدم اكتراث المواطنين الأصليين وتحديقات السواح جسداً شاباً ذا خصر طويل وتيبّس كهنوتي وعينين واسعتين لامعتين، تتقلّبان بقلق خلف حجاب قصير من القماش الأسود المخرّم لا ينزل أبعد من شفتيها الحمراوين اللامعتين، ويكاد يكون قناعاً. وفي العادة فإن «اللاجئ البطل» (أضفي هذا اللقب في مراجعة للطبعة الإنكليزية من كتابه)... كان يرافقها، جالساً بلحيته الهائلة ونظارتيه السوداوين، ليس إلى جانبها، بل مقابلها، وظهره إلى الحصانين. وهكذا، كانا يجلسان وجهاً لوجه، وحيدين في تلك العربة الكبيرة، فتبدو نزهاتهما نوعاً من الاستعراض العلني. أو ربما كان ذلك دون قصد. غالباً ما تسير البساطة الروسية ببراءة على حافة السخرية لسبب نبيل، ولكنه إذ

Twitter: @ketab_n

ما حاولت أوربا رفيعة الثقافة أن تفهم هذه الأفعال فسيكون أمراً عقيماً. وإذا ما أخذنا في الاعتبار جو الوقار المنتشر حتى في وجه الحوذي وطريقة سير الحصانين الرائعين، فإنه قد يكون لهذا الاستعراض الغريب أهمية طقوسية سرية؛ ولكنه كان يبدو للعقل الغربي ذي الطبع اللاهي المفسد -كعقلي - أمراً قليل الاحتشام.

وعلى أية حال فإنه ليس لائقاً بمعلم مغمور للغات أن ينتقد «اللاجئ البطل» ذا الشهرة العالمية. لقد كنت مدركاً من الإشاعات أنه كان فضولياً مجداً يلاحق مواطنيه في الفنادق والمساكن الخاصة ويمنحهم -كما قيل لي - شرف اهتمامه وذلك في الحدائق العامة حين تتاح له الفرصة الملائمة. لقد كان لديّ انطباع بأنه بعد زيارة أو اثنتين قام بهما للسيدة هالدين وابنتها، قبل شهور عدة، فقد تخلّى عن زيارتهما - بتردّد دون شك - إذ يبدو أنه شخص ذو تصميم على أية حال. لقد كان متوقعاً، على الأرجح، أنه سيعاود الزيارة في مثل هذه المناسبة الرهيبة، كروسي وكثوري، وذلك ليقول الشيء الصحيح، أن يضرب على الوتر الحقيقي الذي فيه السلوان. ولكني انزعجت من رؤيته جالساً هناك. وأعتقد أن تلك غيرة غير لائقة لا علاقة لوضعي المتميّز بها. لم أكن أطالب بأي شيء خاص لقاء صداقتي الصامتة. وكوني قد عُزلت بسبب الاختلاف في العمر والجنسية إلى عالم ذي وجود آخر، فقد تصرفت على نحو ترك تأثيراً - حتى على نفسي - أشبه بتأثير شبح أبكم عاجز أو شيء قلق لامادّي لا يستطيع سوى أن يحلّق في المكان دون أن يتمتع بالقدرة على الحماية أو التوجيه بأكثر من همسة. وبما أن الآنسة هالدين بغريزتها الصادقة قد امتنعت عن تقديمي إلى الرجل الشهير ضخم الجثة، فقد كان يمكنني الانسحاب والعودة لاحقاً، لولا أني رأيت ذلك التعبير العجيب في عينيها والذي فسّرته على أنه دعوة إلى البقاء على أمل تقصير أمد الزيارة غير المرحّب بها.

Twitter: @ketab_n

التقط قبعته من على الأرض ولكن ليضعها فوق ركبتيه.

ـ سنتقابل مرة أخرى يا ناتاليا فيكتوروفنا. لقد زرتك اليوم لأعبر عن تلك المشاعر تجاه أمك المحترمة وتجاهك أنت والتي لا يمكنك الشك في نوعيتها. لم أكن في حاجة إلى أي شخص يدفعني إلى ذلك، ولكن «إلينور»- «المدام دو سـ...» - قد أرسلتني إليكم شخصياً بطريقة ما. إنها تمدّ إليك يد الزمالة الأنثوية. ليس هناك إطلاقاً ضمن مجال العواطف الإنسانية أي فرح أو ترح لا يمكن لتلك المرأة أن تفهمه وتسمو به وتمنحه معنى روحياً من لدنها. ذلك الشاب الذي وصل مؤخراً من سانت بطرسبورغ، والذي ذكرتُه لك، قد سبق له ووقع تحت سحر فتنتها.

وهنا نهضت الآنسة هالدين فجأة. كنت سعيداً بذلك. لم يكن يتوقع أي شيء حاسم كهذا على ما يبدو، وقد ألقى برأسه إلى الخلف أوّلاً ثم ردع نظارتيه إلى الأعلى بفضول رقيق. وأخيراً، استجمع نفسه ونهض بسرعة وهو يرفع قبعته عن ركبتيه بمهارة عظيمة.

ـ كيف حدث يا ناتاليا فيكتوروفنا أن بقيت منعزلة طوال هذه الفترة عما هو على أية حال -ودعي الألسنة الذميمة تقول ما تريد- مركز فريد للحرية الفكرية والجهد المبذول لتشكيل مفهوم سام عن مستقبلنا؟ فيما يخص أمك المحترمة أستطيع أن أفهم موقعها إلى حد ما، ففي مثل سنها تكون الأفكار الجديدة... الوجوه الجديدة ربما... أما أنت! هل كان ذلك ارتياباً أوْ عدم اكتراث؟ عليك أن تتخلّصي من تحفّظك. لا يحق لنا نحن الروس أن نكون متحفظين واحدنا تجاه الآخر. في مثل ظروفنا يعتبر هذا جريمة ضد الإنسانية تقريباً. إن ترف الحزن الخصوصي ليس ترفنا. في هذه الأيام لا يُحارب الشيطان بالصلوات والصوم. وما هو الصوم على أية حال سوى التجويع؟ عليك ألا تجوّعي نفسك يا ناتاليا فيكتوروفنا. القوة هي ما نحتاج إليه.

Twitter: @ketab_n

أعني القوة الروحية. أما بالنسبة إلى النوع الآخر، فما الذي سيصدّنا نحن الروس لو استعملناها؟ الخطيئة مختلفة في أيامنا هذه، طريق الخلاص للأرواح النقية مختلفة أيضاً. ما عاد ممكناً إيجادها في الأديرة في العالم، في الـ...

بدا الصوت العميق وكأنه يخرج من تحت الأرض، بل أن المرء ليشعر أنه منغمس فيه حتى الشفتين. كانت مقاطعة الآنسة هالدين له تشبه محاولة الشخص الغارق البقاء فوق الماء. لقد فعلت ذلك نافذة الصبر:

- ولكن يا بيتر إيفانوفيتش، لا أنوي اللجوء إلى الدير، من سيبحث عن خلاصك هناك؟

قال بصوت داو:

- كنت أتحدث مجازياً.

- حسناً إذن، وأنا أتحدث مجازيّاً أيضاً. ولكن الحزن حزن والألم ألم بالأسلوب القديم نفسه. إنهما يأخذان حقهما من الناس. وعلى المرء أن يواجههما بأفضل ما يستطيع. أعرف أن الضربة التي حلّت بنا دون توقع مجرد حادثة في مصير شعب. ويمكنك أن تكون واثقاً من أني لن أنسى ذلك. ولكن عليّ الآن أن أفكر بأمي. كيف تتوقع مني أن أتركها لوحدها...؟

قال محتجاً بصوته القوي:

- هذا تبسيط شديد للأمر.

لم تنتظر الآنسة هالدين موت اهتزازات صوته:

-.... وأن أذهب لزيارة البيوت بين أناس غرباء لا أعرفهم. الفكرة لا تعجبني ولا أعرف ما يمكن أن تعنيه أنت أيضاً من هذا كله؟

Twitter: @ketab_n

نهض فارتفع فوقها، ضخماً، مراعياً لرغبتها، حليق الرأس كمحكوم، وقد أوحت إليّ رأسه الكبيرة الوردية برؤيا رأس وحشية ذات خصل ملبّدة تحدّق من خلال أغصان شجيرات مباعدة، ولمحات من أعضاء عارية ملفوعة تنسلّ خلسة خلف أكوام من أوراق أشجار مبلّلة وغمامة من الذباب والبعوض. كانت تلك ضريبة غير طوعية لحيوية كتابته. لم يكن في مقدور أحد أن يشكّ في أنه تجوّل في غابات سيبيريا عارياً ومطوّقاً بسلسلة حديدية بدلاً عن الحزام. كان معطف الجوخ الأسود يضفي على شخصه مظهر الاحتشام المتزمّت... إنه يذكّرني بالمبشّرين.

قال برزانة:

- هل تعرفين ما أريد يا ناتاليا فيكتوروفنا؟ أريدك أن تكوني متعصّبة.

- متعصبة؟

- أجل، الإيمان وحده لا يكفي.

هبط صوته إلى درجة أخفض. رفع ذراعه الغليظة للحظة بينا بقيت الأخرى معلّقة على فخذه وفي نهايتها قبعة الحرير الهشّة.

- سأقول لك شيئاً أرجو منك أن تفكري فيه جيداً. اسمعي، نحن في حاجة إلى قوة من شأنها أن تهزّ السماء والأرض... لا أقلّ من ذلك.

كانت لهجته عميقة تحت أرضية حين قال: «لا أقل من ذلك.» حتى لتجعل المرء يرتجف، إذ بدت تقريباً كهمهمات الريح في أنابيب الأرغن.

- وهل ستجد تلك القوة في صالون «المدام دو س...»؟ اعذرني يا بيتر إيفانوفيتش، إن كنت أسمح لنفسي أن أشك في ذلك. أليست «المدام دو س...» امرأة العالم الفخم، أرستقراطية؟

Twitter: @ketab_n

صاح:

ـ التحامل! أنت تدهشينني. وافترضي أنها كذلك! هي أيضاً امرأة من لحم ودم. هناك دائماً شيء ما يرهق الجانب الروحيّ فينا كلّنا. ولكن أن نحوّله إلى تقريع هو ما لم أتوقّعه منك. لا! لم أكن أتوقع ذلك. قد يعتقد المرء أنك كنت تستمعين إلى غيبة حاقدة.

ـ لم أسمع أية إشاعات، وأؤكد لك ذلك. وكيف سأسمع مثل ذلك في مقاطعتنا في روسيا؟ ولكن العالم يتحدث عنها. ما الذي يمكن أن يكون مشتركاً بين ذلك النوع من النساء وفتاة ريفية مغمورة مثلي!

ـ إنها تَجلٍ دائم لروح نبيلة لا مثيل لها. فتنتها... لا، لن أتحدّث عن فتنتها. ولكن كلّ شخص يقترب منها يقع تحت سحرها... التناقضات تختفي... وينسى المرء مشاكله... هذا ما لم أكن مخطئاً... ولكن المرء لا يخطئ في القضايا الروحية... أنت قلقة الروح يا ناتاليا فيكتوروفنا.

نظرت عينا الآنسة هالدين الصافيتان مباشرة إلى وجهه الضخم الرخو. وقد تلقيتُ انطباعاً بأنه وراء هاتين النظارتين المعتمتين يمكنه أن يكون وقحاً بقدر ما يريد.

ـ منذ أيام كنا نسير مساء إلى المدينة من «قصر بوريل» مع آخر روسيّ مثير للاهتمام وصل من بطرسبورغ، فلاحظت التأثير الملطِّف القوي... يمكنني أن أقول التأثير التوفيقي... لقد كان هناك، على امتداد كل تلك الكيلومترات من شواطئ البحيرة، صامتاً، كرجل تكشّف له طريق السلام. استطعت أن أشعر بالخميرة الناشطة في روحه تفهمينني. لقد أصغى إليّ بصبر. لقد أُلهمت أنا شخصياً ذلك المساء بالعبقرية الراسخة والفاتنة لإلينور - أعني «المدام دو سـ...» -كما تعلمين. كان القمر بدراً وكنت قادراً على مراقبة وجهه. لا يمكن أن أنخدع...

Twitter: @ketab_n

بدت الآنسة هالدين كالمتردّدة وهي تنظر إلى الأرض.

ـ حسناً! سأفكر بما قلت يا بيتر إيفانوفيتش. سأحاول أن أزورها حالما أستطيع أن أترك أمي ساعة أو ساعتين على نحو مضمون.

ورغم أن هذه الكلمات قيلت ببرود إلاّ أني دهشت من تنازلها. اختطفت يدها اليمنى بحرارة ظننت معها أنه سيلثمها أو يضمّها إلى صدره. ولكنه أمسك بها بين أنامله فحسب، وذلك بيده الضخمة وهزّها قليلاً إلى الأعلى ثم الأسفل وهو يوجّه آخر وابل من الكلمات:

ـ حسن، حسن، لم أكسب ثقتك الكاملة بعد يا ناتاليا فيكتوروفنا، ولكن ذلك قادم، كل شيء سيأتي في أوانه. إن أخت فيكتور هالدين لا يمكن أن تكون غير ذات شأن... هذا مستحيل تماماً. ولا يمكن لأية امرأة أن تبقى جالسة على الدرج. الزهور والدموع والاستحسان... كان لهذه الأمور أوانها سابقاً: كان ذلك مفهوماً «قروسطياً». الحلبة، الحلبة نفسها هي مكان المرأة!

تخلّى عن يدها متألقاً وكأنه يعطيها إياها كهدية، وبقي ساكناً، ورأسه محنية في خضوع وقور أمام أنوثتها.

ـ الحلبة... عليك أن تنزلي إلى الحلبة يا ناتاليا.

خطا خطوة واحدة نحو الخلف، وانحنى بجسده الضخم ورحل بسرعة. انصفق الباب من خلفه، ولكن سرعان ما سمعنا رنين صوته في الحجرة الصغيرة الملحقة بغرفة الاستقبال وهو يخاطب الخادم متوسطة العمر التي كانت تقوده إلى الخارج. ولا أعلم إن كان قد حضّها هي أيضاً على النزول إلى الحلبة أم لا. لقد بدا الأمر كمحاضرة، وقد قطعها فجأة صوت الباب الخارجي وهو ينصفق.

Twitter: @ketab_n

ثالثاً:

بقينا ننظر واحدنا إلى الآخر لفترة من الوقت.

ـ هل تعرف من هو؟

هكذا سألتني الآنسة هالدين بالإنكليزية وهي تتقدّم نحوي.

أخذت يدها التي عرضتها عليّ.

ـ الكلّ يعرفه. هو منادٍ ثوري بالمساواة بين المرأة والرجل، وكاتب كبير إذا أحببت و... كيف أقولها... الضيف المألوف في الصالون الثوري السري لـ «المدام دو سـ...».

مرّرت الآنسة هالدين يدها فوق جبينها.

ـ أتعرف؟ لقد كان معي منذ أكثر من ساعة قبل مجيئك. وقد كنت سعيدة أن أمي كانت تستريح. لقد قضّت ليالي عدة دون نوم، وأحياناً تستريح خلال النهار ساعات عدة. إنه إنهاك كامل... ولكنني سعيدة بذلك... ولولا فترات الراحة هذه...

نظرت إليّ وهزّت رأسها بتلك القدرة الاستثنائية على الفهم التي كان من عادتها أن تربكني.

ـ لا، هي لن تُجنّ.

ـ يا سيدتي الشابة العزيزة...

هكذا صرختُ محتجّاً وقد صُدمت على نحو أشدّ لأني كنت في قلبي أبعد ما أكون عن الظنّ في أن السيدة هالدين متملّكة تماماً لقواها العقلية.

استأنفت ناتالي هالدين ببساطتها الهادئة الصافية والتي بدت لها على أنها تتميّز بالبطولة:

ـ أنت لا تعرف أي ذكاء رائع وجليّ كانت تتمتّع به أمي.

Twitter: @ketab_n

همهمتُ:

ـ أنا واثق...

ـ لقد عتّمتُ لها غرفتها وخرجت إلى هنا. كنت أريد منذ زمن بعيد أن أفكّر بهدوء.

توقّفت عن الكلام، ثم أضافت دون أن يظهر عليها أية أمارة من أمارات الحزن.

ـ هذا صعب جداً.

ثم نظرت إليّ بثبات غريب وكأنها تراقب ظهور أية إشارة تدلّ على المعارضة أو الدهشة.

ولكني لم أبدِ أية إشارة تدلّ على أيهما. وقد اضطررت إلى أن أقول على نحو لا يقاوم:

ـ أخشى أن زيارة ذلك السيد قد جعلت الأمر أشدّ صعوبة.

وقفت الآنسة هالدين أمامي بذلك التعبير العجيب في عينيها:

ـ لا أدعي أني أفهم بيتر إيفانوفيتش تماماً. لا بدّ للمرء من دليل حتى لو لم يستسلم لتوجيهاته نهائياً. أنا فتاة قليلة الخبرة ولكني لا أحبّ العبودية. هناك الكثير منها في روسيا. لماذا لا أصغي إليه؟ ليس هناك أي ضرر في أن يتمّ توجيه أفكار المرء. ولكن لا بأس إن اعترفت لك بأني لم أكن صريحة تماماً مع بيتر ايفانوفيتش. لا أعرف تماماً ما الذي منعني في تلك اللحظة.

سارت مبتعدة فجأة نحو جزء بعيد من الغرفة، ولكن حتى تفتح وتغلق درجاً في مكتب. عادت مع قطعة من الورق في يدها. كانت رقيقة وقد كتب عليها بخط متلاصق فبدت سوداء. كانت تلك رسالة، وكان ذلك أمراً واضحاً.

Twitter: @ketab_n

قالت:

- لقد أردت أن أقرأ لك الكلمات ذاتها. هذه واحدة من رسائل أخي المسكين. لم تكن لديه شكوك أبداً. وكيف كان سيشك؟ إنهم عبارة عن حفنة صغيرة، أولئك الظالمون البائسون مقابل الإرادة الموحّدة لشعبنا.

- هل كان أخوك مؤمناً بقدرة إرادة الشعب على تحقيق أي شيء؟

صرحت الآنسة هالدين:

- كان ذلك هو دينه.

نظرت إلى وجهها الهادئ وعينيها المفعمتين بالحيوية.

استأنفت قائلة:

- طبعاً لا بدّ أن يتم إيقاظ وإلهام وتركيز هذه الإرادة. هذه هي مهمة المحرّضين الحقيقيين. على المرء أن يضحّي بحياته من أجلها. يجب إزالة واجتثاث ذلّ العبودية والأكاذيب الاستبدادية، الإصلاح مستحيل. لا شيء هناك للإصلاح. ليست هناك مشروعية ولا مؤسسات. هناك القوانين الاستبدادية فحسب. هناك مجرد حفنة من الموظفين القساة - وربما العميان- ضد أمة بكاملها.

خشخشت الورقة قليلاً في يدها. نظرت إلى الصفحات المسوّدة الرقيقة التي بدا خط اليد فيها من النوع التآمري غير المفهوم بالنسبة إلى تجربة أوربا الغربية.

- تبدو المسألة كما أوردتها بسيطة جداً. ولكني أخشى أنه لن يتاح لي أن أراها وقد حلّت. ولو عدت إلى روسيا فأنا أعرف أني لن أراك ثانية. ومع ذلك فإني أقول مرة أخرى: عودي! لا تفترضي أني أفكر بالمحافظة عليك. لا! أعرف أنك لن تعودي إلى هناك وتكون سلامتك

Twitter: @ketab_n

الشخصية في مأمن، ولكني أفضّل أن أفكّر فيك وأنت في حالة الخطر هناك على أن أراك معرّضة، إلى هذا الحد، إلى ما أنت معرّضة له هنا.

قالت الآنسة هالدين بعد لحظة تأمّل:

- سأقول لك ما هو رأيي. أعتقد أنك تكره الثورة، أنت تتخيّل أنها ليست مسألة شريفة تماماً. أنت تنتمي إلى شعب قايض القدر ولا يريد أن يكون فظّاً معه. ولكننا لم نقم بأية مقايضة. لم يُعرض علينا ذلك.. الكثير من الحرية مقابل الكثير من العملة مستقرة القيمة. أنت تشمئزّ من فكرة الفعل الثوري على أنها شيء... كيف أقول... ليس لائقاً.

طأطأت برأسي وقلت:

- أنت على حق تماماً. وأنا أقيّمك تقييماً عالياً جداً.

شرعت تقول بسرعة:

- لا تعتقد أني لا أعرف ذلك. لقد كانت صداقتك ولا تزال قيّمة جداً.

- لم أفعل أكثر من مجرد المراقبة.

احمرّ وجهها قليلاً تحت العينين.

- هناك طريقة للمراقبة يمكن أن تكون قيّمة جداً. لقد أحسست بأني أقل وحدة بسبب ذلك. من الصعب تفسير ذلك.

- حقاً، حسن، لقد أحسست أنا أيضاً بأني أقل وحدة. وهذا على أية حال سهل على التفسير. ولكن الأمر لن يستمرّ طويلاً. آخر شيء أريد أن أبلغك إياه، هو هذا: في ثورة حقيقية- ليس مجرد تغيير بسيط في الأسرة الحاكمة أو مجرد إصلاح في المؤسسات - في ثورة حقيقية فإن أفضل الشخصيات لا تخرج إلى المقدمة. الثورة العنيفة تقع بين أيدي المتعصبين ضيّقي الفكر والمنافقين الاستبداديين في البداية. وبعد ذلك يأتي دور كل الفاشلين من المثقفين المدّعين.

Twitter: @ketab_n

هؤلاء هم الزعماء والقادة. ستلاحظين أني أسقطت من الحساب الأوغاد المجردين. أما كثيرو الوساوس والعادلون، النبيلون، الإنسانيون وذوو الطباع المتميزة بالإخلاص، فقد يبدأ الغيريون والأذكياء بحركة ما.... ولكنها تفلت منهم. إنهم ليسوا قادة ثورة. هم ضحاياها: ضحايا الاشمئزاز والتحرّر من الوهم... وغالباً الندم. الآمال تتم خيانتها على نحو عجيب، والمثاليات تتحوّل إلى مسوخ... هذا هو تعريف النجاح الثوري. في كل ثورة كانت هناك قلوب تحطّمها مثل هذه النجاحات. ولكن يكفينا هذا. ما أعنيه هو أني لا أريدك أن تكوني ضحية.

احتجّت الآنسة هالدين قائلة:

ـ لو استطعت أن أصدّق كل ما قلته لما كنت سأفكر رغم ذلك بنفسي. سآخذ الحرية من أية يد كما يختطف الجائع كسرة من الخبز. على التقدّم الحقيقي أن يبدأ لاحقاً. ولذا فإنه يتوجّب إيجاد الأشخاص المناسبين. إنهم بيننا الآن. يقابلهم المرء في خمول ذكراهم وعدم شهرتهم وهم يجهزّون أنفسهم...

فتحت الرسالة التي كانت تحتفظ بها في يدها طوال هذه الفترة، ثم نظرت إليها.

قالت مكررة:

ـ أجل! يقابل المرء مثل هؤلاء الرجال!

ثم قرأت الكلمات التالية: «طاهر، شامخ ووحداني».

ثم طوت الرسالة وراحت تشرح لي، بينما رحت أنظر إليها بتساؤل:

ـ هذه هي الكلمات التي وصف أخي بها شاباً تعرّف عليه في

Twitter: @ketab_n

سانت بطرسبورغ. وأعتقد أنه صديق حميم له. لا شكّ في ذلك. إنه الوحيد الذي يذكر أخي اسمه في كل مراسلاته لي. الوحيد على الإطلاق و... هل يمكنك أن تصدق ذلك؟... هذا الرجل هنا. لقد وصل مؤخراً إلى جنيف.

سألتها:

ـ هل رأيته؟ لا بد أنك رأيته بالطبع.

ـ لا!، لا، لم أره. لم أكن أعرف أنه هنا. إن بيتر ايفانوفيتش هو الذي أخبرني. لقد سمعته أنت بنفسك وهو يذكر شخصاً حديث الوصول من بطرسبورغ... حسناً، هذا هو الرجل «ذو الوجود الطاهر الشامخ والوحداني.» صديق أخي!

قلت:

ـ أعتقد أنّه مشبوه سياسياً.

ـ لا أعرف. لا بد وأن الأمر كذلك. من يدري؟ ربما كانت هذه الصداقة مع أخي بالذات هي التي... ولكن لا! هذا غير ممكن إطلاقاً. لا أعرف شيئاً بالفعل سوى أن بيتر ايفانوفيتش حكى لي عنه. لقد جلب رسالة توصية من «الأب زوسيم»... أنت تعرفه... ذلك القس الديمقراطي. لا شك أنك سمعت بالأب زوسيم؟

ـ أجل. الأب زوسيم الشهير الذي أقام في جنيف مدة شهرين تقريباً منذ حوالي العام. وحين غادر جنيف بدا وكأنه اختفى من العالم كله.

ـ يبدو أنه عاد للعمل في روسيا مرة أخرى. في مكان ما من أواسط روسيا. ولكن أرجو ألا تذكر ذلك لأحد... لا تدع لسانك يزلق، لأنه وصل الأمر إلى الصحافة لكان في ذلك خطر عليه.

Twitter: @ketab_n

سألتها:

- أنت تواقة بالطبع للقاء صديق أخيك ذاك، أليس كذلك؟

وضعت الآنسة هالدين الرسالة في جيبها. كانت عيناها تنظران إلى ما وراء كتفي نحو باب غرفة أمها.

همهمت:

- ليس هنا. ليس للمرة الأولى على الأقل.

وبعد لحظة صمت قلت وداعاً، ولكن الآنسة هالدين لحقت بي إلى الغرفة الصغيرة الجانبية وأغلقت الباب خلفنا بحذر:

- أعتقد أن تعرف أين أنوي الذهاب غداً؟

- لقد قررت زيارة «المدام دو سـ...».

- أجل. سأذهب إلى «قصر بوريل». يتوجب عليّ ذلك.

سألتها بصوت خفيض:

- ما الذي تتوقعين سماعه هناك؟

كنت أتساءل إن كانت تخدع نفسها بأمل مستحيل، لم يكن الأمر كذلك على أية حال.

- فكّر فحسب... مثل هذا الصديق. الشخص الوحيد المذكور في رسائله. لا شك أن لديه شيئاً ما يعطيه إلي، وإن كان ذلك ليس أكثر من مجرد كلمات قليلة زهيدة. ربما كان ذلك شيئاً ما قاله أو فكر به في آخر أيامه تلك. هل تريدني أن أرفض ما خلّفه أخي المسكين... صديقه؟

قلت:

- لا طبعاً. أفهم فضولك الجدير بالثناء تماماً.

Twitter: @ketab_n

همهمت لنفسها:

- «ذو وجود طاهر، شامخ ووحداني». هاهو! هاهو! حسناً، فلأسأله عن الميت العزيز.

- كيف تعرفين إذن إن كنت ستقابلينه هناك؟ هل يقيم في «القصر» كضيف... هل تعتقدين ذلك؟

اعترفت قائلة:

- لا أعرف بالضبط. لقد جلب رسالة توصية من الأب زوسيم... الذي هو صديق لـ «المدام دو سـ...» على ما يبدو. لا يمكنها أن تكون امرأة تافهة إذن.

قلت:

- كانت هناك كل أنواع الإشاعات حول الأب زوسيم نفسه.

هزت كتفيها.

- الافتراء سلاح من أسلحة حكومتنا أيضاً. هذا أمر معروف تماماً. أجل! إنها لحقيقة أن الأب زوسيم كان يتمتع بحماية الحاكم العام لإحدى المقاطعات. لقد تحادثنا حول هذا الموضوع مع أخي منذ عامين على ما أذكر. ولكن عمله كان طيباً. والآن هو منفي ومحروم من حماية القانون. ما هو البرهان الأفضل الذي يمكن للمرء الحصول عليه؟ ولكن لا يهمني ما كان عليه هذا القسيس أو ما هو عليه الآن. كل هذا لا يؤثر على صديق أخي. وإذا لم أقابله هناك سأطلب عنوانه من هؤلاء الناس. ويجب على أمي أن تراه هي أيضاً، ولكن فيما بعد. لا تعرف ما يمكن أن يحكيه لنا. وستحلّ عليها الرحمة لو قيل لها ما يلطّف مصابها. أنت تعرف ما تتخيّله هي. ربما سيُكتشف تفسير ما أو... أو يُخترع ربما. لن يكون في ذلك أي خطيئة.

Twitter: @ketab_n

قلت:

- بالتأكيد. لن تكون تلك خطيئة، بل غلطة مع ذلك.

- أريد منها أن تسترجع بعضاً من روحها القديمة فحسب. وبينما هي على هذه الحال لا أستطيع أن أفكر في أي شيء بهدوء.

- هل تعنين أنك ستخترعين نوعاً من الحيلة الفاضلة من أجل أمك؟

- لماذا تسميها حيلة؟ مثل هذا الصديق يعرف لا ريب شيئاً حدث لأخي في تلك الأيام الأخيرة. يمكنه أن يحكي لنا... هناك شيء ما في الوقائع لن يجعلني أستريح. أنا على ثقة من أنه كان ينوي الانضمام إلينا هنا - إن كانت لديه بعض الخطط - عمل بطولي ما يريد إنجازه؛ ليس من أجل نفسه فحسب، بل لكلينا. كنت أثق في ذلك. لقد تشوفت إلى ذلك الحين! أوهّ! بكل ذلك الأمل ونفاد الصبر... بكل طاقتي على التحمّل. ولكنه يظهر كل ذاك الطيش والتهور... كأنما لم يكن يهتم...

بقيت صامتة بعض الوقت، ثم استأنفت بعناد:

- أريد أن أعرف...

حين فكرت بالموضوع، لاحقاً، وأنا أتمشى ببطء مبتعداً عن «شارع الفلاسفة» سألت نفسي منتقداً ما الذي كانت تريد معرفته بالضبط؟ كان الذي سمعتُه من حكايتها كافياً لإعطائي مفتاحاً للحل. في مؤسسة تعليم البنات حيث أنهت الآنسة هالدين دراستها لم تكن تلقى الاستحسان، إذ كان يُشك في أنها تحمل آراء مستقلة حول مسائل يقرّها التعليم الرسمي. وفيما بعد، حين عادت السيدتان إلى منزلهما الريفي، اكتسبت الأم والبنت كلتاهما، عن طريق إفشاء آرائهما بالحوادث العامة علناً، شهرة على أنهما ليبراليتان. كانت عربة

Twitter: @ketab_n

نقيب الشرطة ذات الجياد الثلاثة قد بدأ تُرى كثيراً في قريتهم. «علي أن أراقب الفلاحين»... هكذا برّر زياراته للمنزل. «سيدتان وحيدتان. يجب الاعتناء بهما قليلاً.» كان يفتش الجدران كأنه يريد اختراقها بعينيه، ويحدق في الصور، ويقلّب الكتب في غرفة الاستقبال دون اكتراث، وبعد تناول المرطبات المعتادة، كان يرحل. ولكن قسيس القرية العجوز وصل في أحد الأمسيات في حالة شديدة من الكآبة والإثارة، ليعترف أنه هو – القسيس – قد أمر بمراقبتهما وأن يتأكد بطرق أخرى (كأن يستعمل سلطته الروحية مع الخدم) من كل ما يجري في المنزل، وخاصة الزوار الذين تستقبلهم السيدتان، ومن هم، وفترة بقائهم، وإن كان أي منهم غرباء من المنطقة، وهكذا دواليك. كان الرجل العجوز البسيط في حالة من العذاب بسبب الإذلال والخوف. «جئت أحذركما. كونا حريصتين في تصرفكما، حباً بالله. أنا أحترق من خجلي، ولكن لا مهرب من الشبكة. سأضطر إلى أن أخبرهم بما أراه، لأني إن لم أفعل فإن شمّاسي سيفعل. إنه مستعد أن يرتكب أسوأ الأمور ليكسب مرضاتهم. وهناك صهري، زوج ابنتي «باراشا» الذي يعمل كاتباً في مكتب المقاطعة الحكومي، إذ سرعان ما سيطردونه، أو ربما يبعدونه إلى مكان ما. » ومسح عينيه. لم يكن يرغب في إنفاق آخر أيامه برأس حليقة في قبو التوبة في دير من الأديرة... «وأخضع إلى كل قساوات النظام الكنسي؛ فهم لن يرحموا رجلاً عجوزاً أبداً.» ثم أنّه كاد يصاب بالهيستيريا، وقامت السيدتان، اللتان أحسّتا بالرثاء تجاهه بمواساته بقدر ما استطاعتا قبل أن تسمحا له بالعودة إلى كوخه. ولكن، كان يتردّد عليهما في الواقع القليل من الزوار. كان الجيران- والبعض منهم أصدقاء قدامى – قد بدؤوا يبتعدون؛ قلة منهم بخجل وآخرون باحتقار واضح كونهم أناساً كباراً لا يأتون سوى في الصيف – كما شرحت لي الآنسة هالدين – أي

Twitter: @ketab_n

ارستقراطيون رجعيون. كان المكان موحشاً بالنسبة إلى فتاة شابة، كما كانت علاقتها مع أمها من أرقّ العلاقات وأصرحها؛ ولكن السيدة هالدين عاشت تجارب جيلها ومعاناته وخداعه أيضاً. كانت تعبّر عن عاطفتها تجاه ولديها بكبحها لكل أمارات القلق. لقد تصرفت بتحفّظ بطولي. وبالنسبة إلى ناتالي هالدين، فإن أخاها مع حياته في بطرسبورغ، غير المبهمة إطلاقاً (لم يكن هناك أي شك في ما كان يحسّ به أو يفكّر فيه) إنما التي كان يحياها على نحو سري، كانت الممثّل المرئي الوحيد لحريةٍ مصادرة. إن أهمية الحرية كلها، وعودها غير المحدودة، كانت تعيش في نقاشاتهم الطويلة التي كانت تتنفّس بأسمى الآمال في ممارسة الفعل والإيمان بالنجاح. ثم، فجأة، انتهى الفعل والآمال مع التفاصيل التي كشفها الصحفيّ الإنكليزي. كانت الحقيقة الملموسة، حقيقة موته قد بقيت، ولكنها بقيت غامضة في أسبابها الأعمق. لقد أحسّت أنها قد هُجِرت دونما تعليل. ولكنها لم ترتَبْ به. ما كانت تريده هو أن تعرف، بأيّ ثمن كان، كيف تستطيع أن تبقى مخلصة لروحه الراحلة.

رابعاً:

مرت أيام عدة قبل أن أقابل ناتالي مرة أخرى. كنت أعبر المكان أمام المسرح حين تبيّنت قوامها الرشيق خلال عملية التفاتته بين أعمدة بوّابة المنتزه العام غير الجميل عند القلعة. لقد ابتعدت عني ولكني عرفت أننا سنتقابل لا بدّ حين تعود لتسير على امتداد الشارع الرئيسي، هذا إلاّ إذا كانت ذاهبة إلى بيتها. في مثل تلك الحالة لا أعتقد أن عليّ أن أزورها بعد. كانت رغبتي في إبعادها عن هؤلاء الناس قوية الآن كما لم تكن من قبل، ولكن لم تكن لديّ أية أوهام فيما يخصّ مدى سلطتي. لقد كنت مجرّد شخص «غربي»، وكان واضحاً أن الآنسة هالدين لم ولن تصغي إلى حكمتي؛ أما بالنسبة إلى

Twitter: @ketab_n

رغبتي في الاستماع إلى صوتها، فقد كان من الأفضل، كما فكّرت، ألاّ أنغمس كثيراً في تلك المتعة. كلاّ، لم يكن عليّ أن أذهب إلى «شارع الفلاسفة»؛ ولكني حين كنت في وسط الشارع الرئيسي وشاهدت الآنسة هالدين قادمة نحوي، كنت أشدّ فضولاً وصادقاً مع نفسي من أن أحاول الهرب.

كان هناك شيء ما من قسوة الربيع في الجوّ. فالسماء الزرقاء ثقيلة، ولكن الأوراق الصغيرة النابتة تتشبّث كغمامة طرية بالصف غير المثير للاهتمام من الأشجار؛ وكانت الشمس الصافية تضع نقطتين صغيرتين من الذهب في عيني الآنسة هالدين الرماديتين الصريحتين، وهي تلتفت نحوي وتحيّيني بمودّة.

سألتها عن صحة أمها.

حركت كتفيها قليلاً وتنهّدت بحزن تنهيدة صغيرة.

ـ ولكنني، كما ترى، خرجت لأتمشّى... لأتريّض كما تقولون أنتم الإنكليز.

ابتسمت موافقاً فأضافت ملاحظة غير متوقّعة:

ـ يا له من يوم رائع.

كان صوتها أجشّ قليلاً، ولكنه فاتن بذكورته ووجود شيء من خاصية الطيور فيه. كما كانت له لهجة القناعة الفطرية. كنت سعيداً به. كانت أشبه بمن وعى شبابه... فقد كانت هناك روعة ربيعية قليلة جداً في مساحات العشب والأشجار المستطيلة المسيّجة، والمؤطرة على نحو مرئي بالسقوف المنحدرة المنتظمة لهذه المدينة، الجميلة دون تناسق، والمضياف دون تعاطف. في الهواء نفسه الذي كانت تسير فيه لم يكن هناك سوى قليل من الدفء؛ والسماء سماء أرض دون آفاق، كانت ممسوحة ومغسولة تماماً بأمطار نيسان، وتمتدّ زرقاء باردة

Twitter: @ketab_n

قاسية، دون سموّ، وقد ضاقت فجأة بالجدار القبيح المعتم لجبل الجورا، حيث كانت لا تزال قد تخلفت هنا وهناك بعض آثار وبقع بائسة من الثلج. لا بد وأن روعة الفصل كلها كانت كامنة في نفسها هي... وكنت سعيداً أن دخل هذا الشعور إلى حياتها، ولو لفترة قصيرة.

ـ يسرّني أن أسمعك تقولين هذه الكلمات.

حدجتني بنظرة سريعة. سريعة وليس مختلسة. ولو كان هناك شيء واحد كانت هي غير قادرة عليه إطلاقاً، لكان الخلسة. كانت صراحتها واضحة في إيقاع مشيتها بالذات. كنت أنا من ينظر إليها سراً... لو كان لي أن أقول ذلك. كنت أعرف أين كانت، ولكنني لم أكن أعرف ما رأته وسمعته في عش المؤامرات الأرستقراطية ذاك. وأنا أستعمل كلمة أرستقراطية لعدم توفر مصطلح أفضل. كان «قصر بوريل»، المحاط بالأشجار والأجمات النابتة في أراضيه المهملة، ذا شهرة في أيامنا على أنه مسكن تلك المرأة الخطيرة المنفية «مدام دوشتال»[1]، وذلك في الفترة النابوليونية. كان الاستبداد النابوليوني، الوريث المنتعل للحذاء العسكري لـ «الثورة»، وهو الوحيد الذي كان يعتبر تلك المرأة المثقّفة عدواً يستحق المراقبة، استبداداً لا يشبه إطلاقاً الحكم الفردي المطلق في أثواب باطنية، الناشئ عن عبودية غزو تتريّ. وكانت «المدام دو سـ...» أبعد ما تكون عن التشابه مع مؤلفة «كورين». كنت تتبجّح بأنها مُلاحَقَة. ولا أعرف إن كانت تُعتبر

(1) أديبة فرنسية (1766 ـ 1817) ابنة الوزير الفرنسي الشهير «جاك نيكر»، وقد أضطرتها معارضتها لنابوليون إلى اللجوء إلى جنيف ثم روسيا وانكلترا. كتبت روايتين ناجحتين هما: «دلفين» و«كورين». (المترجم)

Twitter: @ketab_n

ضمن دوائر معينة على أنها خطيرة. أما فيما يخصّ مراقبتها فأنا أتصوّر أن «قصر بوريل» لا يمكن أن يخضع سوى لمراقبة بعيدة جداً. كان مسكناً مثالياً لتدبير المؤامرات العليا، وذلك بسبب قلة زواره، سواء أكانت جديدة أو تافهة. ولكن هذا كلّه لم يثر اهتمامي. كنت أريد معرفة تأثير سكانه غريبي الأطوار وجوّه الخاص على فتاة كالآنسة هالدين، شديدة الصدق والصراحة، إنما قليلة التجربة إلى حدّ خطر! كان جهلها النبيل غير الواعي بالغرائز الأحطّ لدى البشرية بتركها عزلاء أمام نزواتها، وكان هناك أيضاً صديق أخيها ذاك، الواصل الجديد من روسيا... كنت أتساءل إن كانت قد استطاعت مقابلته.

سرنا بعض الوقت ببطء وصمت.

هاجمتها فجأة:

ـ أنت تعرفين أنه إذا كنت تنوين ألاّ تحكي لي شيئاً، فعليك أن تقولي ذلك بوضوح، ثم سيكون ذلك نهائياً بالطبع. ولكني لن ألعب لعبة المداورة. بل أطلب منك صراحة كل التفاصيل.

ابتسمت ابتسامة باهتة راداً على لهجتي التهديدية:

ـ أنت فضوليّ كالأطفال.

أجبت بجدية:

ـ لا أنا مجرد رجل عجوز قلق.

حدّقت بي كأنما لتتأكّد من درجة قلقي أو عدد سنين عمري. لم يكن وجهي معبّراً أبداً، على ما أعتقد، أما بالنسبة إلى سنين عمري، فلست عجوزاً إلى حد العجز. ليست لي لحية طويلة كالراهب الطيّب في أغنية رومانسية؛ خطواتي ليست مترنّحة، ومظهري ليس مظهر الحكيم البطيء المهيب. ليست لديّ المزايا الصورية الفاتنة. أنا

Twitter: @ketab_n

عجوز، ويا للأسى، ولكن على نحو عادي ونشيط. وقد بدا لي وكأنما كان في نظرة الآنسة هالدين الطويلة بعض الرثاء لي. أسرعت في خطاها قليلاً.

ـ أنت تطلب التفاصيل كلها. دعني أفكّر. عليّ أن أتذكرها. كانت جديدة تماماً عليّ... على فتاة قروية مثلي.

بعد لحظة صمت بدأت تقول إن «قصر بوريل» كان مهملاً من الداخل كما هو من الخارج. لم يكن شيئاً مثيراً للعجب. كان أحد أصحاب المصارف من مدينة هامبورغ قد استقال من عمله، على ما أعتقد وبناه. ليؤنس الأيام الباقية من عمره بمنظر البحيرة، التي كان جمالها الدقيق والمنتظم والغني جذّاباً للمخيلة غير الرومانسية لرجل أعمال. ولكنه سرعان ما مات. وقد رحلت زوجته أيضاً (ولكن إلى إيطاليا). وبقي هذا المنزل. منزل الراحة الثرية، والمفترض أنه غير قابل للبيع، فارغاً لسنوات عدة. كانت الطريق إليه مغطّاة بالحصى، وتدور حول قطعة أرض كبيرة غير ممهّدة مغطاة بالحشائش، مع الكثير من الوقت لمراقبة تداعي واجهته المزخرفة بالجصّ. قالت الآنسة هالدين إن الانطباع الذي يعطيه القصر كان لا يدعو إلى السرور. وكلّما اقترب منه المرء أضحى أكثر كآبة.

لقد لاحظت بقعاً خضراء من الطحالب على درج الشرفة. كان الباب الأمامي مفتوحاً على آخره. ما كان هناك أحد في المكان. وجدت نفسها في بهو واسع شامخ وفارغ تماماً، مع عدد كبير من الأبواب. كانت هذه الأبواب مغلقة كلّها. واجهها درج عريض حجري عار، وكان التأثير الكلّيّ للقصر يوحي بمنزل غير مأهول. وقفت ساكنة مرتبكة من العزلة، ولكنها أصبحت واعية بعد فترة بصوت يتحدّث باستمرار في مكان ما.

Twitter: @ketab_n

اقترحت قائلاً:

- ربما كنتِ قيد المراقبة طوال الوقت. لا بدّ وأنه كانت هناك عيون.

ردّت قائلة:

- لا أعرف كيف كان يمكن لذلك أن يحدث. لم أر ولو طائراً واحداً حتى في أراضي القصر. لا أتذكّر أني سمعت تغريدة واحدة في الأشجار. بدا المكان كأنه مهجور تماماً باستثناء ذلك الصوت.

لم تستطع تمييز اللغة. هل كانت يا ترى روسية أم فرنسية أم ألمانية؟ لم يبدُ أن هناك من كان يجيب على الصوت. بدا كأن الصوت شيء خَلّفَهُ السكّان الراحلون ليخاطب الجدران العارية. استمرّ مهذاراً مع توقّف بين الحين والآخر. كان وحيداً وحزيناً. بدا الوقت طويلاً جداً للآنسة هالدين. وقد منعها اشمئزاز قاهر من فتح أحد الأبواب في البهو. كان الأمر يدعو إلى اليأس. لا أحد سيأتي، والصوت لن يتوقّف. اعترفت لي بأنها اضطرت إلى مقاومة دافع يدعوها إلى أن تخرج دون أن يراها أحد مثلما وصلت.

صرختُ آسفاً:

- حقاً؟ هل كان لديك هذا الدافع؟ أمر مؤسف أنك لم تطيعيه.

هزّت رأسها.

ــ أية ذكرى غريبة كانت ستخلّفها تلك الأرض المهجورة المحيطة بالقصر، ذلك البهو الفارغ، ذلك الصوت المجهول المهذار و... لا أحد، لا شي، ولا روح واحدة.

كان من شأن هذه الذكرى أن تكون فريدة سليمة. ولكنها لم تكن تلك الفتاة التي تهرب من انطباع مرعب بالعزلة والغموض.

Twitter: @ketab_n

ـ لا، لم أهرب. بقيت حيث أنا... وقد رأيت روحاً. ويا لهـا مـن روح غريبة.

بينما كانت تحدق إلى الدرج العريض. وقد استنتجت أن الصوت قادم من مكان ما في الأعلى، لفت انتباهها حفيـف ثـوب. نظـرت إلى الأسفل ورأت امرأة تعبر البهو، بعد أن خرجـت كمـا يبـدو مـن أحـد الأبواب. كانت ملتفتة بوجهها لذا لم يبد عليها في البدايـة أنهـا كانـت عالمة بوجود الآنسة هالدين.

وعندما التفتت برأسها مرة أخرى ورأت شخصاً غريباً، بدا عليها الإجفال الشديد. ومن رشاقة جسمها ظنتها الآنسة هالدين فتاة شـابة، ولكن رغم أن وجهها كان مدوّراً على نحو طفولي تقريباً، إلاّ أنه كـان شاحباً ومتغضّناً، مع حلقات داكنة تحت العينين. أما شعرها فكان بنّي اللون ومغبّراً وقصيراً وله فرق صبياني جانبي مـع خـصلة جانبيـة فـوق الجبين الجاف المجعّد. بعد أن رمـشت بعينيهـا لبرهـة وهـي صـامتة، أقعت فجأة على الأرض.

سألتُها مندهشاً:

ـ ما الذي تعنيه بالاقعاء على الأرض؟ هذا غريب.

شرحت الآنسة هالدين السبب. حين شوهدت هذه المـرأة للمـرة الأولى كانت تحمل قطة كبيرة ظهرت آنـذاك خلـف تنورتهـا وأخفـت رأسها في الوعاء بشره. نهضتْ ثم اقتربتْ من الآنسة هالـدين وسـألتها بفظاظة عصبية:

ـ ما الذي تريدينه؟ من أنت؟

ذكرت الآنـسة هالـدين اسمهـا واسـم بيتـر إيفـانوفيتش. أومـأت السيدة الكهلة المتشبهة بالفتيات برأسـها وعلـى وجههـا تعـبير مؤقـت متعاطف. كان قميصها الأسود الحريري قـديماً بـل مهترئـاً في بعـض

Twitter: @ketab_n

الأماكن. كما كانت التنورة السوداء المصنوعة من نسيج صوفي متين قصيرة وبالية. استمرت ترمش عن قرب، بينما بدت أهدابها وحاجباها بالية أيضاً. تحدّثت إليها الآنسة هالدين بلطف كأنها تخاطب شخصاً بائساً حساساً، فشرحت لها أن زيارتها لا يمكن أن تكون حدثاً غير متوقّع أبداً بالنسبة إلى «المدام دو س.....».

ـ آه! إذن بيتر إيفانوفيتش هو الذي دعاك. كيف كان لي أن أعرف؟ إن الوصيفة لا تُستشار عادة، كما يمكنك أن تتصوّري.

ضحكت المرأة رثة الثياب قليلاً. كانت أسنانها، البيضاء المتناسقة على نحو رائع، تبدو في غير مكانها، كعقد من اللؤلؤ في عنق امرأة متشردة رثة الملابس.

ـ بيتر ايفانوفيتش هو أكبر عبقرية في هذا القرن ربما، ولكنه أكثر الرجال الأحياء لا مراعاة لمشاعر الآخرين. لذا إن كان لديك موعد معه فعليك ألاّ تدهشي إذا سمعت أنه ليس هنا.

شرحت الآنسة هالدين أنه ليس لديها موعد مع بيتر إيفانوفيتش. لقد أصبحت مهتمة على الفور بهذه المرأة الغريبة.

ـ لماذا يهتم بك أو بأية امرأة أخرى؟ أوه! هؤلاء العباقرة. لو أنك تدرين فحسب! أجلّ وكتبهم أيضاً... أعني بالطبع الكتب التي يعجب بها العالم، الكتب الملهمة. ولكنك لم تكوني خلف الكواليس. انتظري حتى تجلسي معه إلى طاولة مدة نصف يوم والقلم في يدك. يستطيع أن يذرع غرفته جيئة وذهاباً ساعات وساعات. كنت أصاب بالتيبسّ والخدر إلى حدّ أني كنت أخشى أن أفقد توازني فأسقط من على الكرسي فوراً.

أبقت يديها مطويتين أمامها، وكانت عيناها المثبتتان على وجه الآنسة هالدين لا تعبّران عن أية حيوية. ولكن الآنسة هالدين التي

Twitter: @ketab_n

استنتجت أن هذه السيدة التي تدعو نفسها بـ «الوصية» كانت فخورة بأنها عملت كسكرتيرة لبيتر إيفانوفيتش تلفظت بملاحظة ودية.

صرخت السيدة:

ـ لا يمكنك أن تتخيّلي تجربة أكثر إرهاقاً. هناك صحفي أنكلو - أمريكي يجري لقاء مع «المدام دو سـ...» الآن، وإلاّ لاصطحبتك فوراً إلى الطابق العلوي.

هذا ما قالته بلهجة مختلفة وهي تنظر نحو الدرج. ثم استأنفت:

ـ أعمل كمشرفة على التشريفات.

لقد بدا أن «المدام دو سـ...» لم تكن تستطيع احتمال وجود الخدم السويسريين فيما حولها. وبالفعل فإن الخدم ما كانوا يبقون فترة طويلة في «قصر بوريل». كانت هناك صعوبات باستمرار. لقد سبق للآنسة هالدين ولاحظت أن البهو كان أشبه بحظيرة من الرخام والنقوش الجصية مغطاة بالغبار وبيوت العناكب في الزوايا وآثار خفيفة من الطين على الأرض المبلّطة ببلاطات مربعة ذات لونين أبيض وأسود.

استأنفت «الوصيفة» وهي تبقي يديها ممدودتين بهدوء أمامها:

ـ وأعتني أيضاً بهذا الحيوان.

ثم رمت القطة بنظراتها المرهقة.

ـ لا أكترث أبداً. للحيوانات حقوقها. ولكني لا أرى رغم ذلك لماذا لا تعاني هي أيضاً كما يعاني البشر. ما رأيك؟ ولكنها لا تعاني كثيراً جداً بالطبع. هذا مستحيل. ولكن في حالتها فإن الأمر أكثر إثارة لأنها لا تستطيع القيام بثورة. اعتدت أن أكون جمهورية النزعة. أنت أيضاً جمهورية النزعة على ما أعتقد؟

Twitter: @ketab_n

اعترفت الآنسة هالدين لي أنها لم تعرف ما تقول. ولكنها أومأت برأسها وسألت بدورها:

ـ وأنت لم تعودي جمهورية النزعة الآن؟

ـ بعد تدويني إملاءات بيتر ايفانوفيتش لمدة عامين فإنه من الصعب عليّ أن أكون أي شيء. أوّلاً عليك أن تجلسي دون حراك إطلاقاً. أخفّ حركة تقومين بها تجعل أفكار بيتر ايفانوفيتش تطير من رأسه. لا يمكنك حتى أن تتنفّسي. أما بالنسبة إلى السعال... فلا سمح الله، لقد غيّر بيتر ايفانوفيتش مكان الطاولة فوضعها عند الجدار لأني كنت لا أستطيع سوى أن أرفع عينيّ للتطلّع من النافذة وذلك خلال انتظاري له حتى يستأنف إملاءه. لم يكن ذلك أمراً مسموحاً به. قال لي إني أحدّق على نحو غبيّ جداً. لم يكن مسموحاً لي أن أنظر إليه من فوق كتفي. كان بيتر ايفانوفيتش يضرب الأرض بقدمه فوراً ويزمجر: «انظري إلى الورقة». ويبدو أن تعابيري ووجهي يسبّبان في تشتّت أفكاره. حسناً، أعرف أني لست جميلة وأن تعابيري ليست واعدة أيضاً. يقول إن جوّ التوقّع غير الذكي الذي أثيره من حولي يضايقه. تلك كانت كلماته.

صدمت الآنسة هالدين، ولكنها اعترفت لي بأنها لم تدهش كثيراً.

صاحت:

ـ هل من المعقول أن يعامل بيتر ايفانوفيتش أية امرأة بكل هذه الفظاظة؟

أومأت الوصيفة برأسها مرات عديدة بحذر، ثم أكدت للآنسة هالدين أنها لم تكن تعاني من ذلك إطلاقاً. كان الجانب المرهق من المسألة هو وضع سر التأليف مكشوفاً أمامها: مشاهدة المؤلّف العظيم للأناجيل الثورية وهو يتلمّس الكلمات ليعبّر عما يريد وكأنه في ظلام دامس.

Twitter: @ketab_n

ـ أنا راغبة تماماً في أن أكون الأداة العمياء للأهداف السامية. أن يمنح المرء حياته للقضية، هذا لا شيء. ولكن أن تدمّر أوهامه... فهذا أكثر مما يستطيع المرء احتماله. وأنا لا أبالغ. لقد بدا أن ذلك يجمّد معتقداتي فيّ... وعلاوة على ذلك فإننا حين كنا نعمل في الشتاء، كان بيتر إيفانوفيتش الذي يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، لا يحتاج إلى حرارة اصطناعية ليبقى دافئاً. وحتى حين ننتقل إلى جنوب فرنسا تمر أيام باردة جداً هناك، خاصة حين يكون عليك أن تجلسي ساكنة مدة ست ساعات دون توقف. إن جدران تلك الفيلات على الريفييرا رقيقة جداً. لم يكن يبدو على بيتر ايفانوفيتش أنه مدرك لأي شيء. ومن المؤكد أني كنت أخفي ارتعاشاتي خشية أن أقطع عليه الوحي. لقد اعتدت أن أضغط على أسناني حتى أشعر بأن فكيّ قد التصقا تماماً. وفي تلك اللحظات التي كان فيها بيتر ايفانوفيتش يقطع إملاءه، وكانت هذه الفترات طويلة جداً أحياناً، فقد تصل إلى ما لا يقل عن عشرين دقيقة، وبينما كان يذرع المكان ورائي جيئة وذهاباً، وهو يهمهم لنفسه، كنت أحس أني أموت موتاً بطيئاً كما أؤكد لك. وربما لو أني كنت أدع أسناني تصطك لكان بيتر ايفانوفيتش سيلاحظ بؤسي، ولكني لا أعتقد أن ذاك كان سيترك أي تأثير عمليّ على أية حال. إنه بخيل جداً في مثل هذه المسائل.

نظرت الوصيفة إلى أعلى الدرج. كانت القطة الكبيرة قد أنهت لعق الحليب وراحت تحك خدها ذا الشوارب على نحو متعرّج على تنورتها. وقد انحنت لتلتقطها من على الأرض.

استأنفت وهي تمسك بالقطة بذراعين مطويتين:

ـ البخل صفة أكثر منه أي شيء آخر كما تعرفين. وبالنسبة إلينا فالبخلاء هم الذين يستطيعون توفير المال للأشياء القيّمة... وليس أولئك الذين يُدْعَوْن بذوي الطباع الكريمة. ولكن أرجو ألا تحسبيني

Twitter: @ketab_n

امرأة تحب الانغماس في الترف. كان أبي كاتباً في وزارة المالية دون أي مركز إطلاقاً. لذا يمكنك أن تحزري من هذا أن بيتنا لم يكن فخماً، رغم أننا لم نكن نعاني من البرد أيضاً. لقد هربت من بيت والديّ بعد أن بدأت أفكر بنفسي مباشرة. ليس سهلاً جداً مثل هذا التفكير. يجب أن يوضع المرء في الطريق المؤدّي إلى ذلك وأن يوقظ على الحقيقة. وأنا أدين بإنقاذي إلى بائعة تفاح عجوز كانت تضع الكشك الذي تبيع عليه تحت مدخل المنزل الذي كنا نسكن فيه. كان لها وجه لطيف مجعّد وصوت أشد ما يكون وداً. وفي أحد الأيام، بدأنا نتكلم - عرضاً- عن طفلة، عن فتاة صغيرة، رثة الثياب، رأيناها تتسوّل في الشوارع عند الغسق. ومن موضوع إلى آخر بدأت عيناي تتفتحان بالتدريج على الأمور المرعبة التي على الناس الأبرياء أن يعانوا منها في هذا العالم، وذلك لمجرد الإبقاء على وجود الحكومات. وبعد أن فهمت في إحدى المرات جريمة الطبقات العليا، لم أعد قادرة على الاستمرار في العيش مع والديّ. لم يكن يُسمع في بيتنا كلمة لطيفة واحدة من نهاية سنة إلى نهاية سنة أخرى. لم يكن هناك سوى الحديث عن المؤامرات الشريرة التي تجري في المكتب، عن الترفيع الوظيفي والراتب، وكسب مودة الرؤساء. كانت مجرد فكرة الزواج من شخص شبيه بأبي تجعلني أرتجف. لا أعني أنه كان هناك من يودّ الزواج مني. لم يكن هناك أية بارقة أمل في هذا الخصوص. ولكن أليس هناك إثم كاف في العيش على راتب حكومي بينما تعاني نصف روسيا من الجوع؟ وزارة المالية! يا له من أمر مرعب عجيب! ما الذي يريده الناس الجوعى الجاهلون من وزارة المالية؟ قبلتُ أبي وأمي كلاً على الخدين وهربت لأعيش في الأقبية، مع البروليتاريا. حاولت أن أكون ذات نفع لأولئك الذين فقدوا الأمل. أعتقد أنك تفهمين ما أعنيه، هه؟ أعني أولئك الذين لا مكان لديهم يلجؤون إليه ولا أمل يتطلعون إليه في هذه الحياة. أتدركين كم هذا مخيف...؟ لا شيء يتطلعون إليه!

Twitter: @ketab_n

أحياناً أعتقد أنه لا يوجد مثل هؤلاء الناس ومثل هذا البؤس إلاّ في روسيا. حسناً، لقد انغمست في ذلك العمل، ولكن أتعرفين؟ لا يمكن للمرء أن يفعل الكثير هناك. لا، بالفعل... على الأقل طالما كان هناك وزارات مالية مرعبة كهذه تعترض الطريق. أعتقد أني كنت سأجّن هناك وأنا أحاول محاربة تلك الحشرة الطفيلية، لولا ذلك الرجل. كانت صديقتي ومعلمتي القديمة هي التي اكتشفته من أجلي، وبالصدفة تماماً. جاءت تبحث عني في وقت متأخر في إحدى الليالي بأسلوبها الهادئ. تبعتها إلى حيث أرادت، كان ذلك الجزء من حياتي ملكاً لها بالكامل، وكنت لولا روحها قد مُتّ على نحو بائس. كان ذلك الرجل عاملاً شاباً، عامل مطبعة، وقد تورّط في مشكلة تتعلق بمسألة تعاطي الخمور كما تتذكرين. لقد وضع الكثيرون في السجن بسبب ذلك. وزارة المالية مرة أخرى! ما الذي كان سيحدث لو أن الفقراء توقفوا عن تحويل أنفسهم إلى وحوش بسبب الإسراف في الشراب؟ وأعتقد، وأقسم على ذلك، أن المالية وكل ما له علاقة بذلك اختراع شيطاني. ولكن الاعتقاد بوجود مصدر للشر خارق للطبيعة ليس ضرورياً: الناس لوحدهم قادرون تماماً على ارتكاب كل شر. المالية بالفعل!

كان الحقد والاحتقار يهسهسان خلال نطقها لكلمات «المالية»، ولكنها في اللحظة نفسها كانت تربت برفق على القطة المستريحة بين ذراعيها. بل رفعتهما قليلاً ثم حكّت خدها، وهي تميل برأسها، على فرو القطة الذي استقبلت هذه الملاطفة بتجرّد كامل يميّز هذا النوع من الحيوانات. ثم نظرت إلى الآنسة هالدين واعتذرت لعدم اصطحابها إلى الطابق العلوي لتقابل «المدام دو سـ...». ما كان يمكن للمقابلة الصحفية أن تقاطع. سرعان ما سيُرى الصحفي وهو ينزل الدرج. كان أفضل شيء ممكن هو البقاء في البهو. وعلاوة على ذلك كانت هذه الغرف كلها (نظرت فيما حولها إلى الأبواب العديدة) الموجودة في الطابق الأرضي غير مفروشة.

Twitter: @ketab_n

استأنفت:

- بالتأكد لا يوجد هنا كرسي أقدمه لك. ولكن إن كنت تفضلين أفكارك على ثرثرتي فسوف أجلس على آخر درجة هنا وأبقى صامتة.

سارعت الآنسة هالدين إلى التأكيد بأنها - على العكس تماماً - مهتمة جداً بحكاية عامل المطبعة. فقد كان ثورياً بالطبع.

قالت «الوصيفة» بتنهيدة خفيفة:

- شهيداً، رجلاً بسيطاً.

ثم حدقت إلى الباب الأمامي المفتوح حالمة. ثم التفتت بعينيها البنيتين الغائمتين إلى الآنسة هالدين.

- لقد عشت معه أربعة شهور. وكان ذلك كابوساً.

وبينما كانت الآنسة هالدين تنظر بتساؤل بدأت تصف لها وجه الرجل الهزيل، أعضاءه النحيلة ومدى فقره. كانت الغرفة التي قادتها إليها بائعة التفاح عبارة عن علبة صغيرة، حجرة بائسة تحت سقف منزل قذر. كان الجص المتساقط عن الجدران يغطي الأرض، وحين فتح الباب تأرجح نسيج رهيب من خيوط العنكبوت السوداء مع تيار الهواء. كان قد أطلق سراحه قبل أيام قليلة... رمي من السجن إلى الشارع. وهنا بدا على الآنسة هالدين أنها ترى للمرة الأولى اسماً ووجهاً لجسد أولئك الناس المعذّبين الذين كان مصيرهم القاسي موضوع الكثير من الحوارات بينها وبين أخيها في حديقة منزلهم الريفي.

لقد قبض عليه مع عشرات وعشرات من الناس الآخرين في مسألة تعاطي الخمور تلك. ولسوء الحظ، وبسبب القبض على الكثيرين من المشبوهين، فقد ظنت الشرطة أن باستطاعتها أن تنتزع من بعضهم معلومات أخرى تتعلق بالدعاية الثورية.

Twitter: @ketab_n

ثم استأنفت قائلة:

- لقد ضربوه ضرباً مبرحاً خلال التحقيق حتى آذوه من الداخل. وبعد أن انتهوا منه كان قد حُكم عليه بالهلاك. لم يكن قادراً على أن يفعل أي شيء مفيد لنفسه. رأيته متمدداً على هيكل سرير خشبي دون فراش، ورأسه فوق كومة من الخرق القذرة أعاره إياها من باب الإحسان شخص يعمل في لمّ الخرق البالية حدث أن كان يعيش في قبو المنزل. كان ممدداً هناك دون غطاء، ملتهباً من الحمى، ولم يكن هناك حتى إبريق ماء في الغرفة يطفئ به ظمأه. لم يكن هناك أي شيء... هيكل السرير فقط والأرضية العارية.

سألت الآنسة هالدين بسخط:

- ألم يكن هناك في تلك المدينة الكبيرة كلها بين الليبراليين والثوريين شخص واحد يمدّ يد العون إلى أخ؟

- نعم، ولكنك لا تعرفين أكثر الأمور ترويعاً في بؤس ذلك الرجل. اسمعي. يبدو أنهم قد أساؤوا معاملته إلى حد أن صلابته انهارت تماماً، وأنه قد باح ببعض المعلومات. يا للمسكين! اللحم ضعيف كما تعرفين. لم يخبرني بما حدث. كانت هناك روح مسحوقة في ذلك الجسد الممثّل به. لم أجد ما أقوله لأداوي له جراحه. وحين أطلقوا سراحه، زحف إلى ذلك الجحر وتحمّل الندم دون تذمّر. ما عاد يقترب من أي شخص يعرفه. كنت سأطلب له المساعدة، ولكن أين كنت سأجد أي شخص لديه أي شيء يصفح عنه أو قدرة على المساعدة؟ كان الناس الذين يعيشون من حولنا جائعين وسكيرين جميعهم. كانوا ضحايا وزارة المالية. لا تسأليني كيف كنا نعيش. لا أستطيع أن أقول لك. كان ذلك أشبه بمعجزة البؤس. لم يكن لديّ ما أبيعه، وأؤكّد لك أن ملابسي كانت في حالة يستحيل معها خروجي

Twitter: @ketab_n

في النهار. كانت في حالة غير محتشمة. كان عليّ أن أنتظر حتى يحل الظلام قبل أن أستطيع الخروج إلى الشوارع لأتسوّل كسرة خبز، أو أي شيء أستطيع الحصول عليه لإبقائه وإبقاء نفسي على قيد الحياة. وغالباً ما كنت لأحصل على أي شيء، فأزحف عائدة وأتمدد على الأرض قرب السرير. أجل، أستطيع أن أنام بعمق على الألواح الخشبية العارية، هذا لا شيء، وأنا أذكر ذلك لك حتى لا تظني أني من النوع المغرم بالملذات. كان ذلك أقل تعذيباً من مهمة الجلوس لساعات إلى منضدة في مكتب بارد لنسخ كتب بيتر إيفانوفيتش وهو يمليها عليّ. ولكنك سترين بنفسك ما هو ذاك، لذا لن أقول المزيد.

قالت الآنسة هالدين:

ـ ليس أكيداً أني سأنسخ أبداً إملاء بيتر إيفانوفيتش.

صرحت الأخرى بلهجة معبّرة عن الشك:

ـ لا! ليس أكيداً؟ أنت تعنين أن تقولي إنك لم تقرري بعد؟

وحين أكدت لها الآنسة هالدين أنه لم يكن بينها وبين بيتر إيفانوفيتش مثل هذه المسألة، زمّت المرأة حاملة القطة شفتيها بشدّة ولمدة دقيقة كاملة.

ـ أوه ستجدين نفسك وقد جلست إلى الطاولة قبل أن تعرفي أنك قد قررت ذلك. لا ترتكبي هذا الخطأ، فالاستماع إلى بيتر إيفانوفيتش وهو يملي أمر يجعل المرء يتحرّز من سحر هذا الرجل، ولكن هناك في الوقت نفسه افتنان ما في الموضوع. إنه لرجل عبقري. وجهك لن يثير حنقه بالتأكيد. بل أنك قد تثيرين لديه المزيد من الإلهام وتجعلين الأمر أسهل عليه في تقديم رسالته. وحين أنظر إليك، أشعر بالثقة في أنك من ذلك النوع من النساء الذي ليس من المحتمل أن يكبح له إلهامه.

Twitter: @ketab_n

أحسّت الآنسة هالدين أنه لا فائدة من الاحتجاج ضد كل هذه الادعاءات، ولكنها قالت بعد فترة صمت قصيرة:

ـ ولكن ذلك الرجل ـ ذلك العامل ـ هل مات وهو تحت رعايتك؟

لم تجب الوصيفة بل راحت تصغي لفترة قصيرة إلى صوتين متناوبين ببعض الحيوية كان ممكناً سماعهما الآن من أعلى الدرج. وحين خفتت أصوات النقاش متحوّلة إلى همهمة غير مسموعة، التفتت إلى الآنسة هالدين:

ـ نعم، لقد مات، ولكن ليس بين ذراعيّ... بالمعنى الحرفيّ للكلمة. وفي الواقع فقد كنت نائمة حين لفظ آخر أنفاسه. لذا لا أستطيع حتى الآن أن أقول إني رأيت أيّ شخص وهو يموت. وقبل بضعة أيام من النهاية، وَجَدَنا بعض الشبان في حالة شديدة من البؤس. كانوا من الثوريين، كما يمكنك أن تحزري. كان عليه أن يكون قد وثق بأصدقائه السياسيين حين خرج من السجن. لقد كان محبوباً ومحترماً من قبل، وما كان هناك شخص يقدر على أن يحلم بتقريعه على سوء تصرّفه أمام الشرطة. الكلّ يعرف ممارسات الشرطة وكيف أن لأقوى رجل لحظات ضعف أمام الألم. عجباً، حتى الجوع وحده يكفي ليعطي الإنسان أفكاراً غريبة حول كيفية الخلاص. لقد وصل طبيب؛ كان وضعنا قد تحسّن كثيراً فيما يخصّ الراحة الجسدية، ولكنه ما كان يرضى بالسلوان... ذلك الرجل البائس. أؤكّد لك يا آنسة هالدين أنه كان محبوباً جداً، ولكن لم تكن لديّ القدرة على البكاء، فقد كنت شبه ميتة أنا نفسي. ولكن كانت هناك قلوب كريمة سارعت إلى الاعتناء بي. لقد جلبوا لي ثوباً ستروا به عريي. أقول لك إني لم أكن محتشمة المظهر... وبعد فترة وضعني الثوريون مع عائلة يهودية مسافرة إلى خارج البلاد، وذلك كمربّية للأولاد. طبعاً كان بإمكاني تعليم الأطفال، فقد أنهيت الصف السادس من المدرسة الثانوية؛ ولكن

Twitter: @ketab_n

الهدف الحقيقي كان أن أحمل بعض الأوراق الهامة عبر الحدود. لقد اتُمِنْت على مجموعة من الأوراق حملتها إلى القرب من قلبي. ما كان رجال الدرك في المحطة ليرتابوا بمربية عائلة يهودية منهمكة بالاهتمام بثلاثة أطفال. ولا أعتقد أن أولئك العبرانيين كانوا يعرفون ما كنت أحمله، فقد تم تقديمي إليهم بطريقة غير مباشرة من قبل أشخاص لا ينتمون إلى الحركة الثورية، وقد وجّهت طبعاً إلى أن أقبل براتب ضئيل جداً. وحين وصلنا إلى ألمانيا هجرتُ تلك العائلة وسلمتُ الأوراق إلى ثوريّ في شتوتغارت، وبعد ذلك تم استخدامي في وظائف مختلفة. ولكنك لا ترغبين في سماع ذلك كله. لم أشعر أبداً أني مفيدة جداً، ولكني أعيش على أمل أن أرى كل الوزراء مقتولين، وزراء المالية والجميع. لقد كان الاستماع إلى ما فعله أخوك أعظم متعة في حياتي.

وجّهت عينيها المدورتين نحو نور الشمس في الخارج، بينما القطة مرتاحة بين ذراعيها الممدودتين في جمال أرستقراطي وتأمّل كتأمّل أبي الهول.

عادت لتقول:

- أجل! لقد فرحتُ. بالنسبة لي هناك هالة بطولية تحيط باسم هالدين نفسه. لا شك أن أولئك كانوا يرتجفون من الخوف في وزاراتهم.. كل أولئك الرجال ذوي القلوب الشيطانية. ها أنذا واقفة أتحدث إليك، وحين أفكر بكل تلك الأفعال الوحشية والاضطهادات والأعمال الظالمة التي تجري في هذه اللحظة بالذات، يصاب رأسي بالدوخة. لقد تمعّنتُ فيما سيبدو غير قابل للتصديق لو كانت عينا المرء غير جديرتين بالثقة، لقد نظرت إلى الأشياء التي جعلتني أكره نفسي بسبب عجزي. لقد كرهتُ يديّ اللتين لا قوة فيهما، وصوتي الذي لا يمكن سماعه، وعقلي بالذات الذي لا يريد أن يصبح قلقاً. آه! لقد رأيت الكثير. وأنت؟

Twitter: @ketab_n

تأثرت الآنسة هالدين. هزت رأسها بخفة ثم همهمت:

ـ لا، أنا لم أر شخصياً أي شيء. لقد عشنا دائماً في الريف. وكانت تلك رغبة أخي.

استأنفت الأخرى:

ـ هذا لقاء غريب بينك وبيني. هل تؤمنين بالصدفة يا آنسة هالدين؟ كيف كان لي أن أتوقع مشاهدتك، أنت أخته، بعينيّ هاتين؟ هل تعرفين أنه حين وصلت الأخبار فإن الثوريين هنا دهشوا بقدر ما أحسوا بالسرور، كل واحد منهم؟ ما كان هناك من يبدو أنه يعرف أي شيء عن أخيك، لم يكن بيتر إيفانوفيتش نفسه قد تنبأ بأن مثل هذه الضربة سيتم توجيهها. أفترض أن أخاك كان ببساطة ملهماً. وأعتقد أنا شخصياً أن مثل هذه الأفعال يجب أن تتم بالإلهام. إنه لامتياز كبير أن يكون لدى المرء الإلهام والفرصة. هل كان يشبهك على الإطلاق؟ ألا تشعرين بالفرحة يا آنسة هالدين؟

قالت الآنسة هالدين وهي تكبح رغبة في البكاء حلّت بها فجأة:

ـ عليك ألا تتوقعي مني هذا الكثير.

وقد نجحت في كبح دموعها ثم أضافت بهدوء:

ـ لست بطلة!

ـ أتعتقدين أنك ما كنت قادرة على القيام بمثل ذلك العمل، أنت شخصياً ربما؟

ـ لا أعرف. ليس علي أن أسأل نفسي مثل هذا السؤال إلا بعد أن أكون قد عشت فترة أطول قليلاً، ورأيت أكثر...

حركت الأخرى رأسها في حركة تدل على الفهم. كانت القطة تهرّ برضا ذاتي عالي الصوت في البهو الفارغ. لم تكن هناك أصوات قادمة من الطابق العلوي. ثم حطمت الآنسة هالدين الصمت:

Twitter: @ketab_n

ـ ما الذي يقوله الناس بالضبط عن أخي؟ قلت إنهم كانوا مندهشين. أجل، أفترض أنهم كانوا كذلك. أو لم يبدُ غريباً لهم أن يفشل أخي في إنقاذ نفسه بعد أن أنجز الجزء الأصعب... أي الهرب من المكان؟ المتآمرون يفهمون مثل هذه الأمور جيداً. هناك أسباب تجعلني متلهفة لمعرفة كيف أنه لم يستطع النجاة.

تقدمت «الوصيفة» نحو باب البهو المفتوح. نظرت بسرعة عبر كتفها نحو الآنسة هالدين التي بقيت داخل البهو.

كررت بشرود:

ـ لم يستطع النجاة. أو لم يضحّ بحياته؟ أو لم يكن ببساطة مُلْهَماً؟ ألم يكن ذلك نكراناً للذات؟ ألست واثقة؟

قالت الآنسة هالدين:

ـ إن ما أنا واثقة منه هو أنه لم يكن فعلاً من أفعال اليأس. أو لم تسمعي برأي ما ذُكر هنا فيما يخص وقوعه البائس في قبضة الشرطة؟

فكرت الوصيفة للحظة عند الباب.

ـ هل سمعت؟ طبعاً، إنهم يناقشون كل شيء هنا. أولم يتحدث العالم بأسره عن أخيك؟ بالنسبة إلي فإن مجرد ذكر ما فعله يجعلني في حالة من النشوة الحسود. لماذا يكون على امرئ واثق من خلوده أن يفكر في حياته إطلاقاً؟

أدارت ظهرها إلى الآنسة هالدين. وفي الطابق العلوي من خلف باب ضخم، قذر، أبيض وذهبي، كان مرئياً خلف درابزون منبسط درج الطابق الأول، بدأ صوت عميق ينطلق بتكاسل وبلهجة رسمية، وكأنه يقرأ مذكّرة دبلوماسية أو شيئاً من هذا القبيل. كان يتوقف مراراً ثم صمت تماماً.

Twitter: @ketab_n

قالت الآنسة هالدين:

ـ لا أعتقد أني أستطيع أن أبقى أكثر من ذلك. قد أعود في يوم آخر.

انتظرت حتى تفسح لها الوصيفة الطريق لتخرج، ولكن المرأة بدت ضائعة وهي تتأمّل نور الشمس والظلّ اللذين كانا يتقاسمان فيما بينهما صمت الأرض المهجورة المحيطة بالمنزل. لقد أخفت منظر طريق المركبات عن الآنسة هالدين. وفجأة قالت:

ـ لن يكون ذلك ضرورياً. هاهو بيتر إيفانوفيتش قادماً شخصياً، ولكنه ليس لوحده. نادراً ما يكون وحيداً.

لدى سماعها أن بيتر إيفانوفيتش كان قادماً، لم تسرّ الآنسة هالدين كثيراً وكما كان متوقعاً. فقد فقدت الرغبة نوعاً ما في مشاهدة الأسير البطولي أو «المدام دو سـ...». وكان سبب ذلك الانكماش الذي اعتراها في الدقيقة الأخيرة هو إحساسها بأنّ هذين الشخصين ما كانا يعاملان هذه المرأة التي تحمل القطة الآن معاملة لطيفة.

قالت الآنسة هالدين أخيراً وهي تلمس بخفة كتف الوصيفة:

ـ هل لك أن تتفضلي وتسمحي لي بالخروج؟

ولكن الأخرى لم تتحرك بل راحت تضغط القطة علي صدرها.

قالت دون أن تلتفت إلى الخلف:

ـ أعرف من معه.

وهنا أحست الآنسة هالدين، دون أي تعليل، بدافع قوي لمغادرة المنزل.

ـ قد تكون «المدام دو سـ...» مشغولة لبعض الوقت أيضاً، ولكن ما أريد أن أقوله لبيتر إيفانوفيتش عبارة عن سؤال بسيط فحسب يمكنني أن أسأله إياه حين أقابله في الطريق وأنا نازلة. أعتقد أن عليّ حقاً أن أغادر. أنا هنا منذ بعض الوقت وأتلهف الآن للعودة إلى أمي. هل لك أن تدعيني أمرّ من فضلك؟

Twitter: @ketab_n

وأخيراً التفتت «الوصيفة» برأسها وقالت ببصيرة غير متوقعة:

ـ لم أفترض أبداً أنك تريدين مقابلة «المدام دو سـ...» فعلاً، ولا للحظة واحدة حتى.

كان في صوتها شيء سرّي وغامض. مرت عبر الباب وتبعتها الآنسة هالدين، وذلك إلى الشرفة، ثم نزلتا جنباً إلى جنب على الدرجات الحجرية التي نمت عليها الطحالب. لم تريا أحداً عند جهة الطريق الممكن رؤيتها من مقدمة المنزل.

شرحت السيدة ذات القطة:

ـ إنهما مخفيّان خلف الأشجار التي هناك، ولكنك سترينهما مباشرة، لا أعرف من هو ذلك الشاب الذي أولع به بيتر إيفانوفيتش إلى هذا الحد. لا بد أنه واحد منا، وإلاّ لما كان سيسمح له بالمجيء إلى هنا حين يحضر الآخرون. تعرفين ما أعنيه بالآخرين. ولكن علي أن أقول إنه ليس ذا ميول سرية. لا أعرف إن كنت قد ميّزته حتى الآن. من الطبيعي أنني لا أبقى طويلاً في غرفة الاستقبال. هناك دائماً عمل أقوم به، رغم أن البناء هنا ليس واسعاً كتلك الفيلا على الريفييرا. ولكن هنا فرص كثيرة لي لأكون مفيدة.

إلى اليسار، ظهر بيتر ايفانوفيتش ورفيقه، وهما يمرّان بطريق الإسطبل الذي نمت عليه نباتات اللبلاب. كان يسيران ببطء شديد ويتحدثان ببعض الحيوية. توقف للحظة وأومأ بيتر إيفانوفيتش، بينما راح الشاب يصغي دون حراك وذراعاه مدلاتّان ورأسه مطاطئة قليلاً. كان يرتدي بذلة بنية داكنة وقبعة سوداء. بقيت العينان المدورتان للوصيفة مثبتتين على الشخصين اللذين استأنفا سيرهما البطيء نحو المنزل، قالت:

ـ شاب شديد الأدب: سترين تلك الانحناءة التي سيقوم بها. ولن تكون استثنائية جداً على أية حال، فهو ينحني بالطريقة نفسها حين يقابلني وحيدة في البهو.

Twitter: @ketab_n

تحركت بضع خطوات نحو الأمام والآنسة هالدين إلى جانبها، وجرت الأمور كما توقعت. رفع الشاب قبعته وانحنى وتراجع قليلاً بينما تقدم بيتر إيفانوفيتش بسرعة أكبر وذراعاه السوداوان الغليظتان ممدودتان بودّ، ثم أمسك بكلتا يدي الآنسة هالدين وصافحهما وحدق فيها من خلال نظارتيه السوداوين.

صاح مرتين مطرياً:

ـ حسناً! حسناً! إذن فقد كانت الوصيفة تعتني بك.

ثم عبس قليلاً وهو ينظر إلى «الوصيفة» التي كانت لا تزال تحمل القطة.

ـ استنتج أن الينور - أعني «المدام دو ســـ....» - مشغولة الآن. أعرف أنها كانت تتوقع شخصاً ما اليوم. إذن فقد وصل الصحفي، أليس كذلك؟ هل هي مشغولة؟

وجواباً على ذلك كله التفتت «الوصيفة» برأسها.

ـ من سوء الحظ الشديد... الشديد جداً. يؤسفني كثيراً أنك كنت...

ثم أخفض صوته فجأة.

ـ ولكنك لن تغادري يا ناتاليا فيكتوروفنا؟ لقد مللتِ من الانتظار، أليس كذلك؟

احتجت الآنسة هالدين قائلة:

ـ لا، إطلاقاً. ولكني هنا منذ مدة وأنا أتلهف على العودة إلى أمي.

ـ لقد بدا الوقت طويلاً، أليس كذلك؟ وأعتقد أن صديقتنا الفاضلة هنا (وهنا لوى بيتر إيفاونوفيتش رأسه جانبياً نحو كتفه الأيمن ثم أعاده مرة أخرى إلى ما كان عليه)... صديقتنا الفاضلة هنا لا تتمتع بفن تقصير لحظات الانتظار. لا، لا تتمتع بهذا الفن وهذا واضح. وفي هذا الخصوص فإن النية الطيبة لا تفيد شيئاً.

Twitter: @ketab_n

أسقطت «الوصيفة» ذراعيها فوجدت القطة نفسها فجأة على الأرض. ظلت ثابتة تماماً بعد الهبوط، وإحدى قائمتيها الخلفيتين ممتدة نحو الخلف. أحست الآنسة هالدين بالسخط نيابة عن الوصيفة.

ـ صدقني يا بيتر إيفانوفيتش أن اللحظات التي مرّت علي في هذا المنزل لم تكن ممتعة فحسب بل وفيها الكثير من التثقيف أيضاً، إنها لحظات للذكرى. لست نادمة على الانتظار، ولكني أرى أن الغرض من زيارتي إلى هذا المكان يمكن الوصول إليه دون أن أضيّع أياً من وقت «المدام دو سـ...».

وهنا قاطعتُ الآنسة هالدين. إن الحكاية المذكورة أعلاه مبنية على سردها بالذات الذي لم أضفِ الكثير من الروح الدرامية عليه كما هو مفترض. فقد قامت الآنسة هالدين، وبشعور وحيوية استثنائيين، بتقليد متقن للهجة تلميذة بائعة التفاح كارهة الوزراء اللدود والخادم المطيعة للفقراء. كانت إنسانية الآنسة هالدين الصادقة والرقيقة قد أصيبت بصدمة هائلة بسبب المصير غير العادل لهذه المرأة التي تعرفت عليها حديثاً، تلك الوصيفة، السكرتيرة، التي لا أعرف من تكون فعلاً. ومن ناحيتي فقد سررت لاكتشافي في ذلك عائقاً أمام الصداقة الحميمة مع «المدام دو سـ...». كنت أشمئز كثيراً من «ايغيريا»[1] بيتر إيفانوفيتش ذات الوجه المطلي، المدهون بغير ذوق، الميت، وذات العينين الزجاجيتين. لا أعرف ما كان موقفها تجاه ما هو غير مرئي، ولكني

---

(1) ايغيريا: في الديانة الرومانية آلهة الماء. وكانت تستحضر كآلهة للولادة، ولأنها كانت مستشارة للملك «نوما»، فقد أصبح اسمها يطلق على كل النساء المثقفات اللواتي يقدمن النصح للكتاب والفنانين. (المترجم)

Twitter: @ketab_n

أعرف أنها كانت فيما يخص شؤون هذا العالم بخيلة وشرهة ومجردة من المبادئ الأخلاقية. وقد كنت على معرفة بأنها قد هُزِمت في صراع قذر وبائس حول أمور مالية مع عائلة زوجها المتوفي، ذلك الدبلوماسي. وقد كانت بعض الشخصيات الكبيرة بالفعل (الذين أصرت في غضبها المجنون على توريطهم على نحو فضائحي في مسائلها) قد جلبت على أنفسها كره المدام. وأعتقد أنه من السهل عليّ أن أصدق أنها كانت على قيد شعرة من محاولة خطف، لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة، ووضعها في «مصح» سري، أو بصراحة في نوع من المستشفيات الخاصة بالمجانين. ويبدو على أية حال أن بعض الشخصيات الرفيعة المركز قد عارضت ذلك لأسباب...

ولكن لا فائدة من الخوض في التفاصيل.

وقد يعبّر البعض عن استغرابهم حيال معرفة رجل هو عبارة عن معلم للغات لكل هذه التفاصيل وبهذا الوضوح. للروائي أن يقول ما يشاء عن شخصياته، ولو أنه يعرف فحسب كيف يقوله بإخلاص، فقد لا يسأله أحد عما ابتدعته مخيلته والذي يظهر فيه بوضوح إيمانه عن طريق عبارة أو صورة شعرية أو لهجة انفعالية. الفن عظيم! ولكن ليس لديّ فنّ، وبما أني لم أخترع «المدام دو ســ...»، فأنا أشعر أني مضطر إلى أن أشرح كيف توصلت لمعرفة هذا الكثير عنها.

كان من أنبأني هي الزوجة الروسية لصديق لي سبق أن ذكرته، ألا وهو بروفسور جامعة لوزان. وقد علمت منها بالذات آخر وقائع حكاية «المدام دو ســ...»، والتي أنوي إزعاج قرائي بها. لقد قالت لي، وهي تتكلم بثقة كبيرة بالنفس، كمن هو واثق من مصادره، عن سبب هروب «المدام دو ســ...» من روسيا قبل بضعة أعوام. ولم يكن الموضوع سوى ما يلي تقريباً: لقد أصبحت مشبوهة في أعين الشرطة فيما يتعلق باغتيال

Twitter: @ketab_n

الإمبراطور الكسندر[1]. كان أساس هذه التهمة عبارة أطلقت جزافاً في مكان عام، أو حديث سُمع مصادفة في «صالونها». ربما سمعه أحد ضيوفها، أو أصدقائها، الذي أسرع إلى لعب دور المخبر. وعلى أية حال فإن هذا الأمر الذي سُمع مصادفة بدا وكأنه يوحي بأنها كانت على معرفة مسبقة بحادثة الاغتيال، وأعتقد أنها كانت حكيمة حيث أنها لم تنتظر التحقيق في مثل هذه التهمة. قد يتذكّر بعض قرائي كتيباً من تأليفها نشرته في باريس، وهو عبارة عن كتيب يسوده سوء المزاج، انفعالي وغير مترابط الأفكار إلى حد بعيد، والذي أقرّت فيه تقريباً بمعرفتها المسبقة بحادثة الاغتيال، وعزت ذلك إلى مسائل خارقة للطبيعة، وطرحت بصراحة وبتلميحات مترعة بالحقد، أن مسؤولية الحادث تقع ليس على الإرهابيين، بل على مجموعة من المتآمرين في القصر. وحين ألمحت إلى صديقتي، زوجة البروفسور، أن حياة «المدام دو سـ...»، بدبلوماسيتها غير الرسمية، ومؤامراتها، ودعاواها القضائية، وحظواتها، ومخازيها، وعمليات الترحيل فيها، وجوّها الفضائحي، وعلاقاتها بالطوائف الدينية الغامضة، وشعوذتها، كانت أكثر ملاءمة للقرن الثامن عشر من شروط زماننا الحاضر، فقد صادقتْ على كلامي بابتسامة، ولكنها قالت بعد لحظة بلهجة تأملية:

ـ الشعوذة؟... أجل، نوعاً ما، ومع ذلك فإن الأزمنة تتغير. هناك الآن قوى لم تكن موجودة في القرن الثامن عشر، ولن أدهش إن كانت هي أكثر خطورة مما يستطيع أن يصدق رجل إنكليزي. وعلاوة على ذلك، فإن البعض ينظرون إليها على أنها خطرة حقاً... لدينا.(*) (بالفرنسية)

---

(1) يعني ألكسندر الثاني قيصر روسيا الذي اغتيل عام (1881). (المترجم)

Twitter: @ketab_n

وعبارة «الدينا» هنا تعني روسيا عموماً، والشرطة السياسية الروسية خصوصاً. كان الغرض من استطرادي هذا عن حكاية الآنسة هالدين (المروية بكلماتي) الخاصة بزيارتها لـ «قصر بوريل»، هو أن أذكر عبارة صديقتي زوجة البروفسور. وقد أردت إيرادها حتى أجعل ما سأقوله عن وجود السيد رازوموف في جنيف، أمراً أشد قابلية للتصديق بقليل. فهذه حكاية روسية معدّة للآذان الغربية التي لم تألَفْ - كما ألمحتُ سابقاً - لهجات السخرية والقسوة، وانعدام الأخلاق، وحتى المحنة الأخلاقية التي سبق لها وطُمِستْ في طرفنا نحن من أوربا. وأصرح بهذا كعذري لترك الآنسة هالدين واقفة كواحدة من مجموعة مؤلفة من امرأتين ورجلين اجتمعوا تحت شرفة «قصر بوريل».

المعرفة التي سبق أن ذكرتُها كانت في ذهني، كما قلت، وذلك حين قاطعتُ الآنسة هالدين. لقد قاطعتُها بصرخة تدلّ على الرضا العميق.

ـ إذن، فأنت لم ترى «المدام دو سـ....» إذن؟

هزّت الآنسة هالدين رأسها، وكان هذا مرضياً جداً لي. لم تكن قد رأت «المدام دو سـ...»! كان ذاك أمراً ممتازاً، ممتازاً! لقد رحّبت بفكرة أنها لن تتعرّف أبداً على «المدام دو سـ...» الآن. لم أستطع أن أشرح سبب الفكرة إلاّ بمعرفتي أن الآنسة هالدين كانت تقف وجهاً لوجه مع صديق أخيها الرائع. كنت أفضّله على «المدام دو سـ...» كرفيق ودليل لتلك الفتاة الشابة التي كانت نهاية أخيها البائسة قد تركتها وحيدة أمام انعدام خبرتها. ولكن، وعلى أية حال، تلك الحياة انتهت وقد كانت عزيزة، وربما كانت أفكارها سامية، ومعاناتها الأخلاقية عميقة، وفعلها الأخير تضحية حقيقية. لا يمكننا نحن، العشاق الرصينين الذين يهدئهم امتلاكهم لحرية مهزومة، أن نُدين، دون حق في الاستئناف، شراسة الرغبة المحبَطَة.

Twitter: @ketab_n

لست خجولاً من دفء اهتمامي بالآنسة هالدين. كانت تلك، كما عليّ أن أعترف، عاطفة غيرية، حيث أنها دون مقابل. لقد ظهر لي المرحوم فيكتور هالدين - في ضوء العاطفة - ليس كمتآمر فاسد، بل كمتحمّس نقي. لم أكن راغباً بالفعل في الحكم عليه، ولكن الحقيقة المجرّدة، حقيقة أنه لم ينجح، وهي الحقيقة التي سببت كل هذه المشاكل لأمه ولأخته كلتيهما، جعلتني في صفّه. في هذه الأثناء، وخشية أن أرى الفتاة تستسلم أمام تأثير الأفكار الثورية المتعلقة بالمساواة بين المرأة والرجل في «قصر بوريل»، فقد كنت أشد رغبة في أن أضع ثقتي في ذلك الصديق للمرحوم فيكتور هالدين. لم يكن هذا سوى اسم، كما يمكنك أن تقول. بالضبط! اسم! وعلاوة على ذلك، الاسم الوحيد، الاسم الوحيد الذي ذكر في المراسلات بين الأخ والأخت، ولقد وصل هذا الشاب، وهاهما يلتقيان، ولحسن الحظ دون التدخل المباشر لـ «المدام دو س...». ما الذي سينتج عن هذا اللقاء؟ ما الذي ستقوله لي الآن؟ هذا ما كنت أسأل نفسي عنه.

كان من الطبيعي تماماً أن تتوجه أفكاري نحو ذلك الشاب، حامل الاسم الوحيد الذي ذُكِر في كل ذلك الكلام الحالم عن مستقبل تحققه الثورة، وقد اتخذت أفكاري شكل توجيه السؤال إلى نفسي عن السبب في أن هذا الشاب لم يقم بزيارة هاتين السيدتين. لقد وصل إلى جنيف قبل بضعة أيام من سماع الآنسة هالدين بذلك لأول مرة عن طريق بيتر إيفانوفيتش. وقد حزنتُ لوجود هذا الشخص خلال لقائهما. كنت أفضل لو حدث ذلك في مكان ما بعيداً عن نظره المغطى بالنظارات، ولكني افترضت أنه بعد أن رأى هذين الشابين معاً قام بتقديم واحدهما إلى الآخر.

Twitter: @ketab_n

وقد حطمت الصمت بأن بدأت أوجه سؤالاً حول هذه الناحية:

ـ أعتقد أن بيتر إيفانوفيتش...

عبرت الآنسة هالدين عن سخطها. فما أن سمع جوابها حتى هاجم «الوصيفة» بكلام مخجل.

تساءلت مستغرباً:

ـ هاجمها؟ لماذا؟ لأي سبب؟

ـ كان ذلك أمراً غريباً جداً، كان مخجلاً.

هذا ما قالته الآنسة هالدين بعينين غاضبتين ثم استأنفت:

ـ لقد قرّعها (بالفرنسية)... هكذا، أمام الغرباء، لماذا؟ لا يمكنك أن تحزر. بسبب بضع بيضات... أوه!

ـ أنا مندهش. تقولين بضع بيضات؟

ـ لسبب يخص «المدام دو سـ...» إذ تخضع هذه السيدة لحمية خاصة، أو شيء من هذا القبيل. ويبدو أنها شكت في اليوم السابق لبيتر إيفانوفيتش من أن البيضات لم تكن مسلوقة بالشكل المناسب. وقد ذكر ايفانوفيتش فجأة هذا الموضوع فهاجم المرأة المسكينة. كان ذلك أمراً مثيراً للدهشة إلى أكبر حد. ولقد وقفتُ هناك وأنا متجمدة من الدهشة،

سألتها:

ـ هل تعنين أن ذلك المنادي العظيم بمساواة المرأة مع الرجل قد سمح لنفسه أن يهين امرأة؟

ـ أوه، ليس ذاك! بل كان شيئاً لا يمكنك أن تتصوره. كان ذلك دوراً تمثيلياً بغيضاً. تصوّر أنه رفع قبعته في البداية ولطّف من صوته وجعله ذا لهجة استنكارية: «آه! أنت لست لطيفة معنا.. ولن تتنازلي

Twitter: @ketab_n

فتذكّري...». مثل هذه العبارات وبتلك اللهجة. وقد انزعجت المخلوقة المسكينة إلى آخر حد وجرت الدموع من عينيها. لم تكن تعرف أين توجه نظرها، ولا أتعجب إن كانت قد فضلت الشتيمة ربما أو حتى الضرب.

لم أطرح رأيي في أنه من الممكن تماماً أنه كان يمارس ضدها كلا النوعين من الإهانات حين لا يكون هناك أشخاص آخرون حاضرون. سارت الآنسة هالدين إلى جانبي، ورأسها مرفوع في صمت ساخط وغاضب.

قلت بتفاهة:

- للرجال العظماء شذوذاتهم المدهشة، تماماً كالرجال غير العظماء. ولكن لا يمكن الاستمرار في مثل هذه الأمور إلى الأبد. وكيف استطاع ذلك المدافع العظيم عن حقوق المرأة أن يختم هذه الحادثة المتميزة؟

وقد حكت ليس الآنسة هالدين، دون أن تلتفت برأسها إليّ أن الخاتمة جاءت مع ظهور الصحفي الذي كان يجري المقابلة مع المدام «دو سـ...».

لقد وصل بسرعة، دون أن يلحظه أحد، فرفع قبعته قليلاً، ثم توقف ليقول بالفرنسية: «لقد طلبت مني البارونة أن أطلب من السيدة التي أراها في طريقي أن تدخل فوراً».

وبعد أن سلّم رسالته، أسرع مبتعداً على امتداد الطريق. هرعت الوصيفة باتجاه المنزل، ولحق بها بيتر إيفانوفيتش على وجه السرعة، والانزعاج بادٍ عليه. وخلال لحظة وجدت الآنسة هالدين نفسها وحيدة مع الشاب الذي كان دون شك ذلك الوافد الجديد من روسيا. وقد تساءلتْ إن لم يكن صديق أخيها قد سبق له وميّزها.

Twitter: @ketab_n

وأنا في وضع يمكّنني من القول إنه استطاع ذلك دون شكّ، وهذه حقيقة. ومن الواضح لي أنّ بيتر إيفانوفيتش، لسبب ما أو لآخر، قد تجنّب التلميح إلى وجود هاتين السيدتين في جنيف. ولكن رازوموف استطاع أن يميّزها. يا للفتاة الواثقة! كلّ كلمة نطقها هالدين كانت تعيش في ذاكرة رازوموف. كانت الكلمات أشبه بأشباح تسكنه، وما كان ممكناً طردها بالرقى والتعاويذ. وكان أكثرها حيويّة هو ما ذكره عن أخته. لقد تواجدت الفتاة بالنسبة إليه منذ ذلك الحين. ولكنه لم يميّزها على الفور. فحين كان يقترب هو وبيتر إيفانوفيتش، لاحظ وجودها، بل أن عيونهما قد التقت. وقد استجاب، كما لا يمكن لأحد سوى أن يستجيب، للفتنة ككلّ ولقوتها ورشاقتها وصراحتها الهادئة... ثم أشاح بنظره بعيداً. قال لنفسه إن هذا كله لم يكن له؛ جمال النساء وصداقة الرجال لم يكونا من الأمور التي تخصّه. وقد قبل ذلك الشعور بحزم هادف، وحاول أن يستأنف السير. ولكن يدها الممدودة هي التي جعلته يميّزها. وقد سجّل ذلك في صفحات اعترافاته، حيث يقول إن ذلك خنقه جسدياً برد فعل انفعالي هو مزيج من الحقد والخوف، وكأنما كان مظهرها نموذجاً للخيانة التامة.

واجهها. كان الارتفاع الشديد للشرفة يخفيهما عن نظر أي شخص يتسكّع عند مدخل المنزل، وحتى من نوافذ الطابق العلوي، عبر الشجيرات التي كانت تنمو بشكل عشوائي والأشجار النامية على الأرض المنحدرة المحيطة بالقصر، راح يرى البحيرة الباردة الهادئة. لقد أتيحت لهما لحظة من الانفراد التام عند هذا المنعطف. وقد تساءلت بيني وبين نفسي كيف استغلاّ يا ترى تلك الفرصة الطيبة.

سألتها:

ـ هل توفّر لكما من الوقت ما يكفي لأكثر من كلمات قليلة؟

Twitter: @ketab_n

لقد غادرتْها الآن تماماً تلك الحيوية التي روت لي بها حكاية زيارتها إلى «قصر بوريل». وقد راحت تنظر مباشرة نحو الأمام وهي تسير إلى جانبي، ولكنني لاحظت احمراراً خفيفاً على خدّها. لم تجبني.

بعد قليل لاحظت أنه لم يكن ممكناً لهما أن يأملا في أن يبقيا منسيين فترة طويلة، ما لم يكن الشخصان الآخران قد وجدا «المدام دو سـ...» دائخة من التعب، ربما، أو في حالة من السموّ الكئيب بعد تلك المقابلة الصحفية الطويلة. وفي كلتا الحالتين كان عليهما أن يعتنيا بها بشدة. وكنت قادراً على أن أصف لنفسي بيتر إيفانوفيتش وهو يندفع خارجاً من المنزل مرة أخرى، حاسر الرأس، ربما، ثم يتجه ليعبر الشرفة بأسلوب مشيته المتأرجح، والجزء الأسفل من معطفه «الفراك» يعوم بعيداً عن ساقيه الممتلئتين بالبنطال الرمادي. وأعترف أني نظرت إلى هذين الشابين كطريدتين لـ «اللاجئ البطل». وقد كانت في ذهني فكرة مفادها أنه لن يسمح لهما أن ينجوا بجلدهما. لم أذكر شيئاً من هذا القبيل أمام الآنسة هالدين، ولكني إذ أحسست أنها كانت غير متجاوبة. ضغطت عليها قليلاً.

ـ حسناً... ولكن تستطيعين أن تحكي لي عن انطباعك على الأقل.

التفتت برأسها لتنظر إلي، ثم أشاحت بها مرة أخرى.

كررت ببطء وبلهجة تكاد تكون حالمة:

ـ انطباع؟

ثم قالت بلهجة أسرع:

ـ يبدو وكأنه شخص عانى من أفكاره أكثر ممّا عانى من سوء الحظ.

ـ هل قلت من أفكاره؟

Twitter: @ketab_n

ـ وهذا أمر طبيعي تماماً في شخص روسيّ، خاصة إن كان شاباً. الكثيرون منهم غير لائقين للفعل، ومع ذلك فهم غير قادرين على الشعور بالراحة.

ـ وهل تعتقدين أنه من ذلك النوع من الناس؟

ـ لا، لا أحكم عليه. كيف يمكنني ذلك هكذا فجأة؟ لقد سألتني عن انطباعي... وقد شرحت لك انطباعي. لا أعرف العالم بعد ولا أناسه. لقد عشت حياة تتسم بالعزلة... لا زلت صغيرة السن إلى حد لا أستطيع معه أن أثق بآرائي.

قلت ناصحاً:

ـ ثقي بغريزتك. أغلب النساء يفعلن ذلك. ولا ترتكبي أخطاء أسوأ من أخطاء الرجال. وفي هذه الحالة بالذات لديك رسالة أخيك لتهديك.

أخذت نفساً عميقاً كتنيهدة خفيفة:

ـ وجود طاهر وشامخ ووحداني.

هذا ما ردّدته مقتبسة من الرسالة، ولكني ميزت بوضوح الهمهمة التوّاقة المشوبة بالكآبة:

همست لها:

ـ مديح سام.

ـ كأسمى ما يكون.

ـ سام إلى حد أنه، كجائزة السعادة، أكثر ملاءمة لنهاية حياة. ولكن ما كان ممكناً لشخصية عادية أو غير جديرة أن توحي بكل هذا الإطراء المبالغ فيه. و...

قاطعتني بحماسة:

ـ آه! ولو أنك كنت تعرف فحسب ذلك القلب الذي جاء منه هذا الحكم!

Twitter: @ketab_n

توقفت عند تلك الملاحظة، وقد تأمّلت لفترة في صفة الكلمات التي أدركت تماماً أنها ستحيل كفة ميزان شعور الفتاة لصالح ذلك الشاب. لم يكن لها رنين النطق العادي. لقد كانت غامضة على ذهني الغربي وعواطفي الغربية، ولكني لم أستطع أن أنسى، وأنا أقف إلى جانب الآنسة هالدين، أني كنت كمسافر في بلد غريب. وقد توضح لي أيضاً أن الآنسة هالدين لم تكن راغبة في دخول تفاصيل الجزء المادي الوحيد عن زيارتها إلى «قصر بوريل». ولكني لم أشعر بالإساءة. ولم أشعر نوعاً ما أني أفتقر إلى الثقة. كانت هناك صعوبة أخرى.... صعوبة لم أستطع أن استاء منها. وقد قلت لها دون أي إحساس بالامتعاض:

ـ حسناً جداً. ولكن على أساس هذا الرأي السامي، الذي لن أجادل فيه، فأنت، كأي واحدة أخرى في مثل هذه الظروف، عليك أن تصنعي لنفسك تصوّراً خاصاً بذلك الصديق الفريد، صورة ذهنية له، و... أرجو أن تقولي لي... هل أصبت بخيبة أمل؟

ـ ما الذي تعنيه؟ مظهره الشخصي؟

ـ لا أعني بالضبط حسن منظره، أو ما شابه.

انعطفنا عند نهاية الشارع وسرنا بضع خطوات دون أن ينظر واحدنا إلى الآخر.

قالت الآنسة هالدين أخيراً:

ـ مظهره ليس بالعادي.

ـ لا، كان علي أن أظن أنه ليس بالعادي... وذلك من القليل الذي قلته عن انطباعك الأول. وعلى أية حال، فعلى المرء أن يتراجع عن تلك الكلمة. انطباع! إن ما أعنيه هو أن هناك شيئاً لا يمكن وصفه يمكن أن يَسِمَ شخصاً «ليس عادياً».

Twitter: @ketab_n

أدركت أنها لم تكن تصغي. لم يكن هناك مجال للخطأ في فهم تعبيرها؛ ومن جديد أحسست أني كنت خارج الأمر... ليس بسبب سنّي، الذي يمكنه أن يستجلب بعض الاستدلالات على أية حال... ولكني أحسست أني خارج الأمر كله، على سطح آخر لا يمكنني منه سوى أن أراقبها من بعيد. وهكذا حين توقفت عن الكلام راقبتها وهي تسير إلى جانبي.

صاحت فجأة:

ـ لا، ما كان ممكناً أن أشعر بخيبة الأمل تجاه رجل لديه مثل تلك المشاعر القوية.

همهمت:

ـ هاهه! مشاعر قوية.

هكذا همهمت مفكراً في نفسي بنقد قاس: «هكذا! دفعة واحدة! في لحظة واحدة!».

سألت الآنسة هالدين ببراءة:

ـ ما الذي قلتَه؟

ـ آه، لا شيء. أرجو عفوك. مشاعر قوية. لست مندهشاً.

صاحت بندم:

ـ ولا تعرف إلى أي حد من الفظاظة تصرفتُ معه!

أفترض إن كان عليّ أن أبدو مندهشاً، فقد قالت لي وهي لا زالت تنظر إليّ ولونها قد ازداد احمراراً، بأنها تخجل بأن تعترف بأنها لم تكن متماسكة إلى حد كاف. لم تستطع السيطرة على كلماتها وتصرفاتها كما كان الموقف يتطلب منها. لقد فقدت الثبات الذي كان من شأنه أن يكون سمة اللقاء بين أخت فيكتور هالدين والصديق الوحيد لفيكتور هالدين. كان ينظر إليها بحدة، ولكنه لم يقل شيئاً، وكانت هي - كما

Twitter: @ketab_n

اعترفت - متأثرة إلى حد مؤلم بحاجته إلى الفهم. وكل ما استطاعت أن تقوله كان: «أنت السيد رازوموف». وقد قطّب جبينه قليلاً. وبعد توقف قصير مراقب، انحنى علامة الموافقة وراح ينتظر.

وحين فكرت أنها تقف أمام الرجل الذي كان أخوها يحمل له كل ذلك الاعتبار، الرجل الذي كان يعرف قدره، وحادَثَهُ، وفَهِمَهُ، وأصغى إلى أسراره، وربما شجّعه... ارتجفت شفتاها، واخضلت عيناها بالدموع. مدّت يدها وتقدّمت خطوة نحوه بتهوّر وهي تقول باذلة جهدها لتكبح انفعالاتها: «ألا تستطيع أن تحزر من أكون؟» لم يأخذ يدها الممدودة. بل تراجع خطوة إلى الوراء حتى، وتصوّرت الآنسة هالدين أنه كان قد تأثر على نحو غير سار. وقد عذرته الآنسة هالدين، فوجهت امتعاضها إلى ذاتها. لقد تصرفتْ دون جدارة، كفتاة فرنسية عاطفية. ومثل هذا التصرف كان من شأنه أن يزعج رجلاً ذا شخصية صارمة متحفظة.

لا شك أنه كان صارماً بالفعل، أو ربما شديد الخجل مع النساء، حتى لا يجاوب بأسلوب أكثر إنسانية مع محاولات فتاة كالآنسة هالدين للتقرّب منه... هكذا فكرت في نفسي. تلك الشخصيات ذات الوجود الشامخ والوحداني (تذكرت الكلمات فجأة) تجعل الشاب خجولاً والعجوز متوحشاً... على الأغلب.

شجعتُ الآنسة هالدين على الاستمرار:

ـ حسناً؟

كانت لا تزال شديدة الامتعاض من نفسها.

قالت بلهجة من الإحباط لم أعهدها فيها:

ـ مضيتُ بتصرفي من السيئ إلى الأسوأ. لقد ارتكبت كل ما هو طائش باستثناء الانخراط فعلاً في البكاء وأنا ممتنة أني لم أفعل ذلك. ولكني لم أكن قادرة على النطق لفترة طويلة تماماً.

Twitter: @ketab_n

وقفتْ أمامه عاجزة عن النطق، تبتلع بكاءها، وحين استطاعت أخيراً أن تنطق بشيء ما، فقد كان ذلك مجرد اسم أخيها... «فيكتور ... فيكتور هالدين!» هذا ما شهقت به، ومن جديد خانها صوتها.

علّقت قائلة وهي تشرح لي:

ـ لقد أحبطه ذلك بالطبع. لقد غُلب على أمره تماماً. لقد قلت لك رأيي في أنه شخص ذو مشاعر عميقة... من المستحيل الشك في ذلك. كان عليك أن ترى وجهه. لقد ترنحّ بالفعل. وقد استند إلى جدار الشرفة. لا شك أن صداقتهما كانت مثالاً لأخوة الروح! لقد شعرت بالامتنان تجاهه لأجل ذلك الانفعال، الذي جعلني أشعر بخجل أقل تجاه عدم قدرتي على كبح نفسي. لقد استطعت استعادة القدرة على النطق على الفور تقريباً. وقد دام ذلك كله بضع ثوان معدودة. قلت: «أنا أخته. ربما سمعت بي».

قاطعتها:

ـ وهل كان قد سمع بك؟

ـ لا أعرف. كيف كان ذلك ممكناً؟ ومع ذلك... ولكن ما يهم ذلك؟ لقد وقفت هناك أمامه، قريبة إلى حد يستطيع معه أن يلمسني دون أن أبدو كمدّعية. وكل ما أعرفه هو أنه مدّ يديه كلتيهما نحوي، أو قد أقول قذفهما نحوي بأعظم جاهزية ودفء وأني أمسكت بهما وضغطتهما، وأنا أشعر أني قد وجدت ثانية جزءاً ممّا فكرت أنه قد ضاع مني إلى الأبد، مع خسارتي لأخي.... بعضاً من ذلك الأمل، الإلهام، والدعم الذي كنت أناله من ذلك العزيز الميت...

فهمت تماماً ما الذي كانت تعنيه. تابعنا السير ببطء. تجنبت النظر إليها. وبدا وكأني كنت أرد على أفكاري حين هممتُ:

Twitter: @ketab_n

ـ لا شك أنها كانت صداقة عظيمة... كما تقولين. وقد وصل ذلك الشاب إلى الترحيب باسمك، كما يمكن أن يقال، بكلتا يديه. وبعد ذلك كنتما ستفهمان بالطبع أحدكما الآخر. أجل، ستفهمان أحدكما الآخر بسرعة.

وقد مرّت لحظة قبل أن أسمع صوتها:

ـ يبدو أن السيد رازوموف رجل قليل الكلام. رجل متحفظ... حتى حين يتأثر بشدة.

قلت دون أن أكون قادراً على أن أنسى ـ أو حتى أن أغفر - الصراحة غير المتحفظة ذات الصوت الجهير لبيتر إيفانوفيتش، الراعي الأكبر للأحزاب الثورية، قلت إني أعتبر تلك صفة شخصية إيجابية كانت مترابطة في ذهني بالصدق.

أضافت:

ـ وإلى جانب ذلك، لم يكن لدينا متسع من الوقت.

ـ طبعاً ما كان ذلك ممكناً.

كان ارتيابي وحتى خشيّتي من الداعية إلى تحرر المرأة و«ايغيريا» تلك، أمرين يتعذر استئصالهما إلى حد أني لم أستطع منع نفسي من سؤالها بقلق حقيقي وإن كنت فعلت ذلك مبتسماً:

ـ ولكنك نجوت بجلدك سالمة.

فهمتْ ما عنيتُ، وابتسمتْ أيضاً بسبب قلقي عليها.

ـ أوه، أجل، لقد نجوت بجلدي، إذا شئت أن تسمي المسألة هكذا. لقد ابتعدت بسرعة. لم تكن هناك حاجة إلى العدو. فأنا لست خائفة ولا مفتونة بعد، كتلك المرأة التي استقبلتني على ذلك النحو الغريب.

ـ والسيد... السيد رازوموف...

Twitter: @ketab_n

ـ لقد بقي هناك بالطبع. وأعتقد أنه دخل المنزل بعد أن تركته. تذكر أنه جاء إلى هنا مع توصية جيدة إلى بيتر إيفانوفيتش... ربما كان يحمل رسائل هامة له.

ـ آه، أجل، من ذلك القسيس الذي....

ـ الأب زوسيم... أجل. أو من آخرين، ربما.

ـ لقد تركته إذن. ولكن هل رأيته منذ ذلك الحين، هذا إن كان لي أن أسألك؟

لم تجبني الآنسة هالدين لفترة من الوقت على هذا السؤال شديد المباشرة، ثم قالت بهدوء:

ـ كنت أتوقع أن أراه هنا اليوم.

ـ حقاً؟ هل تتقابلان إذن في الحديقة؟ طالما أن الحال هكذا، فإنّ عليّ أن أتركك على الفور.

ـ لا، لا تتركني. ونحن لا نتقابل في هذه الحديقة. لم أر السيد رازوموف منذ تلك المرة الأولى. ولا مرة واحدة. ولكني كنت أتوقع منه...

توقفت. تساءلت بيني وبين نفسي من السبب في أن هذا الثوري الشاب لا يبدي سوى القليل من النشاط.

ـ قبل أن نفترق قلت للسيد رازوموف إني أتمشى في العادة هنا لمدة ساعة كل يوم في مثل هذا الوقت. لم أستطع أن أشرح له آنذاك السبب في أني لم أدعه إلى منزلنا على الفور. يجب أن تتم تهيئة أمي لمثل هذه الزيارة. ومن ثم، كما ترى، لا أعرف أنا نفسي ما الذي لدى السيد رازوموف ليقوله لنا. يجب أن يعلم هو أيضاً بحالة أمي المسكينة. لقد التمعت كل هذه الأفكار في ذهني على الفور. لذلك قلت له بسرعة إن هناك سبباً يدعوني إلى عدم دعوته إلى منزلنا، وأن

Twitter: @ketab_n

من عادتي أن أتمشى هنا... هذا مكان عام، ولكن ليس هناك الكثير من الناس في مثل هذه الساعة. ظننت أن هذا حلّ معقول جداً. كما أنه قريب جداً من شقتنا. لا أحب أن أكون بعيدة جداً عن أمي. كما أن خادمنا تعرف مكاني في حال دعت الحاجة إلى وجودي فجأة.

قلت مصادقاً:

ـ أجل. إنه مناسب جداً من وجهة النظر هذه.

وفي الواقع، أظنّ أيضاً أن «الا باستيون» مكان مناسب جداً، حيث أن الفتاة لم تكن تظن أنه قد آن الأوان بعد لتقديم هذا الشاب إلى أمها. إذن، كان هذا هو المكان، كما رحت أفكّر وأنا أنظر فيما حولي إلى تلك البقعة من الأرض شديدة الابتذال، المكان المناسب لأن تبدأ فيه علاقتهما وتستمر عبر تبادل الكثير من السخط والانفعالات الحادة، شديدة اللذع ربما، بحيث لا يمكن لذهن غير روسي أن يفهمها. لقد رأيت هذين الاثنين، الناجين من بين ثمانين مليوناً من البشر المطحونين بين شقي الرحى، يسيران تحت هذه الأشجار، ورأساهما الشابان قريبان واحدهما من الآخر، مكان ممتاز للتنزه مشياً على الأقدام والمحادثة. لقد خطر لي حتى، حين انعطفنا مرة أخرى مبتعدين عن البوابات الحديدية الكبيرة، أنهما حين يتعبان سيجدان الكثير من الأماكن للراحة. فقد كانت هناك عدد من المناضد والكراسي منتشر بين مبنى المطعم ومنصة الفرقة الموسيقية، وكذلك مجموعة كاملة من المقاعد المصنوعة من الألواح الخشبية المطلية بالدهان تحت الأشجار. في منتصف ذلك المكان رأيت زوجين سويسريين وحيدين مضموني المصير من المهد إلى اللحد بواسطة الآلية المتكاملة لمؤسسات ديموقراطية في جمهورية يمكن أن يمسك بها المرء في كف يده. كان الرجل الغريب الأطوار الشاحب اللون يشرب الجعة من كأس لامعة، والمرأة الريفية الهادئة المظهر تستند نحو الخلف في الكرسي المصنوع بطريقة بدائية، وتحدق فيما حولها بكسل.

Twitter: @ketab_n

ليس متوقعاً أن نجد على هذه الأرض سوى القليل من المنطق، ليس في مسألة الفكر فحسب، بل في مسألة العاطفة أيضاً. لقد دهشت إذ اكتشفت أني قد انزعجت من ذلك الشاب المجهول. لقد مرّ أسبوع منذ التقيا. هل هو ذو فؤاد قاس، أم شاب خجول أم شديد الغباء؟ لم أستطع فهم ذلك.

سألت الآنسة هالدين بعد أن قطعنا بعض المسافة في الشارع الكبير:

ـ هل تعتقدين أن السيد رازوموف فهم مقصدك؟

تساءلت:

ـ فهم ما كنت أعنيه؟ لقد تأثر إلى حد كبير. هذا ما أعرفه بالتأكيد! لقد رأيت ذلك رغم استثارتي. ولكني تكلّمت بوضوح. وقد سمعني، وبدا وكأنه يتشبث بكلماتي...

أسرعت في مشيتها دون وعي. كما أصبح نطقها أسرع أيضاً.

انتظرت قليلاً قبل أن أقول متأملاً:

ـ ومع ذلك فقد سمح لهذه الأيام كلها أن تمرّ.

ـ كيف لنا أن نعرف ما العمل المنوط به هنا؟ ليس هو بالمتبطّل المسافر لأجل متعته الخاصة. قد لا يكون وقته ملكاً له... ولا حتى أفكاره بعد ربما..

أبطأت من سيرها فجأة وأضافت في صوت خفيض:

ـ وربما حياته أيضاً.

ثم توقفت عن السير. وقالت:

ـ ربما اضطر إلى مغادرة جنيف في ذلك اليوم نفسه الذي التقاني فيه.

صحت غير مصدّق:

ـ دون أن يبلغك!

Twitter: @ketab_n

ـ لم أترك له الفرصة. لقد غادرته فجأة. لقد تصرفت انفعالياً حتى النهاية. أنا آسفة لأني فعلت ذلك. وحتى لو منحته الفرصة لكان عدم وثوقه بي مبرراً. إن فتاة انفعالية باكية ليست بالشخص الذي يستطيع المرء أن يفضي إليه بأسراره. ولكن حتى لو غادر جنيف لمدة من الزمن، فأنا على ثقة من أننا سنلتقي مرة أخرى.

ـ آه! أنت على ثقة... ولكن على أي أساس؟

ـ لأني قلت له إني في حاجة ماسة إلى شخص ما، مواطن من بلدي، إلى مؤمن بما أؤمن به، أستطيع أن أبوح له بمسألة معينة.

ـ حسناً! لن أسألك عن جوابه على هذا. أعترف أن هذا أساس جيد لإيمانك في أن السيد رازوموف سيظهر حتماً خلال فترة قصيرة ولكنه لم يظهر اليوم، أليس كذلك؟

قالت بهدوء:

ـ لا، ليس اليوم.

ثم وقفنا لفترة في صمت، كشخصين لم يعد لديهما ما يقولانه واحدهما للآخر، وهما يتركان أفكارهما تتراكض بجنون في جهتين متباعدتين قبل أن يفترق جسداهما ويروح كل في طريقه. نظرت الآنسة هالدين إلى ساعة يدها وقامت بحركة فظة. لقد سبق لها وتجاوزت الوقت المحدد كما يبدو.

همهمت وهي تهز رأسها:

ـ لا أحب أن أبتعد عن أمي. ليس الأمر أنها مريضة جداً الآن، ولكني أشعر بالقلق الشديد حين لا أكون معها.

لم تكن السيدة هالدين قد ذكرت ابنها مطلقاً خلال الأسبوع الذي مضى أو نحوه. كانت تجلس، كعادتها، في الكنبة قرب النافذة،

Twitter: @ketab_n

وهي تنظر إلى الخارج بصمت نحو ذلك الامتداد البائس لشارع الفلاسفة. وحين كانت تتكلم، كانت تتلفظ ببضع عبارات ميتة لا حياة فيها عن أمور تافهة غير هامة.

ـ بالنسبة إلى أي شخص يعرف ما الذي تفكر فيه تلك الروح المسكينة، فإن ذلك النوع من الكلام أكثر إيلاماً من صمتها. ولكن صمتها أمر رهيب أيضاً لا أستطيع سوى بالكاد أن أحتمله، ولا أجرؤ على كسره.

تنهدت الآنسة هالدين وهي تثبت زراً في قفازها كان قد أفلت. كنت أعرف تماماً الأوقات العصيبة التي تعانيها. كان من شأن هذا الإجهاد وأسبابه وطبيعته أن يخرّب صحة فتاة غربيّة. أما الطبيعة الروسية فتتميز بقدرة فريدة على مقاومة مظالم الحياة. لقد أجبرتني على أن أشعر نحوها بالعجب والإعجاب وذلك لرشاقتها واستقامة جسدها، وارتدائها لجاكيت قصير مفتوح فوق ثوبها الأسود الذي جعلها تبدو أكثر رهافة وجعل وجهها النضر إنما الشاحب أكثر شحوباً.

ـ لا أستطيع أن أبقى ولا لحظة واحدة أخرى. عليك أن تأتي لزيارتنا قريباً لترى أمي. أنت تعرف أنها تدعوك بـ «الصديق» (بالفرنسية). وهذا اسم رائع وهي تعني ما تقوله حين تتلفظ به. والآن «وداعاً» (بالفرنسية)، عليّ أن أركض.

ألقت نظرة غامضة إلى الممشى العريض... وقد راوغت اليد التي مدتها إلى قبضتي بحركة غير متوقعة نحو الأعلى لتستقر على كتفي. كانت شفتاها الحمراوان قد افترقتا قليلاً، ليس لتبتسما على أية حال، ولكن للتعبير عن سرور منذهل. حدقت إلى البوابات ثم قالت بسرعة مع شهقة:

ـ هاهو! لقد عرفت ذلك. هاهو قد أتى!

Twitter: @ketab_n

فهمت أنها كانت تعني دون شك السيد رازوموف. كان هناك شاب يسير على امتداد الشارع دونما إسراع. كانت ملابسه ذات لون بني كئيب، وكان يحمل عصا. وحين سقطت عيناي عليه لأول مرة كان رأسه معلقاً على صدره كأنما هو في حالة تفكير عميق. وبينما كنت أنظر إليه رفع رأسه بحدّة ثم توقف فوراً. أنا واثق من ذلك، ولكن ذلك التوقف لم يكن ممكناً ملاحظته، فقد كان مجرد تمهل مضطرب في مشيته تغلّب هو عليه على الفور. ثم استأنف تقدّمه وهو ينظر إلينا بثبات. أشارت إلي الآنسة هالدين أن أبقى، ثم تقدمت خطوة أو خطوتين للقائه.

أشحت برأسي بعيداً عن ذلك اللقاء، ولم أنظر إليهما ثانية حتى سمعت صوت الآنسة هالدين وهو يلفظ اسمه بأسلوب التقديم. وقد تم إبلاغ السيد رازوموف بلهجة دافئة خفيفة، أنه إلى جانب كوني معلماً رائعاً فأنا أيضاً سند عظيم «في محنتنا وبلائنا».

كمنا وُصِفْتُ أيضاً على أني إنكليزي. كانت الآنسة هالدين تتكلم بسرعة، أسرع من أي وقت مضى، وكان من شأن هذا أن يجعل هدوء عينيها ـ بالتباين ـ أكثر تعبيراً.

أضافت وهي تنظر طوال الوقت إلى السيد رازوموف:

ـ لقد منحتُه ثقتي.

كان ذلك الشاب قد راح يحدق فعلاً إلى الآنسة هالدين، ولكنه لم يكن ينظر - بكل تأكيد - إلى عينيها اللتين كانتا جاهزتين جداً له، وبعد ذلك كان ينظر نحو الخلف ونحو الأمام إلينا كلينا، بينما كانت البداية الباهتة لابتسامة مقحمة، يلحقها شبه تقطيبة، يتلاشيان الواحد في إثر الآخر. لقد ميزتهما، رغم أنه ما كان ممكناً لشخص آخر أقل تصميماً على اكتشافه بالحدس، أن يميزهما. لا أعرف ما ميزته ناتالي هالدين، ولكن انتباهي التقط حتى ظلال تلك الحركات. كانت

Twitter: @ketab_n

محاولة الابتسامة قد تم التخلي عنها، وكذلك تم كبح مشروع التقطيبة كما تم تلطيف الملامح بحيث لم يتبق منها أي أمارة، ولكنني تخيّلته يصيح في داخله «ثقتها! لهذا الرجل الكهل... هذا الأجنبي!».

لقد تخيّلت ذلك لأنّه بدا أجنبياً تماماً بالنسبة إليّ. وقد كان انطباعي عموماً في صالحه. كان يتمتع بهيئة تدل على الذكاء والثقافة وحتى بعض التميّز بالمقارنة مع المتوسط الذي يتمتع به طلاب وسكان «روسيا الصغيرة» الآخرين. كانت ملامحه أكثر تحديداً من ملامح الوجوه الروسية عموماً. كان لديه خط واضح للفك، ووجنة محلوقة جيداً وشاحبة، وكان أنفه عبارة عن ضلع وليس مجرد بروز، وكان يرتدي قبعته بحيث تنزل حتى عينيه، وشعره الداكن قد هبط متجعّداً حتى مؤخر عنقه. وضمن الملابس البنية غير الملائمة كانت أعضاؤه تبدو قوية. وكان هنا انحناء خفيف يجعل كتفيه عريضتين بما فيه الكفاية. لم أشعر بخيبة الأمل عموماً: مجدّ... قوي... خجول...

وقبل أن تتوقف الآنسة هالدين عن الكلام أحسست بيده تقبض على يدي. وكانت قبضته شديدة تدل على عضلات قوية، ولكنها أيضاً حارة وجافة إلى حد غير متوقع. ولم ترافق مصافحته القصيرة الجافة أية كلمة أو حتى همهمة.

كنت أنوي أن أتركهما لشأنهما، ولكن الآنسة هالدين لمستني على ذراعي بلهفة، مما كان يدلّ على رغبة واضحة في أن أبقى. فليبتسم ما شاء له الابتسام، ولكنني سأبقى إلى القرب من ناتالي هالدين، ولست خجلاً من القول إن المسألة لم تكن بالنسبة إليّ مسألة ابتسام. لقد بقيت، ليس كما كان من شأن شاب أن يبقى، متشامخاً فعلاً كأنما أرفرف في الهواء، ولكن برصانة، وقدماي على الأرض وذهني يحاول اختراق مقصدها. كانت قد التفتت إلى رازوموف.

Twitter: @ketab_n

ـ حسناً. هذا هو المكان. أجل، لقد كان قصدي أن ألقاك هنا. وقد جئت إلى هنا لأتمشى في كل يوم من الأيام الماضية... لا تحاول أن تجد عذراً لنفسك... أفهمك تماماً. أنا شاكرة لك قدومك هذا اليوم، ولكنني لن أستطيع البقاء على أية حال. هذا مستحيل. عليّ أن أسرع إلى البيت. أجل، حتى مع وجودك واقفاً أمامي، إلا أنني مضطرة للانطلاق فوراً. لقد طال غيابي... أنت تعرف كيف هي الأمور؟

هذه الكلمات الأخيرة وجهتها إليّ. وقد لاحظت أن السيد رازوموف مرّر رأس لسانه فوق شفتيه كما قد يفعل شخص ظامئ محموم. أخذ يدها بقفازها الأسود التي أطبقت على يده وأمسكت بها... كانت تبقيها في يدها على نحو مرئي تماماً لي رغم حركته التي كانت تحاول سحب يده من يدها.

استأنفت تقول بدفء:

ـ شكراً لك مرة أخرى... لأنك تفهمني.

وقد قاطعتها بنوع من الخشونة. لم يعجبني أن يخاطب تلك المخلوقة الصريحة من تحت حافة قبعته كما حدث. كما كان صوته ضعيفاً أبحّ كصوت رجل مصاب بجفاف في الحنجرة.

ـ على أي شيء تشكرينني؟ أفهمك؟... كيف أفهمك؟... الأحرى بك أن تعرفي أني لم أفهم شيئاً. كنت مدركاً أنك تريدين مشاهدتي في هذه الحديقة. لم أستطع المجيء قبل الآن. لقد كان هناك ما أعاقني، وحتى في هذا اليوم، فلقد جئت متأخراً... كما ترين.

كانت لا تزال تمسك بيده.

ـ أستطيع على أية حال أن أشكرك لأنك لم تصرفني عن ذهنك على أني فتاة ضعيفة انفعالية، لا شك أنه تعوزني المساندة، أنا جاهلة جداً. ولكن يمكن الوثوق بي. يمكن ذلك حقاً!

Twitter: @ketab_n

كرر متأملاً:

ـ أنت جاهلة.

كان قد رفع رأسه وراح ينظر إلى وجهها مباشرةالآن، بينما كانت لا تزال ممسكة بيده. وقد وقف هكذا للحظة طويلة. ثم أطلقت يده.

ـ أجل، لقد جئت متأخراً. لكم هو جميل أنك أتيت خلال تلكئي هنا. لقد كنت أحادث هذا الصديق الطيب. كنا نتحدث عنك. أجل يا كيريلو سيدوروفيتش، عنك. كان معي حين سمعت للمرة الأولى عن وجودك في جنيف. ويستطيع أن يحكي لك كم شعرت روحي المضطربة بالارتياح حين سمعت ذلك النبأ. كان يعرف أني أنوي البحث عنك. كان ذلك هو الغرض الأساسي من قبولي دعوة بيتر إيفانوفيتش...

قاطعها بذلك الصوت الراجف الذي يوحي بحنجرة جافة إلى حد مرعب:

ـ وهل حدثك بيتر إيفانوفيتش عني؟

ـ القليل النادر. ذكر لي اسمك وأنك وصلت إلى هنا. ولماذا عليّ أن أسأله المزيد؟ وما الذي كان يمكنه أن يقوله لي ولست أعرفه مسبقاً من رسالة أخي؟ ثلاثة أسطر! وكم كانت مليئة بالمعاني بالنسبة إليّ! سأريك إياها في أحد الأيام يا كيريلو سيدوروفيتش. ولكن عليّ أن أذهب الآن. لا يمكن لأول حديث بيننا أن يكون مسألة دقائق خمس، لذا الأفضل ألاّ نبدأ...

كنت أقف إلى جانب، وأراهما كلاهما جانبياً. وفي تلك اللحظة خطر لي أن وجه السيد رازوموف كان أكبر سناً من عمره.

ـ لو أنّ أمي...

Twitter: @ketab_n

وهنا التفتت فجأة إليّ ثم استأنفت:

- استيقظت فجأة في غيابي (الذي طال أكثر من أية مرة أخرى)، فسوف تستجوبني على الأرجح. يبدو أنها تفتقدني أكثر فأكثر، كما تعرف، مؤخراً. ولا شك أنها ستريد أن تعرف ما الذي أخّرني... وكما ترى... سيكون مؤلماً أن أخفي عنها شيئاً.

فهمت ما عنته تماماً. ولهذا السبب نفسه فقد صدّت ما بدا أنه من جانب السيد رازوموف محاولة لمرافقتها.

- لا! لا! سأذهب لوحدي، ولكن قابلني هنا بأسرع ما تستطيع.

ثم قالت لي بلهجة أخفض وأن تكون ذات مغزى:

- قد تكون أمي جالسة عند النافذة في هذه اللحظة، تتطلّع إلى الشارع. ولا يتوجب أن تعرف عن وجود السيد رازوموف هنا حتى... حتى يتم تدبير أمر ما.

ثم توقفت عن الكلام قبل أن تضيف بصوت أعلى، ولكنها كانت لا تزال تخاطبني:

- السيد رازوموف لا يفهم تماماً الصعوبات التي أواجهها، ولكنك تعرفها.

خامساً:

بإيماءة سريعة بالرأس لكلينا، وبنظرة جدية ودية إلى الشاب، غادرتنا الآنسة هالدين ونحن نغطي رأسينا بالقبعات ونراقب جسدها المستقيم اللدن وهو يبتعد بسرعة. لم تكن مشيتها من ذلك النوع الذي يتم بانزلاق هجين غير واثق والذي تصطنعه بعض النساء، بل حركة صريحة، قوية وصحّية نحو الأمام. لقد ابتعدت بسرعة... واختفت فجأة أخيراً. واكتشفت آنذاك فحسب أن السيد رازوموف بعد أن أنزل

Twitter: @ketab_n

قبعته حتى غطت معظم جبينه، كان يتفحصني مـن الـرأس إلى القـدم. ويمكنني أن أقول إني كنت حقيقة لم يكن ذلك الشاب الروسي يتوقـع أن يتعثر بها إطلاقاً. وقد رأيت في ملامح وجهـه، وفي كامـل وقفتـه، تعبيراً مؤلفاً من الفضول والاحتقار، معزّزاً بالذعر... كأنما كان يمسك بأنفاسه حين لم أكن أنظـر نحـوه. ولكـن عينيـه قابلتـا عـينيّ بتحديقـة مباشرة بما فيه الكفاية. وحينها رأيت للمرة الأولى أنهما كانتا ذات لون بنّي صاف ومهدبتين بأهداب سوداء كثيفة. كانتا أكثر ملامحه شباباً. لم تكونا عينين غير لطيفتين. مـال بخفـة وهـو يـستند إلى عـصاه وأصبح معلقاً في الهواء. وقد خطر لي فجأة خـاطر سـريع أن الآنـسة هالـدين تعمّدت أن تتركنا معاً... أن هناك شيئاً مـا قـد أُوكلـتْ إلي أن أنفـذه، حيـث أني، وبمحـض الـصدفة، تواجـدت في المكـان والزمـان المناسبين. وبناء على هذه الأساس المفترض، فقـد تـصرفت بكـل ود معقول. رحت أبحث عن شيء ملائـم أقولـه، وفجـأة رأيـت في آخـر كلمات قالتها الآنسة هالدين دليلاً لطبيعة مهمتي.

قلت بلهجة جادة، وإن أرفقتها بابتسامة:

- لا، لا يمكن أن يتوقع منك أحد أن تفهم الآن.

ارتجفت شفته المحلوقة جيداً قليلاً جداً قبل أن يقـول وكأنـه قـد سُرَّ على نحو شرير:

- ولكن أو لم تسمع ما جرى الآن؟ لقـد شـكرتني تلـك الـسيدة الشابة لأني أفهم جيداً جداً.

نظرت إليه بقسوة نوعاً ما. هل كان هنـاك ازدراء خفـي وغـامض في رده السريع والحاسم؟ لا، لم يكن الأمر كذلك. قـد يكـون ذلـك مجـرد استياء. أجل، ولكن ما الذي لديه ليستاء منه؟ بدا عليه وكأنه لم يكـن ينـام جيداً في الفترة الأخيرة. لقـد كنـت قـادراً علـى أن أشـعر بثقـل تحديقته

Twitter: @ketab_n

المتعبة الساكنة، تحديقة رجل يتمدد دون أن يرمش في الظلام، تراوده الأفكار الكارثية ولكنه سلبي تجاهها وغاضب أيضاً بسبب هذه السلبية. والآن، وأنا أعرف كم كانت وجهة نظري صحيحة، فأستطيع أن أؤكد بصدق أن هذا «كان» هو الانطباع الذي تركه لديّ. كان ذلك أمراً مؤلماً على نحو غريب غير محدد.... فالتعريف يصلني الآن بينما أجلس لأكتب وأنا على معرفة تامة بالتفاصيل. ولكن كان هذا هو التأثير الذي تركه لديّ في ذلك الوقت الذي كنت فيه في جهل مطبق، هذا النوع الجديد من القلق الذي بدا عليه أنه يقحمه علي، حاولت أنا أن أحبطه بأن تظاهرت بنوع من الحميمية والرغبة في الحديث.

ـ هذه الشابة شديدة الفتنة والمثيرة للإعجاب (أنا كما ترون عجوز بما فيه الكفاية بحيث يمكنني أن أكون صريحاً في تعبيراتي) كانت تلمّح إلى مشاعرها بالذات. لا شك أنك فهمت بقدر ما فهمت أنا، أليس كذلك.

قام بحركة فظة إلى حد أنه ترنح قليلاً حتى.

ـ لا شك أن فهمت هذا! ليس متوقعاً أن تفهم ذاك! قد تكون لديّ أمور أخرى أفعلها. والفتاة فاتنة ومثيرة للإعجاب. حسناً... وإن كانت كذلك! أفترض أني أستطيع رؤية ذلك بنفسي.

كان ممكناً لهذا الانفجار أن يكون مهيناً لو لم يكن صوته قد اختفى عملياً، جفّ في حلقه؛ وكان الجهد الذي يبذله مؤلماً له إلى حد لا يمكنه معه أن يكون مهيناً.

بقيت صامتاً، محصوراً بين الحقيقة الواضحة والانطباع الدقيق. كان ممكناً لي أن أغادره في ذلك المكان والزمان، ولكن الإحساس بأني كنت مكلّفاً بمهمة، والإيحاء الذي كان في آخر نظرة للآنسة هالدين، كانا شديدي التأثير عليّ. وبعد لحظة تأمّل قلت:

Twitter: @ketab_n

ـ هل لنا أن نمشي معاً لفترة قصيرة؟

هزّ كتفيه بعنف شديد إلى حد أنه ترنّح مرة أخرى. لقد رأيت ذلك بطرف عيني حين تحركت وهو إلى القرب من مرفقي. كان قد تراجع قليلاً إلى الخلف وأصبح خارج مرمى نظري إلاّ إذا التفتّ برأسي لأنظر إليه. لم أرغب في أن أنفّره أكثر من ذلك بأن أظهر بمظهر الفضولي. ربما كنت أثير اشمئزاز هذا اللاجئ الشاب المتكتّم القادم من تحت الظلّ الوبائي الذي يخفي الوجه الكريم الحقيقي لأرض وطنه. وكان هذا الظلّ المصاحب لمواطنيه، يتمدّد عبر أوربا، ويثقل عليه هو أيضاً، ويجعل شخصه أكثر غموضاً. قلت في نفسي: «لا شكّ أنه يبدو كثوريّ كئيب بل ويائس حتى؛ ولكنه شاب لا يزال، وقد يكون غيريّاً وإنسانياً، وقادراً على التعاطف، ...»

سمعته يتنحنح ليطرّي حنجرته الجافة وأصبح شديد الانتباه.قال:

ـ هذا يتجاوز كل شيء، إنه يتجاوز كل شيء! أجدك هنا، لسبب لا أستطيع فهمه، ومالكاً لشيء ما لا يتوقّع مني فهمه! رجل موضع ثقة! أجنبي! يتحدّث عن فتاة روسية مثيرة للإعجاب. هل الفتاة المثيرة للإعجاب حمقاء؟ هذا ما بدأت أتساءل عنه. ما أنت؟ ما هو غرضك؟

كان صوته مسموعاً بالكاد، وكأن حنجرته ما عاد فيها من الرنين أكثر مما هو في خرقة أو قطعة من الصوفان. كان الأمر مثيراً للشفقة بحيث أني وجدت أنه من السهولة بمكان أن أسيطر على سخطي.

ـ حين تصبح أكبر سنّاً يا سيد رازوموف، ستكتشف أنه ليس هناك من امرأة حمقاء تماماً. لست من أنصار المرأة كذلك المؤلّف الشهير، بيتر إيفانوفيتش، الذي أشكّ فيه إن أردت الحقيقة...

Twitter: @ketab_n

قاطعني بلهجة هامسة تدلّ على الدهشة:

ـ تشكّ فيه؟ تشكّ في بيتر ايفانوفيتش؟ أنت تشك...!

ـ أجل أشكّ فيه من ناحية بعينها.

ثم استأنفت وأنا أصرف النظر عن ملاحظتي السابقة:

ـ كما كنت أقول يا سيد رازوموف، فأنت حيت تصبح أكبر سناً ستتعلّم كيف تميّز ما بين الثقة النبيلة لطبيعة بعيدة عن كل خسة، وبين السذاجة المغرورة لبعض النساء. رغم أنه حتى النساء الساذجات، مهما كنّ حمقاوات، وغير سعيدات بالتأكيد، لسن حمقاوات تماماً أبداً. وفي اعتقادي أنه ليست هناك امرأة يمكن خداعها تماماً. وأولئك اللواتي يتعرضن إلى الضياع، يقفزن إلى الهاوية بعيون مفتوحة، هذا إن عرفت الحقيقة كلها.

صاح عند مرفقي:

ـ هيّا قل لي ما شأني سواء كنت النساء حمقاوات أو مجنونات؟ لا أهتمّ إطلاقاً في الواقع برأيك فيهنّ. أنا.... لست مهتمّاً بهنّ، أتركهنّ في حالهنّ. لست شخصية روائية. كيف تعرف أني أريد أن أتعلّم أيّ شيء عن النساء؟ ... ما معنى هذا كلّه؟

ـ تقصد الغرض من هذه المحادثة التي أقرّ بأنها فرضت عليك فرضاً نوعاً ما.

كرّر وهو لا يزال متخلّفاً عني نصف خطوة أو نحوها:

ـ «فرضت»! «غرض»! لقد أردت التحدّث عن النساء على ما يبدو. وهذا موضوع لا أهتمّ به. لم يسبق لي... في الواقع لديّ مواضيع أخرى أفكّر بها.

ـ أنا مهتمّ هنا بامرأة واحدة فقط... فتاة شابة. أخت صديقك المتوفّى... الآنسة هالدين. لا شكّ أنك تستطيع أن تعيرها القليل من التفكير. ما عنيتُه منذ البداية كان وجود وضع ليس متوقّعاً منك أن تتفَهّمَه.

Twitter: @ketab_n

أصغيت إلى وقع أقدامه غير الثابت إلى جانبي مسافة خطوات عدّة.

ـ أعتقد أن من شأن هذا أن يمهّد الطريق للقائك التالي مع الآنسة هالدين لو حكيت لك عنه. وأعتقد أنه قد يكون شيء من هذا القبيل في ذهنها حين تركتنا معاً. أعتقد أني مفوّض بالحديث. الوضع العجيب الذي ألمحت إليه قد نجم عن الصدمة الأولى للحزن والأسى نتيجة لإعدام فيكتور هالدين. كان هناك شيء مبهم يحيط بظروف اعتقاله. لا شك أنك تعرف الحقيقة كاملة...

أحسست بذراعي يمسك بها من فوق المرفق، وفي اللحظة التالية وجدت نفسي أتأرجح لأواجه السيد رازوموف.

ـ ها أنت تقفز من تحت الأرض بهذا الحديث. من أنت بحق الشيطان؟ لا يمكن احتمال هذا! عجباً! لماذا؟ ما الذي تعرفه عما هو عجيب أو غير عجيب؟ ما علاقتك بأية ظروف لعينة، بأي شيء يحدث في روسيا على أية حال؟

اتكأ على عصاه بيده الأخرى، بثقل، وحين حرّر ذراعي، كنت واثقاً من أنه لا يستطيع إلاّ بالكاد أن يبقى واقفاً على قدميه.

قلت وأنا أتجاهل هذا الكشف لعواطف عميقة إلى حد غير متوقّع، ولم يفت ذلك دون أن يترك تأثيره عليّ، وقد أحسست بالشفقة عليه، قلت:

ـ فلنجلس إلى إحدى تلك المناضد الفارغة.

ـ أية مناضد؟ عمّ تتحدّث؟ أوه... المناضد الفارغة؟ تلك المناضد هناك. بكلّ تأكيد. سأجلس إلى إحدى تلك المناضد.

قدته بعيداً عن الممر إلى وسط المجموعة الكبيرة من الألواح الخشبية الصنوبرية أمام القلعة. كان الزوجان السويسريان قد رحلا الآن. ها نحن لوحدنا. نزل السيد رازوموف بثقة على أحد الكراسي،

Twitter: @ketab_n

وترك عصاه تسقط، ثم اتكأ على مرفقيه ورأسه بين يديه وراح يحدّق إليّ بإلحاح، بصراحة، وبمثابرة، بينما كنت أشير إلى النادل وأطلب بعض الجعة. ما كان ممكناً أن أزعل من هذا الفحص الصامت لشخصي، لأني، إذا أردتم الحقيقة، كنت أشعر بالذنب نوعاً ما لأني هاجمته فجأة.. «قفزت من تحت الأرض» كما عبّر هو عن ذلك.

وبينما كنت أنتظر وصول الجعة ذكرت له أني ولدت لزوجين استقرّا في سانت بطرسبورغ، ممّا جعلني أكتسب اللغة وأنا طفل بعد. وأنا لا أتذكّر المدينة كوني غادرتها وأنا في التاسعة من عمري، ولكني جدّدت معرفتي باللغة بعد سنوات من ذلك. راح يصغي دون أن يحرّك حتى عينيه على الأقلّ ولو قليلاً. كان عليه أن يغيّر من جلسته لدى وصول الجعة، وقد أنعشه على ما يبدو أنه أفرغ كأسه مرة واحدة، استند بظهره إلى الكرسي، وبينما كان يلفّ ذراعيه فوق صدره، راح يحدّق إليّ وجهاً لوجه. لقد خطر لي أن هذا الوجه الحليق جيداً، والداكن البشرة، كان من النوع المتحرّك تماماً، وأن سكونه المطلق كان عادة اكتسبها هذا الثوري، هذا المشارك في المؤامرات والذي عليه أن يكون حذراً باستمرار ضد الزلل في عالم الجواسيس السريين.

ـ ولكنك إنكليزي... معلّم للأدب الإنكليزي.

هذا ما همهم به بصوت لم يعد يصدر الآن عن حنجرة جافة. ثم استأنف:

ـ لقد سمعت بك، أخبرني الناس أنك تعيش هنا منذ سنوات.

ـ صحيح تماماً. أكثر من عشرين عاماً. وقد كنت أساعد الآنسة هالدين في دروس الإنكليزية.

ـ كنت تقرأ معها الشعر الإنكليزي.

Twitter: @ketab_n

هذا ما قاله، دون أن يكون قادراً على التحرّك الآن، كأنه شخص آخر تماماً، شخص مختلف تماماً عن ذاك الآخر ثقيل الخطو غير واثقه والذي كانه منذ فترة وجيزة... عند مرفقي.

قلت:

ـ الشعر الإنكليزي... أجل. ولكن المشكلة التي أتحدث عنها سبّبتها صحيفة إنكليزية.

استمرّ في التحديق إليّ. لا أعتقد أنه كان على معرفة بأن حكاية القبض في منتصف الليل كانت قد تسرّبت إلى صحفي إنكليزي ومنه إلى العالم كله. وحين شرحت له ذلك همهم باحتقار:

ـ قد يكون ذلك كله عبارة عن كذب في كذب.

أجبته ببعض الاضطراب:

ـ عليّ أن أعتقد أنك أفضل من يحكم على ذلك. وعليّ أن أعترف أن المسألة تبدو لي صحيحة على الأغلب.

سأل بأسلوبه الجديد غير القابل للحركة الآن:

ـ وكيف يمكنك أن تميّز الحقيقة من الكذب؟

قلت وقد انزعجت من موقفه:

ـ لا أعرف كيف تفعلون ذلك في روسيا...

ولكنه قاطعني:

ـ في روسيا، وفي كل مكان عموماً... في صحيفة من الصحف مثلاً. أن لون الحبر وأشكال الأحرف لا تختلف.

ـ حسناً، هناك أمور تافهة أخرى يمكن أن يمرّ بها المرء. نوع النشرة، واحتمال صحة الخبر، ودراسة الدافع...إلخ. لا أثق على نحو أعمى بدقة المراسلين الصحفيين الخصوصيين... ولكن لماذا يزعج هذا الصحفي بالذات نفسه فيختلق كذبة عرضية فيما يتعلق بمسألة لا أهمية لها في نظر العالم؟

Twitter: @ketab_n

غمغم:

ـ وهذه هي المسألة. إن ما يحدث لنا لا أهمية له... مجرّد حكاية مثيرة لتسلية قرّاء الصحف. أوربا المتفوّقة المزدرية. إن التفكير في ذلك لأمر كريه. ولكن فلينتظروا قليلاً!

وهكذا قطع كلامه عند هذا التهديد الموجّه إلى العالم الغربي. وقد ألمحت، دون أن أتجاهل الغضب المتجلّي في عينيه، إلى أنه سواء كان الصحفيّ ذا مصادر موثوقة أو غير موثوقة، فإن اهتمام أصدقاء هاتين السيدتين كان مصدره تأثير تلك الأسطر القليلة المطبوعة... التأثير وحده. ولا شكّ أنه يجب أن يعدّ كواحد من أصدقائهما... ولو كان ذلك من أجل خاطر صديقه الراحل ورفيقه الحميم في الثورة. وهنا ظننت أنه سيقول شيئاً بلهجة شديدة، ولكنه أذهلني بالإجفالة التشنّجية لكامل جسده. ثم كبح نفسه، وطوى ذراعيه المرتخيتين بشدة فوق صدره، ثم استند إلى الوراء بابتسامة كان فيها ارتعاشة احتقار وحقد.

قال:

ـ أجل، صديق ورفيق حميم... حسناً!

ـ لقد غامرت فحدثتك عن الموضوع على أساس هذا الافتراض. ولا يمكنني أن أكون مخطئاً. لقد كنت حاضراً حين أنبأ بيتر إيفانوفيتش الآنسة هالدين بوصولك إلى هنا، وقد رأيت مدى ارتياحها وامتنانها حين ذُكر اسمك. وفي وقت لاحق أرتني رسالة أخيها وتلت عليّ الكلمات القليلة التي أشار بها إليك. ما الذي يمكنك أن تكونه إن لم تكن صديقاً؟

ـ هذا واضح. هذا مشهور تماماً. صديق. صحيح تماماً... هيّا استمر. كنت تتحدّث عن تأثير ما.

Twitter: @ketab_n

قلت لنفسي: «إنه يضع فوق صلابة الثوري الصارم لا حساسية الانفعالات العادية لرجل كرّس نفسه لفكرة مدمّرة. إنه شاب، وإخلاصه يجعله يتخذ وضعاً معيّناً أمام شخص غريب، أجنبيّ وعجوز، ولا بدّ للشباب من أن يؤكّد وجوده...» وقد عرضت له بما وسعني الإيجاز الحالة الذهنية التي تعيشها السيدة هالدين منذ سماعها خبر نهاية ابنها التي حدثت قبل أوانها.

وقد راح يصغي - وهذا ما أحسست به - باهتمام عميق. راحت تحديقته المباشرة تنحرف تدريجياً نحو الأسفل، ثم غادرت وجهي واستقرت أخيراً على الأرض عند قدميه.

ـ يمكنك أن تدخل إلى مشاعر الأخت. وكما قلت أنت فأنا لم أقرأ سوى القليل من الشعر الإنكليزي معها، ولن أجعل من نفسي أضحوكة في نظرك بمحاولة التحدث عنها. ولكنك رأيتها. إنها واحدة من تلك الكائنات البشرية النادرة التي لا تحتاج إلى تفسير. هذا هو رأيي شخصياً على الأقل. لم يكن لديهما سوى ذلك الابن، ذلك الأخ، كرابط مع العالم الأوسع، مع المستقبل. إن أساس الوجود الناشط لناتالي هالدين قد ولّى مع رحيله. هل يمكنك أن تستغرب إذن أن تلتفت هي بتوق إلى الشخص الوحيد الذي يذكره أخوها في رسائله. اسمك نوع من الميراث بوصيّة.

صاح بلهجة خفيضة ساخطة:

ـ ما الذي كتبه عني يا ترى؟

ـ مجرّد كلمات قليلة. وليس من شأني أن أبلغك إياها يا سيد رازوموف. ولكن يمكنك أن تصدق تأكيدي بأن هذه الكلمات فعّالة إلى حد كاف بحيث تجعل أمه وأخته تؤمنان إيماناً مطلقاً في أهمية رأيك وفي مصداقية أي شيء تقوله لهما. يستحيل عليك الآن أن تمرّ بهما مرور الغرباء.

Twitter: @ketab_n

توقّفت، ورحت أصغي للحظة من الزمن إلى وقع خطوات الناس القليلين الذين كانوا يمرّون جيئة وذهاباً في الممشى المتوسط العريض، وبينما كنت أتكلّم كانت رأسه قد غاصت فوق صدره وذراعيه المعقودتين. ثم رفعها بحدة.

ـ هل عليّ أن أذهب إذن وأكذب على تلك المرأة العجوز؟

لم يكن غاضباً، بل شيئاً آخر، شيئاً أكثر حدة، وليس بسيطاً إلى ذلك الحد، لقد أدركت ذلك بتعاطف، ولكني كنت أشعر بقلق عميق تجاه طبيعة تلك الصرخة التعجبية.

ـ يا إلهي! ألن تكفي الحقيقة إذن؟ كنت آمل أن في مقدورك أن تقول لهما شيئاً فيه بعض السلوان. أنا أفكّر بالأمّ المسكينة طبعاً. بلدكم روسيا، بلد قاس حقاً.

تحرّك قليلاً في كرسيّه.

كرّرت:

ـ أجل، كنت أظنّ أن لديك شيئاً حقيقياً تقوله لهما.

كان ارتعاش شفتيه، قبل أن يتكلم، غريباً.

ـ ماذا لو أن الأمر لا يستحق أن يُروى؟

ـ لا يستحق... من أية وجهة نظر؟ لا أفهم.

ـ من أي وجهة نظر كانت.

قلت ببعض الحدّة:

ـ أعتقد جازماً أن شأن أي شيء يفسّر ظروف ذلك الاعتقال الذي جرى في منتصف الليل...

قاطعني قائلاً بلهجة احتقار:

ـ والذي نقله أحد الصحفيين حتى تتسلى به أوربا المتحضرة.

Twitter: @ketab_n

ـ أجل نقله... ولكن أليس هو بالخبر الصحيح؟ لا أستطيع أن أفهم موقفك من هذه المسألة. إما أنّ الرجل بطل في نظرك، أو...

قرّب وجهه من وجهي بمنخرين منتفخين بشدة وذلك على نحو مفاجئ جداً بحيث وجدت صعوبة كبيرة في مواجهة تحديقته بأخرى.

ـ أنت تسألني! أعتقد أن ذلك كله يسليك. انتبه إليّ! أنا كادح. لقد درست. أجل درست بكلّ جد. يوجد هنا ذكاء. (نقر على جبهته بأنامله). ألا تعتقد أنه يمكن أن يكون لشخص روسي طموحات معقولة؟ أجل... كانت لديّ إمكانيات كبيرة للنجاح حتى. وبكل تأكيد! كان لدي مثل ذلك. والآن تراني هنا، خارج الوطن، وقد ذهب كل شيء أدراج الرياح، ضحيت به. أنت تراني هنا... وتسأل. أنت تراني، أليس كذلك؟... جالساً أمامك.

رمى بنفسه بعنف إلى الخلف. بقيت هادئاً من حيث المظهر الخارجي.

ـ أجل. أرى أنك هنا؛ وأفترض أنك هنا بسبب قضية فيكتور هالدين، أليس كذلك؟

تغيّر سلوكه، ثم قال بلهجة لا مبالية:

ـ أنت تسميها قضية هالدين... أليس كذلك؟

قلت:

ـ لا حقّ لي في أن أسألك أي شيء. لا أدّعي ذلك. والحال هذه فإن أم وأخت ذلك الشخص الذي هو بطل في نظرك دون شك لا يمكنهما أن تكونا لا مباليتين بك. الفتاة مخلوق صريح وكريم، وتتمتع بأكثر... حسناً... الأوهام نبلاً. لن تقول لها شيئاً... أو ستقول لها كل شيء. ولكنني أودّ أن أكلّمك عن غرضي منك: أولاً، علينا أن نتعامل مع حالة الأم المرضية. ربما نستطيع اختراع شيء ما بتفويض منك كعلاج لروح ذاهلة معانية مترعة بالعاطفة الأموية.

Twitter: @ketab_n

كانت سيماء اللامبالاة والإنهاك قد اشتدّت حدتها الآن، وهذا ما لم أستطع مغالبة التفكير فيه، وبعناد.

غمغم بلا اكتراث:

ـ أجل. شيء ما يمكنه أن يؤدّي ذلك.

وضع يده فوق فمه ليخفي تثاؤبه. وحين أنزل يده عن فمه كانت شفتاه تبتسمان ابتسامة واهنة.

ـ اعذرني. كان هذا حديثاً طويلاً وأنا لم أنم ما فيه الكفاية في هاتين الليلتين الأخيرتين.

هذا النوع المفاجئ والوقح إلى حد ما بين أنواع الاعتذار كان يتميّز بكونه صادقاً تماماً. لم يكن قد عرف الراحة الليلية منذ ذلك اليوم الذي ظهرت فيه أمامه أخت فيكتور هالدين في الأرض المحيطة بقصر بوريل. كانت التعقيدات والأهوال المعقّدة - إن كان يحق لي قول ذلك - لذلك السهاد قد دوّنت في الوثيقة التي كنت سأراها لاحقاً... الوثيقة التي هي المصدر الرئيسي لحكايتنا هذه. في هذه اللحظة كان ينظر إليّ بتعب مقنع، فقد كان الإنهاك بادياً عليه، كرجل مرّ بأزمة من نوع خاص.

أضاف:

ـ كان عليّ إنجاز الكثير من الكتابة الملحّة.

نهضت من كرسيّ فوراً، وقد فعل ما فعلت، دون سرعة، بل بتثاقل.

قلت:

ـ عليّ أن أعتذر لإعاقتك كل هذه الفترة الطويلة.

ـ لم الاعتذار؟ لا يمكن للمرء أن يأوي إلى فراشه قبل حلول الليل. وأنت لم تعقني. كان يمكنني أن أغادرك متى شئت.

لم أكن قد بقيت معه لتوجّه إليّ الإهانات.

Twitter: @ketab_n

قلت بهدوء:

ـ يسعدني أنك كنت مهتماً إلى حد كاف. لم يكن في ذلك أي فضل لي على أية حال... فأبسط أنواع الاحترام لأم صديقك كان يكفي... أما بالنسبة إلى الآنسة هالدين نفسها، فقد كنت تميل في وقت من الأوقات إلى الظنّ بأن أخاها قد تمت الوشاية به إلى الشرطة بطريقة ما.

ولدهشتي البالغة جلس السيد رازوموف مرة أخرى وفجأة. حدّقت إليه، وعلي أن أقول إنه بادلني التحديق دون أن يرمش له جفن لفترة طويلة جداً.

همهمت وكأنه لم يفهم أو لم يصدق أذنيه:

ـ بطريقة ما. حادثة غير متوقعة، مجرد حادثة طارئة كان يمكنها أن تسبب في ذلك. أو كما قالت لي إنها ربما حماقة أو ضعف رفيق تعيس من رفاقه الثوريين.

كرّر بمرارة:

ـ حماقة أو ضعف.

قلت بعد فترة:

ـ إنها مخلوقة كريمة جداً.

ثبّت الرجل، الذي كان فيكتور هالدين شديد الإعجاب به، عينيه على الأرض. التفتُّ بعيداً وابتعدتُ، دون أن يلحظني كما يبدو. لم أحمل أية ضغينة عليه بسبب الفظاظة المزاجية التي عاملني بها؛ كان ما أشعر به بعد ذلك الحوار هو الشعور باليأس. وقبل أن أبتعد عن مجموعة الكراسي والمناضد كان قد لحق بي.

سمعته يتكلم عند مرفقي مرة أخرى:

ـ هم... هم، حسناً! ولكن ما رأيك أنت؟

لم ألتفت إليه حتى.

Twitter: @ketab_n

ـ أعتقد أنكم أيها الناس واقعون تحت لعنة ما.

لم يصدر أي صوت. ولم يتكلم ثانية حتى صرنا على الرصيف خارج البوابة.

ـ أود أن أسير معك قليلاً.

على أية حال، لقد كنت أفضل هذا الشاب الغامض على مواطنه الشهير، بيتر إيفانوفيتش العظيم. ولكني لم أر أي سبب يدعوني إلى أكون لطيفاً على نحو خاص.

قلت كجواب على اقتراحه غير المتوقع:

ـ أنا ذاهب إلى محطة القطارات الآن، وذلك عن أقصر طريق، لأقابل صديقاً قادماً من انكلترا.

كنت آمل أن أخرج ببعض المعلومات خلال الطريق. ولكنه قال بكآبة ونحن واقفان عند الحاجز الحجري ننتظر مرور الحافلة:

ـ أحب ما قلتَه للتو.

ـ حقاً؟

نزلنا معاً عن الرصيف.

قال:

ـ المشكلة الكبرى هو أن تفهم تماماً طبيعة اللعنة.

ـ ليس هذا بالصعب جداً على ما أظن.

أيّدني قائلاً:

ـ وأنا أعتقد هذا أيضاً.

ولكن موافقته الفورية لم تجعله أقل إبهاماً على الإطلاق، وهذا غريب تماماً.

Twitter: @ketab_n

اختبرته مرة أخرى:

ـ اللعنة نوع من السحر الشرير. والمشكلة الهامة والكبرى هو أن تجد الوسيلة لإزالتها.

ـ أجل، أن تجد الوسيلة.

كان ذلك تأييد آخر، ولكن بدا عليه أنه يفكر في شيء آخر. كنا قد قطعنا المساحة الفارغة أمام المسرح على نحو مائل، وبدأنا ننزل في شارع عريض قليل المارّة يذهب باتجاه أحد الجسور الصغيرة. ظلّ إلى جانبي دون أن يتكلم وذلك لفترة طويلة.

سألته:

ـ أنت لا تفكّر في مغادرة جنيف قريباً؟

ظل صامتاً لفترة طويلة جداً بدأت أظن معها أني تصرفت بطيش وأني لن أحصل على أي جواب منه. ولكني حين نظرت إليه اعتقدت تقريباً أن سؤالي قد سبب له شيئاً أشبه بالألم الإيجابي. كان الأمر الأساسي الذي جعلني ألاحظ ذلك هو أنه كان يشبّك يديه بعضهما ببعض، وكان يفعل ذلك بقوة وخلسة. ولكنه ما أن استطاع على أية حال أن يتغلّب على ذلك النوع من التردّد المعذّب إلى حد كاف حتى يقول لي إنه لم تكن لديه مثل تلك النية، حتى أصبح أقل تحفظاً... على الأقل نسبياً بالمقارنة مع الاقتضاب الفظ السابق لحديثه. وقد أصبحت لهجته أيضاً أكثر ودّية. وقد أفادني أنه ينوي الدراسة والتأليف أيضاً. بل أنه أخبرني حتى أنه كان في شتوتغارت. وكانت شتوتغارت حسب معرفتي واحداً من المراكز الثورية. وكانت اللجنة الإدارية لأحد الأحزاب الثورية (لا أتذكر أيها الآن) تتخذ مقراً لها في تلك المدينة. وهناك كان على اتصال بالعمل الناشط للثوريين خارج روسيا.

راح يشرح لي الآن بصوت تعوزه الحيوية:

ـ لم أغادر روسيا قبل الآن.

Twitter: @ketab_n

ثم قال بعد تردّد قليل، يختلف تماماً عن التردّد المعذب الذي أثاره سؤالي الأول البسيط «إن كان ينوي البقاء في جنيف» وبنوع من الثقة المفاجئة:

ـ في الواقع أني كلفت بمهمة ما من قبلهم.

ـ ومن شأنها أن تبقيك في جنيف.

كنت راضياً عن قدرتي على الاستنتاج من الوقائع حين استنبطت أن للمهمة ما يتعلق بشخص بيتر إيفانوفيتش العظيم. ولكني أبقيت هذا الحدس لنفسي بالطبع، ولم يقل السيد رازوموف شيئاً آخر لفترة طويلة من الزمن. ولكن حين أصبحنا على الجسر الذي كنا متجهين إليه فتح شفتيه مرة أخرى، فجأة.

ـ هل يمكنني أن أرى تلك المقالة الغالية في أي مكان؟

كان عليّ أن أفكر للحظة قبل أن أفهم ما كان بعينيه.

ـ لقد أعيد نشرها جزئياً من قبل الصحافة المحلية هنا. وهناك ملفّات عنها في أماكن مختلفة. لقد تركت نسختي من الصحيفة الإنكليزية لدى الآنسة هالدين، على ما أذكر بعد يوم من وصولي. وقد أثير قلقي تماماً لدى رؤيتي إياها على منضدة إلى القرب من كرسي الأم المسكينة لمدة أسابيع بحالها. ثم اختفت. كان في ذلك راحة كبيرة لي كما أؤكد لك.

كان قد توقف عن السير.

استأنفت قائلاً:

ـ أثق أنك ستجد الوقت الكافي لزيارة هاتين السيدتين مرات عدة... أنك ستجد الوقت.

حدّق إليّ بغرابة شديدة بحيث لا أكاد أعرف كيف أصف وجهه آنذاك. لم أستطع أن أفهم ذلك فيما يتعلق بهذا الخصوص إطلاقاً. ما الذي كان يوجعه؟ هكذا سألت نفسي. ما الفكرة الغريبة التي دخلت إلى رأسه؟

Twitter: @ketab_n

أية رؤيا للفظائع كلها التي رآها في بلده وعادت فجأة لتسكن في عقله؟ إن كانت شيئاً له علاقة بمصير فيكتور هالدين، كنت سآمل جدياً أنه سيبقيها لنفسه إلى الأبد. كنت مصاباً بصدمة كبيرة، إذا ما تحدثنا بصراحة، بحيث أني حاولت إخفاء انطباعي بابتسامة - ولتغفر لي السماء- وبالتصرف بخفة.

صحت:

ـ بالتأكيد، لن يكلفك ذلك الكثير.

التفت مبتعداً عني واستند إلى حاجز الجسر. انتظرت لبرهة وأنا أنظر إلى ظهره، ومع ذلك، فإني أؤكد لكم أني لم أكن تواقاً للنظر إلى وجهه مرة أخرى في تلك اللحظة. لم يتحرك إطلاقاً، لم يكن ينوي أن يتحرك. تابعت سيري ببطء في طريقي نحو المحطة، وفي نهاية الجسر أدرت رأسي. لا، لم يكن قد تحرك. كان معلقاً فوق الحاجز، كأنه مفتون بالاندفاع الناعم للماء الأزرق تحت القوس. كان التيار هناك سريعاً، سريعاً جداً؛ إنه يجعل بعض الناس يشعرون بالدوخة. أنا نفسي لا أستطيع أن أنظر أبداً إليه لأية فترة من الزمن دون أن أشعر بالخوف من أن أُختَطَف فجأة من قبل قوته المدمرة. لا تستطيع بعض العقول مقاومة إيحاء القوة الطاغية الداعية إلى أن يرمي المرء بنفسه إلى الماء والرأس في المقدمة.

من الواضح أنه كان لذلك كله تأثير فاتن على السيد رازوموف. وقد تركته معلقاً فوق حاجز الجسر. لا يمكن تفسير تصرفه معي على أنه محض تصرف جلف. كان هناك شيء آخر كامن تحت ازدرائه ونفاذ صبره. وربما كان ذلك هو الشيء نفسه. وهنا اقتربت من الحقيقة المكتومة دون أن أدري: ذاك الذي جعله لا يقترب من الآنسة مدة أسبوع بل عشرة أيام تقريباً. ولكن ما كان ذلك؟ لم أستطع أن أعرف.

* * *

Twitter: @ketab_n

الجزء الثالث

أولاً:

كان الماء يسري تحت الجسر عنيفاً وعميقاً وكانت اندفاعاته المتموجة تبدو قادرة على فتح قناة عبر الغرانيت الصلب وأنت تراقبه. ولكنه لو سار عبر قلب رازوموف لما استطاع أن يغسل المرارة المتراكمة التي خلّفها تدمير حياته هناك.

فكّر وهو يحدق إلى الأسفل نحو التدفق شديد التحدّر، شديد الملاسة والنظافة الذي كان لا يكشف عن سرعته التي تسبب الدوار وقوته الهائلة إلاّ مرور فقاعة هواء ضعيفة أو سلسلة متلاشية من الزبد:

ـ ما معنى هذا كله؟ لماذا قام هذا الإنكليزي الفضولي العجوز بإحلال خرفه عليّ وما هذه الحكاية التافهة عن امرأة عجوز مجنونة؟

كان يحاول أن يفكّر على نحو موجع عن قصد، ولكنه تجنّب أي إلماح ذهني إلى الفتاة. راح يكرر لنفسه: «امرأة عجوز مجنونة. هذا قاتل! أو هل علي أن أزدري هذا كله على أساس أنه تافه؟ ولكن لا! أنا على خطأ! لا أستطيع ازدراء كل شيء. قد تكون التفاهة هي نقطة البداية لأكثر التعقيدات خطورة. كيف يمكن للمرء أن يحمي نفسه ضدها؟ إنها لتجتثّ ذكاء المرء. وكلما كان المرء ذكياً كلما كان أقل اشتباهاً بالتفاهة.»

خنقت موجة من الغضب أفكاره للحظة. بل جعلت جسده المنحني فوق الحاجز يرتجف، ثم استأنف تفكيره الصامت كحوار سرّي مع نفسه. وحتى في وحدته تلك كان لفكره بعض التحفظات التي كان واعياً لها على نحو غامض.

Twitter: @ketab_n

«على أية حال، ليس هذا بالأمر التافه. إنه غير هام. إنه غير هام إطلاقاً... نهائياً. جنون امرأة عجوز... الفضول المنَمق لإنكليزي عجوز خرف. أي شيطان وضعه في طريقي؟ أولم أعامله بعجرفة كافية؟ أولم أفعل للتو؟ هذه هي الطريقة التي يتوجب أن نعامل بها هؤلاء الأشخاص الفضوليين. أمن المحتمل أنه لا يزال واقفاً خلف ظهري ينتظر؟»

أحس رازوموف بقشعريرة ضعيفة في عموده الفقري. لم يكن ذلك هو الخوف. كان واثقاً أنه لم يكن خوفاً... ليس الخوف على نفسه... ولكنه كان نوعاً من الخشية، على أية حال، كأنما على شخص آخر، شخص آخر كان يعرفه دون أن يكون قادراً على وضع اسم للشخص. ولكنه تذكر أن الإنكليزي الفضولي العجوز كان عليه أن يستقبل شخصاً في محطة القطارات مما هدأ من روعه لفترة. كان من الغباء أن يفترض أنه سيضيع وقته في الانتظار. لم يكن ضرورياً الالتفات والتأكّد.

ولكن ما الذي كان يعنيه ذلك الرجل بهرائه العجيب حول الجريدة وتلك المرأة العجوز المجنونة؟ هذا ما فكر فيه فجأة. كانت تلك وقاحة لعينة، على أية حال، شيئاً لا يمكن سوى لإنكليزي أن يكون قادراً على فعله. كان ذلك كله نوعاً من اللعب الرياضي بالنسبة إليه - رياضة الثورة - مباراة يتفرج عليها من علياء تفوّقه. وما الذي كان يعنيه بحق السماء حين صاح: «ألن تكفي الحقيقة إذن؟»

ضغط رازوموف ذراعيه المطويتين على أحجار الافريز الذي كان يستند إلي بقوة. «ألن تكفي الحقيقة إذن؟ الحقيقة للأم العجوز المجنونة للـ....»

ارتعد الشاب مرة أخرى. أجل. الحقيقة تكفي. من الواضح أنها تكفي. بالضبط. ثم يتلقى الشكر، هكذا فكّر، وهو يصيغ الكلمات غير

Twitter: @ketab_n

المنطوقة بتهكّم: «أن تعانقني من الامتنان لا شك.» هكذا راح يسخر ذهنياً. ولكن هذه الحالة الذهنية سرعان ما تخلت عنه. أحس بالحزن، كأنه قلبه أصبح فارغاً فجأة. استنتج وهو يعود إلى نفسه كأن دماغه قد استيقظ من نوبة إغماء: «حسناً، يجب أن أكون حذراً، لا شيء ولا أحد قليل الأهمية أو تافه إلى حدّ يتوجب معه تجاهله. يجب أن أكون حذراً».

دفع رازوموف بنفسه بعيداً بيده عن الدرابزون وعاد يسير على أثر خطواته على امتداد الجسر، وسار مباشرة إلى مسكنه، حيث كان يعيش حياة الوحدة والعزلة في الأيام القليلة الماضية. لقد أهمل بيتر إيفانوفيتش الذي أوفدته إليه مجموعة شتوتغارت برسالة، ولم يكن قد اقترب أبداً من الثوار اللاجئين الذي جرى تقديمه إليهم لدى وصوله. لقد ابتعد عن ذلك العالم نهائياً. وكان يشعر أن مثل هذا السلوك، الذي كان يثير الدهشة والشك، قد يحمل له الخطر أيضاً.

لا يعني ذلك أنه لم يخرج أبداً من مسكنه خلال الأيام القليلة الماضية. لقد قابلته مرات عدة في الشوارع، ولكنه لم يظهر أية أمارة تدل على أنه يعرفني. وفي إحدى المرات، وبينما كنت ذاهباً إلى البيت بعد زيارة مسائية للسيدتين من آل هالدين، رأيته يعبر الطريق المظلم في «شارع الفلاسفة». كان يرتدي قبعة طريقة عريضة الحواف، وقبة معطفه مرفوعة إلى فوق. راقبته وهو يسير مباشرة إلى المنزل، ولكن عوضاً عن الدخول، توقف مقابل النوافذ الساكنة المضاءة، وبعد فترة ابتعد وسلك شارعاً جانبياً.

عرفت أنه لم يكن قد اجتمع بالسيدة هالدين بعد. حكت لي الآنسة هالدين أنه كان متردداً. وعلاوة على ذلك كانت الحالة الذهنية للسيدة هالدين قد تغيرت. كان يبدو أنها تظن الآن أن ابنها حيّ لا يزال، وربما كانت تنتظر وصوله. كان جمودها في تلك الكنبة الكبيرة أمام النافذة يوحي بجوّ من الترقّب، حتى والستائر مسدلة والأنوار مضاءة.

Twitter: @ketab_n

من جهتي، كنت على قناعة بأنها قد تلقت الضربة التي ستؤدّي إلى موتها، وكانت الآنسة هالدين التي لم أذكر لها أي شيء عن هواجسي، تظن أنه لا فائدة من تقديم السيد رازوموف في ذلك الحين بالضبط، وهو رأي أيدتُها فيه كل التأييد. كنت على معرفة بأنها قابلت الشاب عند «القلعة»، لقد رأيتهما مرة أو مرتين وهما يتمشيان ببطء على امتداد الشارع الرئيسي. لقد راحا يتقابلان يومياً لأسابيع بحالها. وقد رحت أتجنب المرور من ذلك الطريق حين كانت الآنسة هالدين تمارس رياضة المشي هناك، ولكن حدث في أحد الأيام، وفي نوبة من الشرود الذهني، أن دخلت من البوابة فصادفتها تسير منفردة. توقفت لأتبادل معها كلمات قليلة. لم يصل السيد رازوموف في ذلك اليوم، وبدأنا نتحدث عنه... بالطبع.

غامرت فسألتها:

ـ هل ذكر لك شيئاً محدداً عن نشاطات أخيك... نهايته؟

اعترفت الآنسة هالدين ببعض التردد:

ـ لا، لا شيء بالتحديد.

فهمت جيداً أن محادثاتهما كانت تشير ذهنياً لا شك إلى ذلك الرجل المتوفى الذي جمعهما معاً. كان ذلك أمراً لا يمكن تلافيه. ولكنها كانت مهتمّة بالرجل الحيّ. وكان ذلك أيضاً أمراً لا يمكن تلافيه، كما أعتقد. وحين حاولت أن أستفسر عن المزيد اكتشفت أنه قد أسرّ لها بأنه ليس الثوري التقليدي إطلاقاً، فهو يحتقر الشعارات والنظريات أيضاً. وقد سررتُ بذلك وإن شعرتُ بالحيرة.

شرحت لي الآنسة هالدين:

ـ إن ذهنه ليذهب بعيداً جداً، إلى ما وراء الكفاح.

Twitter: @ketab_n

ثم أضافت:

ـ إنه بالطبع شخص يمارس العمل المباشر.

سألتها بصراحة:

ـ وهل تفهمينه؟

فرددت مرة أخرى، ثم همهمت:

ـ ليس تماماً.

أدركت أنه قد فتنها باتخاذه وضع التحفظ الغامض.

استأنفت وهي تتخلى عن موقفها المتحفظ المتردّد تقريباً:

ـ هل تعرف ما أفكر به؟ أعتقد أنه يراقبني ويدرسني ليكتشف إن كنت أهلاً لثقته...

ـ وهل يسرّك هذا؟

بقيت صامتة على نحو غامض لبرهة. ثم قالت بحيوية وبلهجة واثقة:

ـ أنا على قناعة من أن هذا الرجل غير العادي يفكّر في خطة هائلة، بمشروع عظيم، وهذا الأمر يتملّكه... إنه يعاني منه... ومن كونه وحيداً في هذا العالم.

علّقت وأنا ألتفت برأسي:

ـ ولذا فإنه يبحث عن مساعدين.

ومن جديد ساد الصمت.

قالت أخيراً:

ـ ولم لا؟

لقد أصبح الأخ المتوفى والأم المحتضرة والصديق الأجنبي في خلفية بعيدة. ولكن في الوقت نفسه لم يعد بيتر إيفانوفيتش في أي مكان الآن على الإطلاق. وقد واستني هذه الفكرة. ومع ذلك رأيت

Twitter: @ketab_n

الظل الهائل لحياة روسية تتعمّق من حولها كظلام ليلٍ وشيك. سيلتهمها عما قريب. سألت عن السيدة هالدين... تلك الضحية الأخرى من ضحايا الظلّ القاتل.

ظهر قلق مترع بالندم في عينيها الصريحتين. لم تكن الأم أسوأ حالاً، ولكن لو أنّ لي أن أعرف الأوهام الغريبة التي تنتابها أحياناً! ثم صرحت الآنسة هالدين وهي تنظر إلى ساعتها، أنها لم تعد تستطيع البقاء أكثر من ذلك، وبمصافحة سريعة بالأيدي ابتعدت بخفة وسرعة.

لا شك أن السيد رازوموف لن يظهر اليوم. يا للشباب غير الممكن فهمه.

ولكن بعد أقل من ساعة، وبينما كنت أعبر «ساحة مولار»، شاهدته يصعد إلى حافلة «الشاطئ الجنوبي».

فكرت: «إنه ذاهب إلى «قصر بوريل»».

بعد أن نزل رازوموف عند بوابات «قصر بوريل» الذي يبعد حوالي نصف الميل عن المدينة، استأنفت الحافلة طريقها بين خطين مستقيمين من الأشجار الظليلة. عبر الطريق تحت ضوء الشمس كان رصيف خشبي قصير يبرز من الماء الضحل الشاحب، الذي كان له لون أزرق كثيف إلى مكان أبعد قليلاً. وكان هذا يتباين على نحو مزعج مع الانحدارات الخضراء المنتظمة على الشاطئ المقابل. كان للمنظر الشامل، مع حواجز الميناء المبنية من الحجارة البيضاء التي تبرز على نحو شاحب المقدمة المعتمة للمدينة إلى اليسار، والمساحة الممتدة من الماء إلى اليمين مع النتوءات البارزة التي ليس لها شخصية محددة، كان لهذا المنظر صفة غير ملهمة، وإن كانت لامعة، للوحة زيتية مقلَّدة وجديدة جداً. التفت رازوموف إليه بازدراء. كان قبيحاً في رأيه - قبيحاً على نحو قمعي - في زخارفه غير الملهمة: كمال الذوق

Twitter: @ketab_n

العادي عينه والمنجز أخيراً بعد قرون من الجهد والحضارة. ولدى التفاته بظهره مبتعداً عنه، واجهه المدخل المؤدي إلى الأرض المحيطة بـ «قصر بوريل».

كانت قضبان الطريق المركزي والقوس المشبك بالحديد بين الجسور الحجرية، التي ترك الطقس آثاره عليها، صدئة جداً. ورغم آثار العجلات الجديدة التي سارت من تحتها، إلا أن البوابة كانت تبدو وكأنها فتحت منذ وقت بعيد جداً. ولكن إلى القرب من كوخ البواب المبني من الحجر الرمادي نفسه الذي بنيت منه الجسور (كانت نوافذ الكوخ مسدودة كلها بعوارض خشبية)، كان هناك باب جانبي صغير. كانت قضبان ذلك الباب صدئة أيضاً، وكان مفتوحاً ويبدو أنه لم يغلق منذ زمن بعيد. وفي الواقع، فإن رازوموف، الذي كان يحاول أن يدفع الباب لينفتح أكثر قد اكتشف أنه غير قابل للتحرك.

همهم لنفسه ممتعضاً: «فضيلة ديمقراطية. ليس هناك أي لصوص هنا على ما يبدو.» وقبل أن يتقدم ليدخل الأرض المحيطة بالقصر، نظر بتجهّم إلى الخلف نحو عامل خمول كان متمدداً على مقعد في الشارع النظيف العريض. كان ذلك الرجل قد رفع قدميه عالياً بينما علق إحدى ذراعيه فوق الظهر الواطئ للمقعد العمومي. كان يقضي إجازته في استرخاء ارستقراطي، وكأن كل شيء تحت مرمى نظره كان ملكاً له.

همهم رازوموف لنفسه:

ـ منتخب! جدير بالانتخاب! متنوّر! شخص فظ على أية حال!

دخل رازوموف المكان وسار بسرعة قاطعاً الامتداد العريض للطريق، محاولاً ألا يفكر في أي شيء... أن يريح رأسه وانفعالاته أيضاً. ولكنه ما أن وصل إلى سفح الشرفة أمام المنزل حتى تعثر، فقد تأثر بدنياً بتدخل غير مرئي. لقد أذهله الغموض المرافق لتسارع

Twitter: @ketab_n

نبضات قلبه. توقف ونظر إلى الجدار الآجري للشرفة، الذي تواجهه أقواس مسطحة، والمكسوّ على نحو هزيل بنباتات متسلقة غير مزدهرة، مع حوض زهور ضيّق غير معتنى به على امتداد سفحها.

فكّر قائلاً لنفسه بنوع من الرهبة: «لقد جرى ذلك هنا،... في هذه البقعة بالذات...»

أحس بإغواء الهروب لدى تذكره أول لقاء له مع ناتالي هالدين. وقد اعترف بذلك لنفسه؛ إلاّ أنه لم يتحرك، ولم يكن ذلك بسبب رغبته في أن يقاوم ضعفاً تافهاً، ولكن لأنه كان يعرف أنه لا مكان لديه يهرب إليه. وعلاوة على ذلك، ما كان قادراً على مغادرة جنيف. وقد أدرك، حتى دون كثير من التفكير أن ذلك كان مستحيلاً. كان من شأن الهروب أن يعني اعترافاً مميتاً. انتحاراً أخلاقياً. كما كان ذلك خطيراً من الناحية الجسدية. صعد ببطء درج الشرفة المحاط من جانبيه بجرتين حجريتين خضراوين مبقّعتين لهما مظهر جنائزي.

عبر المصطبة العريضة، حيث نمت بضع أوراق من العشب على الحصى فاقد اللون، واجهه باب المنزل ذو النوافذ الأرضية المغلقة، وكان مفتوحاً. كان واثقاً من أنهم أحسوا بدخوله، لأنّ بيتر إيفانوفيتش الذي كان المدخل يؤطره، ولم يكن يرتدي قبعته العالية، بدا وكأنه ينتظر قدومه.

كان المعطف الاحتفالي الأسود من نوع «الفراك» والرأس العاري لأعظم مناصري المرأة الأوربيين يؤكدان على وضعه الذي يدعو إلى الريبة في المنزل المستأجر من قبل «المدام دو سـ...»، أو «ايغيريا». كان مظهره يجمع ما بين رسمية الزائر وحرية المالك. هاهو يستقبل الزائر مزخرفاً وملتحياً ومقنّعاً بنظاراتيه الزرقاوين المعتمتين، ويأخذه على الفور من تحت ذراعه بأسلوب رفع الكلفة.

Twitter: @ketab_n

كبح رازوموف كل أمارة من أمارات الاشمئزاز بجهد جعلته الضرورة الآنية للحصافة آلياً تقريباً. وهذه الضرورة قد جعلت تعبيره يستقرّ على هيئة تحفّظ صارم بل ومتعصّب حتى. وهاهو «اللاجئ البطل»، الذي أثّر فيه من جديد التحفّظ الشديد لهذا الواصل الجديد من روسيا الثورية، يتخذ لهجة توفيقية بل ومترعة بالثقة حتى. كانت «المدام دو سـ...» تستريح بعد ليلة سيئة. غالباً ما كانت لياليها سيئة. كان قد ترك قبعته في الطابق العلوي على منبسط الدرج وقد نزل ليقترح على صديقه الشاب أن يتمشيا ويتحادثا بصراحة في إحدى الطرق الظليلة خلف القصر. وبعد أن تلفّظ بهذا الاقتراح، نظر الرجل العظيم إلى الوجه الجامد الذي إلى جانبه ولم يستطع أن يمنع نفسه من أن يصيح قائلاً:

- أقسم أيها الشاب أنك شخص استثنائي.

- أعتقد أنك على خطأ يا بيتر إيفانوفيتش. لو كنت شخصاً استثنائياً بالفعل، لما كنت أسير معك هنا في حديقة في سويسرا، كانتون جنيف، كومونة ماذا.... ما اسم الكومونة الذي ينتمي إليها هذا المكان؟ لا يهم... قل الديموقراطية على أية حال. القلب المناسب؛ ليس أكثر من حبة بازلاّء جافة ولها ذات القيمة أيضاً. لستُ أكثر استثنائية من بقية الروس المتجولين خارج الوطن.

ولكن بيتر إيفانوفيتش عارضه مشدّداً:

- لا، لا! أنت لست بالشخص العادي. لديّ بعض الخبرة بالروس الذين... حسناً... يعيشون في الخارج. وأنت تبدو لي، وللآخرين أيضاً، كشخصية متميزة.

سأل رازوموف نفسه وهو يلتفت ليواجه رفيقه بعينيه: «ما الذي يعنيه بهذا؟» كان وجه بيتر إيفانوفيتش يعبّر عن الحديّة المتأمّلة.

Twitter: @ketab_n

ـ أنت لا تفترض يا كيريلو سيدوروفيتش أني لم أسمع عنك من مصادر عدة توقفتَ عندها في طريقك إلى هنا؟ لقد استلمتُ رسائل.

صاح رازوموف الذي كان يصغي باهتمام عظيم:

ـ أوه، نحن عظيمون حين يتحدث واحدنا عن الآخر. الإشاعات والحكايات والشكوك، وكل تلك الأمور، ونعرف كيف نصل بذلك كله إلى درجة الكمال والافتراءات حتى.

استطاع رازوموف من خلال شنّه لهذه الهجمة أن يخفي جيداً شعور القلق الذي اعتراه. وفي الوقت نفسه كان يقول في سرّه إنه لا يمكن أن يوجد سبب ممكن للقلق. وقد أحس بالراحة لأن الصوت الاحتجاجي لرفيقه كان واضح الصدق.

صاح بيتر إيفانوفيتش

ـ يا للسماء! ما الذي تتحدث عنه؟ ما هي الأسباب التي لديك...؟

طوّح اللاجئ العظيم بذراعيه كأن الكلمات ما عادت تطيعه. أحسّ رازوموف بالرضا. ومع ذلك فقد استمر في التكلّم بالمنحى نفسه.

ـ أعني النباتات السامة التي تزهر في عالم المتآمرين، كما تنبت الفطور الشريرة في قبو مظلم.

عاتبه بيتر إيفانوفيتش قائلاً:

ـ أنت ترمي التهم، وهي فيما يتعلق بك أنت...

قاطعه رازوموف دون حرارة:

ـ لا! أنا لا أريد بالفعل أن أرمي التهم، ولكن ذلك يشابه أيضاً أن لا تكون لديّ أية أوهام.

Twitter: @ketab_n

نظر إليه بيتر إيفانوفيتش نظرة ملغزة بنظاراتيه الداكنتين، وأرفقها بابتسامة واهية.

قال بلهجة ودية جداً:

ـ الرجل الذي يقول إنه ليس لديه أوهام يعاني من هذا الوهم بالذات على الأقلّ. ولكني أرى ما تريد يا كيريلو سيدوروفيتش. أنت ترمي إلى الرواقيّة.

ـ الرواقية؟ هذه «وضعة» (بوز) اتخذه الإغريقيون والرومان. لنتركها لهم. نحن روس، أي... أطفال، أي صادقون؛ أي: ساخرون إذا أحببت. ولكنها ليست «بوزاً».

ساد صمت طويل. سارا ببطء تحت أشجار الزيزفون. كان بيتر ايفانوفيتش قد وضع يديه خلف ظهره. أحسّ رازوموف برطوبة الأرض غير المبلّطة بالحصى، أرض الممشى ذات الظلال العميقة، وأحس كأنها زلقة تحت قدميه. سأل نفسه بقلق إن كان يقول ما هو صحيح. كان من المفروض أن يكون منحى الحوار تحت سيطرته. هذا ما فكّر به. ظهر الرجل العظيم وكأنه يتأمل من ناحيتّه هو أيضاً. تنحنح قليلاً وأحس رازوموف فوراً بعودة مؤلمة للازدراء والخوف.

قال بيتر إيفانوفيتش بلطف:

ـ أنا مندهش. إذا افترضنا أنك محقّ في اتهاماتك فكيف يمكنك أن تطرح أية أسئلة تتعلق بالافتراءات والإشاعات في مثل حالتك؟ هذا غير معقول. والحقيقة هي يا كيريلو سيدوروفيتش أن لا أحد يعرف عنك ما يكفي لنشر الإشاعات أو حتى الافتراءات. الآن أنت مجرد رجل له علاقة بفعل عظيم، فعل كان متأمَّلاً صنعه، فعل تمّت محاولته بنجاح. لقد مات أناس لمجرد محاولة فعل ما أنجزتَه أخيراً أنت وهالدين. أنت قادم إلينا من روسيا بذلك الامتيازات. ولكنك لا

Twitter: @ketab_n

تستطيع أن تنكر أنك لم تكن صريحاً يا كيريلو سيدوروفيتش. لقد حكى لي الناس الذين قابلتهم انطباعاتهم عنك، كما كتب أحدهم شيئاً وبعضهم شيئاً آخر، ولكني أشكّل آرائي بنفسي. لقد انتظرت حتى أراك أوّلاً. أنت رجل غير عاديّ. هذا أمر أكيد. أنت مغلق، مغلق جداً. هذا الصمت، هذا الجبين الصارم، هذا الشيء غير المرن والسرّي فيك، يلهم بالآمال وببعض التساؤل فيما تعنيه. هناك شيء ما من شخصية بروتوس...

انفجر رازوموف بعصبية:

ـ أرجو أن توفّر عليّ هذه التلميحات الكلاسيكية! ما علاقة جونيوس بروتوس[1] بهذا الأمر؟ هذا مضحك!

ثم أضاف بتهكّم ولكن بصوت أخفض:

ـ هل تعني أن الثوريين الروس هم جميعاً أشراف وأنا أرستقراطي؟

شبّك بيتر إيفانوفيتش، الذي كان يقوم ببعض الإيماءات، يديه خلف ظهره من جديد، وتقدّم بض خطوات وهو يفكّر.

غمغم أخيراً قائلاً:

ـ ليسوا كلهم أشراف، ولكنّك واحد «منّا» على أية حال.

ـ عليك أن تعرف أن اسمي ليس «غوغنهايمر». لست يهودياً ديموقراطياً. كيف يمكنني أن أحول دون ذلك؟ ليس لكل شخص مثل هذا الحظ. ليس لي اسم. ليس لي...

---

(1) جونيوس بروتوس: يبدو أنه يلمح إلى بروتوس الشهير الذي ساهم في اغتيال يوليوس قيصر، صديقه الحميم. (المترجم)

Twitter: @ketab_n

أظهر صاحب الشهرة على مستوى القارة الأوربية اهتماماً عظيماً. خطا نحو الخلف خطوة واحدة وطارت ذارعاه أمام شخصه، ثم مدّهما مستنكراً بل متوسلاً تقريباً. كان صوته العميق الجهير مترعاً بالألم. صاح:

ــ ولكن يا صديقي الشاب العزيز! يا عزيزي كيريلو سيدوروفيتش.

هزّ رازوموف رأسه.

ـ حتى اسم الأب الذي تتلطّف فتستعمله لدى مخاطبتي ليس لي فيه حق قانوني... ولكن ما يهمّ ذلك؟ لا أريد أن أدّعيه. ليس لي أب. وهذا أفضل بكثير. ولكن سأقول لك ماذا: كان جدّ أمي فلاّحاً ... قنّا. أنت ترى كم أنا واحد «منكم». لا أريد لأي شخص أن يدّعي انتمائي إليه. ولكن «لا يمكن» لروسيا أن تتبرأ مني. لا تستطيع.

ضرب رازوموف صدره بقبضته:

ـ أنا روسيا!

استمرّ بيتر إيفانوفيتش في السير ببطء، وقد أحنى رأسه. لحق به رازوموف وقد انزعج من نفسه. لم يكن ذلك هو ما يتوجّب عليه أن يقوله. الصدق كله عبارة عن طيش. ومع ذلك لا يمكن للمرء أن يتخلّى نهائياً عن الحقيقة، هكذا راح يفكر بيأس. وفجأة أصبح بيتر إيفانوفيتش المتأمل خلف نظارتيه الداكنتين، كريهاً جداً في نظره بحيث لو كان معه سكّين لتصوّر أنه كان سيطعنه ليس دون ندم فحسب بل برضا رهيب ومترع بالنصر أيضاً. ركّزت مخيّلته على هذا العمل الفظيع رغم أنفه. كان الأمر أشبه بإصابته بدوار خفيف. كرّر لنفسه: «ليس هذا ما هو متوقّع مني. ليس الأمر... يمكنني أن أهرب عن طريق تحطيم هذا القفل على ذلك الباب الصغير الذي أراه هناك

Twitter: @ketab_n

في السور الخلفي. إنه قفل رديء النوع. لا يبدو أن في المنزل من يعرف أنه هنا معي. أوه، أجل. تلك القبعة! ستكتشف المرأتان أنه ترك القبعة عند منبسط الدرج. ستجدانه ملقياً هنا وقد فارق الحياة في هذا الظلّ الرطب الكئيب... ولكني سأكون قد رحلت ولن يستطيع أحد... أيها الرب! هل أصبت بالجنون؟» هذا هو السؤال الذي طرحه على نفسه في هلع.

سمع صوت الرجل العظيم... وهو يفكّر في صوت خفيض:

ـ هم... م... أجل! هذا ـ دون شك ـ بمعنى ما...

ثم رفع صوته قائلاً:

ـ لديك الكثير من الاعتزاز بالنفس...

كانت لهجة بيتر إيفانوفيتش ذات رنّة عطوف غير متكلفّة، تقرّ بأسلوب ما ادعاء رازوموف بنسبه الفلاّحي.

ـ الكثير من الفخر يا أخي كيريلو. ولا أقول إنه لا مبرّر لديك لذلك. لقد أقررت بذلك. لقد تجرأت فألمحت إلى حقائق ولادتك ببساطة لأني لا أنظر إليها دون اهتمام. أنت واحد منا... واحد منا. (كررها بالفرنسية). أفكر في هذا وأشعر بالرضا.

قال رازوموف بهدوء:

ـ وأنا أنظر بأهمية إلى ذلك أيضاً. ولن أنكر حتى أنه قد تكون له أهمية ما بالنسبة إليك أنت أيضاً.

هذا ما قاله بعد توقف قليل وبلمسة من الكآبة كان واعياً لها، وببعض الانزعاج. كان يأمل في أن يكون ذلك قد فات على بيتر إيفانوفيتش.

ـ ولكن ماذا لو توقفنا على الخوض في ذلك؟

Twitter: @ketab_n

ألحّ كبير قساوسة الثورة النبيل:

ـ حسناً، لن نفعل ذلك، ليس بعد هذه المرة يا كيريلو سيدوروفيتش. ستكون هذه آخر فرصة. لا يمكنك أن تصدق للحظة واحدة أن لديّ أقل نية في إيذاء مشاعرك. أنت دون شك ذو طبيعة متفوّقة... هكذا أفهمك. فوق الحساسيات... إحم... العادية. ولكن الحقيقة هي يا كيريلو سيدوروفيتش، أني لا أعرف حساسياتك. لا أحد خارج روسيا يعرف الكثير عنك... حتى الآن.

اقترح رازوموف:

ـ هل كنت تراقبني؟

ـ أجل.

كان الرجل العظيم يتحدث بلهجة الصراحة الكاملة، ولكن حين أدارا وجهيهما ليتقابلا أحس رازوموف بالارتباك بسبب النظارتين الداكنتين. تحت غطائهما كان بيتر إيفانوفيتش يلمح إلى أنه قد شعر لبعض الوقت بالحاجة إلى لقاء رجل ذي طاقة وشخصية متميزة، وذلك لوجود مشروع معين. لم يقل أي شيء آخر محدد على أية حال، ولكنه بعد أن أبدى بعض الملاحظات النقدية على شخصيات مختلف أعضاء لجنة العمل الثوري في شتوتغارت، ترك الحديث ينقطع فترة طويلة. سارا في الممر من أوله إلى آخره. كان رازوموف الصامت أيضاً يرفع عينيه من حين إلى آخر ليلقي نظرة على مؤخرة المنزل. لم يكن فيه ما يوحي بأنه مسكون. فبجدرانه المكسوّة بالسخام والتي ترك عليها الطقس آثاره، وبنوافذه المغلقة من الأعلى إلى الأسفل. بدا عليه أنه رطب وكئيب ومهجور: كان ممكناً أن يكون مسكوناً بالطريقة التقليدية بشبح كئيب غير ذي جدوى وذي أنين من صنف الطبقة الوسطى. لا بد وأن الأشباح، كما تقول الإشاعات

Twitter: @ketab_n

الدنيوية، التي تستدعيها «المدام دو سـ...» لتقابل رجال دولة ودبلوماسيين ونواب برلمانات أوربية مختلفة، كانت من نوع آخر. لم يكن رازوموف قد رأى «المدام دو سـ...» إلاّ في العربة.

خرج بيتر ايفانوفيتش من شروده.

ـ هناك أمران يمكنني أن أقولهما لك فوراً. أعتقد أوّلاً أنه لا يمكن أن يخرج من حثالة الشعب لا قائد ولا أي فعل حاسم. والآن، إذا سألتني عمّن هم حثالة الشعب... احم... فسوف يستغرقني ذلك وقتاً طويلاً. قد تدهش بسبب تنوع العناصر التي تؤلف هذه الحثالة في نظري... ومنها ما يتوجب أن يبقى حتماً في القاع. وعلاوة على ذلك فإن مثل هذا الرأي قد يكون عرضة للجدال. ولكني أستطيع أن أقول لك عما هو «ليس» الحثالة. وسيكون من المستحيل أن نختلف حول هذا. ليس فلاحو شعب ما هم الحثالة؛ ولا أعلى طبقاته... حسناً... أعني النبلاء. فكّر في هذا يا كيريلو سيدوروفيتش! أعتقد أنك مؤهّل تماماً للتأمل. كل ما هو غير أصيل في شعب ما، كل ما لا يخصه من المنشأ أو بالتطور، عبارة عن... قذارة! الذكاء في المكان الخطأ قذارة. والمبادئ الأجنبية كذلك. قذارة! حثالة! والشيء الثاني الذي أعرضه عليك لتتأمل فيه هو هذا: بالنسبة إلينا في هذه اللحظة تكمن هوة بين الماضي والمستقبل: ولا يمكن لهذه الهوة أن يتم تجسيرها بالليبرالية الأجنبية. كل المحاولات التي ترمي إلى ذلك هي إما حماقة أو غش. لا يمكن تجسيرها أبداً! يجب أن يتم ملؤها.

كان نوع من الهزل العجيب قد تغلغل في لهجة نصير المرأة ضخم البنية. أمسك بذراع رازوموف من فوق المرفق وهزها هزة خفيفة.

ـ هل تفهم أيها الشاب الغامض؟ يجب أن يتم ملؤها.

بقي وجه رازوموف ساكناً.

Twitter: @ketab_n

ـ ألا تعتقد أنه سبق لي وتجاوزت التأمّل في هذا الموضوع؟

هذا ما قاله رازوموف وهو يحرّر ذراعه بحركة هادئة زادت من المسافة قليلاً بينه وبين بيتر إيفانوفيتش، بينما كانا يستمران في السير جنباً إلى جنب. ثم أضاف أنه لا شك أن حمولة عربات بأكملها من الكلمات والنظريات لا يمكنها أن تملأ تلك الهوة. لم يكن التأمل ضرورياً. ولا يمكن سوى التضحية بحياة أشخاص كثيرين أن... ثم صمت دون أن ينهي جملته.

مال بيتر إيفانوفيتش برأسه الكبيرة كثيفة الشعر ببطء. وبعد لحظة اقترح أن يدخلا ليريا إن كانت «المدام دو ســـ...» قد خرجت من غرفتها.

قال وهو يخرج من الممشى المظلّل الكئيب بخطوات أسرع:

ـ سنشرب بعض الشاي.

كانتَ الوصيفة تترقّبهما. وقد مرّت تنورتها السوداء عبر الباب بسرعة عندما أصبح الرجلان مرئيين عند الزاوية. أسرعت إلى مكان ما. وكانت قد اختفت تماماً حين دخلا إلى البهو، وفي النور الضئيل الداخل من المنور الزجاجي المغبّر على الأرضية المغطاة بمربعّات بيضاء وسوداء، والمغطاة بآثار أقدام موحلة، راحت أقدامهما تعطي صدى ضعيفاً. تقدم نصير النساء العظيم وهما يصعدان الدرج عن رازوموف ليدلّه على الطريق. وعند درابزون منبسط درج الطابق الأول كانت قبعة عالية لامعة تستريح هناك، وحافتها نحو الأعلى، مقابل الباب المزدوج لغرفة الاستقبال التي تسكنها، كما يقال، أشباح مستدعاة ويتردد عليها، كما يفترض، ثوريون لاجئون، كان الطلاء الأبيض المتشقق للألواح الزجاجية والحلي المعمارية المطلية بالذهب الذي فقد بريقه، يسمحان للمرء ألاّ يتخيل سوى الغبار والفراغ في

Twitter: @ketab_n

الداخل. وقبل أن يدير مقبض الباب النحاسي الضخم، منح بيتر إيفانوفيتش مرافقه الشاب نظرة حادة، نافذة من ناحية وتمهيدية من ناحية أخرى.

غمغم بتحفظ:

ـ لا أحد يتصّف بالكمال.

بهذه الطريقة قد يقوم مالك جوهرة نادرة بتحذير شخص قليل الخبرة، وذلك قبل أن يفتح العلبة، بأنه لا جوهرة دون عيوب.

وقد بقيت يده على مقبض الباب فترة طويلة إلى أن أيّده رازوموف قائلاً بمزاجية:

ـ لا أحد.

تابع بيتر إيفانوفيتش:

ـ الكمال نفسه لن يصنع مثل هذا التأثير في عالم ليس معداً له. ولكنك ستجد عقلاً هنا... لا!... خلاصة الحدس الأنثوي الذي سيفهم أي تعقيد يمكن أن تعاني منه، وذلك بالقوة غير الممكن مقاومتها، القوة التنويرية، قوة التعاطف. لا يمكن لشيء أن يبقى غامضاً أمام ذلك ... ذلك... النفوذ الملهم... أجل، النفوذ الملهم، هذا النور الحقيقي للأنثوية.

كانت تحديقة النظارتين الداكنتين في ثباتها الصقيل اللامع تعطي وجهه هيئة القناعة المطلقة. أحس رازوموف بانكماش وقتي أمام الباب المغلق.

تلعثم قائلاً:

ـ النفوذ؟ النور. هل تعني نوعاً من قراءة الأفكار؟

بدت الصدمة على بيتر إيفانوفيتش.

Twitter: @ketab_n

ردّ قائلاً بابتسامة باهتة مشفقة:

ـ ما أعنيه شيء مختلف تماماً.

بدأ رازوموف يشعر بالغضب رغماً عنه.

غمغم من خلال أسنانه:

ـ هذا مبهم جداً.

سأله نصير المرأة العظيم:

ـ أتمانع في أن تكون مفهوماً، أن تكون موجَّها؟

انفجر رازوموف في همسة عنيفة:

ـ بأي معنى؟ أرجو أن تفهم أني شخص جدّيّ. من تظنّني؟

نظر الواحد منهما إلى الآخر عن قرب. وقد بردت حدة غضب رازوموف بسبب الجدية غير النفوذة لزجاج النظارتين الأزرق الذي كان يردّ على تحديقته. وأخيراً أدار بيتر إيفانوفيتش المقبض.

قال وهو يدفع الباب:

ـ ستعرف على الفور.

سمع صوت خشن خفيض الطبقة يقول بالفرنسية من داخل الغرفة:

ـ وأخيراً ها أنت قد جئت.

عند الباب، وبجسمه الضخم المرتدي للمعطف الأسود الذي يسدّ المشهد، صاح بيتر ايفانوفيتش بلهجة حماسية مع شيء من التبجّح:

ـ أجل. ها أنذا جئت!

نظر إلى رازوموف من فوق كتفه، وكان هذا ينتظره حتى يتقدم.

ـ وقد جئتكم بمتآمر مجرّب... متآمر حقيقي هذه المرة.

Twitter: @ketab_n

هذا التوقف عند الباب منح «المتآمر المجرّب» وقتاً ليتأكد من أو وجهه لم يكن يكشف عن فضوله الغاضب واشمئزازه العقلي.

هذه العواطف مسجلة كلها ومعترف بها في مذكرات السيد رازوموف عن أول لقاء له مع «المدام دو سـ...» والكلمات ذاتها التي استعملها في هذه الحكاية مكتوبة في تلك المذكرات ولا يمن الشك بمدى صدقها. فالمذكرات التي لم تكن قد كُتبت لتُقرأ من قبل أي شخص آخر سواه، لم تكن حصيلة دافع الحماقة الغريب الشائع لدى الناس الذين يعيشون حياة سرية، والذي كان وراء وجود «وثائق معرضة للشبهة» في كل المؤامرات والمكائد في التاريخ. فأنا أعتقد أن السيد رازوموف كان ينظر إليها كما ينظر شخص إلى نفسه في مرآة، بعجب، وربما بألم، بغضب أو بيأس، أجل، كما قد ينظر بخوف رجل مهدَّد إلى وجهه في المرآة وهو يصوغ لنفسه أعذاراً مطمئنة لمظهره الذي تبدو عليه أمارات مرض ورائي غادر.

ثانياً:

تركتْ «ايغيريا» خاصة «ماتسيني روسيا»[1] من النظرة الأولى انطباعاً قوياً على رازوموف بسكون وجهها الموتيّ المطليّ بالمساحيق على نحو واضح. بدت العينان لامعتين على نحو استثنائي. أما الجسم، في الثوب الضيّق، جيد الخياطة، وغير الجديد إطلاقاً، فكان يتميز بصلابة أنيقة. كان الصوت الخشن الذي راح يدعوه إلى الجلوس، وصرامة الوقفة المنتصبة وإحدى ذراعيها ممدودة على ظهر الأريكة، واللمعة البيضاء للمقلتين الكبيرتين اللتين ترسلان التحديقة

(1) ماتسيني: (1805 ـ 1872). ثائر وبطل قومي إيطالي عمل من أجل إيطاليا موحدة جمهورية النظام. (المترجم)

Twitter: @ketab_n

العميقة السوداء لإنساني العنيني الواسعتين، كلّ ذلك أثّر على رازوموف أكثر من أي شيء آخر رآه منذ رحيله السريع والسري عن سانت بطرسبورغ. ساحرة في ملابس باريسية، هكذا فكّر. أعجوبة! تردّد بالفعل خلال تقدّمه ولم يفهم في البداية ما الذي كان يقوله ذلك الصوت الخشن حتى.

ـ اجلس. اجلب كرسيّك إلى القرب مني. هنا...

جلس. أذهلته، عن قرب، عظام الوجنتين المطليتين بالمسحوق الأحمر والتجاعيد والخطوط الدقيقة على كل جانب من الشفتين الزاهيتين. لقد تمّ استقباله بلباقة مع ابتسامة جعلته يفكّر بجمجمة تبتسم.

ـ نحن نسمع عنك منذ فترة.

لم يعرف ما يقول، فغمغم بكلمات غير مترابطة. اختفى تأثير الجمجمة المبتسمة.

ـ وهل تعرف أن الشكوى السائدة هي أنك كنت متحفّظاً في كل مكان؟ بقي رازوموف صامتاً لفترة، وهو يفكّر في جواب.

ـ أنا كما ترين، رجل أفعال.

هذا ما قاله بصوت أجش وهو ينظر إلى الأعلى.

وقف بيتر ايفانوفيتش في صمت استثنائي مترقّب قرب كرسيّه. أحس رازوموف بغثيان خفيف. ما هي يا ترى العلاقة التي تربط هذين الشخصين معاً؟ هي الأشبه بجثة مُغَلّفَنَة خارجة من إحدى حكايات «هوفمان»[1].... وهو واعظ الإنجيل المنادي بتحرر المرأة في كل العالم،

---

(1) هوفمان: ارنست تيودور أماديوس (1776- 1822) مؤلف وموسيقار وفنان ألماني كتب حكايات فانتازية كثيرة ومنها ما اعتمدها تشايكوفسكي كأساس للباليه المسماة: «كسارة البندق». (المترجم)

Twitter: @ketab_n

والثوري الكبير أيضاً! هذه المومياء العتيقة المطلية بالمساحيق ذات العينين الغائرتين اللتين لا قرار لهما، وهذا الرجل المحترم لرغبات الآخرين، ضخم الجثة، ذو العنق الأشبه بعنق الثور... ما هي تلك العلاقة بينهما؟ السحر؟ الافتنان؟... هل هي نقودها؟ لديها الملايين!

كانت جدران وأرضية الغرفة عارية كأنك في مستودع للحبوب، وكانت القطع القليلة من الأثاث قد اكتُشفت في العلية وأُنزلت لتستعمل دون أن تُنظف من الغبار على نحو ملائم حتى. كانت تلك هي النفايات التي خلفتها وراءها أرملة صاحب المصرف، أما النوافذ الخالية من الستائر فكان لها مظهر بائس قلق. وفي اثنتين منها كانت المصاريع البيضاء المصفرّة قد جرى انتزاعها. كان هذا كله ينطق لا بالفقر بل بالبخل الشديد.

قال الصوت الخشن بغضب من الأريكة:

- أنت تتلفّت فيما حولك يا كيريلو سيدوروفيتش. لقد تمت سرقتي على نحو مخجل، لقد دُمّرت تماماً.

ثم قاطعتها ضحكة مجلجلة صدرت عنها دون إرادتها.

- الطبيعة العبودية من شأنها أن تجد سلواناً في حقيقة أن اللص الرئيسي كان شخصاً سامياً ومقدساً تقريباً... غراندوقاً في الحقيقة. هل تفهمني يا سيد رازوموف؟ غراندوق... لا! ليست لديك فكرة كم هم لصوص أولئك الناس! لصوص بكل ما في الكلمة من معنى!

ارتفع صدرها، ولكن ذراعها اليسرى بقيت ممدودة بتيبّس على امتداد ظهر الأريكة.

قال صوت عميق بدا لرازوموف المندهش وكأنه صادر من تحت النظارتين الدائمتين لبيتر إيفانوفيتش، وليس بالأحرى من شفتيه، وهما اللتان لم تتحركا إلاّ بالكاد:

Twitter: @ketab_n

ـ ستزعجين نفسك فحسب.

ـ ما رأيك؟ أقول لصوصاً! «لصوص! لصوص!» (بالفرنسية)

أحسّ رازوموف بالارتباك التام من هذا الصخب، والذي كان فيه شيء من العويل والنعيب، بل وما هو أكثر من شك بوجود هيستيريا.

ـ «لصوص! لصوص! لصـ...!» (بالفرنسية)

صاح بيتر إيفانوفيتش بصوته الجهير الطاغي ولكن دون أن يتحرك أو يقوم بأية إيماءة من أي نوع:

ـ ليست هناك قوة على الأرض يمكنها أن تسرق منك عبقريتك.

ثم ساد صمت عميق.

بقي رازوموف سلبياً من الخارج. قال وهو يسأل نفسه: «ما معنى هذا العرض التمثيلي؟» ولكن الوصيفة، في تنورة سوداء رثة جداً وقميص مهترئ، دخلت مسرعة بعد صوت ارتطام تمهيدي خارج أحد الأبواب التي من خلفه، وقد راحت تسير على كعبيها حاملة بكلتا يديها ساموفاراً روسياً كبيراً، ثقيلاً جداً عليها كما كان واضحاً. وقد قام رازوموف بحركة غريزية بنيّة مساعدتها إلاّ أنها أذهلتها إلى حد كبير كادت معه تُسقط حملها المهسهس. ولكنها تمكنت، على أية حال، من أن تضعه على الطاولة، ثم نظرت نظرة وجلة جداً إلى رازوموف ممّا حدا به إلى الإسراع بالجلوس. بعد ذلك أخرجت من غرفة جانبية أربع كؤوس زجاجية وإبريق شاي ووعاء للسكر على صينية حديدية سوداء.

سأل الصوت الخشن فجأة من الأريكة.

ـ أين الكاتو؟ هل تذكرته؟

سارع بيتر ايفانوفيتش، دون أن ينطق بكلمة واحدة، إلى منبسط

Twitter: @ketab_n

الدرج، وعاد فوراً وهو يحمل رزمة ملفوفة بورق أبيض صقيل، لا بد وأنه أخرجها من داخل قبعته. وبجدية هادئة فكّ الخيط وفتح الورق الصقيل ووضعه على الطاولة في متناول يد «المدام دو سـ...». صبت الوصيفة الشاي ثم لجأت إلى زاوية نائية بعيدة عن أنظار الجميع. ومن حين إلى آخر كانت «المدام دو سـ...» تمدّ يداً أشبه بمخلب، تلمع بالخواتم الثمينة، نحو الورقة التي تحوي الكاتو، وتأخذ واحدة منها وتلتهمها كأنها الغولة بأسنانها الصناعية الضخمة. في هذه الأثناء كانت تتحدث بصوت أجش عن الوضع السياسي في البلقان، حيث كانت تبني آمالاً كبيرة على بعض التعقيدات في شبه الجزيرة وذلك لإثارة حركة نقمة وطنية كبرى في روسيا ضد «هؤلاء اللصوص ـ اللصوص ـ اللصوص.»

قال بيتر إيفانوفيتش وهو يرفع نظره المزجّج:

ـ ستزعجين نفسك فحسب.

راح يدخّن لفافات التبغ ويشرب الشاي في صمت وباستمرار. وحين أنهى كأسه، مدّ يده من فوق كتفه. وعلى هذه الإشارة كانت الوصيفة، المحتجبة في زاويتها، تندفع نحو الطاولة وتملأ له كأسه من جديد. نظر إليها رازوموف مرة أو مرتين. كانت قلقة، مرتجفة، رغم أنه لا «المدام دو سـ...» ولا بيتر ايفانوفيتش كانا قد أظهرا أي اهتمام بها. سأل رازوموف نفسه: «ما الذي فعلاه فيما بينهما بهذه المخلوقة البائسة؟ هل أرهباها حتى الجنون بالأشباح، أو هل كانا يضربانها فحسب؟» وحين قدمت له الكأس الثانية من الشاي، لاحظ أن شفتيها كانتا ترتجفان بأسلوب شخص مقدس على وشك أن ينطق. ولكنها لم تقل شيئاً بالطبع، بل وعادت إلى زاويتها، وكأنها تضمّ إلى صدرها ابتسامة الشكر التي منحها إياها.

Twitter: @ketab_n

فكّر رازوموف فجأة: «إنها تستحق الرعاية والتشجيع».

كانت حدة مزاجه قد أخذت تخف، وبدأ يمسك بالواقع الذي ألقي فيه... ربما للمرة الأولى منذ دخل فيكتور هالدين غرفته... وخرج مرة أخرى. كان مدركاً على نحو واضح أنه موضع العناية الشبحية لـ «المدام دو س...» الشهيرة... أو سيئة السمعة.

لقد سرّت «المدام دو س...» لاكتشافها أن هذا الشاب يختلف عن الأنماط الأخرى بين الأعضاء الثوريين للجان، والمبعوثين السريين، والأساتذة من اللاجئين السوقيين قليلي الكياسة، والطلاّب غير المهذبين والعمال السابقين ذوي الوجوه الرسولية، والمتحمسين الرثّي الثياب والمصابين بالسلّ، وكذلك الشبان اليهود، والأشخاص العاديون من كل الأنواع الذين اعتادوا أن يلتفوا من حول بيتر ايفانوفيتش... والمتعصبون، والمتحذلقون، وكلهم من البروليتاريا. كان من الممتع تبادل الحديث مع هذا الشاب ذي المظهر الجيد... حيث أن «المدام دو س...» لا تكون دائماً في حالة ذهنية باطنية. كان سكوت رازوموف قد أثارها فجعلها تتكلم على نحو أسرع وأكثر هذراً. كانت لا تزال تتحدث عن البلقان. فهي تعرف جميع رجال السياسة في تلك المنطقة، الأتراك منهم والبلغار، المونتنغريون (سكان الجبل الأسود) والرومانيون، اليونان والأرمن، كما تعرف الذين لا صفة لهم، الشباب منهم والشيوخ، الأحياء والأموات. ببعض المال كان ممكناً الشروع بمؤامرة تشعل شبه الجزيرة وتسيء إلى مشاعر الشعب الروسي. يمكن إطلاق صرخة لنجدة الأخوة المخذولين، وثم، والأمة ترغي وتزيد من السخط، يمكن لفوجين أو نحوه من العسكر إيفانوفيتش أن يبدآ بثورة عسكرية في سانت بطرسبورغ وتكون تلك نهاية أولئك اللصوص...

Twitter: @ketab_n

فكر رازوموف في نفسه: «من الواضح أن كل ما عليّ أن أفعله هو الجلوس صامتاً والإصغاء. أما بالنسبة إلى ذلك الوحش المشعراني البذيء (هكذا كان السيد رازوموف يسمي في ذهنه ذلك المؤيد للمفهوم الأنثوي عن الحالة الاجتماعية والمتمتع بشعبية كبيرة)، أما بالنسبة إليه، وإلى مكره كله، فسوف يكون عليه أن يدفع حسابَ ذلك أيضاً».

توقف رازوموف عن التفكير للحظة، ثم تشكلت فكرة كئيبة في ذهنه من لدنّ ذاتها، وكانت فكرة ساخرة ومرّة: «لديّ موهبة الإيحاء بالثقة». ثم سمع نفسه يضحك بصوت عال. وكان من شأن ذلك أن يكون كشوكة بالنسبة إلى العجوز الشكسة المطلية بالمساحيق ذات العينين اللامعتين الجالسة على الأريكة.

صاحت بصوت أجش:

ـ يمكنك أن تضحك كما تشاء، ما الذي يمكن للمرء أن يفعله سوى ذلك! محتالون إلى حد الكمال... ويا لهم من محتالين دنيئين! ألمان رخيصون... Holstein Gottorps! رغم أنه ليس ممكناً أن تقول من هم وما هم عليه. عائلة تعدّ مخلوقة مثل «كاثرين الكبرى»[1] واحدة من أسلافها... أنت تفهم دون شك ما أعني!

قال بيتر إيفانوفيتش بصبر إنما بلهجة صارمة:

ـ أنت تهيجين أعصابك فحسب.

وقد كان لهذه النصيحة تأثيرها على «الإيغيريا». فكان أن أخفضت جفنيها الغليظين الفاقدي اللون وعدّلت من جلستها على الأريكة. كانت كل حركاتها الفظّة التي لا حياة فيها تبدو آليّة تماماً بعد

---

(1) كاثرين الكبرى: (1729 ـ 1796) امبراطورة روسيا من أصل ومولد ألمانيين. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

أن أغمضت عينيها. هاهي تفتحهما الآن على وسعهما. كان بيتر إيفانوفيتش يشرب الشاي بثبات ودون إسراع.

خاطب رازوموف مباشرة:

ـ حسناً، أقول لك إن الناس الذين أرسلوك إلى هنا كانوا على حق. أنت شديد التحفّظ. لم تقل ما مجموعه عشرون كلمة منذ أن دخلت إلى هنا. وأنت لا تسمح لأي من أفكارك أن تظهر على وجهك أيضاً.

قال رازوموف مستعملاً الفرنسية لأول مرة، وبتردد، حيث أنه لم يكن واثقاً من لكنته:

ـ لقد كنت أصغي يا سيدتي.

ويبدو أن هذا ترك انطباعاً جيداً. نظرت «المدام دو س....» نظرة ذات معنى إلى نظارتي بيتر إيفانوفيتش ، وكأنما تريد أن تنقل إليه قناعتها بجدارة هذا الشاب. بل إنها أومأت برأسها قليلاً باتجاهه وسمعها رازوموف تغمغم بصوت خفيض: «لاحقاً في السلك الدبلوماسي». وكان هذا يدلّ على مدى الانطباع الجيد الذي خلّفه لديها. ولكن الغرابة الفانتازية لذلك كله أثارت اشمئزاز رازوموف لأنها بدت وكأنها تهيّج آماله المحطمة برؤيا مهنة زائفة. راح بيتر إيفانوفيتش ، السلبي كأنه أصم، يشرب المزيد من الشاي. أحس رازوموف أن عليه أن يقول شيئاً ما.

بدأ بتعمّد وكأنه يقول فكرة مدروسة:

ـ أجل. هذا واضح. حتى لدى تخطيط ثورة عسكرية محضة فإنه يتوجب أخذ الحالة العاطفية للشعب في الاعتبار.

ـ لقد فهمتني تماماً. لا بد من منح السخط قيمة روحية. هذا ما لن تفهمه الرؤوس العادية للجان الثورية. ليسوا قادرين على ذلك، مثلاً: كان «موردواتييف» في جنيف في الشهر الماضي. لقد جلبه بيتر

Twitter: @ketab_n

إيفانوفيتش إلى هنا. هل تعرف مورداتييف؟ حسناً، أجل... لقد سمعت به، إنهم يلقبّونه بالنسر... إنه بطلٌ ولكنه لم يفعل نصف ما فعلته أنت. لم يحاول ... ليس نصف...

هيّجت «المدام دو ســـ...» نفسها بكل عظامها البارزة وهي جالسة على الأريكة.

ـ طبعاً تحدثنا إليه. وهل تعرف ما قاله لي؟ قال: «ما لنا والمؤامرات البلقانية؟ علينا أن نستأصل الأوغاد.» الاستئصال أمر جيد جداً... ولكن ماذا بعد ذلك؟ يا للمغفل! لقد صرخت به: «ولكن عليك أن تمنح قيمة روحية... ألا تفهم؟ عليك أن تمنح السخط قيمة روحية...»

راحت تفتش بعصبية في جيبها عن منديلها. ثم ضغطته على شفتيها.

قال رازوموف بلهجة التساؤل وهو يراقب صدرها اللاهث:

ـ يمنح قوة روحية؟

كانت النهايات الطويلة لوشاح أسود مخرّم عتيق تضعه فوق رأسها قد انزلقت عن كتفيها ومالت إلى الأمام على كل جانب من جانبي وجنتيها الورديتين الشبحيتين.

انفجرت مرة أخرى:

ـ مخلوق كريه! تصوّر رجلاً يضع خمس قطع من السكر في الشاي... أجل، قلت يجب أن يتم منح القوة الروحية! وكيف يمكنك إذن أن تجعل السخط فعّالاً وشاملاً؟

قال بيتر إيفانوفيتش بوقار:

ـ إصغ إلى هذا أيها الشاب: فعّالاً وشاملاً.

Twitter: @ketab_n

نظر إليه رازوموف بريبة. قال:

ـ يوماً ما سيفعل الجوع ذلك.

ـ أجل أعرف ذلك. شعبنا يموت من الجوع بالأكوام. ولكنك لا تستطيع جعل المجاعة شاملة. وليس اليأس هو ما نريد أن نخلقه. لن يكون هناك أي دعم أخلاقي يمكن أن نناله من ذلك. بل النقمة...

تركت «المدام دو سـ...» ذارعها النحيلة الممدودة تسقط على ركبتيها.

قال رازوموف:

ـ لست شخصاً مثل مورداتييف..

غمغمت «المدام دو سـ...» بالفرنسية:

ـ بالتأكيد!

ـ رغم أني مستعد أن أقول: إستأصلوا، استأصلوا! ولكن أرجو أن تسمحوا لي بأن أطرح رغم جهلي بالعمل السياسي السؤال التالي: ألن تستغرق مؤامرة بلقانية وقتاً طويلاً جداً؟

نهض بيتر إيفانوفيتش وابتعد بهدوء ليقف ووجهه إلى النافذة. سمع رازوموف صوت باب يغلق. التفت برأسه وأدرك أن الوصيفة قد أسرعت خارجة من الغرفة.

حطمت «المدام دو سـ...» الصمت بقسوة:

ـ في مجال السياسة أؤمن بالمسائل الخارقة للطبيعة.

ابتعد بيتر إيفانوفيتش عن النافذة وربت على كتف رازوموف، وكانت تلك إشارة تفيد وجوب الخروج، ولكنه خاطب في الوقت نفسه «المدام دو سـ....» بلهجة تذكيرية غريبة:

ـ إيلينور!

Twitter: @ketab_n

ومهما كان المعنى وراء ذلك إلا أنه لم يبد عليها أنها سمعته. استندت إلى زاوية الأريكة كأنها تمثال خشبي. كان للنكد الثابت للوجه المؤطر بالتخريمات العتيقة المترهّلة، صفة القسوة الوحشية.

نعبت مخاطبة رازوموف اليقظ:

ـ أما بالنسبة إلى الاستئصال، فهناك طبقة واحدة في روسيا يتوجب استئصالها. واحدة فحسب. وتلك الطبقة تتألف من أسرة واحدة فقط، أنت تفهمني، أليس كذلك؟ تلك العائلة الوحيدة يجب أن تُستأصل.

كانت صرامتها مخيفة، أشبه بصرامة مُغَلْفَنَة تحولت إلى نطق أجش وتحديقة لامعة بقوة حقد قاتل. فتن المشهد رازوموف... ومع ذلك أحس أنه أكثر امتلاكاً لنفسه من أي وقت مضى منذ أن دخل هذه الغرفة العارية العجيبة. شعر بالاهتمام. ولكن المناصر العظيم لحقوق المرأة، والواقف إلى جانبه، تلفظ مرة أخرى باستغاثته:

ـ ايلينور.

تجاهلته مرة أخرى. كانت شفتاها المصبوغتان باللون القرمزي تتلفّظان بالتنبؤات بسرعة غير عادية. الروح المحرّرة ستستعمل أسلحة ستتشعب أمامها الأنهار كما نهر الأردن، وستتساقط الاستحكامات كأسوار أريحا. التخلص من الرق سيُصاحب بالأوبئة وبأمارات، بأعاجيب وبالحرب. النساء...

ـ ايلينور!

توقفت عن الكلام، فقد سمعته أخيراً. ضغطت بيدها على جبينها.

ـ ما المسألة؟ آه أجل! تلك الفتاة... شقيقة الـ...

Twitter: @ketab_n

كانت تعني الآنسة هالدين، تلك الشابة وأمها كانت تعيشان حياة منعزلة جداً. إنهما سيدتان ريفيتان... أليس كذلك؟ كانت الأم جميلة جداً... لا زالت آثار ذلك واضحة حتى اليوم. وحين زارهما بيتر إيفانوفيتش كان انطباعه رائعاً... ولكن الطريقة الباردة التي استُقبل بها كانت مدهشة فعلاً.

صاحت «المدام دو سـ...» بقوة فجائية:

ـ إنه واحد من أمجادنا الوطنية. العالم كله يصغي إليه.

قال رازوموف بصوت مرتفع وهو يقوم من كرسيه:

ـ لا أعرف هاتين السيدتين.

ـ ما الذي تقوله يا كيريلو سيدوروفيتش؟ لقد عرفت أنها حادثتك هنا، في الحديقة، منذ أيام.

قال رازوموف بكآبة:

ـ أجل، في الحديقة.

ثم تابع بجهد:

ـ لقد قدمت نفسها لي من باب التعارف.

استأنفت «المدام دو سـ...» بحيوية مفزعة:

ـ ثم هربتْ منا جميعاً بعد أن وصلت إلى هذا الباب بالذات! يا له من تصرف عجيب! حسناً، لقد كنت مرة أنا نفسي فتاة ريفية صغيرة وخجولة. أجل يا رازوموف (تعمدت أن تحادثه دون تكلف وبتكشيرة مفزعة لبقة. أجفل رازوموف على نحو واضح.) أجل، هذا هو أصلي: عائلة ريفية بسيطة.

قال بيتر إيفانوفيتش بأعمق درجة من صوته:

ـ أنت أعجوبة.

Twitter: @ketab_n

ولكنها منحت لرزاوموف ابتسامتها الصادرة عن رأسها الأشبه بالجمجمة. كانت لهجتها متعجرفة.

ـ عليك أن تجلب ذلك الشيء الشاب البرّي إلى هنا. إنها مطلوبة، وأنا أعتمد على نجاحك... هل فهمتني؟

غمغم رازوموف بفظاظة:

ـ إنها ليست شيئاً شاباً برّيّاً.

ـ حسناً إذن... لا فرق. قد تكون واحدة من أولئك الديمقراطيين المخدوعين الشباب. هل تعرف ما أفكر به؟ أعتقد أنها تشبهك كثيراً من حيث الشخصية. هناك نار احتقار خامدة فيك. أنت مغرور على نحو خفي، ولكني أستطيع أن أرى روحك بالذات.

كان لعينيها اللامعتين تحديقة جافة مركّزة جعلته يظن، حين لم تكونا موجّهتين إليه، أنها كانت تنظر إلى شيء ما خلفه كان مرئياً بالنسبة لها. لعن نفسه كونه أحمق سريع التأثير، وسأل بهدوء فرضه على نفسه:

ـ ما الذي ترينه؟ هل هناك شيء ما يشبهني؟

حركت وجهها الصارم من اليسار إلى اليمين سلبياً.

استأنف رازوموف ببطء:

ـ هل هو نوع من الأشباح على صورتي؟ فأنا أعتقد أنّه حين تُرى الروح فإنها لا تكون شيئاً آخر، بل مجرد شيء تافه. هناك أشباح للأحياء كما للموتى أيضاً.

كان توتر تحديقة «المدام دو سـ...» قد تراخى، وراحت تنظر الآن إلى رازوموف في صمت أصبح مربكاً.

تلعثم كأنما أجبر على ذلك وقال:

ـ لديّ تجربتي الشخصية، فقد سبق أن شاهدت شبحاً مرة.

Twitter: @ketab_n

تحركت الشفتان الحمراوان على نحو غير طبيعي لتشكّلاً سؤالاً وبقسوة:

- شبح شخص ميت؟

- لا، شبح شخص حي.

- صديق؟

- لا.

- عدو؟

- كنت أكرهه.

- آه! لم يكن لامرأة إذن؟

- امرأة!

هكذا كرر رازوموف وعيناه تحدقان مباشرة إلى عيني «المدام دو س....» واستأنف يقول:

- ولِمَ تكون امرأة؟ لِم هذا الاستنتاج؟ لم لا أكون قادراً على أن أكره امرأة؟

في الواقع كانت فكرة كره امرأة مسألة جديدة بالنسبة إليه، في تلك اللحظة كان يكره «المدام دو س...». ولكن لم يكن ذلك كرهاً بالضبط. كان أمراً أشبه بالاشمئزاز الذي قد يسببه تمثال من الخشب أو الجصّ من النوع المثير للغثيان. لم تكن حركاتها تزيد عن حركات مثل ذلك التمثال؛ وحتى عينيها اللتين كانت تحديقتهما المتواصلة، دون أن يطرف جفناهما، قد انغرزتا في عينيه، ورغم لمعانهما، فقد كانتا دون حياة، وكأنّهما صناعيتان بقدر ما هي أسنانها. ولأول مرة اشتم رازوموف عطراً خفيفاً، أشعره رغم ضعفه بالغثيان إلى أبعد حد. ومن جديد ربت بيتر ايفانوفيتش بخفه على كتفه. وعندها انحنى،

Twitter: @ketab_n

وكاد يستدير حين تلقى منّة غير متوقعة، إذ امتدت إليه اليد الميتة بارزة العظم مع كلمتين بفرنسية مبحوحة:

ـ أو روفوار! (وداعاً).

انحنى فوق اليد الأشبه بيد هيكل عظمي ثم غادر الغرفة يرافقه الرجل العظيم الذي جعله يخرج قبله. صرخ خلفهما الصوت من الأريكة قائلاً:

ـ ابق هنا يا بيير.

ـ بالتأكيد يا صديقتي العزيزة (بالفرنسية).

ولكنه غادر الغرفة مع رازوموف، وهو يغلق الباب خلفه. كان منبسط الدرج عبارة عن دهليز عار من الأثاث، إلى اليمين وإلى اليسار، منظوريات مهجورة من الديكورات البيضاء والذهبية دون أية سجاجيد أو بسط. حتى النور الذي كان يدخل من نافذة عريضة في النهاية، بدا مغبّراً. الرخام الأبيض... القبعة الحريرية العالية لنصير المرأة العظيم... وكانت بارزة جداً، سوداء ولامعة ضمن كل ذلك البياض الفج.

رافق بيتر ايفانوفيتش الزائر دون أن يفتح شفتيه. وحتى حين وصلا إلى رأس الدرج لم يكن بيتر ايفانوفيتش قد حطم الصمت. كان هناك دافع لدى رازوموف مفاده أن يتابع نزول الدرج ثم يخرج من المنزل دون أن يودعه حتى بإيماءة من الرأس، ولكن هذا الدافع هجره فجأة. توقف عند أول درجة واستند بظهره إلى الجدار. تحته كان البهو العظيم بأرضه ذات المربعات قد بدا فجأة كبيراً إلى حد عجيب وكأنه مكان عام تنتظر فيه قوة هائلة على الرنين استثارة وقع الأقدام والأصوات. وقد تحدث رازوموف بلهجة خفيضة وكأنه يخشى إيقاظ الصدى العالي لذلك المنزل الفارغ.

ـ لا أنوي بالفعل أن أتحول إلى روحانيّ هاو.

هزّ بيتر إيفانوفيتش رأسه قليلاً وبجدية كبيرة.

Twitter: @ketab_n

تابع رازوموف:

ـ أو أن أنفق وقتي في نشوات روحانية أو تأمل سام في إنجيل نصرة المرأة. لقد وصلت إلى هنا بسبب الدور العملي الذي أديته... وهو عمل محترم جداً يا بيتر ايفانوفيتش. لم يكن ما جذبني إلى هنا هو الكاتب الأوربي العظيم، أعني إلى هذه المدينة الكريهة، مدينة الحرية. كان ذلك شخصاً أعظم بكثير. كانت فكرة الزعيم هي التي جذبتني. هناك شبان في روسيا يموتون جوعاً ولكنهم يؤمنون بك كثيراً حتى ليبدو أن ذلك هو الشيء الوحيد الذي يبقيهم أحياء رغم بؤسهم. فكر في ذلك يا بيتر إيفانوفيتش! كلا! ولكن فكرْ في ذلك فحسب!

كان الرجل العظيم، الذي استُعطف على هذا النحو، ساكناً تماماً وصامتاً، صورة للاحترام الحليم رابط الجأش.

ـ طبعاً لا أتحدث عن الشعب. الشعب أناس متوحشون.

هذا ما أضافه رازوموف باللهجة الخفيضة نفسها وإن تكن فعّالة. وقد صدرت لدى سماعه هذه الكلمات غمغمة احتجاج عن لحية «اللاجئ البطل»، كانت غمغمة ذات سلطة.

ـ فلنقل... إنهم أطفال.

ولكن رازوموف أصرّ:

ـ لا، إنهم متوحشون.

قال الرجل العظيم بلهجة توسلية هامسة:

ـ ولكنهم أصحاء، إنهم أبرياء.

وأخيراً رفع رازوموف صوته قائلاً:

ـ فيما يخص هذه المسألة فالمتوحش صحيح تماماً. ولا تستطيع أن تنكر البراءة الطبيعية للمتوحش، ولكن ما الفائدة من المجادلة

Twitter: @ketab_n

حول الأسماء؟ حاول فحسب أن تعطي هؤلاء الأطفال قوة وقوام الرجال وانظر كيف سيكونون. أعطهم ذلك فحسب ثم انظر... ولكن لا يهم. أقول لك يا بيتر إيفانوفيتش إن نصف دزينة من الشبان لا يجتمعون في هذه الأيام في غرفة رثة الأثاث من غرف الطلاب إلاّ ويهمون باسمك، ليس كقائد للفكر، بل كبؤرة للطاقات الثورية.. بؤرة الفعل. ما الذي جذبني إليك حسب ما تظن؟ ليس ذلك ما يعرفه عنك العالم كله وبكل تأكيد. بل هو بالضبط ما لا يعرفه العالم عموماً عنك. لقد جُذبت على نحو لا تمكن مقاومته.... أو فلأقل أُكرهتُ على ذلك... أجل، أُكرهت. أو لنقل أُجبرت، دُفعتُ... دُفعت.

هذا ما كرره رازوموف بصوت مرتفع، ثم توقف كأنه أجفل بسبب التذبذب الأجوف لكلمة «دُفعت» على امتداد دهليزين عاريين والبهو الضخم الفارغ.

لم يبد على بيتر إيفانوفيتش أنه قد أجفل إطلاقاً. ولم يستطع الشاب أن يكبح ضحكة جافة قلقة. بقي الثوري العظيم دون أن يتحرك، وقد بدا عليه مظهر التفوق العادي غير المتكلّف.

قال رازوموف لنفسه: «اللعنة عليه. إنه ينتظر خلف نظارتيه حتى أقوم بفضح نفسي.» ثم قال بصوت مرتفع مع استمتاع شيطاني بالاحتقار الذي يدفعه إلى أن يعبث بوقار الرجل العظيم:

ـ آه يا بيتر إيفانوفيتش، لو أنك تعرف فحسب القوة التي جذبتني... لا، أعني «دفعتني» نحوك! القوة غير الممكن كبحها.

لم يعد يشعر بأية رغبة بالضحك الآن. في هذه المرة حرك بيتر ايفانوفيتش رأسه جانباً، بأسلوب العارف، وكأنما يريد أن يقول: «ألست كذلك؟» وقد كادت هذه الحركة المعبّرة أن تمرّ غير ملحوظة تقريباً. استأنف رازوموف بسخرية مكتومة:

Twitter: @ketab_n

ـ كنت تحاول فهمي طوال هذه الأيام يا بيتر إيفانوفيتش. وهذا طبيعي. لقد أدركت ذلك وكنت صريحاً. ألا تظنّ أني لم أكن شديد الصراحة؟ ولكن لم تكن هذه مطلوبة من شخص مثلك. ربما كانت ستبدو كنوع من الوقاحة. وزيادة على ذلك، فإننا معشر الروس، نميل إلى الثرثرة كقاعدة عامة. لقد أحسست بذلك دائماً. ومع ذلك، فإننا كأمة، نعاني من الصمم. أؤكد لك أنه ليس من المحتمل أن أحادثك مرة أخرى بهذه الإطالة.

اقترب رازوموف، الذي لا يزال على الدرجة السفلى، من الرجل العظيم قليلاً.

ـ لقد تنازلتَ بما فيه الكفاية. لقد فهمت تماماً أن القصد من ذلك كان إغرائي. عليك أن تمنحني العدالة التي لم أحاول إرضاءها. لقد كنت مجبراً، ومكرهاً، أو مرسلاً ـ لنقل مرسلاً إليك من أجل عمل لا يمكن لغيري أن يفعله. ستسمّي ذلك وهماً لا ضرر منه: وهم تافه لا يمكنك حتى أن تبتسم له. إنه لأمر غريب عليّ أن أتحدث هكذا، ولكنك ستتذكّر في يوم من الأيام، هذه الكلمات، على ما آمل. هذا يكفي. ها أنذا أقف أمامك... وقد اعترفتُ! ولكن هناك شيء واحد عليّ أن أضيفه حتى يكتمل: لا يمكنني أن أوافق على أن أكون مجرد أداة عمياء.

مهما يكن التسليم الذي كان رازوموف يتوقعه، إلاّ أنه لم يكن مستعداً لأن يمسك الرجل بكلتا يديه. كانت سرعة الحركة عدوانيّة إلى حد أنه أجفل. ما كان ممكناً لنصير المرأة ضخم الجثة أن يكون أسرع لو كان هدفه هو أن يحمل رازوموف غدراً ويرمي به خلف واحد من الأبواب المغلقة العديدة القريبة منهما. وقد خطرت هذه الفكرة لرازوموف بالفعل، ويداه قد تحررتا بعد ضغط بليغ غامض، فابتسم، وقلبه يخفق بعنف، للحية والنظارتين اللتين تخفيان ذلك الرجل العصي على الاختراق.

Twitter: @ketab_n

قال في نفسه (وقد اعترف بذلك بخط يده): «لن أتحرك من هنا حتى يتحدث أو يبتعد. هذه مبارزة.» وقد مرت ثوان عديدة دون إشارة أو صوت.

قال الرجل العظيم بسرعة وبلهجة خفيضة وكأن الأمر كله كان عبارة عن حوار مختلس لاهث:

ـ أجل، أجل. بالضبط. تعال لترانا هنا خلال أيام قليلة. يجب أن تصبح علاقتنا عميقة... عميقة... حتى القاع. حتى الـ... وبالمناسبة، عليك أن تجلب معك ناتاليا فيكتوروفنا... أنت تعرفها... تلك الفتاة من آل هالدين...

سأل رازوموف بقسوة:

ـ هل أفهم هذا على أنه أول تعليماتك إلي؟

بدت الحيرة على بيتر إيفانوفيتش بسبب هذا الموقف المستجد.

ـ آه! هم! أنت بالطبع هو الشخص المناسب... «الشخص الملائم» (بالفرنسية). الكل سيكونون مطلوبين في الوقت الحاضر. كل احد.

انحنى من منبسط الدرج فوق رازوموف الذي كان قد أخفض عينيه.

غمغم:

ـ دنت لحظة الفعل.

لم يرفع رازوموف نظره إليه. لم يتحرك حتى سمع باب غرفة الاستقبال يغلق خلف أعظم أنصار المرأة العائد إلى إيغيرياه المطلية بالمساحيق. ثم سار ببطء إلى البهو. كان الباب مفتوحاً، وكان ظل المنزل يسقط منحرفاً فوق الجزء الأعظم من الشرفة. وبينما كان يعبرها ببطء، رفع قبعته ومسح جبينه الرطب، وهو يزفر بقوة للتخلص من آخر آثار الهواء الذي كان يتنفسه في الداخل. نظر إلى راحتيه ثم مسحها بلطف على فخذيه.

Twitter: @ketab_n

أحس وكأن نفساً أخرى، رغم غرابة هذا الشعور، كأن هناك شريكاً آخر له يشاركه في ذهنه وقادراً على أن يرى شخصه بالكامل على نحو واضح جداً. فكر: «هذا عجيب». وبعد برهة صاغ رأيه في ذلك بأن صاح مستغرباً في نفسه: «بهيمي!» وقد اختفى هذا الاشمئزاز ليحل محله قلق واضح. فكّر بحصافة منهكة: «هذا هو تأثير الإرهاق العصبي. كيف سأتابع يوماً بعد آخر إن لم تعد لديّ القدرة على المقاومة... على المقاومة المعنوية؟»

تبع الممّر الذي يبدأ عند أسفل الشرفة. وظل يكرر لنفسه: «مقاومة معنوية، مقاومة معنوية». الطاقة المعنوية. أجل، تلك كانت ضرورة الوضع. توق هائل للخروج من هذه الأرض المحيطة بالقصر وللوصول إلى الطرف الآخر من المدينة، ثم إلقاء نفسه على سريره والنوم لساعات، هذا التوقع مسح كل شيء من ذهنه للحظة. «هل من الممكن أني لست سوى مخلوق ضعيف إذن؟» هكذا سأل نفسه بانزعاج مفاجئ. «آه ما هذا؟»

أجفل كأنه استيقظ من حلم. بل حتى أنه ترنّح قليلاً قبل أن يستعيد توازنه.

قال:

ـ آه! لقد تسللتِ بهدوء لتتمشي هنا.

وقفت الوصيفة أمامه، ولكنه لم يعرف مطلقاً كيف وصلت إلى ذلك المكان. كانت ذراعاها الممدودتان تربتان على القطة بعناية.

قال رازوموف في نفسه مستغرباً: «كنت غير واع وأنا أمشي، وهذه حقيقة أكيدة.»

رفع قبعته بتهذيب واضح.

Twitter: @ketab_n

احمرّ وجه المرأة الشاحبة إلى حد كبير. كان تعبير الخوف الدائم لا يزال على وجهها، وكأن شخصاً ما قد أسرّ لها بخبر مروّع للتو. ولكنها تماسكت دون خجل. فكّر: «تبدو رثة الملابس جداً.» في نور الشمس كان ثوبها الأسود يبدو مائلاً إلى الخضرة، وبقع مهترئة هنا وهناك حيث يبدو أن القماش قد تحلّل مع القدم إلى حالة مخملية سوداء وفَروِيّة. كان شعرها يبدو رثاً بل وحتى حاجبيها أيضاً. تساءل رازوموف إن كان عمرها يقارب الستين عاماً. كان جسدها، على أية حال شاباً بما فيه الكفاية. وقد لاحظ أنها لم تَبْدُ مُجَوَّعة، ولكن كأنما كانت تطعم من فتات الأطباق وبقايا الطعام الضارة بالصحة.

ابتسم رازوموف بودّ وابتعد عن طريقها. التفتت برأسها لتبقي عينيها الوجلتين عليه.

قالت بتأكيد دون تمهيد:

- أعرف ما الذي كان يقال لك هناك.

كانت لهجتها، بالتناقض مع أسلوبها، ذات خاصية تدلّ على الثقة بصورة غير متوقعة، مما جعل رازوموف يشعر بالراحة.

- هل تعرفين فعلاً؟ لا شكّ أنك سمعت كل أنواع الحديث في مناسبات عدة هناك.

غيّرت من لهجتها ولكن بالثقة نفسها:

- أعرف بالتأكيد ما قيل لك أن تفعله.

هزّ رازوموف كتفيه قليلاً وهو يقول:

- حقاً؟

كان على وشك أن يستأنف السير مع انحناءة لها حين خطرت له فكرة مفاجئة، فغمغم وهو ينظر إلى القطة:

Twitter: @ketab_n

- أجل، بكل تأكيد! ضمن وضعك الحميمي لا شكّ أنك تعرفين أموراً كثيرة.

وقد تلقّت القطة ضمّة تشنّجية خاطفة من الوصيفة.

قالت:

- كل شيء تم البوح به إليّ منذ فترة طويلة.

كرّر رازوموف بذهن غائب:

- كل شيء.

صاحت بتشنّج:

- بيتر إيفانوفيتش طاغية رهيب.

استمرّ رازوموف بتفحّص الأقلام على الفرو الرمادي للقطة.

- الإرادة الحديدية جزء لا يتجزأ من هذه الطباع. وإلاّ فكيف يمكنه أن يكون قائداً؟ وأنا أعتقد أنك مخطئة في....

صاحت:

- عجباً! أنت تقول لي أني مخطئة. ولكني أقول لك أيضاً إنه لا يكترث بأحد.

رفعت رأسها نحو الأعلى.

- لا تجلب تلك الفتاة إلى هنا. هذا ما طلبه منك... أن تجلب تلك الفتاة إلى هنا. إصغ إليّ: الأجدر بك أن تربط حجراً حول عنقها وأن ترميها في البحيرة على أن تجلبها إلى هنا.

أحس رازوموف بشيء من القشعريرة والكآبة، وكأن غيمة ثقيلة قد مرّت فغطت الشمس.

قال:

- الفتاة؟ وما علاقتي بها؟

Twitter: @ketab_n

ـ ولكنه طلب منك أن تحضر ناتالي هالدين إلى هنا، ألست على صواب؟ طبعاً أنا على صواب. لم أكن في الغرفة، ولكني أعرف بيتر إيفانوفيتش بما فيه الكفاية. إنه رجل عظيم. ولكن الرجال العظام رهيبون. حسناً، هذا هو الأمر. لا علاقة لك بها. هذا أفضل ما يمكنك أن تفعله، إلاّ إذا أردتها أن تصبح مثلي... خائبة الرجاء! خائبة الرجاء!

كرّر رازوموف وهو يحملق في وجهها الفارغ من أية وسامة سواء في الملامح أو في البشرة كما يكون جيب الشحّاذ فارغاً من النقود:

ـ مثلكِ.

ابتسم، وهو لا يزال يشعر بالقشعريرة. انتابه إحساس غريب راح يزعجه. استأنف قائلاً:

ـ خائبة الرجاء فيما يخص بيتر إيفانوفيتش ؟ أهذا كل ما خسرته؟

صرخت، وهي تبدو خائفة، ولكن بقناعة هائلة:

ـ بيتر إيفانوفيتش رمز لكل شيء.

ثم أضافت بلهجة أخرى:

ـ ابق الفتاة بعيدة عن هذا المنزل.

ـ وأنت تحرضينني على عصيان بيتر إيفانوفيتش وذلك لأنك خائبة الرجاء فحسب؟

بدأت ترمش بعينيها.

ـ ما أن رأيتك للمرة الأولى حتى أحسست بالراحة والسلوان. لقد رفعت قبعتك لي. بدا عليك أنك شخص ممكن الوثوق به. أوه!

انكمشت أمام الزمجرة الوحشية لرازوموف وهو يقول:

ـ لقد سبق لي أن سمعت شيئاً كهذا من قبل.

لقد أصيبت بالذهول إلى حد أنها لم تستطع أن تفعل أي شيء سوى أن ترمش بعينيها لفترة طويلة.

Twitter: @ketab_n

شرحت بكآبة:

ـ كان ذلك بسبب سلوكك الإنساني. لقد كنت توّاقة إلى القليل من التهذيب، ولن أقول اللطف، ومنذ فترة لا أعرف كم طالت. وها أنت غاضب الآن.

قال محتجاً:

ـ ولكن لا، على العكس من ذلك. أنا سعيد جداً لأني موضع ثقتك. ومن الممكن أن أقوم لاحقاً بـ...

قاطعته بلهفة:

ـ أجل، إذا ما مرضت أو عانيت من مشكلة ما، ستجد أني لست حمقاء لا نفع منها. كل ما عليك هو أن تبلغني. وسآتي إليك. سأفعل ذلك حقاً. وسوف ألتزم بخدمتك. البؤس وأنا صديقان قديمان... ولكن الحياة هنا أسوأ من الموت جوعاً.

توقفت بقلق، ثم قالت بصوت بدا للوهلة الأولى أنه خجول:

ـ أو إن كنت منغمساً في عمل ما فيه خطورة. في بعض الأحيان يكون الرفيق المتواضع... وأنا لن أطلب معرفة أي شيء. سأتبعك بسعادة. أستطيع تنفيذ الأوامر. لديّ ما يكفي من الشجاعة.

نظر رازوموف باهتمام إلى العينين المدورتين الخائفتين، وإلى الوجنتين الشاحبتين الذاويتين المدورتين، وكانتا ترتجفان عند زاوية الفم.

فكّر: «إنها تريد الخلاص من هذا المكان».

قال ببطء:

ـ ولنفترض أني سأقول لك إني منغمس في عمل خطر؟

ضغطت القطة إلى صدرها الرث الملابس وندت عنها صيحة لاهثة:

Twitter: @ketab_n

ـ آه!

ثم قالت بلهجة لا تتعدى الهمسة:

ـ تحت إمرة بيتر إيفانوفيتش ؟

- لا ، ليس تحت إمرة بيتر إيفانوفيتش.

قرأ الإعجاب في عينيها، ثم بذل جهداً ليبتسم.

ـ لوحدك... إذن؟

رفع يده المغلقة والسبابة مرفوعة وقال:

ـ كهذا الأصبع.

كانت ترتجف قليلاً. ولكن خطر لرازوموف أنهما ربما يكونان مراقبين من المنزل، وأصبح تواقاً إلى الرحيل. ومشت وهي ترفع إليه وجهها المتغضّن، وبدت وكأنها ترجو بصمت أن يقال لها شيء ما آخر، أن تُمنح كلمة تشجيع لتفانيها الجائع العجيب المثير للشفقة.

سألها رازوموف بلهجة الثقة:

ـ هل يمكن أن نُرى من المنزل؟

أجابت دون أن تظهر أية دهشة من السؤال:

ـ لا ، لا يمكن ذلك، بسبب هذا الجانب من الإسطبلات.

ثم أضافت بدقة أدهشت رازوموف:

ـ ولكن أي شخص يطلّ من نافذة من الطابق العلوي سيعرف أنك لم تمرّ بالبوابات بعد.

سأل رازوموف:

ـ من يمكن أن يتجسس من النافذة؟ بيتر إيفانوفيتش؟

أومأت برأسها.

Twitter: @ketab_n

ـ ولماذا يزعج نفسه بذلك؟

ـ إنه يتوقع وصول شخص ما بعد ظهر هذا اليوم.

ـ وهل تعرفينه؟

ـ هناك أكثر من شخص واحد.

كانت قد أخفضت أهدابها. نظر رازوموف إليها بفضول.

ـ أنت تسمعين بالطبع كل ما يقولونه.

غمغمت دون أي لهجة عدائية:

ـ وكذلك الطاولات والكراسي.

فهم أن المرارة التي تراكمت في قلب تلك المخلوقة اليائسة قد دخلت إلى شرايينها، وراح كسمّ رقيق، يفسد إخلاصها لذلك الزوجيّ الكريه. كان في ذلك ضربة حظ عظيمة له، هذا ما فكر به، لأنه نادراً ما تكون النساء قابلات للرشوة شأن الرجال الذين يمكن شراؤهم لاعتبارات مادية. ستكون حليفاً جيداً، رغم أنه ليس من المحتمل أن يُسمح لها بأن تسمع بقدر ما تسمع طاولات وكراسي قصر بوريل. لا يمكن توقع ذلك. ومع ذلك... وعلى أية حال، فإنه من الممكن جعلها تتكلّم.

حين رفعت نظرها قابلت عيناها التحديقة الثابتة لرازوموف الذي راح يتحدث على الفور:

ـ حسناً، حسناً يا عزيزتي... ولكنك لم تمنحيني بعد السرور بمعرفة اسمك، أليس هذا غريباً؟

ولأول مرة حركت كتفيها.

ـ وهل هذا غريب؟ لا يذكر اسمي لأحد. ليس هناك من يكترث. ولا أحد يكلّمني، ولا أحد يراسلني. ولا يعرف والداي إن كنت حيّة أم ميتة. لا أحتاج إلى اسم، وقد نسيت تقريباً أنا نفسي.

Twitter: @ketab_n

غمغم رازوموف بجدية:

ـ أجل ولكن مع ذلك...

استأنفت ببطء أشد ولكن دون اكتراث:

ـ لك أن تسميني «تكلا» إذن. كان «أندريه» العزيز يناديني بهذا الاسم، وقد كنت مخلصة له. لقد عاش في بؤس ومعاناة ومات في الشقاء. هذا هو قدرنا نحن الروس جميعاً، الروس الذين لا أسماء لهم. لا شيء آخر لنا، ولا أمل في أي مكان، ما لم...

ـ ما لم...؟

ـ ما لم يتمّ القضاء على كل أولئك الذين لهم أسماء.

هذا ما أنهت به حديثها وهي تزمّ شفتيها وترمش بعينيها.

قال رازوموف:

ـ سيكون من الأسهل مناداتك «بتكلا» كما تريدين، هذا إذا ما وافقت على مناداتي بكيريلو، وذلك حين نتحدث بهذا الأسلوب... بهدوء... فيما بيننا نحن الاثنين.

ثم قال في نفسه: «هاهي كينونة خائفة جداً من العالم دون ريب، وإلاّ لسبق لها وهربت من هذا الوضع.» ثم فكّر في أن هجران الرجل العظيم فجأة سيجعلها في موضع الشبهات. لم تكن لتتوقع أي دعم أو تأييد من أي شخص. لم تكن هذه المرأة الثورية أهلاً لوجود مستقلّ.

تحركت بضع خطوات، وهي ترمش وتحتضن القطة مع حركات توازنية صغيرة من ذراعيها.

ـ أجل... أنت وأنا فحسب. هكذا كانت الحال مع «أندريه» المسكين، ولكنه كان يحتضر، قتله أولئك المتوحشون الرسميون.. أما أنت! أنت قويّ. أنت تقتل الوحوش. لقد أنجزت صنيعاً عظيماً.

Twitter: @ketab_n

حتى بيتر إيفانوفيتش نفسه يحسب لك حساباً. حسناً... لا تنسني... خاصة إن كنت ستعود إلى العمل في روسيا. أستطيع أن أتبعك، حاملة أي شيء يطلب مني... من بعيد، كما تعرف. أو أستطيع أن أراقب لمدة ساعات بحالها عند زاوية شارع إن كان ذلك ضرورياً - في المطر أو الثلج - أجل، أستطيع... طوال اليوم. أو أني أستطيع أن أكتب لك وثائق خطرة، لوائح اسمية أو تعليمية، حتى لا تتورّط في حال حدوث مكروه. ولا حاجة بك إلى أن تخاف إذا أمسكوا بي. سأعرف كيف أبقى خرساء. نحن النساء لا يخيفنا الألم بسهولة، لقد سمعت بيتر إيفانوفيتش يقول إن ذلك يعود إلى أعصابنا غير الرهيفة أو ما شابه. نستطيع تحمّل الألم على نحو أفضل. وهذا صحيح، وأني لأفضّل أن أعضّ لساني وأرمي به إليهم على أن أفصح بأي شيء. ما فائدة النطق بالنسبة إليّ؟ من ذا الذي يريد أن يصغي إلى ما أستطيع أن أقوله؟ منذ أن أغمضتُ عيني «أندريه» المسكين لم أقابل رجلاً بدا عليه الاهتمام بنبرة صوتي. ما كنت لأحادثك لو لم تعاملني بكل ذلك اللطف في أوّل مرة جئت فيها إلى هنا. لم أستطع سوى أن أتحدث عنك مع تلك الفتاة العزيزة الفاتنة. أوه، يا لها من مخلوقة عذبة! وقوية أيضاً! يمكن المرء أن يلاحظ ذلك فوراً. إن كان لك قلب فلا تدعها تأتي إلى هذا المكان أبداً. وداعاً.

أمسك بها رازوموف من ذراعها. وقد عبّرت عن انفعالها لإمساكها بهذه الطريقة بنضال قصير سكنت بعده حركتها دون أن تنظر إليه.

همس لها في أذنها:

ـ ولكنك تستطيعين أن تقولي لي لماذا يتوق هؤلاء الناس هنا إلى الإمساك بها إلى هذا الحد؟

حرّرت ذراعها لتواجهه وكأنها غضبت من السؤال.

Twitter: @ketab_n

ـ ألا تفهم أن على بيتر ايفانوفيتش أن يوجِّه ويُلْهِمَ ويترك تأثيره؟ هذه هي روح حياته. ولا يمكن أن يكتفي بأي عدد من الأتباع. إنه لا يستطيع أن يتحمّل التفكير في أن ينجو منه أي شخص، خاصة إن كانت تلك امرأة! يقول إنه لا يمكن إنجاز أي شيء دون النساء. لقد كتب ذلك، إنه...

كان الشاب يحدّق إلى انفعالها حين صمتت فجأة وركضت إلى ما وراء الإسطبل.

ثالثاً:

بعد أن تُرِك رازوموف لوحده، اتّجه نحو البوابة. ولكنه اكتشف في يوم الحوارات الكثيرة هذا أنه ما كان ممكناً له أن يغادر أرض القصر دون إجراء حوار آخر.

لقد ظهر من خلف مسكن البوّاب الزوّار المنتظرون لبيتر إيفانوفيتش: زمرة صغيرة مؤلفة من رجلين وامرأة. وقد لاحظوا وجوده هم أيضاً على الفور، وتوقفوا كأنما يريدون التشاور. ولكن المرأة التي تنحّت جانباً، أشارت بذراعها إلى الرجلين اللذين ابتعدا عن الطريق مباشرة واستمرا في طريقهما عبر مرج كبير مهمل، نحو المنزل مباشرة. بقيت المرأة على الممر منتظرة اقتراب رازوموف. لقد ميّزته. وكان هو أيضاً قد ميّزها من أول نظرة. لقد تعرّف عليها في زيوريخ حيث توقف هناك في طريقه من درسدن. وقد أمضيا معظم الوقت معاً خلال اليومين اللذين قضاهما هناك.

كانت ترتدي الزي نفسه الذي رآها فيه لأول مرة. قميص الحرير القرمزي الذي يجعلها لافتة للنظر من مسافة، ومعه تنورة بنية قصيرة وحزام جلدي. كان لون بشرتها هو لون القهوة والحليب، ولكنه مشرق تماماً؛ وكانت عيناها سوداوين لامعتين، وجسدها منتصباً. كان شعرها

Twitter: @ketab_n

الكثيف ذو اللون الأبيض تقريباً، غير مرتب تحت قبعة «تيرولية» مغبرة من قماش غامق اللون، بدت وكأنها فقدت بعض زركشتها.

كان تعبير وجهها جدياً وذا تصميم، جدّياً إلى حدّ أن رازموف اضطر بعد أن اقترب منها إلى الابتسام. صافحته مصافحة رجولية.

صاحت:

ـ ماذا؟ أنت مغادر؟ لمَ يا رازوموف؟

أجاب رازوموف وهو يضغط بدوره على يدها بقوة أقل من القوة التي بذلتها هي:

ـ أنا مغادر لأنه لم يطلب مني البقاء.

حركت رأسها جانباً إمارة الفهم.

في هذه الأثناء كانت عينا رازوموف قد سرحتا خلف الرجلين. كانا يعبران المرج بخط مائل ودون إسراع. كان أقصرهما يرتدي معطفاً ضيقاً مزرّراً مخيطاً من مادة رمادية رقيقة، ويصل إلى كعبيه تقريباً، أما رفيقه، الأطول والأعرض بكثير، فكان يرتدي جاكتة ضيقة قصيرة وبنطالاً ضيقاً حشر في جزمة عالية قذرة.

تحدثت المرأة التي أبعدتهما عن طريق رازوموف على نحو واضح بصوت عملي تماماً:

ـ كان عليّ أن أسرع قادمة من زيوريخ لأنتظر القطار وأحضر هذين إلى هنا لمقابلة بيتر إيفانوفيتش. وقد تمكنت من ذلك للتو.

قال رازوموف بلا مبالاة وقد انزعج تماماً من تلكئها لمحادثته:

ـ آه! حقاً! من زيوريخ... أجل، طبعاً. وهذان الاثنان... قادمان من...

قاطعته دون توكيد:

ـ من اتجاه آخر تماماً. من مسافة بعيدة أيضاً. مسافة كبيرة.

Twitter: @ketab_n

هز رازوموف كتفيه. كان الرجلان القادمان من بعيد قد اختفيا فجأة، بعد أن وصلا إلى جدار الشرفة، وذلك عند سفحها، كأن الأرض فتحت فاها لتبتلعهما.

ـ أوه، حسناً، لقد وصلا للتوّ من أمريكا.

هزت المرأة ذات القميص القرمزي كتفيها قليلاً هي أيضاً قبل أن تتلفظ بهذا التصريح. ثم صاحت وكأنها تحدث نفسها:

ـ الموعد يقترب. لم أقل لهما من أنت. كان من شأن «ياكوفليتش» أن يعانقك.

ـ هل هو ذاك الذي تتدلى حفنة من الشعر من ذقنه ويرتدي المعطف الطويل؟

ـ لقد حزرت. ذاك هو ياكوفليتش.

ـ أما كانا يستطيعان أن يجدا طريقهما إلى هنا من المحطة دون قدومك لهذا الغرض خصيصاً من زيوريخ؟ حقاً إننا لا نستطيع أن نفعل أي شيء دون النساء. هذا ما كُتب والأمر هكذا على ما يبدو.

كان يحسّ بتعب هائل كامن خلف محاولته أن يكون تهكمياً. وقد استطاع أن يرى أنها قد اكتشفت ذلك بعينيها اللامعتين السوداوين الهادئتين.

ـ ما حكايتك؟

ـ لا أعرف. لا شيء لقد كان يومي شيطانياً.

انتظرت، وعيناها السوداوان مثبتتان على وجهه. ثم قالت:

ـ وماذا في ذلك؟ أنتم الرجال شديدو الحساسية والخجل. اليوم ككل يوم آخر، هو يوم قاس، قاس... وهناك نهاية له، إلى أن يأتي اليوم العظيم. لقد جئت لسبب جيد جداً. لقد كتبا إلى بيتر إيفانوفيتش ليبلغاه بقدومهما. ولكن من أين؟ كتبا من «شيربورغ» على قطعة صغيرة من

Twitter: @ketab_n

دفتر السفينة. كان يمكن لأي شخص أن يفعل ذلك. بعيش ياكوفليتش منذ سنوات وسنوات في أمريكا. وأنا الوحيدة التي عرفته جيداً في الأيام الخالية. لقد عرفته جيداً بالفعل. وهكذا أبرق لي بيتر إيفانوفيتش طالباً مني أن أحضر. هذا طبيعي بما فيه الكفاية، أليس كذلك؟

سألها رازوموف:

ـ هل حضرت لتتأكدي من شخصيته؟

ـ أجل. شيء من هذا القبيل. خمسة عشر عاماً في حياة كهذه يمكن أن تحدث تغييرات في الرجل. كان وحيداً، كغراب في بلد غريب. حين أفكر في ياكوفليتش قبل أن يذهب إلى أمريكا...

دفعت رقة لهجتها الخفيضة برازوموف إلى النظر إليها من جانب، تنهدّت؛ وكانت قد غرزت أصابع يدها اليمنى عميقاً في كومة شعرها الأبيض اللون تقريباً، وراحت تحركها بذهن غائب. وحين سحبت يدها بقيت القبعة الصغيرة الجاثمة فوق رأسها مائلة قليلاً. بدا مظهرها فضولياً غريباً، ولكنه يتباين بشدة مع الغمغمة الحافلة بالذكريات التي أفلتت منها:

ـ لم نكن في أول الشباب حتى آنذاك. ولكن الرجل طفلٌ على الدوام.

فكر رازوموف فجأة: «كانا يعيشان معاً». ثم فكر بصوت مرتفع وهو يسألها بصراحة:

ـ لماذا لم تلحقي به إلى أمريكا؟

نظرت إليه باضطراب.

ـ ألا تذكر ما كان يجري منذ خمسة عشر عاماً؟ كانت تلك فترة نشاط. كان للثورة تاريخها في ذلك الحين. أنت ضمن ذلك ومع ذلك لا يبدو أنك تعرفه. لقد سافر ياكوفليتش آنذاك في مهمة، وعدت أنا إلى روسيا. وكان على الأمر أن يكون كذلك. وبعد ذلك لم يعد لديه ما يعود من أجله.

Twitter: @ketab_n

همهم رازوموف بدهشة مصطنعة:

ـ آه! حقاً. لا شيءً!

سألته بعجلة:

ـ ما الذي تحاول أن تلمح إليه؟ وماذا إذن لو أن همته ثبطت بالفعل قليلاً..؟

ـ إنه يبدو كواحد من «اليانكي» بذلك العثنون المتدلي من ذقنه. مجرد «عم سام» عادي. حسناً، وأنت التي ذهبت إلى روسيا؟ أنت لم تثبط همتك.

ـ حسناً. ياكوفليتش شخص بعيد عن الشك. إنه، على أية حال، من الصنف الصحيح.

بقيت نظراتها السوداء الثاقبة مثبتة على رازوموف خلال الكلام وللحظة أخرى بعده.

سألها رازوموف ببرود:

ـ عفوك، ولكن هل يعني ذلك أنك، مثلاً، تظنين أني لست من الصنف الصحيح؟

لم تعترض، ولم تبد عليها أي أمارة تدل على أنها سمعت السؤال، بل استمرت تنظر إليه بأسلوب بدا له غير ودي إطلاقاً. حين مرّ بمدينة زيوريخ كانت قد وضعته في عهدتها، بطريقة ما، وكانت معه من الصباح حتى الليل خلال إقامته هناك لمدة يومين. كما أخذته في جولة لمقابلة أناس عديدين. في البداية كانت تحدثه مطوّلاً وعلى نحو غير متحفظ، ولكنها كانت تتجنب كل إشارة إلى شخصها بالذات. وحوالي منتصف اليوم التالي صمتت فجأة خلال رعايتها له بالحماسة نفسها، بل وحتى خلال مرافقته إلى محطة السكة الحديدية، حيث ضغطت بشدة على يده عبر النافذة المفتوحة للقطار.

Twitter: @ketab_n

ثم تراجعت دون كلمة واحدة، انتظرت القطار حتى انطلق. وكان قد لاحظ أنها كانت تتلقى معاملة احترام هادئ. لم يكن يعرف شيئاً عن حَسَبها، ولا عن قصة حياتها أو ملفّها السياسي، بل حكم عليها من وجهة نظره الخاصة على أنها خطر واضح يعترض طريقه. وربما لا تكون عبارة «حكم عليها» هي الكلمة الصحيحة. كان ذلك شعوراً بالأحرى، تجميعاً للانطباعات الصغيرة مدعّماً باكتشاف أنه لم يكن قادراً على احتقارها كما احتقر الآخرين جميعاً. لم يكن يتوقع رؤيتها مجدّداً خلال هذه الفترة القصيرة.

لا، دون شك، لم تكن تعابيرها غير وديّة. ومع ذلك فقد لاحظ تسارعاً في نبض قلبه. ما كان ممكناً قطع الحوار هنا. فاستأنف بلهجة الاستفسار المدقّق:

ـ هل ذلك لأني أرفض ربما قبول كل تطور في المبدأ العام على نحو أعمى... مثلاً مبدأ نصرة المرأة الذي ينادي به بيتر إيفانوفيتش؟ إن كان هذا هو ما يجعلني مشبوهاً، فإني لا أقول سوى أني أحتقر فكرة أن أكون عبداً حتى ولو لفكرة..

كانت تنظر إليه طال الوقت، ليس كما ينظر المستمع إلى المتحدث، ولكن كأنما كانت الكلمات التي يختارها ذات أهمية ثانوية. وحين انتهى دفعت بيدها، بحركة فجائية ومصمّمة، تحت ذراعه ودفعته إنما بلطف نحو بوابة القصر الخارجية. أحس بثباتها وأطاع هذا الدافع فوراً، تماماً كما فعل الرجلان الآخران قبل برهة. لقد أطاع، دون أخذ وردّ، حركة يدها.

وقد سارا بضع خطوات على هذا النحو.

ـ لا يا رازوموف، ربما تكون أفكارك مقبولة. قد تكون ذات قيمة كبيرة... جداً. ولكن مشكلتك هي أنك لا تحبّنا.

Twitter: @ketab_n

حرّرته. واجهها بابتسامة جليدية.

ـ هل يُتوقّع مني إذن أن أمتلك الحب والقناعات؟

هزّت كتفيها.

ـ أنت تعرف بالضبط ما أعنيه. الناس أصبحوا يعتقدون أنك لست مخلصاً قلباً وقالباً. ولقد سمعت هذا الرأي من هذا الجانب ومن جانب آخر. ولكني كنت قد فهمتك منذ نهاية اليوم الأول...

قاطعها رازوموف وهو يتحدث بثبات:

ـ أؤكد لك أن حدة ذهنك قد أخطأت هنا.

صاحت معترضة:

ـ يا للجمل التي يستعملها! آه! يا كيريلو سيدوروفيتش، أنت نيّق كالرجال الآخرين، مترع بحب الذات وخائف من التوافه. وعلاوة على ذلك. ليس لديك أي توجيه. إن ما أنت في حاجة إليه هو أن تأخذ امرأةٌ ما بيدك. ويؤسفني أني لن أبقى هنا طويلاً. سأعود إلى زيوريخ غداً، وسوف أصطحب معي ياكوفليتش على الأرجح.

وقد بعثت هذه المعلومة الراحة في قلب رازوموف.

قال:

ـ أنا آسف أيضاً. ولكني لا أظنّ أنك تفهمينني على أية حال.

تنفّس بحرية أكبر، ولكنها لم تحتجّ، بل سألته:

ـ وهل تفاهمت مع بيتر إيفانوفيتش؟ لقد التقيتما كثيراً. كيف هي الحال بينكما؟

حار الشاب في الجواب وكان أن أمال رأسه جانباً ببطء.

كانت قد باعدت ما بين شفتيها في حالة من التوقع. ضغطتهما معاً وراحت تتأمل.

Twitter: @ketab_n

- على ما يرام.

بدا هذا كشيء نهائي، ولكنها لم تغادره. كان من المستحيل أن يحزر ما في رأسها. غمغم رازوموف:

- كان يتوجّب عليك عدم طرح هذا السؤال عليّ أنا. سترين بيتر إيفانوفيتش بعد لحظات، وسوف تتحدّثان عن هذا الموضوع بالطبع. سيكون توّاقاً إلى أن يعرف السبب الذي أخّرك في حديقته هذه الفترة الطويلة.

- لا شكّ أنه سيكون لدى بيتر إيفانوفيتش ما يقوله لي. أشياء عدة. وقد يتحدث عنك حتى... ويسألني. بيتر إيفانوفيتش ميّال إلى الثقة عموماً.

- يسألك؟ هذا محتمل جداً.

ابتسمت ابتسامة نصف جدية:

- حسناً... وماذا سأقوله له؟

- لا أعرف. ربما ستحكين له عن اكتشافك.

- وما هو ذاك؟

- عجباً... قلّة حبي لـ...

قاطعته قائلة:

- أوه! هذا أمر يخصنا نحن الاثنين فحسب.

وكان من الصعب معرفة إن كانت مازحة أم جادة.

قال رازوموف بلهجة مازحة ووجه كالح:

- أرى أنك تريدين أن تقولي شيئاً ما في صالحي لبيتر إيفانوفيتش. حسناً إذن، يمكنك أن تقولي له إني متحمّس جداً لمهمتي، وأنوي النجاح.

Twitter: @ketab_n

صاحت متعجّبة وبعجلة:

ـ وهل أوكلت مهمة إليك؟

ـ تقريباً. لقد طلب مني أن أرتّب أمر حدث معيّن.

نظرت إليه متمحّصة.

كرّرت بجدية واهتمام في الوقت نفسه:

ـ مهمة. أي نوع من المهمات؟

ـ شيء له طبيعة العمل الدعائي.

ـ آه! بعيداً عن هنا؟

ـ لا، ليس بعيداً جداً.

هذا ما قاله رازوموف وهو يكبح رغبة مفاجئة في الضحك، رغم أنه لم يكن يشعر بالمرح إطلاقاً.

قالت متأملة:

ـ هكذا! حسناً، لا أقوم بطرح الأسئلة. يكفي أن بيتر ايفانوفيتش يعرف ما الذي يفعله كل واحد منا. ولا بدّ أن يصل كل شيء إلى الوضع الصحيح في النهاية.

ـ هل تظنين ذلك؟

ـ لا أظنّ أيها الشاب. بل أؤمن به بكل بساطة.

ـ وهل بيتر إيفانوفيتش وراء هذا الإيمان؟

لم تجب على السؤال، ووقفا معاً ساكنين صامتين، كأنما هما متردّدان في ما يخصّ مسألة الفراق.

غمغمت أخيراً:

ـ هذا أشبه بموقف الرجال. لكأنه من الممكن أن يعرف المرء كيف يأتي الإيمان إليه.

Twitter: @ketab_n

تحرك حاجباها الرفيعان الشيطانيان قليلاً.

- هناك ملايين من الناس في روسيا يحسدون الكلاب على حياتها في هذا البلد. وأنه لأمر مرعب ومخجل أن أعترف بهذا حتى بيني وبينك. على المرء أن يؤمن إشفاقاً. لا يمكن لهذا أن يستمر. كلا! لا يمكن أن يستمر. منذ عشرين عاماً وأنا أجيء وأروح، دون أن أنظر إلى اليسار أو اليمين... لماذا تبتسم؟ أنت لا تزال في البداية. لقد بدأت بداية حسنة، ولكن انتظر حتى تكون قد دست على كل جزيء فيك تحت قدميك خلال ذهابك ومجيئك تلك المرات العديدة. فهذه هي النتيجة. عليك أن تدوس على كل جزء من مشاعرك؛ فلن تستطيع التوقّف ويتوجّب عليك ألاّ تتوقف. كنت شابة أنا أيضاً... ولكنك تظنّ ربما أني أتذمّر... أليس كذلك؟

احتجّ رازوموف دون اهتمام:

- لا أظنّ ذلك إطلاقاً.

- أعتقد أنك صادق أيها المخلوق العزيز المتفوّق. أنت لا تهتم ولا تكترث.

غرزت أصابعها في كومة الشعر التي على الجانب الأيسر من رأسها، وكان أن أعادت تلك الحركة الفظّة القبعة التيرولية إلى مكانها الصحيح على رأسها. عبست تحت القبعة بعدائية، بأسلوب قاضي تحقيق. أشاح رازوموف وجهه بلا مبالاة.

- أنتم معشر الرجال متشابهون. تخطئون فتحسبون الحظّ ميّزة. وتفعلون ذلك عن إيمان حقيقي! لن أقسو كثيراً عليك. تلك هي الطبيعة الذكرية. أنتم معشر الرجال مثيرون للشفقة إلى حد مضحك وذلك في ميلكم إلى تبنّي أوهام طفولية حتى قبوركم. هناك الكثيرات منا اللواتي لازلن يعملن منذ خمسة عشر عاماً -أعني على نحو

Twitter: @ketab_n

متواصل - وهنّ يجربن شتّى الطرق ويعملن سراً وجهراً، دون أن ينظرن إلى اليمين أو اليسار! أستطيع أن أتحدث عن ذلك. لقد كنت واحدة من أولئك اللواتي لم يسترحن أبداً... عجباً! ما فائدة الكلام... انظر إلى شعري الأشيب! وهاهما طفلان يأتيان... أعني أنت وهالدين... تأتيان وتستطيعان أن توجّها ضربة من أول محاولة.

لدى سماعه اسم هالدين وهو يسقط من الشفتين السريعتين النشطتين للمرأة الثورية، انتاب رازوموف ذلك الوعي الفظ المعتاد بما لا يمكن إلغاؤه. ولكن مع كل الشهور التي مرت على رأسه كان قد أصبح معتاداً على هذه التجربة. لم يعد الوعي مصاحباً بالفزع المربك والغضب الأعمى اللذين عرفهما في الأيام الأولى. لقد أقنع نفسه بمعتقدات جديدة، كما صنع لنفسه جواً ذهنياً من الاستغراق الكئيب الساخر، نوعاً من الوسط الضبابي الذي تبدو الحادثة من خلاله كظلّ عديم الملامح له شكل رجل إنما على نحو غامض، وهو شكل مألوف جداً ولكنه خال من التعبير تماماً، باستثناء جوّ الانتظار المتجرّد في الغسق. لم يكن ذلك مزعجاً.

سألته المرأة الثورية على نحو غير متوقع:

ـ وكيف كان شكله؟

ردّد رازوموف وهو يبذل جهداً مؤلماً حتى لا يهاجمها بوحشية:

ـ كيف كان شكله؟

ولكنه حرّر نفسه بالضحك قليلاً بينما سرق نظرة منها بزاوية عينه. لقد أربكها هذا الرد على سؤالها.

استأنف قائلاً:

ـ لكم هذا سؤال نسائي! ما الفائدة من الاهتمام بمظهره؟ مهما كان مظهره فإنه أصبح خارج كل التأثيرات الأنثوية الآن.

Twitter: @ketab_n

ارتسمت تقطيبة على وجهها صانعة ثلاث تجعيدات عند جذر أنفها، ممّا أبرز الميل الشيطاني لحاجبيها.

قالت بصوتها الخفيض الواثق:

ـ أنت تعاني يا رازوموف.

واجه رازوموف المرأة بوضوح:

ـ ما هذا الهراء! ولكني إذ أفكّر الآن بالأمر، لا أظنّ أنه خارج تأثير امرأة واحدة على الأقل... تلك المرأة التي هناك: «المدام دو سـ...». في السابق كان يسمح للموتى أن يرتاحوا، ولكن يبدو الآن أنهم تحت تصرّف إشارة ونداء عجوز شكسة ومجنونة. نحن الثوريين نقوم باكتشافات رائعة. صحيح أنها ليست من صنعنا نحن بالضبط. ليس لدينا ما هو خاصتنا. ولكن ألا تستطيع صديقة بيتر إيفانوفيتش أن تشبع فضولك الأنثوي؟ ألم تستطع أن تستحضره لك روحياً؟...

هذا ما قاله ساخراً متألماً.

كان تعبيرها المقطّب المركّز قد تراخى، ثم قالت بتعب نوعاً ما:

ـ فلنأمل أنها ستبذل جهداً وتستحضر شاياً لنا. ولكن هذا ليس مؤكّداً على أية حال. أنا متعبة يا رازوموف.

ـ أنت متعبة! يا له من اعتراف! حسناً، كان هناك شاي حين كنت هناك. لقد شربت بعض الشاي. إذا أسرعت باللحاق بياكوفليتش، بدلاً عن تضييع وقتك مع شخص شكّاك يثير الرضا مثلي، فقد تجدين شبحه... شبحه البارد... وهو لازال يتسكّع في المعبد. أما فيما يخص كونك متعبة، فلا أستطيع تصديق ذلك إلاّ بالكاد. لقد قرأت في إحدى الصحف منذ فترة مقالة منذرة حول النشاط الذي لا يعرف الكلل للأحزاب الثورية. وهذا يترك تأثيره على العالم. هذه هي ميزتنا.

Twitter: @ketab_n

قالت المرأة في القميص القرمزي وكأنها تناجي شخصاً ثالثاً دون أن تغادر عيناها السوداوان وجه رازوموف:

ـ إنه يرمي بهذه الإهانات والتهكّمات باستمرار، ولماذا يا ترى؟ كل ذلك لأن بعض أفكاره التقليدية أصيبت بصدمة، وكذلك بعض معاييره الذكورية الصغيرة. قد تعتقد أنه واحد من أولئك الحساسين العصبيين الذين ينتهون نهاية سيئة.

توقفت عن الكلام لفترة قصيرة تأمّليّة ثم غيّرت صيغة المخاطبة.

ـ ومع ذلك فقد علمت للتو بشيء ما يجعلني أظنّ أنك رجل ذو شخصية متميزة يا كيريلو سيدوروفيتش. أجل بالفعل... أنت كذلك.

روّع رازوموف لهذه اليقينية الغامضة الكامنة وراء هذا الجزم. تقابلت عيونهما. أشاح بنظره بعيداً، ومن خلال قضبان البوابة الصدئة، راح يحدق إلى الطريق الواسعة النظيفة المظلّلة بالأشجار المورقة. كانت حافلة كهربائية، فارغة تماماً، تسير على امتداد الشارع محدثة خشخشة معدنية. بدا له أنه مستعد أن يمنح أي شيء لقاء الجلوس في داخلها وحيداً. كان منهكاً إلى آخر حد، منهكاً في كل نسيج من جسده، ولكن كان لديه سبب يدفعه إلى ألاّ يكون المبادر إلى قطع الحوار. في أية لحظة، ضمن ذلك الهذيان المثالي والإجرامي، فقد تقع على أسماعه بعض الكلمات الخطيرة؛ من شفتيها، أو من شفتي أيٍ شخص آخر. وطالما استطاع أن يحتفظ بذهن صاف وأن يبقى نزقه تحت السيطرة، لم يكن هناك ما يخشاه. كان الشرط الوحيد للنجاح والأمان هو قوة الإرادة التي لا تقهر. هذا ما راح يذكّر نفسه به.

كان يتوق إلى أن يكون على الطرف الآخر من القضبان، وكأنه بالفعل سجين داخل أرض مركز المؤامرات الثورية هذا، منزل

Twitter: @ketab_n

الحماقات والجهل والشر والجريمة. أطلق العنان بصمت لروحه الجريحة في شعور من العزلة الأخلاقية والذهنية الهائل. لم يبتسم حتى حين سمعها تكرّر الكلمات التالية:

ـ أجل ذو شخصية قوية.

استمر في التحديق عبر القضبان كسجين ذي مزاج متعكّر، لا يفكّر في الهرب، بل يتأمّل في ذكريات الحرية الباهتة فحسب.

غمغم وهو لا يزال ينظر إلى البعيد:

ـ إذا لم تنتبهي، فسوف لن تطالي حتى شبح ذلك الشاي.

لم تهتّز لكلماته أبداً. بل أنه لم يكن يتوقع النجاح.

ـ لا بأس، لن تكون تلك خسارة كبيرة. أعني ألاّ أشرب من شايها، بل مجرد شبحه على أية حال. أما فيما يخص «المدام» فعليك أن تفهم أن لها استخدامات إيجابية. أترى ذلك يا رازوموف؟

التفت برأسه من جراء هذا السؤال الآمر ورأى المرأة الثورية تقوم بحركات عدّ النقود في راحتها.

ـ هذا هو الأمر. هل ترى ما هو؟

تلفّظ رازوموف بعبارة. «أرى ذلك» ببطء، ثم عاد إلى تحديقته السجينة نحو الطريق النظيفة المظلّلة.

ـ الوسائل المادية لا بدّ من الحصول عليها بطريقة ما أو بأخرى، وهذا أسهل من اقتحام المصارف، وأضمن أيضاً. حسناً! أنا أمزح... ما الذي يغمغم به لنفسه الآن؟

هذا ما صاحت به همساً.

ـ إعجابي بالتضحية المخلصة بالذات لبيتر إيفانوفيتش، هذا كل ما في الأمر. هذا ما يجعل المرء يصاب بالغثيان.

Twitter: @ketab_n

ـ أوه، أنت أيها المخلوق الذكري سريع الغثيان. تشعر بالغثيان! يصيبه بالغثيان! وماذا تعرف عن حقيقة الأمر؟ لا تَطلُّعَ هناك إلى أسرار القلب. كان بيتر إيفانوفيتش يعرفها منذ سنوات، في أيام الشباب حين كان ضابطاً شاباً في سلاح الحرس. لا يمكننا نحن أن نحكم على شخص ملهم. هنا لا توجد لكم معشر الرجال أية ميزة. أنتم ملهمون أحياناً في الفكر والعمل معاً. لطالما اعترفتُ أنكم حين تكونون ملهمين، حين تقدرون على نبذ جبنكم واحتشامكم الذكوريين، فإنه يجب أن نُعامل على درجة واحدة من المساواة. ولكن كم من النادر أن يحدث هذا... بينما أكثر النساء حماقة يمكن أن تكون ذات نفع. ولكن لماذا؟ لأننا نتحلّى بالعاطفة، بالعاطفة غير القابلة للإشباع... أودّ أن أعرف لماذا يبتسم؟

احتج رازوموف بكآبة:

ـ أنا لا أبتسم.

ـ حسناً! كيف يسمي المرء ذلك؟ لقد كان هناك انطباع ما على وجهك. أجل أعرف! أنتم الرجال يمكنكم أن تحبوا هنا وتكرهوا هناك وأن ترغبوا بشيء ما أو بآخر... وأنتم تثيرون الدنيا حول ذلك، وتسمون ذلك عاطفة! أجل! خلال فترة دوامها. ولكن نحن النساء واقعات في غرام الحب، والكراهية، هذه الأشياء بالذات، والرغبة ذاتها. لهذا لا يمكن رشوتنا بسهولة كما الرجال. في الحياة ليس أمامنا الكثير من الخيار. إما أن نتعفن أو نحترق. وليست هناك واحدة منا، سواء كانت مطلية بالمساحيق أم لا، لا تفضل الاحتراق على التعفّن.

كانت تتحدث بحيوية، ولكن بلهجة سرد الوقائع. كان اهتمام رازوموف قد شرد باتجاه آخر، خارج قضبان البوّابة... ولكن ليس دون إصغاء. دفع بيديه في جيبي معطفه.

Twitter: @ketab_n

ــ التعفّن أو الاحتراق! لقد عبّرتِ عن ذلك بقوة. مطلية بالمساحيق أو غير مطلية! قوية جداً! مطلية بالمساحيق أم... قولي لي: لا شك أنها ستكون شديدة الغيرة منه، أليس كذلك؟

ــ من؟ ماذا؟ البارونة؟ إلينور ماكسيموفا؟ تغار من بيتر إيفانوفيتش؟ يا للسماء! أهذه هي الأسئلة التي يفكر فيها عقل الرجل؟ مثل هذا الأمر لا يمكن أن يخطر في بال.

ـ لماذا؟ ألا يمكن لامرأة عجوز ثرية أن تكون غيورة؟ أم هل هما روحان نقيتان معاً؟

ـ ولكن ما الذي جعلك تسأل مثل هذا السؤال؟

ـ لا شيء. لقد طرحتُه فحسب. تفاهة ذكورية إن أحببت.

ردت عليه فوراً:

ـ لا أحب. ليس هذا هو وقت التفاهات. من أي شيء تسخر؟ أو أنك تلعب دوراً ما ربما.

أحس رازوموف أن مراقبة المرأة له أشبه باتصال جسدي، كأن هناك يداً ترتاح بخفة على كتفه. في تلك اللحظة أحس بالانطباع الغامض بأنها قررت أن تمسك به على نحو أشد. تماسك داخلياً ليتحمل ذلك دون أن يورّط نفسه.

كرر وهو يقدم لها جانب وجهه:

ـ ألعب دوراً. لا شك أن الأمر يتم على نحو سيئ جداً حتى أنك أصبحت تنظرين إلى الأمر من باب الافتراض.

راقبته وجبينها قد تغضن بتجعيدات عمودية، والحاجبان الأسودان الرفيعان ينفرجان نحو الأعلى كقرني استشعار إحدى الحشرات. أضاف بصوت يكاد يكون مسموعاً:

ـ أنت مخطئة. لا أفعل ذلك أكثر من بقيتنا.

Twitter: @ketab_n

صاحت فجأة:

ـ من الذي يفعله؟

قال بصبر نافد:

ـ من؟ الكل. أنت مادية النزعة، أليس كذلك؟

ـ ماذا؟ يا روحي العزيزة، لقد تجاوزتُ كل ذلك الهراء.

ـ ولكن عليك أن تتذكري تعريف «كابانيس»: «الإنسان أنبوب هاضم.» أتخيّل الآن...

ـ أبصق عليه.

ـ ماذا؟ على «كابانيس»؟ حسناً. ولكنك لا تستطيعين تجاهل أهمية الهضم الجيد. إنه متعة الحياة... أتعرفين متعة الحياة؟ ... تلك تعتمد على معدة سليمة، بينما يجعل الهضم السيئ الإنسان ميالاً إلى الشكوكية، ويولّد لديه خيالات سوداء وأفكار الموت. هذه حقائق يؤكدها علماء الفيزيولوجيا. حسناً، أؤكد لك أني منذ جئت من روسيا فقد حُشيتُ بتلفيقات أجنبية عسيرة على الهضم من النوع الذي يثير الغثيان إلى أقصى حد... أف!

غمغمت غير مصدقة:

ـ أنت تمزح.

فوافقها بأسلوب غير متحيّز.

ـ أجل، المسألة كلها عبارة عن نكتة. وهي لا تستحقّ إلاّ بالكاد التحدث إلى رجل مثلي. ولكن لهذا السبب بالذات عُرف عن رجال أنهم انتحروا.

ـ بل العكس هو الصحيح، أعتقد أنه لأمر مهم أن أتحدث إليك.

بقي ينظر إليها من زاوية عينه. بدا عليها أن تفكّر بردّ قاس، ولكنها هزّت كتفيها قليلاً فحسب.

Twitter: @ketab_n

- كلام سطحي! أعتقد أن على المرء أن يغفر هذا الضعف فيك.

هذا ما قالته مع توكيد خاص على الكلمات الأخيرة. كان هناك نوع من القلق في استنتاجها المتسامح.

لاحظ رازوموف أدقّ درجات هذه المحادثة، والتي لم يكن يتوقعها، والتي لم يكن مستعداً لها. تلك كانت المسألة. قال لنفسه: «لم أكن مستعداً. لقد فوجئت على حين غرّة.» بدا له أنه لو استطاع فحسب أن يسمح لنفسه أن يلهث بصراحة ككلب حتى يمرّ هذا الكبح. فكّر يائساً: «لن أتمكّن من أكون جاهزاً أبداً.» ضحك قليلاً وهو يقول بأخفّ لهجة ممكنة:

- شكراً. لا أطلب الرحمة.

ثم اصطنع نوعاً من القلق المرح وقال:

- ولكن ألا تخشين أن يشكّ بيتر إيفانوفيتش في أننا نتآمر على شيء غير مسموح به عند البوابة هنا؟

- لا، لا أخشى ذلك. أنت بعيد عن الريبة طالما أنك معي أيها الشاب العزيز.

انطفأت اللمعة المرحة في عينيها السوداوين واستأنفت بصرامة:

- بيتر إيفانوفيتش يثق بي. إنه يستشيرني. أنا يده اليمنى في أهم المسائل... هذا يسلّيك.. ماذا؟ أتظنّ أني أتبجّح؟

- لا سمح الله. ولكن كنت أقول لنفسي إنه يبدو أن بيتر إيفانوفيتش قد حلّ قضية المرأة حلاً كاملاً.

حتى وهو يتحدّث، كان يلوم نفسه على كلماته، وعلى لهجته. فمنذ الصباح وهو يتلفّظ بالأخطاء. كانت تلك حماقة، بل أسوأ من حماقة. كان ذلك ضعفاً. كان داء المشاكسة يسيطر على إرادته، هل كانت تلك هي الطريقة المناسبة للردّ على حوار يحوي الكثير من

Twitter: @ketab_n

الوعود بمستقبل مضمون تطلقها تلك المرأة التي يبدو أن لديها الكثير من الأسرار وكل هذا النفوذ؟ لماذا يوحي إليها بهذا الانطباع المحيّر؟ ولكن لم يبد عليها عدم الود. لم يكن في صوتها أي غضب. كان صوتها تأمّليا على نحو غريب.

ـ لا يعرف المرء ما يفكّر به رازوموف. لا بدّ وأنك مضغت شيئاً مرّاً في مهدك.

حدجها رازوموف بنظرة جانبية ثم غمغم:

ـ هم... م! شيء مرّ؟ هذا تفسير معقول، ولكن كان ذلك بعد المهد بكثير. ألا تعتقدين يا صوفيا أنتونوفنا أننا كلانا من المهد نفسه؟

غمغمت المرأة الثورية بعد فترة توقف، والتي أرغم نفسه أخيراً على التلفظ باسمها (كان قد أحسّ باشمئزاز قوي من فكرة جعل اسمها يمرّ من خلال شفتيه):

ـ أتعني ... روسيا؟

توقّع حتى عن أن يومئ برأسه. بدا عليه أنها لانَتْ، فعيناها السوداوان كانتا هادئتين جداً وكأنها كانت تتابع هذا التشبيه في ذهنها مع كل تداعياته الرقيقة. ولكنها قطّبت حاجبيها فجأة بأسلوب شيطاني.

ـ أجل. ربما لا عجب إذن. أجل. يقبع المرء هناك ملفوفاً بالشرور، تراقبه كائنات أسوأ من الغيلان والوحوش ومصاصي الدماء. لا بدّ من طردها وتدميرها نهائياً. وفيما يخصّ تلك المهمة لا شيء يهمّ إن كان الرجال والنساء مصمّمين ومخلصين. هذا ما أحسست به في النهاية. الأمر الهام هو ألاّ نتشاجر فيما بيننا حول كل أنواع التفاهات التقليدية. تذكّر ذلك يا رازوموف.

Twitter: @ketab_n

لم يكن رازوموف يصغي إليها. كان قد فقد حتى الإحساس بأنه مراقب في نوع من الهدوء الثقيل. كانت حدة قلقه ويأسه واحتقاره قد خفّت إلى الأبد. فكّر في نفسه بقناعة صارمة جداً بحيث لا يمكن أن تكون مبتهجة: «أنا ندٌّ لهم جميعاً.» كانت المرأة الثورية قد توقّفت عن الكلام، ولم يكن هو ينظر إليها كما لم يكن هناك من مارّة على امتداد الطريق. بل كان ينسى أنه لم يكن وحيداً. سمع صوتها مرة أخرى، جافاً وعملياً ولكنه يكشف مع ذلك عن التردّد الذي كان السبب الحقيقي وراء صمتها المطوّل.

- قل لي يا رازوموف.

كشّر رازوموف، الذي كان وجهه ملتفتاً بعيداً عنها، كأنه رجل يسمع لحناً نشازاً:

- قل لي: هل صحيح أنه في صباح ذلك اليوم بالذات والذي تمّ فيه الصنيع بالذات حضرت فعلاً المحاضرات في الجامعة؟

مرّ جزء ممكن إدراكه من الثانية قبل أن تصله الفحوى الحقيقية للسؤال، كرصاصة تصيب بعد فترة من التماع المقذوف. ولحسن حظّه كانت يده الحرّة جاهزة ليمسك بها أحد قضبان البوابة. أمسكه بقوة هائلة، ولكن حضوره الذهني كان قد ولّى بعيداً. ما عاد يستطيع أن يصدر سوى صوت من النوع المقرقر المتذمّر.

حثّته قائلة:

- هيّا يا كيريلو سيدوروفيتش! أعرف أنك لست بالمتبجّح. هذا أمر واضح وجليّ. أنت رجل صموت جداً ربما. أنت تتغذّى على مرارة ما قابعة فيك. لست حماسياً. وربما تكون أقوى بسبب ذلك. ولكن يمكنك أن تحكي لي. يودّ المرء لو يفهمك أكثر قليلاً. لقد صعقتُ كثيراً... هل فعلتَ ذلك حقاً؟

Twitter: @ketab_n

استعاد صوته. كانت الطلقة قد أخطأته. لقد أطلقت عشوائياً، بل ربما كعلامة للتقرب من الهدف. كان ذلك صراعاً واضحاً للحفاظ على الذات. وكانت هي عدواً خطيراً أيضاً. ولكنه كان مستعداً للمعركة. كان مستعداً تماماً بحيث أنه حين التفت إليها لم تتحرك عضلة واحدة في وجهه.

قال دون حيوية، بأعصاب مستثارة ولكن بثقة كاملة بالنفس:

ـ بالتأكيد. محاضرات... بكل تأكيد. ولكن لم تسألين؟

كانت مترعة بالحيوية.

ـ لقد وصلني الموضوع في رسالة كتبها شاب من بطرسبورغ، واحد منّا، طبعاً. لقد شوهدتَ... لقد لوحظتَ وكانت معك دفاترك، وكنت تكتب الملاحظات... بكل برود...

طوّقها بتحديقته الثابتة.

ـ وما يعني ذلك؟

ـ مثل هذا البرود شيء رائع فاتن... هذا كل ما في الأمر. إنه برهان على القوة غير العادية للشخصية. يقول الشاب في رسالته إنه ما استطاع أحد أن يخمّن من وجهك وأسلوبك الدور الذي لعبته قبل ذلك بساعتين فحسب... ذلك الدور العظيم، الخطير، المجيد...

قال رازوموف بجدية:

ـ أوه، لا. لا أحد بمقدوره أن يخمّن ذلك، لأنه لا أحد في ذلك الحين...

ـ نعم، نعم. ولكنك مع ذلك رجل ذو قوة استثنائية. كنت تبدو كعادتك تماماً. وقد تم تذكّر ذلك لاحقاً بإعجاب...

قال رازوموف بالجدية المحدّقة ذاتها:

ـ لم يكلفني ذلك أي جهد.

Twitter: @ketab_n

صاحت:

ـ إذن فهو يدعو إلى المزيد من الإعجاب أيضاً.

ثم صمتت، بينما راح رازوموف يسأل نفسه إن لم يكن قد قال شيئاً غير ضروري بالمرة... أو ما هو أسوأ من ذلك.

رفعت رأسها بلهفة.

ـ أكنت تنوي البقاء في روسيا؟ كنت قد خططت ...

قاطعها رازوموف دون عجلة:

ـ لا، لم تكن لدي أية خطط من أي نوع.

قالت له فجأة:

ـ لقد نجوت ببساطة وابتعدت.

أحنى رأسه موافقاً وقال:

ـ ببساطة... أجل.

كان قد أرخى قبضته تدريجياً عن قضيب البوابة وكأنه قد اكتسب القناعة بأنه لا يمكن لطلقة عشوائية أن تصيب منه مقتلاً الآن. وفجأة ألهم أن يضيف:

ـ كان الثلج يهطل بغزارة شديدة كما تعلمين.

حركت رأسها حركة خفيفة كأنها تقدر كلامه حق قدره، كخبير في مثل هذه المسائل، باهتمام شديد، وكشخص قادر على أن يعالج كل نقطة على نحو حرفي. تذكر رازوموف شيئاً كان قد سمعه.

قال بلا اكتراث:

ـ لقد انعطفتُ في شارع جانبي ضيق.

ثم توقف كأنما لم تكن المسألة تستحق أن يتحدث عنها. ثم تذكر تفصيلاً آخر فرماه أمامها كمن يريد أن يرضي فضولها وهو يمنّ عليها بحسنة وأسلوب ازدرائي.

Twitter: @ketab_n

ـ لقد أحسست بالرغبة في أن أتمدد وأنام هناك على الأرض في الشارع.

طقطقت بلسانها مستغربة هذه الأمارة وقد دهشت تماماً بالفعل. ثم ... صاحت:

ـ ولكن الدفتر! الدفتر المذهل أيها الرجل. لا تعني أن الدفتر كان في جيبك سلفاً!

أجفل رازوموف. يمكن أن يكون ذلك علامة على نفاد الصبر.

ـ ذهبت إلى البيت. مباشرة إلى البيت.

ـ يا له من برود أعصاب! وهل تجرأت؟

ـ ولم لا؟ أؤكد لك أني كنت هادئاً تماماً. هاهه إيفانوفيتش! أهدأ من الآن ربما.

ـ أحبك أكثر بكثير الآن بالمقارنة مع تلك اللحظات التي تستسلم فيها لمزاجك السوداوي ذاك يا رازوموف. ولم يرك أحد من سكان البناء لدى عودتك...؟ قد يبدو هذا غريباً.

قال رازوموف بثبات:

ـ لا أحد. كان «دفورنيك» وصاحبة المنزل والخادم بعيدين عن طريقي. صعدت كشبح. كان ذلك الصباح صباحاً كثير الضباب. وكان الدرج معتماً. انزلقت كشبح. هل هو القدر؟ الحظ؟ ما رأيك؟

ـ أستطيع أن أرى ذلك!

انغلقت عينا المرأة الثورية على نحو غامض.

ـ حسناً... وأنت فكرت في...

كان كل شيء جاهزاً في ذهن رازوموف:

ـ لا، نظرت إلى ساعتي، طالما أنك تريدين معرفة كل شيء. كان هناك وقت كاف. تناولت الدفتر ونزلت الدرج مسرعاً على

Twitter: @ketab_n

رؤوس أصابعي. هل سبق لك وسمعت وقع أقدام رجل ينزل الدرج بحركة دائرية؟ لديهم مصباح غازي في الأسفل يشتعل ليل نهار. وأعتقد أنه يشعّ في هذه اللحظة هناك الآن... الصوت يخمد... والشعلة تغمز...

لاحظ تذبذب الدهشة وهي تمرّ فوق الفضول الثابت للعينين السوداوين المثبتتين على وجهه كأن المرأة الثورية كانت تستقبل رنين صوته في بؤبؤي عينيها بدلاً عن عينيها. تمالك نفسه، ومرّر يده على جبينه، مضطرباً، كرجل كان يحلم بصوت مرتفع.

ـــ وأين يمكن لطالب أن يعدو في الصباح إن لم يكن إلى محاضراته؟ في الليل المسألة أمر آخر. ما كنت لأكترث لو أن سكان البناء كله كانوا ينظرون إلي. ولكني ما كنت أعتقد أنه كان هناك أي واحد منهم. الأفضل ألا يُرى المرء وألاّ يُسمع. ها هه! الأشخاص الذين لا يُرَوْن ولا يُسمَعُون هم المحظوظون... في روسيا. ألست معجبة بحظي؟

قالت:

ـ مدهش! إن كان لديك الحظ والتصميم كذلك، فأنت ستكون عوناً كبيراً في العمل المطلوب الآن.

كانت لهجتها صادقة، وبدا لرازوموف أنها كانت تحزّرية، وكأنها كانت تخصص له مسبقاً، في ذهنها، حصته من العمل. كانت عيناها تنظران إلى الأرض. انتظر، ليس بحذر شديد الآن، ولكن بجدية واهتمام فرضتهما قبضة الخطر دائم الوجود. من يكون ذاك الذي كتب عنه تلك الرسالة من بطرسبورغ؟ زميل له في الجامعة، بالتأكيد أحد الضحايا البلهاء للدعاية الثورية، عبد مغفّل للمثاليات الأجنبية المخرّبة. شخص طويل ذو وجه ترك فيه الجوع بصماته وأنف أحمر، برز فجأة في ذهنه خلال بحثه هناك. لا شكّ أنه كان ذلك الشخص بالذات.

Twitter: @ketab_n

ابتسم داخلياً على هذا التشبث بالرأي الخاطئ الذي يحيط بالمسألة كلها، الخداع الذاتي لمثاليّ مجرم يحطّم وجوده كقصف رعدي في سماء صافية، ويترك صدى بين الحطام ضمن الافتراضات المزيفة لهؤلاء الحمقى الآخرين. تخيّل ذلك الأحمق الجائع المثير للشفقة وهو يغذي فضول اللاجئين الثوريين بهذه التفاصيل الفانتازية! لم يقيم الأمر على أنه يشكل خطراً على الإطلاق. بل على العكس من ذلك. كان ذلك - حسب ما وصلت إليه الأمور - لمصلحته بالأحرى، ضربة حظ عجيب يجب أن تُقبل بحذر مناسب.

سمع الصوت المتأمّل للمرأة يقول:

ـ ومع ذلك يا رازوموف، ليس لك وجه رجل محظوظ.

رفعت عينيها باهتمام متجدّد.

ـ إذن هكذا حدث ما حدث. بعد أن أنجزت عملك ابتعدت ببساطة واتجهت نحو غرفتك. مثل هذا الأمر قد ينجح أحياناً. وأعتقد أنه كان متفقاً على ذلك سلفاً، أي أنه ما أن يتم إنجاز الأمر، سيذهب كل واحد في طريقه؟

احتفظ رازوموف بجدية تعبيره والأسلوب المتأنّي إنما الحذر في الكلام.

سألها بلهجة خالية من الانفعال:

ـ ألم يكن ذلك أفضل شيء ممكن عمله؟

ثم أضاف بعد أن انتظر للحظة:

ـ لم نفكّر كثيراً فيما سنفعله لاحقاً. لم نناقش رسمياً أي أسلوب للتصرف. كان ذلك مفهوماً ضمنياً على ما أعتقد.

وافقته على ذلك بإيماءات خفيفة برأسها.

ـ كنت راغباً في البقاء في روسيا طبعاً؟

Twitter: @ketab_n

شدّد رازوموف:

ـ في سانت بطرسبورغ بالذات. كان تلك هي الوجهة الآمنة الوحيدة لي. وعلاوة على ذلك، ما كان لديّ مكان آخر أذهب إليه.

ـ أجل! أجل! أعرف. هذا واضح. وذاك الآخر - ذاك الهالدين الرائع المأسوف عليه - ألا تعرف ما كان ينويه؟

كان رازوموف قد تنبأ بأن مثل هذا السؤال سيواجهه إن عاجلاً أم آجلاً. رفع يديه قليلاً ثم تركهما تسقطان بعجز إلى جانبه... ولا شيء آخر.

كانت المرأة المتآمرة بيضاء الشعر أوّل من حطّم الصمت.

قالت وهي تلفظ الكلمات ببطء:

ـ غريب جداً. وأنت يا كيريلو سيدوروفيتش، ألم تفكّر بأنه كان من المحتمل أن يرغب في الاتصال بك مرة أخرى؟

اكتشف رازوموف أنه لم يعد يستطيع كبح شفتيه. ولكنه فكّر في أنه كان مديناً لنفسه بأن يتكلّم. الحركات السلبية ما عادت تجدي. عليه أن يتكلّم، وذلك ليصل إلى ما كانت تحتويه رسالة بطرسبورغ تلك بالفعل.

قال وهو ينحني قليلاً ويقتحم بنظرته العينين السوداوين للمرأة بحيث أنها ما كانت لتلاحظ ارتجاف شفتيه:

ـ لقد بقيت في البيت في اليوم التالي. أجل، بقيت في البيت. وكما كُتب عن تصرفاتي وتمّ تذكّرها لاحقاً، فلا بدّ أنك تعرفين أني لم أشاهد في المحاضرات في اليوم التالي، أليس كذلك؟ أما كنت تعرفين؟ حسناً، لقد بقيت في البيت... طوال النهار.

بدا وكأنها تأثّرت بلهجته المنفعلة، فقد غمغمت بتعاطف:

ـ أفهم ذلك! لا شكّ أن الأمر كان مجهداً حقاً.

Twitter: @ketab_n

قال رازوموف بثبات:

ـ يبدو أنك تفهمين المشاعر. كان مجهداً حقاً. كان مريعاً. كان يوماً شنيعاً. ولم يكن آخر يوم من نوعه.

ـ أجل، لقد فهمت، تعني بعد ذلك، حين سمعت أنهم قد أمسكوا به؟ ألا أعرف كيف يشعر المرء بعد أن يفقد رفيقاً في معركة طيبة؟ يشعر المرء بالخجل لأنه نجا. وأستطيع أن أتذكّر أمثلة كثيرة. لا بأس. سيكون هناك ثأر وشيك لهم. وما هو الموت؟ على أية حال ليس الموت بالأمر المخجل كما هي بعض ضروب الحياة.

أحسّ رازوموف بشيء ما يتحرّك في صدره، بنوع من الرجفة الضعيفة المزعجة.

ردّد وهو ينظر إليها بتفحّص:

ـ بعض ضروب الحياة؟

ـ الحياة الذليلة المذعنة. حياة؟ لا! مجرد نموّ فوق الكومة القذرة للظلم الذي هو هذا العالم. الحياة يا رازوموف، لا يجب أن تكون تافهة بل أن تكون تمرداً ـ احتجاجاً لا هوادة فيه ـ طوال الوقت.

هدأت، وجفّ التماع الدموع المكبوتة في عينيها على الفور بحرارة الانفعال، واستأنفت بأسلوبها العمليّ المتمكّن:

ـ أنت تفهمني يا رازوموف، لستَ من النوع الحماسي، ولكن هناك قوة هائلة على التمرّد فيك. لقد أحسست بذلك من البداية، منذ أن رأيتك -كما تتذكّر - في زيوريخ. أوه! أنت مترع بالتمرّد المرير. هذا أمر جيد. قد يفتر السخط أحياناً، والانتقام نفسه قد يتحوّل إلى ضجر، ولكن هذا الإحساس العنيد بالضرورة والعدالة الذي زوّد يديك ويدي هالدين بالقوة على قتل ذلك الوحش المتعصّب... ذلك الإحساس... وليس أي شيء آخر. كنت أتأمّل وأفكّر في ذلك. ما كان يمكن أن يكون سوى ذلك.

Twitter: @ketab_n

انحنى رازوموف قليلاً، ولكن السخرية الكامنة وراء هذه الحركة تم إخفاؤها خلف ثبات غريب في الملامح.

ـ لا أستطيع التكلّم عن الموتى. أما فيما يخصّني شخصياً فأستطيع أن أؤكّد لك أن سلوكي كانت تمليه الضرورة والإحساس... حسناً... بالعدالة الجزائية.

قال في نفسه: «أحسنت»، بينما عيناها مثبتتان عليه، سوداوان غير قابلتين للنفاذ كالكهوف الذهنية حيث على الفكر الثوري أن يقبع ليخطّط الأسلوب العنيف في التغيير. لكأنما يمكن تغيير أي شيء! في عالم الرجال هذا لا يوجد ما يمكن تغييره... لا السعادة ولا التعاسة. بل يمكن استبدال أحدها بالآخر على حساب الضمائر المفسدة والحياة المحطّمة... لعبة لا طائل منها لفلاسفة متبجّحين وعابثين سفّاكين للدماء. انطلقت هذه الأفكار من رأس رازوموف خلال وقوفه هناك مواجهاً الثورية العجوز، صوفيا أنتونوفنا، المحترمة، الموثوقة ذات النفوذ، التي كان لكلمتها وزن كبير في القسم «الناشط» من كل حزب. كانت أكثر نفوذاً من بيتر ايفانوفيتش العظيم. ربما أنها كانت مجردة من اللغة المنمقة والتأمّل المبهم، فقد كانت الروح الحقيقية للثورة المدمّرة. وكانت العدوّ الشخصي الذي عليه أن يواجهه. لقد منحه ذلك شعوراً بمتعة الانتصار: أن يخدعها من خلال كلماتها بالذات. خطر له القول الساخر الذي يفيد أن النطق قد مُنح لنا حتى نخفي وراءه أفكارنا. وقد كان هذا تطبيقاً دقيقاً وشديد الازدراء لتلك النظرية التهكّمية، هازئاً من كلماتها بالذات عن روح الثورة التي لا هوادة فيها، المجسّدة في تلك المرأة بشعرها الأبيض وحاجبيها السوداوين كخطين أسودين ملتويين قليلاً مرسومين بالحبر الصيني، واللذين اقتربا من بعضهما بسبب التجاعيد العمودية لتقطيبة تأمّليّة.

Twitter: @ketab_n

كان ما يمكن استنتاجه من صمتها هو: «العدالة الجزائية وليس الشفقة». وما أن تحطم هذا الصمت حتى استأنفت باندفاع بجمل قصيرة متذبذبة:

- استمع إلى قصتي يا رازوموف!...

كان أبوها حرفياً ماهراً إنما سيئ الحظ. ما كانت هناك متعة تضيء أيامه المليئة بالكدّ. مات وهو في الخمسين؛ بعد أن قضّى سنوات حياته كلها لاهثاً تحت نير سيطرة أسياده الذين كان جشعهم يسلب منه ثمن الماء والملح بل وحتى الهواء الذي يتنفسه، يسلب عرق جبينه ويطالب بدم أبنائه. لا حماية ولا توجيه! ما الذي كان لدى المجتمع ليقوله له؟ كان خنوعاً وشريفاً. إذا سرقت سأسجنك. ولكنك إن عانيت فليس لديّ أيّ شيء لك... لا شيء سوى كسرة خبز الشحاذين... ولكن لا حلّ لمشكلتك، لا احترام لرجولتك ولا شفقة على مآسي حياتك البائسة.

وهكذا كدح وعانى حتى مات. مات في المستشفى. وحين كانت تقف عند ضريحه المتواضع فكّرت في وجوده المعذّب... رأته بأكمله. وقد فكرت بالمتعِ البسيطة للحياة، الحق المتسبب للفقراء، والذي حرم قلبه منها بسبب جريمة المجتمع التي لا يمكن لأي شيء أن يغفرها.

استأنفت بصوت مؤثر وخفيض:

- أجل رازوموف، كان ذلك أشبه بنور متوهج وقفت فيه، كنت لا أزال طفلة تقريباً، وشتمت ليس الكدح، ليس البؤس الذي كان قدره، ولكن اللاعدالة الاجتماعية الرهيبة للنظام المعتمد على الكدح غير المعوّض والمعاناة التي لا يشفق عليها أحد. ومن تلك اللحظة أصبحت ثورية.

Twitter: @ketab_n

احتفظ رازوموف بوجه سلبي في محاولة منه لرفع نفسه إلى ما فوق الضعف الخطير الذي يثيره الازدراء أو التعاطف. أما هي، فبلمسة غير متكلفة من المرارة الصافية، وهي أول لمسة من هذا النوع يلاحظها منذ أن تعرف عليها، استأنفت تقول:

- بما أني لم أستطع أن أذهب إلى الكنيسة حيث كان قساوسة النظام يحضّون الحشرات غير المعتبرة من أمثالي على الاستسلام والتسليم، فقد التحقت بالجمعيات السرية حالما عرفت كيف أجد طريقي إليها. كنت في السادسة عشرة... لا أكثر يا رازوموف. وانظر الآن إلى شعري الأبيض.

لم يكن في هذه الكلمات الأخيرة لا اعتزاز ولا حزن. كانت المرارة قد ولّت هي أيضاً.

- هناك الكثير منه. كان لي شعر رائع على الدوام، حتى وأنا طفلة صغيرة بعد. ولكننا كنا في تلك الأيام نقصّه قصيراً على أساس أن ذلك عبارة عن أول خطوة نحو تحطيم العار الاجتماعي. حطموا العار! شعار جميل! سأعلّقه على جدران السجون والقصور، وأنحته على الصخور الصلبة، وأعلقه بأحرف من نار على تلك السماء الفارغة كإشارة إلى الأمل والرعب... كنذير بالنهاية...

قاطعها رازوموف فجأة:

- أنت عظيمة يا صوفيا أنتونوفنا. ولكن يبدو أنك كنت تكتبين ذلك بالماء حتى الآن....

أخذِتْ ولكنها لم تشعر بالإهانة.

- من يدري؟ فقد يصبح يوماً حقيقة مكتوبة على امتداد أرضنا العظيمة كلها. وعندها سيكون المرء قد عاش بما فيه الكفاية. الشعر الأبيض لا يهم.

Twitter: @ketab_n

نظر رازوموف إلى شعرها الأبيض: وبدت هذه العلامة التي كانت دليلاً على سنوات كثيرة قلقة لا شيء سوى شهادة على قوة التمرد التي لا تقهر. كان شعرها يبرز الوجه غير المتجعّد في نقش نافر مدهش، وكذلك النظرة السوداء اللامعة والجسد المستقيم المكتنز ورباطة الجأش البسيطة الحادة للشخصية الناضجة... كأنها في رحلة الحج الثورية قد اكتشفت السر، ليس سرّ الشباب الدائم، بل سر الجلد الدائم.

لكم كانت تبدو غير روسية... هكذا فكر رازوموف. ربما كانت أمها يهودية أو أرمنية... أو ما لا يعرف سوى الشيطان ماذا... فكّر في أن الثوري نادراً ما يكون مخلصاً لنمط محدد. التمرّد كله عبارة عن تعبير عن فردانية قوية... هكذا راح يفكر. يمكن للمرء أن يميّزهم على مبعدة ميل كامل في أي مجتمع، في أية بيئة، كان مدهشاً أن الشرطة...

كانت تقول:

- لن نتقابل مجدداً في القريب العاجل على ما أعتقد. سأرحل غداً، سألها رازوموف عرضياً ولكن مع شعور بالراحة، ليس خشية من شيء مميّز، ولكن من شعور بالإجهاد كأنما بعد خوف مباراة مصارعة.

- إلى زيوريخ؟

- أجل، إلى زيوريخ... وإلى أماكن أخرى أبعد، أبعد بكثير.

رحلة أخرى. حين أفكر بكل رحلاتي! ولا بد أن الأخيرة ستأتي يوماً ما. لا بأس يا رازوموف. كان علينا أن نخوض هذا الحديث المطوّل، كنت سأحاول بكل تأكيد أن أراك لو لم نلتق. هل يعرف بيتر إيفانوفيتش مكان سكنك؟ أجل. أعني أني كنت سأسأله... ولكن هكذا أفضل. أنت ترى أننا نتوقع حضور رجلين آخرين، وأفضّل بالأحرى أن أنتظر وأتحدث معك على أن أكون في البيت هناك مع...

Twitter: @ketab_n

وبعد أن رمت بنظرة إلى ما وراء البوابة، قطعت حديثها بنفسها، قالت بسرعة:

- هاهه. حسناً يا كيريلو سيدوروفيتش لا بدّ من أن نقول وداعاً في الوقت الحاضر.

رابعاً:

من خلال لا يقينه بالأرض التي كان يقف عليها أحس رازوموف بالتشوّش. التفت برأسه بسرعة فرأى رجلين على الجانب الآخر من الطريق. وما أن لاحظا أن صوفيا انتونوفنا قد رأتهما حتى عبرا فوراً وسارا الواحد إثر الآخر عبر البوابة الصغيرة عند جانب كوخ الحارس الفارغ. نظرا جيداً إلى الغريب ولكن دون انعدام في الثقة، فقد كان القميص القرمزي إشارة أمن متوهجة. وأومأ الأول - وكان ضخماً ذا وجه أبيض أمرد وذقن مزدوجة وكرش بارز، بدا أنه يحمله أمامه بخجل ضمن معطف متضخم جداً-برأسه ثم حوّل نظره بعيداً متبرماً، أما رفيقه... وهو نحيل ذو وجنتين متوردتين وشارب عسكري أحمر تحت أنف حاد بارز... فقد اقترب فوراً من صوفيا أنتونوفنا وهو يحيّيها بحرارة. كان صوته قوياً جداً إنما غير واضح، كأنه أزيز عميق. كانت المرأة الثورية ودودة تماماً...

أعلنت بصوت واضح:

- هذا رازوموف.

التفت النحيل نصف التفاتة بلهفة. فكر رازوموف بارتداد عميق في كل كيانه بينما بدت أعضاؤه أثقل من أن يحركها: «سيرغب في معانقتي.» ولكن ذعره كان في غير محلّه. كان عليه أن يتحمّل جيلاً من المتآمرين الذين لا يقبّلون وجنات بعضهم البعض، ورفع ذراعاً أحس أنها ثقيلة كالرصاص وأسقط يده في الكف العريضة الممدودة

Twitter: @ketab_n

إليه، فكانت نحيلة وساخنة كأنما جففتها الحمى، وتعطي ضغطاً عظيماً معبّراً يبدو أنه يقول: «بيننا لا حاجة هناك إلى الكلمات».

كان للرجل عينان كبيرتان واسعتان. تخيّل رازوموف أنه استطاع أن يرى ابتسامة خلف حزنهما.

كررت صوفيا أنتونوفنا بصوت مرتفع حتى يسمع الرجل البدين الذي كان يعرض الصورة الجانبية لكرشه من مسافة:

ـ هذا رازوموف.

لم يتحرك أحد. بدا كل شيء، الأصوات والمواقف والحركات والجمود جزءاً من تجربة، تجربة كانت نتيجتها صوتاً نحيلاً يتكلم بمشاكسة مضحكة:

ـ أوه، أجل! رازوموف. كنا لا نسمع بشيء سوى بالسيد رازوموف هذه الأشهر الأخيرة. من جانبي أعترف أني كنت أفضل لو رأيت هالدين في هذه البقعة على أن أرى السيد رازوموف.

كان التشديد على اسم رازوموف - السيد رازوموف - يخترق السمع على نحو مضحك، كصوت مصطنع لمهرّج سيرك وهو يبدأ بنكتة مدروسة. كانت الدهشة هي أول استجابة لرازوموف، تبعها سخط مفاجئ.

سأله بلهجة صارمة:

ـ ما معنى هذا؟

قالت صوفيا أنتونوفنا بغضب واضح:

ـ ماذا! حماقة. إنه دائماً هكذا.

ولكنها تلفظت باسم «نيكاتور» بصوت عال حتى يسمعه رازوموف. كانت الصرخات الحادة الفظّة من الرجل البدين تبدو

Twitter: @ketab_n

وكأنها تخرج منه كما من بالون يحمله تحت معطفه. أخذ رازوموف بتبلّد وقفته، بالقدمين الكبيرتين واليدين المتدليتين بلا حياة، والخدين الضخمين الشاحبين والخصل الخفيفة من الشعر المنتشرة على مؤخر العنق البدينة، فوقف محدّقاً وكان على وشك الانفجار رعباً أو ضحكاً.

«نيكيتا» الملقّب بـ «نيكاتور» ويا له من جناس استهلالي مناسب وغريب! كان رازوموف قد سمع به سابقاً. لقد سمع الكثير منذ أن عبر الحدود عن هؤلاء المشهورين من رجال الثورة المقاتلة؛ تلك الأساطير والحكايات والتأريخ الحقيقي، والتي تطلّ بين الحين والآخر أمام عالم نصف مصدّق. كان رازوموف قد سمع به. كان مفترضاً أنه قد قتل من رجال الدرك والشرطة عدداً يفوق ما قتله أي ثوريّ حيّ آخر. كما كانت تُعهد إليه أعمال الإعدام.

وكانت ورقة عليها الحرفان (ن. ن.) وهو الاسم المستعار للقاتل، وقد وجدت مثبتة بدبوس على صدر جاسوس شهير (هذا التفصيل المثير عن الاغتيال وصل إلى الصحف)، وكانت تلك علامة على أن الأمر من صنعه. (بأمر من اللجنة ـ ن. ن.) وترفع زاوية من ستارة لإثارة مخيّلة عالم مدهوش. ويقال إنه دخل وخرج من روسيا عدداً لا يحصى من المرات. نيكاتور البيروقراطيين، حكام المقاطعات والمخبرين المجهولين. كان يعيش بين الحين والآخر، كما سمع رازوموف، على شواطئ بحيرة «كومو» مع زوجة فاتنة وطفلين صغيرين. ولكن كيف كان ذلك المخلوق، الغريب الشكل إلى حد أنه يثير نباح الكلاب لمجرد مرآه، كيف كان يستطيع الذهاب لتنفيذ تلك المهمات الرهيبة ويهرب من أشراك الشرطة؟

Twitter: @ketab_n

صرّ الصوت الحاد قائلاً:

- وماذا الآن؟ أنا أحاول أن أكون صادقاً. لا يمكن إنكار أن الآخر كان هو الروح القائدة. حسن، كان من الأفضل لو أنّ الآخر هو الذي نجا وبقي لنا. كان أكثر فائدة. لستُ بالشخص العاطفي. بل أقول ما أفكّر به... أنا طبيعي.

صرير، صرير، صرير، دون إيماءة، دون أية حركة... السخرية الرهيبة الحادة للحسد المهني... هذا الرجل ذو اللقب صاحب الجناس الاستهلالي العجيب، هذا الجلاّد منفّذ الأحكام الثورية، هذا الـ «ن. ن.» المرعب كان ساخطاً كمغني أوبرا من طبقة «التينور» انزعج بسبب الاهتمام الذي بذل لمغنّ هاو مغمور. هزت صوفيا أنتونوفنا كتفيها. هرع الرفيق ذو الشارب العسكري نحو رازوموف حاملاً نوايا استرضائية في صوته القويّ الطنّان.

- فليأخذ الشيطان ذلك! وفي هذا المكان أيضاً، في الشارع العام! ولكن تستطيع أن ترى بنفسك كيف هي الأمور. واحدة من انفجارات غضبه الفانتازية. هذا أمر لا شأن له إطلاقاً.

صاح رازوموف وهو يضحك طويلاً:

- لا بأس في ذلك. أرجوك. أمر لا يستحقّ الذكر.

حدّق الآخر، وحمرة خديه تتوهّج كحريقين على وجنتيه، للحظة، ثم انفجر ضاحكاً هو أيضاً. أما رازوموف، الذي خبا مرحه فجأة، فتقدّم خطوة نحو الأمام.

قال بصوت واضح قاطع رغم أنه لا يستطيع سوى بالكاد أن يسيطر على ارتجاف ساقيه:

- يكفي هذا. لا أريد المزيد منه. لن أسمح لأي شخص... أعرف تماماً ما تريدونه من تلك الأوهام... استفسروا! تقصّوا! أتحدّاكم، ولكني لن أسمح بأن أكون موضع العبث.

Twitter: @ketab_n

كان قد تلفّظ بمثل هـذه الكلمـات سـابقاً. كـان قـد دُفـع إلى أن يقولها في وجه شكوك أخرى. إنها لدائرة جهنّمية تعيد ذلك الاحتجاج إلى وضعه الأول كضرورة قاتلة من ضرورات وجوده. ولكـن لم يكـن هناك نفع في ذلك. سيكون موضع العبث دائمـاً. ولحـسن الحـظ فـإن الحياة لن تدوم إلى الأبد.

صرخ وهو يضرب بقبضته على كف يده الأخرى:

ـ لن أسمح بذلك.

تدخلت المرأة الثورية بلهجة سلطوية:

ـ يا كيريلو سيدوروفيتش، ماذا جرى لك؟

كـان الجميـع ينظـرون إلى رازومـوف الآن. أمـا قاتـل الجواسيس ورجال الدرك فكان قد التفت وراح يبرز كرشه الضخم بكامله، كترس.

ـ لا تصرخ، هناك مارّة.

كانت صوفيا أنتونوفنا تخشى من انفجار نوبة أخـرى مـن نوبـات الغضب. كان لنش بخاريّ قادم من «مونريبـو» قـد وصـل إلى مـصطبة الرسو مقابل البوابة، ولم يكن أحد قد لاحظ صوت صفارته المبحـوح وصوت الزبد المتراكم على امتداد شـاطئ الـبحيرة؛ وكـان قـد أنـزل مجموعـة مـن الركـاب المحلـيين الـذين كـانوا يتفرقـون باتجاهـات مختلفة، باستثناء سائح مبكّر في بنطال قصير واسـع، يتميـز بمحفظـة نظارات جلدية صفراء وجديدة، إذ توقّف هذا للحظات وهـو يستـشمّ شيئاً غير عادي في هؤلاء الأشخاص الأربعة الواقفين ضـمن البوابـات الحديدية الصدئة لما بدا أنـه أرض مهملـة تحـيط بقـصر خـاص غـير مأهول. آه! لو أنه يعرف فحسب الفرصة التي أتاحها له الـسفر العـادي فجأة! ولكنه كان شخـصاً مهـذباً، إذ أشـاح بنظـره وابتعـد بخطـوات قصيرة على امتداد الجادة وهو يترقب قدوم الحافلة.

Twitter: @ketab_n

كانت إيماءة من صوفيا أنتونوفنا بمعنى أن «اتركاه لي» قد جعلت الرجلين يبتعدان... وكان أزيز الصوت غير الواضح يخفت أكثر فأكثر، والصرير القائل: «وماذا الآن؟ ما الحكاية؟» قد خفت إلى مستوى صوت دمية حادّ بعيد. لقد تركاه لها. كان يمكن ترك الكثير من الأمور بكل أمان لخبرة صوفيا أنتونوفنا. وعلى الفور، التفتت عيناها السوداوان إلى رازوموف، وحاول ذهنها أن ينفذ إلى لبّ تلك النوبة من الغضب. كان لها معنى ما. لا يولد أحد وهو ثوري ناشط. التغيير يأتي على نحو مشوّش، بقوة النداء الباطني الفجائي، ويجلب معه شكوكاً مؤلمة وعنفاً حازماً، وحالة روحية غير مستقرة، حتى يصل الثوري المستجدّ إلى السكون النهائي مع القناعة الكاملة الشديدة. لقد رأت -تكهّنت غالباً- عشرات من هؤلاء الشبّان والشابات الذين يمرّون بأزمة روحية. بدا هذا الشاب مغروراً ومزاجياً. وعلاوة على ذلك، كانت تلك حالة خاصة، بل وفريدة. لم يسبق لها أن قابلت فرداً أثار اهتمامها وحيرتها إلى هذا الحد.

ـ انتبه لنفسك يا رازوموف، يا صديقي الطيب. إذا كنت ستستمر على هذا المنال فسوف تصاب بالجنون. أنت ساخط على الجميع وتشعر بالمرارة من نفسك، كما أنك تبحث عن شيء تعذّب نفسك به.

لم يكن رازوموف قادراً على النطق إلاّ لاهثاً.

ـ هذا لا يحتملّ عليك أن تعترفي أني لا أستطيع أن أحمل أية أوهام فيما يخصّ الموقف الذي هو... ليس واضحاً... أو بالأحرى... واضح جداً.

بدرت منه إيماءة تدلّ على اليأس. لم تكن شجاعته هي التي خانته. كان الدخان الخانق للزيف قد أمسك به من حنجرته... فكرة كونه محكوماً بالكفاح المتوصل في ذلك الجو الفاسد دون أي أمل في استعادة قوته ولو بنفس واحد من الهواء النقيّ.

Twitter: @ketab_n

نظرت صوفيا أنتونوفنا من الأرض المحيطة بالقصر نحو القصر ثم هزّت رأسها وهي تقول:

ـ أنت في حاجة إلى كأس من الماء البارد.

ثم نظرت إلى الهدوء الطافح للبحيرة عبر البوابة. وبهزّة نصف كوميدية من الكتفين قدّمت العلاج وهي تواجه هذا الكمّ الهائل:

ـ إنه أنت، يا روحي العزيزة، أنت الذي يرمي بنفسه على شيء لا وجود له. ما هو هذا الشيء؟ تأنيب للذات أم ماذا؟ إنه لأمر غريب. ما كان يمكنك أن تذهب وتسلّم نفسك لأن رفيقك قُبض عليه.

حاججتْه على نحو معقول ومطوّل أيضاً. ما كان لديه ما يشكو منه فيما يخصّ طريقة استقباله. فكل قادم جديد لا بدّ من أن يناقش أمره على هذا النحو تقريباً. كان من المفروض فهم كل شخص على أفضل نحو قبل أن يُقبل. ليس هناك شخص، تستطيع هي تذكّره، أُعطي كل هذه الثقة منذ البداية. وقريباً، وربما في وقت أقرب ممّا يتوقّعه هو، سيُمنح فرصة إظهار ولائه للمهمة المقدّسة، مهمة تحطيم «العار».

قال رازوموف في نفسه وهو يفكّر بهدوء: «ربّما تحاول أن تهدئ من مخاوفي وشكوكي. ومن ناحية أخرى، فمن الواضح أن معظمهم حمقى.» تحرّك جانباً خطوة أو خطوتين ثم طوى ذراعيه على صدره واستند على عمود البوابة الحجريّ.

قالت صوفيا أنتونوفنا وقد بدأت تتكلّم ببطء بدا لرازوموف كسقوط الرصاص المذاب نقطة في إثر نقطة:

ـ أما ما بقي غامضاً في مصير هالدين البائس... فرغم أنه لم يشر أحد إلى ذلك إمّا خوفاً أو إهمالاً، فإن سلوكك لم يكن كما يتوجّب أن يكون... حسناً، لديّ بعض المعلومات...

Twitter: @ketab_n

لم يستطع رازوموف أن يمنع نفسه من أن يرفع رأسه، وأومأت صوفيا أنتونوفنا برأسها بإشارة خفيفة.

- نعم لديّ معلومات. أتتذكّر تلك الرسالة من سانت بطرسبورغ التي ذكرتها لك منذ لحظة؟

- الرسالة؟ تماماً. أحد الفضوليين قدّم تقريراً عن سلوكي في يوم محدد. هذا مثير للاشمئزاز. أعتقد أن شرطتنا تتنوّر كثيراً حين تفتح مثل هذه الرسائل الهامة... و... غير الضرورية.

- لا يا عزيزي لا! الشرطة لا تعرف بكل الرسائل كما تتخيّل. الرسالة المذكورة لم تغادر سانت بطرسبورغ حتى تحطّم الجليد. لقد سارت مع أوّل باخرة إنكليزية غادرت نهر "نيفا" هذا الربيع. لديهم إطفائي على السفينة... وهو واحد منّا. لقد وصلتني من «ها....».

توقفت عن الكلام كأنها دهشت لرؤيتها ذلك الثبات الكئيب في تحديقة رازوموف، ولكنها استأنفت الكلام فوراً وبلهجة أسرع بكثير:

- لدينا بعض عناصرنا هناك وهم... ولكن لا بأس. إن كاتب الرسالة يقصّ حادثة يظنّ أنها تتعلّق بحادثة القبض على هالدين. كنت على وشك أن أحكيها لك حين قدم هذان السيدان.

غمغم رازوموف:

- تلك كانت حادثة من نوع فاتن جداً... بالنسبة إليّ.

صاحت صوفيا أنتونوفنا:

- دعك من هذا! لا أحد يكترث بنباح نيكيتا. ليس هو بالشرير. اسمع ما لديّ لأقوله. قد تكون قادراً على أن تضيء شيئاً ما. كان في سانت بطرسبورغ أحد الفلاحين القاطنين فيها... رجل يملك جيادا. وقد قدم إلى المدينة منذ سنوات ليعمل لدى أحد أقربائه كسائق وانتهى بامتلاك عربة أو اثنتين.

Twitter: @ketab_n

كان يمكنها أن توفّر على نفسها ذلك الجهد الذي بذلته حين قالت: «انتظر!» فلم يكن رازوموف ينوي أن يقول شيئاً، ما كان قادراً على مقاطعتها الآن، ولا حتى لو كان في ذلك إنقاذاً لحياته. كانت تقلّصات عضلات وجهه غير إرادية، مجرد حركة سطحية، تاركة إياه مصغياً على نحو كئيب كما كان سابقاً.

ـ لم يكن رجلاً عادياً كغيره من أفراد طبقته... على ما يبدو. كان سكان البناء... - تحادث مراسلي مع كثيرين منهم - أنت تعرف تلك المباني الضخمة المترعة بالعار والبؤس...

ما كان ضرورياً أن تتوسع صوفيا أنتونوفنا في شرح أوصاف المنزل. لقد رأى رازوموف بوضوح كومة هائلة من المعمار مغطاة بوشاح من الثلج تتسامى من خلف صوفيا أنتونوفنا، مع الصفّ الطويل من النوافذ الخاصة بالمطعم وهي تلتمع على نحو دهنيّ قريبة جداً من الأرض. كان شبح تلك الليلة يطارده. وقف يواجهه بغضب وإنهاك.

ـ هل تحدث المرحوم هالدين إطلاقاً عن ذلك المنزل؟

كانت صوفيا أنتونوفنا تواقة إلى أن تعرف.

أجاب رازوموف بالإيجاب وهو يتساءل إن كان يسقط في فخّ. كان من المهين جداً أن يكذب على هؤلاء الناس، فلم يستطع أن يجيب بالنفي. ثم أضاف وكأنه يبذل جهداً ليتذكّر:

ـ لقد ذكر لي مرة مبنى من ذلك النوع. كان من عادته أن يزور بعض العمال هناك.

ـ بالضبط.

لقد انتصرت صوفيا أنتونوفنا. كان مراسلها قد اكتشف الحقيقة بالصدفة من حديث سكان البناء بعد أن تعرّف على عامل يسكن إحدى الغرف هناك. وقد وصفوا له هالدين على نحو دقيق. كان

Twitter: @ketab_n

يجلب كلمات السلوان والأمل إلى بؤسهم. كان يزورهم على نحو غير نظامي، وإن كانت زياراته عديدة و -كما كتب مراسلها - كان يقضي الليل أحياناً في المنزل، وينام في الإسطبل الذي كان مفتوحاً على باحة داخلية.

ـ لاحظْ ذلك يا رازوموف، في إسطبل.

كان رازوموف يصغي بنوع من الموافقة الشرسة إنما باستمتاع.

ـ أجل، في القش. كان ذلك ربما أنظف مكان في المبنى كله.

قالت المرأة بتلك التقطيبة العميقة التي بدا أنها تقرّب عينيها الواحدة من الأخرى بأسلوب عجيب:

ـ لا شكّ في ذلك.

ما كان يمكن لأي مخلوق يمشي على أربع أن يتحمّل قذارة وبؤس الكثير من المخلوقات الإنسانية المحكوم عليها بالمعاناة في روسيا. كانت أهمية ذلك الاكتشاف هي أنه برهن على أن هالدين كان على معرفة بذلك الفلاّح مالك الجياد... وهو شخص متهوّر، استقلالي، مسرف في إشباع شهواته، غير محبوب من سكان المبنى الآخرين. وكان يُعتقد أنه متواطئ مع عصابة من لصوص المنازل. وقد أُلقي القبض على بعض من هؤلاء. لم يكن ذلك وهم راكبون في عربته على أية حال، ولكن كان هناك شكّ في أن ذلك الشخص قد أوحى إلى الشرطة بذلك وأن...

كبحت المرأة الثورية نفسها فجأة.

ـ وأنت؟ هل حدث أن سمعت صديقك يذكر شخصاً باسم زيميانيتش؟

كان رازوموف مستعداً للاسم. ولكنه كان يفتش عن السؤال. كان يقول لنفسه: «حين يأتي سأعترف.» ولكنه تمهّل.

Twitter: @ketab_n

بدأ يقول ببطء:

ـ بكل تأكيد! زيميانيتش! فلاّح يملك طقماً من الجياد. أجل. في إحدى المرات. زيميانيتش! بكل تأكيد! زيميانيتش صاحب الجياد... كيف أمكن لذلك أن ينزلق من ذاكرتي؟ كان ذلك خلال آخر الحوارات التي جرت بيننا.

بدا على صوفيا أنتونوفنا الجدية الشديدة:

ـ هذا يعني... هذا يعني يا رازوموف أن ذلك كان قبل وقت قصير من... أليس كذلك؟

صرخ رازوموف وهو يتقدّم من المرأة التي بدت عليها الدهشة، ولكنها صمدت في مكانها:

ـ قبل ماذا؟ قبل... أوه! طبعاً قبل ذلك! كيف كان ممكناً لذلك أن يكون فيما بعد؟ قبل ساعات قليلة فحسب.

ـ وهل تحدث عنه إيجابياً؟

ـ بحماسة! جياد زيميانيتش! الروح الحرّة لزيميانيتش!

استمتع رازوموف بالتلفّظ بذلك الاسم بصوت مرتفع، وهو الذي لم يسبق له أن مرّ بشفتيه على نحو مسموع. ثبّت عينيه المتوهجتين على المرأة حتى أعاده تعبيرها المفتون إلى نفسه.

قال وهو يتماسك وبعينين مسبلتين:

ـ كان المرحوم هالدين ميّالاً إلى أن يُفتن بالناس، وذلك على ... كيف أعبّر عن ذلك؟... على أسس غير كافية.

صفقت صوفيا أنتونوفنا بيديها:

ـ حسناً! هذه هي المسألة. لقد أثيرت شكوك مراسلي...

Twitter: @ketab_n

قال رازوموف بلهجة ساخرة صريحة السخرية تقريباً:

ـ هاهه! مراسلك. أية شكوك؟ كيف أثيرت؟ بواسطة زيميانيتش هذا؟ ربما بواسطة شخص سكّير هاذر جدير بالتصديق...

ـ تتكلّم كأنك تعرفه.

رفع رازوموف نظره إليها.

ـ لا، ولكني عرفت هالدين.

أومأت صوفيا أنتونوفنا برأسها بجدية.

ـ أفهم ما تعنيه. كل كلمة تقولها تؤكّد لذهني الشكّ الذي أُبلغ إليّ في تلك الرسالة الهامة. لقد وجد زيميانيتش هذا في صباح أحد الأيام مشنوقاً من خطّاف في الاصطبل... ميّتاً.

أحسّ رازوموف بقلق عميق، وكان ذلك واضحاً لأنّ صوفيا أنتونوفنا تحركت لتقول بحيوية:

ـ هاهه! لقد بدأت ترى.

لقد رأى ذلك بكل وضوح... في نور مصباح يرمي ببرامق من الظللّ في اصطبل أشبه بقبو. الجسد الملفوف بمعطف من جلد الخروف والحذاء الطويل معلّقاً على جدار. قلنسوة مدببة، ونهاياتها ملتوية حتى العينين، وتغطي الوجه. فكّر: «ولكن هذا لا علاقة له بي. إنه لا يؤثّر على مركزي. لم يعرف أبداً من ضربه ذلك الضرب المبرح. ما كان ممكناً له أن يعرف.» أحسّ رازوموف بالأسى تجاه ذلك العاشق العجوز للشراب والنساء.

غمغم:

ـ أجل. بعضهم ينتهون هكذا نهاية. ما هي فكرتك يا صوفيا انتونوفنا؟

Twitter: @ketab_n

كانت بالفعل فكرة مراسلها، ولكن صوفيا انتونوفنا تبنّتها بالكامل. قالت بكلمة واحدة: «الندم». فتح رازوموف عينيه على وسعهما. كان مخبر صوفيا انتونوفنا بعد إصغائه إلى الحديث الجاري في البناء، وبعد أن وضع هذا فوق ذاك، قد استطاع أن يقترب كثيراً من حقيقة علاقة هالدين بزيميانيتش.

ـ أنا التي تستطيع أن تخبرك بما لم تكن واثقاً منه... أن صديقك قد وضع خطة ما لإنقاذ نفسه لاحقاً بالخروج من سانت بطرسبورغ، بأي ثمن. ربما كانت تلك هي الخطة وكان قد ترك الحظ ليقوم بالباقي. وكانت جياد ذلك الشخص جزءاً من تلك الخطّة.

تعجب رازوموف بينه وبين نفسه وهو يحني رأسه بحكمة: «لقد وصلوا فعلاً إلى الحقيقة. أجل، هذا ممكن، ممكن جداً.» ولكن المرأة الثورية كانت على ثقة من صحة ذلك. أولاً: جرى حوار حول الجياد بين هالدين وزيميانيتش وقد سمع بعضهم جزءاً منه مصادفة. ثم كانت هناك شكوك لدى سكان البناء بأن «السيد الشاب» (لم يكونوا يعرفون هالدين بالاسم) قد توقف عن زيارة البناء. كان بعضهم يتهم زيميانيتش بأنه يعرف شيئاً ما عن غيابه. ولكنه أنكر ذلك ساخطاً، إذ أن الحقيقة هي أنه منذ اختفاء هالدين لم يعد هو كما كان بل أصبح مزاجياً وراح جسده ينحل، وأخيراً، خلال شجار مع امرأة ما (كان يحاول التقرب منها)، والذي اشترك فيه معظم سكان البناء على ما يبدو، فقد اتّهمه عدّوه الرئيسي، وهو بائع متجول رياضي الجسم، بأنه مخبر، وأنه سبّب في نفي «صاحبنا السيد الشاب إلى سيبيريا، كما فعل بأولئك الشباب الذين كانوا يسطون على المنازل.» ونتيجة لذلك حدث شجار ورُمي به إلى أسفل الدرج. وبعد ذلك شرب وتسكّع أسبوعاً كاملاً ثم شنق نفسه.

Twitter: @ketab_n

استمدّت صوفيا انتونوفنا استنتاجاتها من الحكاية. وقد اتهمت زيميمانيتش إما بالطيش الناجم عن السكر فيما يخص تنفيذ مهمة سياقة في موعد محدد تمّ الاستماع إليه مصادفة من قبل جاسوس في بار يقدم مشروب الغروغ... ربما في المطعم نفسه الواقع في الطابق الأرضي من البناء... أو بقيامه بالتبليغ عن هالدين مباشرة، ثم تبع ذلك الندم. رجل كهذا قادر على أي شيء. يقول الناس إنه كان عجوزاً سريع الاهتياج. ولو كان على علاقة سابقة مع الشرطة -كما هو مؤكد ورغم أنه أنكر ذلك باستمرار- فيما يتعلق بأولئك اللصوص، فلا بد أنه يعرف بعض المرؤوسين الصغار في الشرطة الذين يبحثون باستمرار عن أي شيء يبلغون عنه. وبما لم تؤخذ حكايته على محمل الجدّ حتى ذلك اليوم الذي لقي فيه الوغد «دو ب.....» ما يستحقه. آه! عندها كانت كل نتفة من المعلومات والتلميحات أمراً يستحق الاهتمام وكان أن أمسكوا بهالدين.

مدّت صوفيا انتونوفنا يديها وقالت:

- إنه القضاء المحتوم.

القضاء المحتوم... الحظ! فكر رازوموف في دهشة صامتة بالاحتمالات العجيبة لهذه الاستنتاجات. كانت في مصلحته بكل وضوح.

كانت صوفيا انتونوفنا شديدة الهدوء والتأنّي من جديد:

- الصحيح الآن هو إشاعة هذا البرهان الحاسم.

لقد استلمت الرسالة منذ أيام ثلاثة، ولكنها لم تكتب على الفور إلى بيتر إيفانوفيتش. كانت تعرف أنه ستُتاح لها الفرصة في الوقت الحاضر لمقابلة رجال عدة من ذوي النشاط الفعّال سيجتمعون لأجل أمر ذي أهمية.

Twitter: @ketab_n

ـ كنت أظن أنه من شأن الأمر أن يكون أكثر فعّالية لو استطعت أن أريك الرسالة نفسها. هي في جيبي الآن. أنت تعرف كم أنا مسرورة بلقائك.

كان رازوموف يقول في نفسه: «لم تعرض عليّ أن تريني الرسالة. ليس هذا محتملاً. هل قالت كل شيء اكتشفه مراسلها ذاك؟» كان توّاقاً إلى رؤية الرسالة، ولكنه أحس أن عليه ألاّ يطلب ذلك.

ـ قولي لي أرجوك، هل كان هذا نوعاً من التحقيق حسب أوامر صادرة؟

احتجت قائلة:

ـ لا، لا. ها أنت تعود إلى حساسيتك. إنها تجعلك غبياً. ألا ترى أنه لم تكن هناك حتى نقطة انطلاق للتحقيق، حتى لو فكّر أي شخص به. فراغ كامل! هذا بالضبط ما كان بعض الناس يلمّحون إليه على أنه سبب يدعو إلى استقبالك بحذر. كان ذلك عرضياً تماماً، وناجحاً أن تعرَّف مخبري صدفة على دبّاغ ذكي يسكن في ذلك البناء البائس القذر نفسه! مصادفة رائعة!

قال رازوموف مبتسماً:

ـ كان من شأن شخص ورع أن يقول إن يد الله كانت وراء ذلك كله.

ـ كان من شأن أبي المسكين أن يقول الشيء نفسه.

لم تبتسم صوفيا انتونوفنا. أخفضت بصرها.

ـ لا يعني ذلك أن ربّه قد قدم له أية مساعدة. لقد توقف الرب منذ زمن طويل عن مساعدة الناس إطلاقاً. وعلى أية حال فما حدث قد حدث.

قال رازوموف ومظهره يدل تماماً على التجرّد المشوب بالتأمّل:

ـ كل هذا سيكون حاسماً لو كان هناك أي يقين بأن «السيد الشاب» الذي يتحدث عنه هؤلاء الناس هو فيكتور هالدين. هل لدينا اليقين؟

Twitter: @ketab_n

ـ أجل. لا مجال للخطأ هنا. كان مراسلي على معرفة بالمظهر الخارجي لهالدين وبك أيضاً.

هذا ما أكدّته المرأة على نحو حاسم.

قال رازوموف لنفسه بقلق متجدّد: «لا شك أنه ذلك الشاب ذو الأنف الأحمر.» هل مرّت زيارته هو إلى ذلك المنزل اللعين دون أن يلحظها؟ كان ذلك بالكاد ممكناً، ومع ذلك فإنه كان محتملاً بصعوبة. كان ذلك هو النوع الصحيح من الوقود الذي يغذي الإشاعات الشعبية التي كان ذلك الفضولي النحيل يصطادها. ولكن لم يبد أن الرسالة كانت تحتوي أية إشارة إلى ذلك. ما لم تكن هي قد كتمت الموضوع. وإن كان الأمر كذلك. فلماذا؟ إن كان الأمر قد فات على فضول ذلك الديمقراطي الذي أنهكه الجوع. صاحب العبقرية اللعينة في مجال التعرف على الناس من أوصافهم، فذلك سيكون أمراً مؤقتاً فحسب. سيتعرّف قريباً على الحقيقة ويسارع إلى إرسال رسالة أخرى... ومن ثم!

بسبب ذلك المزاج المتهور المسموم، المغذّى بالحقد والاحتقار، ارتجف رازوموف داخلياً. ولقد صانه ذلك من الخوف العادي، ولكنه لم يصنه من الاشمئزاز بأن يُعامل بهذه الطريقة من قبل أولئك الناس. كان ذلك نوعاً من الخوف الخرافي. والآن، بما أن وضعه قد أصبح أكثر أماناً بسبب حماقتهم على حساب زيميانيتش، فقد شعر بالحاجة إلى الأمان التام، والتحرر من الكذب المباشر الذي يمنحه هذا الأمان، وبقدرته على التحرك بينهم صامتاً، دون اعتراض، مصغياً، غير قابل للاختراق، شأنه في ذلك شأن مصير جرائمهم وحماقتهم. هل أصبح يتمتع بهذه الميزة منذ الآن؟ أم ليس بعد؟ أم ليس أبداً؟

Twitter: @ketab_n

ـ حسناً يا صوفيا انتونوفنا.

كانت سيماء التنازل المتردّد حقيقية إلى حد أنه كره فعلاً أن يودّعها دون أن يختبر صدقها بسؤال كان مستحيلاً طرحه بأي شكل من الأشكال.

ـ حسناً يا صوفيا انتونوفنا، إن كان الأمر كذلك، إذن...

قالت المرأة وكأنها تفكر بصوت مرتفع:

ـ لقد عامل ذلك المخلوق نفسه بما تستحقه.

ـ ماذا؟ آه! الندم!

هذا ما غمغم به رازوموف باحتقار غير حاسم.

ـ لا تكن قاسياً يا كيريلو سيدوروفيتش لأنك فقدت صديقاً.

لم تكن هناك أية أمارة من أمارات الرقة في لهجتها، ولكن الالتماع الداكن لعينيها بدا بعيداً للحظة عن الرؤيا الانتقامية.

ـ كان رجلاً من الشعب. الروح الروسية البسيطة ليست من النوع الذي لا يندم إطلاقاً. وأن يعرف المرء ذلك لأمر ذو أهمية.

لمحّ رازوموف بلهجة التساؤل:

ـ مواساة؟

صدته بشدة:

ـ توقف عن الشكوى. تذكر يا رازوموف أن النساء والأطفال والثوريين يكرهون السخرية، التي ما هي إلاّ نفي لكل الغرائز المنقذة، لكل الإيمان، لكل التفاني، لكل الفعل. لا تتذمّر. دعك من ذلك... لا أعرف كيف هو الأمر، ولكن هناك لحظات تبدو فيها بغيضاً لي...

Twitter: @ketab_n

أشاحت بوجهها بعيداً. استمر صمت واهن، كأنما كل كهرباء الموقف قد أفرغت في هذه النوبة الانفعالية، لفترة ما. لم يكن رازوموف قد أحجم. وفجأة وضعت أناملها على كمّه.

ـ لا تقلق.

قال بهدوء كبير:

ـ لست قلقاً.

كان فخوراً بالشعور بأنها غير قادرة على قراءة أي شيء ما على وجهه. كان هادئاً، مرتاحاً بالفعل، ولو كان ذلك لبرهة فحسب، وذلك من تأثير غامض. وفجأة سأل نفسه:

ـ لم ذهبتَ إلى ذلك البناء بحق الشيطان؟ كان ذلك عملاً يتسم بالحماقة.

طغى عليه شعور عميق بالاشمئزاز. تباطأت صوفيا أنتونوفنا وهي تتكلم بلهجة ودية وبنيّة واضحة في المصالحة. وكان حديثها لا يزال يدور حول الرسالة الشهيرة، مشيرة إلى تفاصيل دقيقة مختلفة أبلغها بها مخبرها، الذي لم ير زيميانيتش أبداً. كان «ضحية الندم» هذا قد دُفن قبل أسابيع عدة من قيام مراسلها بزيارة الدار لأول مرة. وكانت تلك الدار تحوي مادة ثورية جيدة جداً. كانت روح هالدين البطولية قد مرت بأوكار البؤس الأسود تلك، حاملة وعداً بالعلاج الشامل لكل عوامل البؤس التي تضطهد البشرية. أصغى رازوموف دون أن يسمع، تتآكله الرغبة الوليدة في الأمان، مع استقلاله عن تلك الطريقة المهينة، طريقة الكذب المباشر التي وجد أنه من المستحيل أحياناً ممارستها.

لا، المسألة التي كان يريد سماعها ما كان ممكناً أن يتم التطرّق إليها في هذا الحوار بالذات. لم تكن هناك طريقة يمكن بواسطتها

Twitter: @ketab_n

التطرق إليها. وقد ندم لأنه لم يؤلف قصة متكاملة يستعملها خارج الوطن، بحيث تكون علاقته القاتلة مع تلك الدار مسألة معترفاً بها على نحو لا خطر فيه. ولكنه حين غادر روسيا لم يكن يعرف أن زيميانيتش قد شنق نفسه. وعلى أية حال، فمن كان سيتنبأ بـ «مخبر» هذه المرأة وهو يتعثر بهذه الدار البائسة بين كل الدور البائسة التي تنتظر الدمار ضمن الشعلة المطهّرة للثورة الاجتماعية؟ من كان يستطيع التنبؤ بذلك؟ لا أحد! فكر رازوموف بينه وبين نفسه: «إنها مفاجأة شيطانية كاملة!» بينما كان وجهه هادئاً في وضعية من التفوق الغامض وقد راح يومئ برأسه علامة الموافقة على ملاحظات صوفيا أنتونوفنا حول سيكولوجيا «الشعب».

كان يقول لها:

ـ أوه أجل... بالتأكيد.

ولكن ببرود وبتوق عصبي في أصابعه ليخرج بالقوة نوعاً ما من الاعتراف من حنجرتها.

ثم، في النهاية، وعند لحظة الفراق، وعندما أحس أن التوتر قد خفّ لديه، سمع صوفيا أنتونوفنا وهي تلمح إلى موضوع قلقه، كيف حدث ذلك؟ لم يستطع أن يعرف، فقد كان ذهنه غائباً في تلك اللحظة، ولكنه يبدو كأنه ناتج عن شكاوى صوفيا أنتونوفنا من الغرابة غير المنطقية للشعب. مثلاً... زيميانيتش ذاك كان شهيراً بتجديفه، ومع ذلك، ففي آخر أسابيع حياته كان يعاني من فكرة مفادها أن الشيطان قد ضربه ضرباً مبرّحاً.

كرّر رازوموف وكأنه لم يسمع الكلمة جيداً:

ـ الشيطان؟

Twitter: @ketab_n

ـ الشيطان الحقيقي. الشيطان شخصياً. قد تبدو مندهشاً عن حق ياكيريلو سيدوروفيتش. ففي وقت مبكر من الليلة التي تم القبض فيها على هالدين المسكين، ظهر رجل غريب تماماً وضرب زيميانيتش ضرباً مبرّحاً وذاك متمدّد شبه ميت من شدة السكر في الإسطبل. لقد أصبح جسده كومة واحدة من الكدمات. وقد جعل سكان الدار يرون كدماته تلك.

ـ ولكن أنت يا صوفيا انتونوفنا لا تؤمنين بوجود الشيطان الحقيقي؟

ردّت المرأة باقتضاب:

ـ وماذا عنك أنت؟

ثم غمغمت لنفسها:

ـ ولكني أؤمن بوجود الكثير من الناس الذين هم أسوأ من الشياطين ممن يحولون هذه الأرض إلى جحيم.

راقبها رازوموف، حيوية وذات شعر أبيض، والثنية العميقة بين حاجبيها الرفيعين، ونظرتها الداكنة وهي تبتعد عنه بكسل، كان واضحاً أنها لم تعرِ كثيراً من الأهمية للحكاية... ما لم يكن هذا قمة النفاق بالفعل.

استأنفت تقول:

ـ شاب داكن اللون. لم يُرَ مِنْ قبل في الدار ولا من بعد. لمَ تبتسم يا رازوموف؟

أجاب بهدوء:

ـ من فكرة أن يكون الشيطان لا يزال شاباً بعد كل هذه العهود! ولكن من ذا الذي كان قادراً على وصفه، طالما كانت الضحية، كما تقولين، شخصاً سكران شبه ميت من السكر؟

Twitter: @ketab_n

ـ أوه، صاحب المطعم وصفه. شاب متغطرس داكن اللون يرتدي عباءة طلابية، دخل مندفعاً وسأل عن زييميانيتش، ثم ضربه بجنون واندفع خارجاً دون أن يتلفظ بكلمة واحدة، تاركاً صاحب المطعم مصعوقاً من الدهشة.

ـ وهل يعتقد هو أيضاً أن ذاك كان الشيطان؟

ـ لا أعرف ذلك. لقد قيل لي إنه شديد التحفظ حول هذه المسألة. بائعو المشروبات الروحية أولئك يكونون في العادة أوغاداً كباراً. وأعتقد أنه يعرف عن المسألة أكثر من أي شخص آخر.

سألها رازوموف بلهجة الاهتمام الشديد:

ـ حسناً، رأيتُ يا صوفيا أنتونوفنا، ما هي نظريتك؟ نظريتك ونظرية مخبرك الذي كان في ذلك المكان؟

ـ أنا أتفق معه في الرأي. لقد كان ذلك أحد كلاب الشرطة متخفّياً. من بوسعه أن يضرب رجلاً لا حول له بكل تلك الوحشية؟ أما بالنسبة إلى بقية الحكاية، فلو كانوا قد خرجوا في ذلك اليوم ليتقصّوا كل أثر، قديمه وجديده، فمن المحتمل أنهم فكروا في أن زييميانيتش تحت تصرفهم للحصول على بعض المعلومات، أو التعرف على شخص ما، أو أي شيء آخر، وقد تم إرسال شرطي سري وغد لإحضاره، ولكنه انزعج لأنه وجده ثملاً إلى ذلك الحد، فحطم مذراة الإسطبل على أضلاعه. وفيما بعد، وبعد أن أمسكوا بالطريدة الكبيرة، وأضحت في شباكهم، ما عادوا يزعجون رؤوسهم بذلك الفلاح.

تلك كانت الكلمات الأخيرة للمرأة الثورية في هذا الحوار، وكانت قريبة جداً من الحقيقة، ومبتعدة عنها كثيراً ضمن احتمالات الأفكار والاستنتاجات بحيث تعطي المرء فكرة عن الطبيعة الكؤود

Twitter: @ketab_n

للخطأ الإنساني، ولمحة عن الأعماق السحيقة لخداع النفس. بعد أن صافح رازوموف صوفيا انتونوفنا، غادر أرض القصر، وعبر الطريق وسار على امتداد الرصيف الصغير للبواخر ليستند على الحاجز.

كان ذهنه مرتاحاً، وكانت تلك راحة لم يعهدها منذ أيام عديدة، منذ تلك الليلة... الليلة المعهودة. كان الحوار مع المرأة الثورية قد منحه وجهة نظر مفادها أن الخطر قد انتهى بالنسبة إليه، على نحو واضح تماماً. فكر: «كان عليّ أن أتنبأ بالشكوك التي كانت ستبرز في أذهان هؤلاء الناس.» ثم لفت انتباهه حجر ذو شكل عجيب، وكان يراه بوضوح في قاع البحيرة. وقد راح يفكر في مدى عمق الماء في تلك البقعة. ولكنه سرعان ما عاد إلى حبل أفكاره وهو يستعجب من هذا المثل العجيب على التجرّد سيئ التوقيت. فكر: «كان علي أن أتقدم بأكاذيب تفصيلية منذ البداية.» وقد أحس بكره قاتل للفكرة ذاتها التي أخرست ما كان يقوله في ذهنه لفترة ملحوظة تماماً. فكّر: «من حسن الحظ أن كل شيء على ما يرام الآن.» ثم تحدث إلى نفسه بعد فترة بصوت نصف مرتفع: «بفضل الشيطان». ثم ضحك قليلاً.

لقد استحوذت النهاية التي لاقاها زيميانيتش على أفكاره الجوّالة. لم يكن مسروراً بالضبط من التفسير، ولكنه لم يستطع سوى أن يتبيّن فيه حدّة معينة. وقد اعترف بينه وبين نفسه أنه لو كان يعرف بانتحاره قبل مغادرة روسيا، لما كان قادراً على استغلاله هذا الاستغلال الممتاز لمصلحته هو. كان عليه أن يكون ممتناً إلى أقصى حد للشاب ذي الأنف الأحمر على صبره وبراعته. قال في نفسه ساخراً: «لا شك أنه محلل نفساني رائع.» إنه الندم بالفعل! كان ذلك مثالاً مدهشاً على العمى الحقيقي الذي كان يتمتع به ذلك المتآمر، على الرقة الغبية للأشخاص ذوي الفكرة الواحدة. كان تلك دراما حُب وليست دراما ضمير، هكذا استمر رازوموف يخاطب نفسه

Twitter: @ketab_n

ساخراً. إنها امرأة كان الرجل العجوز يحاول التقرّب منها! بائع متجول قوي البنية، لا شك أنه كان منافسه في حب المرأة، يرمي به من أعلى الدرج... وفي سن الستين. وبالنسبة إلى عاشق عرف العشق طوال حياته، لم تكن تلك مسألة يمكن تجاوزها بسهولة. كانت تلك واحدة من أنصار حرية المرأة من نوع يختلف عن بيتر إيفانوفيتش. حتى السلوان الذي توفّره الزجاجة قد لا يكفيه، وهذا أمر واضح، في هذه الأزمة الخطيرة. في مثل تلك السن لم يكن سوى حبل المشنقة قادراً على علاج آلام عاطفة لا ترتوي. وعلاوة على ذلك، كان هناك السخط الغاضب الذي أثاره التشهير الجائر وازدراء أهل الدار له، مع استحالة تفسير حادثة الضرب الغامضة التي تعرض لها، مما كان يثير الجنون، إضافة إلى تلك الأحزان البسيطة والمرّة. صاح رازوموف باستثارة ذهنية وكأنه قد قام باكتشاف هام: «الشيطان، هه! لقد انتهى زيميانيتش إلى الوقوع في الباطنية. كثيرة هي الأرواح الروسية الأصلية التي تنتهي بتلك الطريقة! هذه واحدة من ميزاتنا!» أحسّ بالأسى على زيميانيتش، بأسى كبير وحيادي، كذاك الذي قد يشعر به المرء تجاه جمهرة غير واعية، كثير من الناس تراهم من علٍ... كمجتمع من النمل الزاحف تعمل في مجموعات كثيفة. بدا الأمر كأن زيميانيتش ما كان قادراً على فعل أي شيء آخر. وكانت عبارة صوفيا أنتونوفنا الواثقة المترعة بالازدراء: «شرطي سري وغد» عبارة روسية تماماً بطريقة أخرى. ولكن لم تكن هناك تراجيديا في هذه المسألة. كانت هذه نوعاً من كوميديا الأخطاء. بدا الأمر وكأن الشيطان نفسه كان يمارس لعبة ما مع الجميع كلاً على حدة. أولاً معه هو، ثم مع زيميانيتش، ثم مع أولئك الثوريين. كانت تلك لعبة الشيطان. وقد قاطع هذه المناجاة الذهنية الصادقة بفكرة مازحة تدور حوله هو بالذات: «مرحباً! ها أنذا في الباطنية أيضاً.»

Twitter: @ketab_n

كان ذهنه في حالة من الاسترخاء لم يعرفها من قبل. التفت واستند إلى الدرابوزون براحة. استمر في التفكير: «كل هذا يناسب بعضه بعضاً على نحو رائع. إن لمعان المأثرة التي قمت بها لن يطفئها مصير زميلي المفترض. فيزيميانيتش الباطني قد فسر ذلك. لقد خدمني حظ لا يصدق. لا حاجة إلى الأكاذيب الآن. سيكون علي أن أصغي فحسب وأن أبقي ازدرائي بعيداً عن أن يسيطر على حذري.»

تنهد، ثم طوى ذراعيه، وذهنه فوق صدره، ومرّ وقت طويل قبل أن يتقدم مغيّراً هذه الوضعية، وهو يتذكر أنه قد قرّر أن يقوم بشيء ذي أهمية في هذا اليوم. ما كان ذلك الشيء! لم يكن يستطيع تذكره تماماً، ولكنه لم يجهد ذاكرته، فقد كان متأكداً على نحو قلق من أنه سيتذكر على الفور.

لم يكن قد سار أكثر من مائة ياردة باتجاه المدينة حين أبطأ السير، بل كاد يتعثر في مشيته، لدى مشاهدته لشخص يمشي في الاتجاه المعاكس. وكان ذاك يرتدي عباءة تحت قبعة طريقة ذات حافة عريضة، تلفت النظر ولكنها صغيرة، كأنما ترى من خلال منظار الأوبرا. كان مستحيلاً تجنب ذلك الرجل الضئيل الحجم، فلم يكن هناك مجال للتراجع.

فكر رازوموف: «شخص آخر ذاهب إلى ذلك الاجتماع السري.» كان على حق في افتراضه، إذا أن «هذا» فحسب، بين من أتوا من البعيد، كان معروفاً له شخصياً. ومع ذلك كان يأمل أن يمر دون انحناءة حتى، ولكن كان مستحيلاً تجاهل اليد النحيلة الصغيرة ذات الرسغ المشعراني والبراجم البارزة التي ارتفعت تلّوح له بودّ من تحت ثنايا العباءة التي كان يرتديها وفق الأسلوب الإسباني بغض النظر عن الطقس الدافئ، وزاوية منها «ملحوشة» على الكتف.

Twitter: @ketab_n

قال الرجل وهو يحييه بالألمانية:

ـ وكيف هو «الهر» رازوموف؟

وهذا لوحده كان كافياً ليجعل رازوموف أكثر بغضاً لهذا الاهتمام الدمث. وعند الاقتراب منه أكثر بدا الشخص الضئيل كأنه تصغير لشخص عادي الحجم، وله جبين مرتفع تعرّى للحظة وهو يرفع قبعته، بينما كانت اللحية العظيمة السوداء التي وخطها الشيب تنتشر فوق الصدر العريض نسبياً. كان له أنف حاد ناتئ فوق فم رقيق مخفي في كومة الشعر الناعم: كل هذا، الملامح البارزة والأعضاء القوية في صغرها النسبي، بدت دقيقة دون أي إشارة تدلّ على الوهن. أما العينان اللوزيّتان بنيتا اللون فكانتا واسعتين جداً، وبياضهما محمّر قليلاً بسبب كثرة الأعمال الكتابية تحت ضوء المصباح. كانت الشهرة الغامضة لهذا الرجل الضئيل الحجم معروفة تماماً لدى رازوموف، فهذا الرجل يتقن عدة لغات، وهو مجهول النسب والجنسية، فوضوي، ذو مزاج غريب شرس وقدرة مثيرة إلى حد مدهش على الطعن بالناس. كان ذا سلطة في مجال المنظمات السرية ومؤلف كراريس عنيفة تنادي بالعدالة الثورية. كان اسمه جوليوس لاسبارا، محرّر «الكلمة الحية» وهو موضع ثقة المتآمرين، ومنظم الوعود والإعلانات الدموية، ويُشك بأنه وراء كل مؤامرة. كان لاسبارا يسكن في المدينة القديمة في منزل كئيب ضيق أهدي إليه من قبل أحد المعجبين ببلاغته الإنسانية النزعة، وهو شخص ساذج من الطبقة الوسطى. وكانت تسكن مع لاسبارا ابنتاه اللتان كانتا أطول منه بكثير، وولد نحيل شاحب في السادسة من عمره، يذوي في تلك الغرف المعتمة في «أوفرول» أزرق قطني وحذاء غير متقن الصنع كان يمكن أن يكون للولد أو لجوليوس أو ليس لأحدهما. ما كان ممكناً لأي غريب أن يعرف. كان جوليوس لاسبارا

Twitter: @ketab_n

يعرف دون شك مَنْ بين ابنتيه كانت هي الأم، إذ أنه بعد أن اختفى سنوات قليلة، عادتا إليه ومعهما ذلك الطفل، ولكنه ببراعة تدعو إلى الإعجاب، لم يسألها عن التفاصيل، ولا حتى عن اسم الأب، لأن الأمومة يجب أن تكون وظيفة فوضوية. لقد سبق لرازوموف أن دخل مرتين إلى تلك الشقة ذات الغرف الكثيرة المعتمة في طابق علوي: زجاج نوافذ مغطى بالغبار، ركام من كل أنواع النفايات في كل أرجاء المنزل، كؤوس نصف ممتلئة بالشاي منسية فوق كل طاولة، وابنتا لاسبارا تطوفان في أرجاء المكان صامتتين على نحو مبهم، بعيون ناعسة، ودون مشدّات، وهما في قباحتهما وفوضى ملابسهما تشبهان دميتين قديمتين. أما جوليوس العظيم المغمور، وقدماه ملويتان حول كرسيه الواطئ ذي الأرجل الثلاث، فكان جاهزاً على الدوام لاستقبال الزوار، وهو يضع القلم جانباً، وجسده ملتو، ممّا يظهر الجبين العالي على نحو مدهش، وكذلك اللحية الكالحة العظيمة: حين نزل على كرسيه، كان كمن ينزل من قمة جبل أوليميوس. كان يبدو قزماً أمام ابنتيه والأثاث، وأمام أي زائر ذي طول عادي. ولكنه كان نادراً ما يغادر كرسيه، ونادراً ما كان يُرى وهو يمشي نهاراً.

لا شك أنها كانت مسألة ذات أهمية كبرى تلك التي أخرجته ليسير في ذلك الاتجاه عصر هذا اليوم. لا شكّ أنه كان يودّ أن يلاطف ذلك الشاب الذي أثار وصوله بعض الضجة في عالم اللاجئين السياسيين. وقد سأل رازوموف بالروسية الآن- وهي لغة يتقنها كما يتقن لفظاً وكتابة أربع أو خمس لغات أوربية أخرى - دون تمييز ودون تكلّف (باستثناء التكلّف الخاص بالطعن بالناس)، سأله إن كان قد سجّل نفسه في الجامعة أم ليس بعد. وقد أجابه الشاب بأن هزّ رأسه علامة النفي.

Twitter: @ketab_n

ـ لا يزال هناك الكثير من الوقت لذلك. ولكن في هذه الأثناء، ألن تكتب لنا شيئاً؟

لم يكن قادراً على أن يفهم كيف يمكن لأي شخص أن يحجم عن كتابة أي شيء، سواء كان اجتماعياً أم اقتصادياً أم تاريخياً... أي شيء. أي موضوع يمكن أن يُعالج بالروح الحقيقية، ولصالح أهداف الثورة الاجتماعية. وإن له صديقاً في لندن له علاقة بمجلّة تنادي بالأفكار التقدمية.

ـ علينا أن نثقف، نثقّف الجميع... أن نطوّر الفكر العظيم، فكر الحرية المطلقة والعدالة الثورية.

غمغم رازوموف بفظاظة أنه لا يعرف الانكليزية حتى.

ـ اكتب بالروسية وسنترجم لك. ليست هناك أية صعوبة. عجباً، إذا أردنا ألاّ نبتعد كثيراً فهناك الآنسة هالدين. تذهب ابنتاي لزيارتها أحياناً.

وهنا أومأ برأسه على نحو جدي وذي مغزى وقال:

ـ إنها لا تفعل شيئاً، ولم تفعل أي شيء في حياتها. ستكون قادرة على ذلك مع بعض المساعدة. اكتب فحسب. أنت تعرف أن عليك ذلك. وداعاً الآن.

رفع ذراعه وتابع السير. استند رازوموف إلى الجدار الواطئ وتابعه بنظره، ثم بصق بعنف وتابع وهو يغمغم بغضب:

ـ يا لليهوديّ اللعين!

لم يكن يعرف أي شيء حول الموضوع. من المحتمل أن يكون جوليوس لاسبارا من ترانسلفانيا أو تركيا أو الأندلس، أو مواطناً من مواطني مدن الهانس أو أي بلد آخر. ولكن هذه ليست حكاية عن الغرب، ولا بدّ من تسجيل هذه الصرخة، مرفقة بالتعليق القائل إنها

Twitter: @ketab_n

كانت مجرد تعبير عن الحقد والازدراء، كما كان يحسّ بهما رازوموف في ذلك الوقت بسبب طبيعة المشاعر التي كان يعانيها. كان يغلي غضباً، كأنما قد أهين إلى أكبر حد. سار يتخبّط كالأعمى، وهو يتبع غريزياً شاطئ الميناء الصغير على امتداد الرصيف، ثم عبر الحديقة الكئيبة الجميلة، حيث يجلس أشخاص كئيبون على الكراسي تحت الأشجار، حتى زال عنه غضبه، فاكتشف أنه في وسط جسر عريض طويل. خفّف من سيره فوراً. إلى يمينه، خلف حواجز أشبه بالدمى، شاهد المنحدرات الخضراء التي تؤطّر «البحيرة الصغيرة» في كل الابتذال الرائع لمناظرها الجميلة المصنوعة من الورق المقوّى، مع الامتداد المائي البعيد الميّت واللامع كقطعة من التنك.

أشاح برأسه بعيداً عن ذلك المنظر المخصّص للسواح، ثم تابع المسير ببطء وعيناه مثبتتان على الأرض. كان على شخص أو شخصين أن يخرجا من طريقه، ثم التفتا إلى الخلف ليحدّقا بدهشة إلى استغراقه العميق. كان إلحاح الصحفي الشهير المدمّر يرنّ في ذهنه على نحو غريب. اكتبْ. عليك أن تكتب! هو! اكتب! التمع نور مفاجئ في ذهنه: الكتابة كانت الأمر الذي قرر أن يفعله في ذلك اليوم. كان قد قرّر على نحو لا تراجع عنه أن يقوم بتلك الخطوة، وهاهو قد نسي الموضوع تماماً، كانت تلك النزعة الشديدة نحو الهرب من قبضة الوضع الحالي مشحونة بالخطر الجدّي. كان مستعداً لاحتقار نفسه بسبب ذلك. ما كان ذلك؟ طِيشاً أم حقداً عميقاً؟ أم خوفاً لا واعياً؟

رفض تلك الفرضية باحتقار، ثم توقف عند حافة الرصيف واستعدّ لعبور الطريق والتقدّم نحو الشارع العريض المواجه لرأس الجسر. وكان ذلك دون أي سبب عدا أن تلك الطريق كانت أمامه. ولكن ما أن مرّت عربتا ركاب ثم عربة يد بطيئة حتى التفّ نحو اليسار فجأة وراح يتابع سيره على الرصيف إنما بعيداً عن البحيرة.

Twitter: @ketab_n

فكّر وهو يسمح لنفسه بشكّ غير اعتيادي في صحة عقله: «قد يكون الأمر متعلقاً بصحتي البدنية.» فهو باستثناء مرض أو اثنين عانى منهما في الطفولة، لم يمرض طوال حياته. ولكن كان في هذا خطر ما أيضاً وإن بدا الأمر كأنما كان يعتنى به بطريقة استثنائية جداً. فكر مستمتعاً وبكآبة: «لو كنت أؤمن بعناية إلهية فعالة لرأيت فيما حدث هنا آثار فاعل هازئ. أي أن يوضع في طريقي جوليوس لاسبارا كأنما ليذكّرني بوضوح بغرضي... قال لي اكتب. عليّ أن أكتب... عليّ بالفعل! سأكتب، لا تخشى أبداً ألاّ أكتب، بكل تأكيد. لهذا أنا هنا. وسيكون لديّ ما أكتب عنه للمستقبل.»

كان يثير نفسه بسبب هذه المناجاة الذهنية. ولكن فكرة الكتابة أيقظت فكرة مكان للكتابة، مأوى أو مكان خصوصي، وطبعاً كان ذلك متوفراً في مسكنه، وكان ذلك الشعور ممتزجاً بكره ضرورة بذل الجهد للوصول إلى هناك، وبشك في أنه قد ينتظره تأثير معاد بين تلك الجدران الأربعة الكريهة.

سأل نسه: «لنفترض أن أحد أولئك الثوريين كان سيخطر له أن يزورني خلال الكتابة؟» إن مجرد احتمال هذه المقاطعة جعلته يرتجف. يمكن للمرء أن يقفل عليه بابه، أو يطلب من بائع التبغ في الطابق السفلي (وهو لاجئ مثله) أن يقول لمن يسأل عنه إنه ليس في البيت. ولكن هذه ليست احتياطات جيدة جداً. لقد أحس أن عليه أن يبقي أسلب حياته نظيفاً من كل سبب يدعو إلى الشك أو حتى إلى فرصة للاستغراب، وحتى مثل تلك المسألة التافهة، مسألة التأخير في فتح باب مقفل. «أتمنى لو كنت في وسط حقل ما بعيداً مسافة أميال بحالها عن أي مكان.»

كان قد التفّ نحو اليسار دون وعي مرة أخرى وأصبح مدركاً

Twitter: @ketab_n

الآن أنه أصبح على جسر مرة أخرى. هذا الجسر كان أضيق من الآخر، وبدلاً من أن يكون مستقيماً، كان على شكل كوع أو زاوية. وعند رأس تلك الزاوية كانت ذراع قصيرة تربطها بجزيرة صغيرة سداسية الشكل مغطاة أرضها بالحصى ولها شواطئ مكسوّة بأحجار مشذّبة: كمال النظافة الصبيانية. كان هناك زوج من شجر الحور وبضع أشجار أخرى تقف متجمعة على الحصى النظيف الداكن، وتحتها بضع مقاعد من تلك الخاصة بالحدائق وتمثال برونزي لجان جاك روسو جالس على قاعدة. شيء فيه ادّعاء ورداءة أيضاً. طلب كأس حليب شربه وهو واقف بجرعة واحدة: (لم يكن قد تناول سوى الشاي منذ الصباح)، وكان يبتعد بخطوات منهكة بطيئة حين أوقفته فكرة ما. لقد وجد بالضبط ما كان يبحث عنه. إذا كانت العزلة أمراً ممكناً في الهواء الطلق في وسط مدينة ما، فقد وجدها هنا على الجزيرة العجيبة، مع إمكانية مراقبة المعبر الوحيد إليها.

عاد بتثاقل نحو أحد المقاعد، وسقط فيه. كان هذا هو المكان الذي سيبدأ فيه كتابة ما يتوجب كتابته. كانت المواد معه. قال لنفسه: «سآتي إلى هنا دائماً.» ثم جلس فترة طويلة دون حراك، دون تفكير أو رؤية أو سمع، بل حتى دون حياة تقريباً. جلس فترة طويلة حتى غطست الشمس وراء أسطحة المدينة خلف ظهره، وألقت بظل المنازل على مقدمة البحيرة أمام الجزيرة الصغيرة، وذلك قبل أن يخرج من جيبه قلمه الحبر ويفتح دفتر ملاحظات صغيراً على ركبته ويبدأ بالكتابة بسرعة، وهو يرفع عينيه بين الحين والآخر لينظر إلى الذراع الموصلة بالجسر. كانت هذه النظرات دون جدوى، فقد كان العابرون من بعيد غير راغبين في النظر إلى الجزيرة الصغيرة حيث كان التمثال النصفي لمؤلف «العقد الاجتماعي» جالساً على العرش من

Twitter: @ketab_n

فوق الرأس المنحني لرازوموف في سكون البرونـز الكثيـب. وبعـد أن أنهى كتابته، أخفى رازوموف قلمه بـسرعة محمومـة ثم دسّ دفتـره في جيبه، بعد أن مزّق أولاً الصفحات المكتوبة بغلظـة مـصحوبة بتـشنّج. ولكنه طوى الورقة الرقيقة على ركبته برقة وتفكـير. وبعـد أن تم ذلـك استند إلى الخلف وهو جالس في مقعده وبقي دون حراك وهو ممسك بالأوراق في يده اليسرى. كان الغسق قد أصبح أكثر قامته. نهض وبـدأ يذرع المكان جيئة وذهاباً تحت الأشجار.

فكّر في نفسه: «لا شك أني أصبحت في أمان الآن.» كانـت أذنـه الحسّاسة قادرة على سماع الهمهمات الضعيفة للتيار وهو يتحطّم على رأس الجزيرة، ثم نسي نفسه وهو يصغي إليهـا باهتمـام. ولكـن حتى بالنسبة إلى حاسة سمعه الحادة فإن الصوت كان محيّراً جداً.

غمغم: «يا لها من مهنة غريبة أكرّس نفسي لهـا.» ثم خطـر لـه أن هذا هو الصوت الوحيد تقريباً الذي يصغي إليه ببراءة، ولأجـل متعتـه الخاصة. أجل، صوت المـاء، صـوت الـريح... الغريبـان تمامـاً عـن العواطف الإنسانية. كل أصوات الأرض الأخرى كانت تجلب التلـوّث إلى عزلة الروح.

كان هذا هو شـعور الـسيد رازومـوف، والـروح المقـصودة هـي بالطبع روحه هو، والكلمة لا تستعمل هنا بمعناها الـديني، بـل تمثّـل ذلك الجزء من السيد رازوموف الذي ليس جسده، وذلك كما فهمـت الموضوع، وهي واقعة تحـت خطـر نـيران هـذه الأرض. ولا بـدّ مـن الإقرار بأنه في حالة السيد رازوموف فإن مرارة العزلة التي كـان يعـاني منها لم تكن ظاهرة مَرَضيّة تماماً.

* * *

Twitter: @ketab_n

الجزء الرابع

أولاً:

إذا كنت سأذكر في بداية هذه الاستعادة لحوادث الماضي ولمرة أخرى أن السيد رازوموف قضى يفاعته دون أن يكون له أحد في هذا العالم، لا أحد في هذا العالم، وبالمعنى الحرفيّ للكلمة، كما يمكن أن يشهد على ذلك بصدق أي كائن بشريّ، فإنها واقعة تصدر عن رجل يؤمن بالقيمة السيكولوجية للحقائق. وهناك على الأرجح رغبة في العدل الحريص على الشكليات. وبما أني لا أتماثل مع أي شخص في هذه الحكاية البعيدة فيها مظاهر الشرف والعار عن أفكار العالم الغربي، وبما أني أتخذ موقفي على أساس إنساني شامل، فإني أشعر، لهذا السبب بالذات، بتردد غريب في أن أبيّن بصراحة هنا ما الذي اكتشفه القراء جميعاً بأنفسهم. مثل هذا التردد قد يظهر غريباً لولا فكرة أنه بسبب لاكمال اللغة فإن هناك على الدوام شيء كريه (بل مشين حتى) في عرض الحقيقة العارية. ولكن لقد آن الأوان لظهور مستشار الدولة ميكولين حيث ما عاد ممكناً تجاهله. كان سؤاله البسيط: «ولكن إلى أين؟» الذي تركنا عنده رازوموف في سانت بطرسبورغ، يلقي ضوءاً على المغزى العام لهذه القضية الفردية.

كان السؤال القائل: «ولكن إلى أين؟» هو رد في شكل سؤال لطيف على ما يمكن أن نسميه إعلان استقلال السيد رازوموف. لم يكن السؤال يحمل لهجة الوعيد إطلاقاً، بل كانت له رنّة السؤال البريء بالفعل. ولو فهمنا الأمر بالمعنى الطوبوغرافي لكن الرد الوحيد على ذلك سيبدو كريهاً للسيد رازوموف. إلى أين؟ سيعود إلى غرفته من حيث أخرجته «الثورة» لتختبر فجأة غرائزه الهاجعة، وأفكاره

Twitter: @ketab_n

نصف الواعية وطموحاته اللاواعية تقريباً، بلمسة أشبه بلمسة دين عنيف دوغمائي، بكل مناداته بالتضحيات المسعورة أو استسلاماته الرقيقة، وأحلامه وآماله التي ترقى بالروح إلى جانب أكثر نوبات اليأس كآبة. كان السيد رازوموف قد ترك مقبض الباب وعاد إلى منتصف الغرفة وهو يسأل المستشار ميكولين بغضب:

ـ ما الذي تعنيه بذلك؟

ضمن حدود معرفتي فإن المستشار ميكولين لم يجب على ذلك السؤال. لقد جرّ السيد رازوموف إلى حوار حميم. إنها خاصية الطبيعة الروسية أنه مهما كان الروس منخرطين في دراما الحدث، إلاّ أنهم يصغون إلى همهمة الأفكار المجرّدة. هذا الحوار (وغيره فيما بعد) لا حاجة إلى تسجيله هنا. يكفي أن نقول إنه قد وضع السيد رازوموف كما نعرفه تحت اختبار ولاء آخر. ليس هناك أي شيء رسمي في هذا التعبير، وقد اضطر السيد رازوموف إلى الدفاع عن موقفه الاستقلالي. ولكن المستشار ميكولين رفض كل البراهين. كانت آخر كلماته الخطيرة في ذلك الحوار: «بالنسبة إلى شخص مثلك، فإن هذا الموقف مستحيل. لا تنس أني رأيت تلك القطعة الهامة من الورق. أفهم ليبراليتك. ليس لديّ مثل ذلك الفكر. الاصطلاح بالنسبة إليّ هو مسألة فهم في الأساس. ولكن مبدأ التمرّد عبارة عن ثمالة جسدية، نوع من الهيستيريا التي يجب أن تبقى بعيدة عن الجماهير. أنت توافق على هذا دون تحفظ، أليس كذلك؟ لأنه كما ترى يا كيريلو سيدوروفيتش، فإن الامتناع والتحفظ في مواقف معينة تقترب كثيراً من الجريمة السياسية. لقد فهم الإغريق القدماء ذلك جيداً.

سأل السيد رازوموف بابتسامة خفيفة المستشار ميكولين بصراحة إن كان ذلك يعني أنه كان قيد المراقبة.

لم يغضب الموظف الكبير من هذا السؤال التهكمّي.

Twitter: @ketab_n

أجاب بجدية:

ـ لا يا كيريلو سيدوروفيتش. لا أعني أني أضعك قيد المراقبة.

ولكن رازوموف الذي انتابه الشك في أنه يكذب عليه، تظاهر بأكبر حرية ذهنية خلال الفترة القصيرة التي تبقّت من ذلك الحوار. عبّر الرجل الأكبر سناً عن نفسه بلغة حميمة، وبنوع من البساطة اللاذعة، استنتج رازوموف أن الوصول إلى عمق ذلك الذهن كان عملاً مستحيلاً. جعل قلق كبير قلبه يدقّ بسرعة أكبر. ثم خرج الموظف الكبير من خلف مكتبه وكان يعرض يده فعلاً ليصافح رازوموف.

ـ وداعاً يا سيد رازوموف. إن التفاهم بين الرجال الأذكياء حادثة مرْضية دائماً. أليس كذلك؟ وبالطبع فإن هؤلاء السادة المتمرّدون لا يحتكرون الذكاء.

طرح رازوموف سؤالاً بينما لا تزال يده في يد المستشار:

ـ أأفترض أني لم أعد مطلوباً بعد الآن؟

حرّر المستشار ميكولين يده ببطء.

قال بجدية كبيرة:

ـ هذا الأمر يا سيد رازوموف سيترك للصدفة. والله وحده هو العالم بالمستقبل. ولكن عليك أن تكون على ثقة من أنني لم أفكر أبداً في وضعك قيد المراقبة. أنت شاب على درجة كبيرة من الاستقلال. أجل. ستخرج من هنا حراً كالهواء، ولكن سينتهي بك الأمر إلى العودة إلينا.

عبّر رازوموف عن احتجاجه بهمهمة فزعة:

ـ أنا! أنا؟

Twitter: @ketab_n

ثم أضاف بصوت واهن:

ـ ولماذا؟

قال موظف الشرطة الكبير ملحاً بقناعة بطيئة وقاسية:

ـ أجل! أنت بنفسك يا كيريلو سيدوروفيتش. ستعود إلينا. إن على بعض أصحاب أعظم العقول لدينا أن يفعلوا ذلك في النهاية.

كرّر رازوموف بصوت مذهول:

ـ أعظم العقول لدينا.

ـ أجل وبالفعل. أعظم العقول... وداعاً.

بعد أن أوصل رازوموف إلى خارج الغرفة سار مبتعداً عن الباب. ولكنه قبل أن يصل إلى نهاية الممّر سمع خطوات ثقيلة، وسمع صوتاً يناديه طالباً منه الوقوف. التفت برأسه وقد ذهل حين رأى المستشار ميكولين يلاحقه شخصياً. هرع الموظف الكبير، ببساطة وبأنفاس لاهثة.

ـ دقيقة واحدة. فيما يخص ما كنا نتحدث عنه للتوّ، ستكون تلك حسب مشيئة الرب. ولكن قد تسنح الفرصة وأستدعيك من جديد. تبدو مندهشاً يا كيريلو سيدوروفيتش. أجل، مرة أخرى... وذلك لتوضيح أي مسألة أخرى قد تبرز معناً لاحقاً.

تلعثم رازوموف قائلاً:

ـ ولكني لا أعرف شيئاً، ولا يمكن لي أن أعرف شيئاً.

ـ ومن يستطيع أن يعرف؟ الأمور مرتبة بأسلوب رائع. من الذي يعرف ما قد يتكشف لك قبل أن ينتهي هذا اليوم. لقد سبق لك وكنت أداة الإرادة الربانية. أنت تبتسم يا كيريلو سيدوروفيتش. أنت «ذو روح قوية» (بالفرنسة). (لم يكن رازوموف قد أدرك أنه كان يبتسم.) ولكني

Twitter: @ketab_n

أؤمن تماماً بالإرادة الربانية. إن مثل هذا الاعتراف يصدر من شفتي موظف عجوز مثلي قد يبدو لك مضحكاً. ولكن أنت نفسك ستدرك يوماً... أو أن ما حدث لك لا يمكن أن يؤخذ في الاعتبار. أجل، لا شك أني سأراك مرة أخرى ولكن ليس هنا. لن يكون ذلك... هم.... م!... سيتم إبلاغك بمكان مناسب للقاء وسيكون من الأفضل أن يتم التواصل الخطي بيننا في هذا الخصوص أو غيره عن طريق... لو كان لي أن أعبّر عن ذلك بهذا الأسلوب: عن طريق صديقنا المشترك، «الأمير كـ...». والآن أرجوك يا كيريلو سيدوروفيتش... كلا أنا واثق أنه سيوافق. عليك أن تمنحني الثقة بأنك تدرك ما أقوله. ليس لديك من صديق أفضل من «الأمير كـ...»، أما بالنسبة إلي فإنني لم أتشرّف منذ زمن طويل بهذا الـ....

نظر إلى الأسفل عبر لحيته.

- لن أؤخرك أكثر من ذلك. نحن نعيش في أوقات عصيبة، أوقات الأوهام الرهيبة والأحلام الشريرة والحماقات الإجرامية. لا شك أننا ستتقابل مرة أخرى. قد يمرّ بعض الوقت على أية حال قبل أن يحدث ذلك. وحتى ذلك الحين إذن فلترسل لك السماء تأمّلات مثمرة!

ما أن أصبح في الشارع، حتى أسرع رازوموف في سيره دون أن يكترث بالاتجاه. في البداية لم يفكر في شيء، ولكنه خلال فترة قصيرة عاد إلى وعيه بمواقفه وكان أمراً بشعاً وخطيراً وغريباً، وكانت هناك صعوبة تحرير نفسه من شراك ذلك التعقيد المستعصي على الحل، بحيث أن فكرة العودة و«الاعتراف»، كما اصطلح على تسميته بنفسه، الاعتراف للمستشار ميكولين، التمعت في ذهنه.

العودة! لماذا؟ الاعتراف! الاعتراف بماذا؟ قال لنفسه بصدق كامل: «لقد تحدثت إليه بأعم الصراحة. ماذا لديّ أيضاً لأضيفه؟ أني

Twitter: @ketab_n

قد أخذت على عاتقي نقل رسالة إلى ذلك الوحش زيميانيتش؟ أن أزيّف اشتراكاً كاذباً في الجريمة وأدمر أية فرصة في السلامة التي كسبتها لقاء لا شيء... يا لها من حماقة!»

ومع ذلك لم يستطع أن يمنع نفسه عن تخيّل أن المستشار ميكولين كان على الأرجح الشخص الوحيد في العالم القادر على فهم سلوكه. كان أمراً آسراً بالنسبة إليه أن يكون مفهوماً.

في طريقه إلى البيت كان عليه أن يتوقف مرات عدة. بدا له أن قوته كلها قد نفدت من أعضائه. وفي الحركة التي رآها في الشوارع المزدحمة، وهو المعزول كمن في الصحراء، بقي فجأة دون حراك لمدة دقيقة أو نحوها قبل أن يستطيع متابعة السير. ولكنه وصل إلى غرفته أخيراً.

ثم أحس برضاً ما، بشيء من أشبه بحمى خفيفة، نقلته على الفور إلى مسافة بعيدة عن الحاضر المربك، وعن غرفته بالذات حتى. لم يفقد الوعي أبداً، بل بدا له أن يتواجد على نحو مضنٍ، في مكان بعيد جداً عن كل ما حدث له. خرج من هذه الحالة ببطء، وببطء شديد، رغم أن عدد الأيام لم يكن كبيراً جداً. وحين عاد إلى وسط الأشياء كانت كلها قد تغيّرت في طبيعتها على نحو دقيق ومغيظ: الجمادات، الوجوه البشرية، صاحبة المنزل، الخادم الريفية، الدرج، الشوارع، وحتى الهواء نفسه. عالج هذه الشروط المتغيرة بروح تتميز بالتجهم. سار من الجامعة وإليها، صعد الأدراج، ذرع الممرات، أصغى إلى المحاضرات، كتب الملاحظات وعبر الباحات بعزلة غامضة، وأسنانه مطبقة حتى آلمه فكاه.

كان واعياً تماماً بوجود «كوستيا الطائش» وهو يحدق إليه من مسافة ككلب صيد صغير، وبالطالب المجوَّع ذي الأنف الأحمر

Twitter: @ketab_n

الكئيب، الذي بقي بعيداً مطبقاً التعليمات بدقة، وبعشرين آخرين ربما كان على معرفة كافية بهم ليتحادث معهم. وكان يبدو على الجميع الفضول والاهتمام كأنما هم يتوقّعون أن يحدث شيء ما. فكر رازوموف أكثر من مرة: «لا يمكن لهذا أن يدوم أكثر من ذلك». في أيام معينة كان يخشى أن يقوم أحد بمخاطبته فجأة وبطريقة ما فيجعله يصرخ بجنون قاذفاً بالشتائم القذرة. وغالباً ما كان يسقط بعد عودته إلى البيت في كرسي وهو لا يزال يرتدي قبعته وعباءته، ويبقى ساكناً ساعات بحالها ممسكاً بكتاب جلبه من المكتبة، أو يمسك بموسى صغيرة ويروح يكشط أظافره إلى ما لا نهاية وهو يشعر بالغضب طوال الوقت. كان يغمغم فجأة مخاطباً الغرفة الفارغة: «هذا مستحيل».

واقعة لا بد من ذكرها: ربما أصبحت هذه الغرفة - وهذا أمر ممكن تخيّله - منفّرة له وغير محتملة عاطفياً وغير قابلة للسكن معنوياً. ولكن لا. لا شيء من هذا القبيل (وهو نفسه كان يخشى ذلك في البداية)، لا شيء من هذا القبيل قد حدث. بل على العكس من ذلك، إذ كان يحب مسكنه أكثر من أي مأوى آخر سبق أن استأجره من قبل، وهو الذي لم يعرف له بيتاً طوال عمره، كان يحب مسكنه كثيراً إلى حد أنه في هذا الاعتبار كان يجد صعوبة في أن يقرر الخروج منه. كان ذلك أشبه بإغراء ماديّ كذلك الإغراء الذي يجعل المرء يتردد في أن يغادر مكانه إلى قرب النار في يوم بارد.

فطالما لم يكن يتحرك في ذلك الوقت إلا ليذهب إلى الجامعة (وماذا كان لديه غير ذلك ليفعله؟) فإنه حين كان يغادر المسكن كان يشعر على الفور أنه متورط في النتائج الأخلاقية لما فعله. هناك كان الثقل الكئيب لسر هالدين يسقط عليه، ويلتصق به كحبل سامّ كان مستحيلاً انتزاعه. كان يعاني من ذلك بشدة، وكذلك من تبادل حواري، عادي، متعذّر تجنّبه مع ذلك النوع الآخر من الطلاّب. «لا

Twitter: @ketab_n

شك أنهم يتساءلون حول هذا التغيير في شخصي.» هذا ما كان يفكّر فيه بقلق. كان يتذكر بقلق أنه شتم طالباً أو طالبين بريئين ولطيفين قائلاً لهما أن يذهبا إلى الشيطان. ومرة خاطبه أستاذ متزوج، كان من عادته أن يزوره سابقاً وذلك خلال مروره به قائلاً: «لماذا لم نعد نراك في أيام الأربعاء يا كيريلو سيدوروفيتش؟» كان رازوموف واعياً أنه أجاب على هذه الحركة بجلافة كريهة مغمغمة. وقد دهش الأستاذ كثيراً بل أحس بالإهانة. كل هذا كان سيئاً. وكل هذا بسبب هالدين، هالدين دائماً... لا شيء سوى هالدين... هالدين في كل مكان: شبح أخلاقي يصبح أكثر فعالية إلى حد مطلق من أي شبح مرئي للمتوفي. تلك الغرفة التي تخبّط فيها ذلك الرجل في طريقه من الجريمة إلى الموت، هناك فحسب لم يكن الشبح قادراً على التردّد عليه. ولو توخينا الدقة لقلنا إنه لم يكن غائباً تماماً عنها، ولكن لم تكن له هناك أية سلطة. ففيها كانت لرازوموف اليد العليا، بسبب تفوّقه. إنه شبح مهزوم... لا شيء أكثر من ذلك. في المساء وبينما تكون ساعته المصلّحة التي تدقّ بصوت واهن موضوعة على الطاولة قرب مصباح مضاء، غالباً ما كان رازوموف ينظر من حيث كان يكتب ويحدّق إلى السرير باهتمام مترقّب هادئ. ما كان ممكناً مشاهدة أي شيء هناك. لم يفترض فعلاً أنه يمكن له أن يرى أي شيء هناك. وبعد فترة كان يهزّ كتفيه بخفة ويعود لينكبّ على عمله. فهو قد جلس ليعمل في البداية، وببعض النجاح. لقد أصبح انعدام رغبته في ترك المكان الذي كان يشعر فيه بالأمان من هالدين قوياً جداً مؤخراً بحيث توقف عن الخروج إطلاقاً. منذ الصباح الباكر وحتى فترة متأخرة من الليل كان يكتب، وقد راح يكتب لمدة أسبوع دون أن ينظر إلى الوقت، بل كان يرمي بنفسه على السرير وذلك حين لا يعود قادراً على فتح عينيه. ثم، في عصر أحد الأيام، نظر بالصدفة إلى ساعته. وعندها وضع قلمه على الطاولة.

Twitter: @ketab_n

فكّر كما يلي: «في مثل هذه الساعة تسلّل الشخص دون أن يراه أحد إلى هذه الغرفة بينما كنت في الخارج. وقد جلس هنا بهدوء كفأرة... ربما على هذا الكرسي بالذات.»

نهض رازوموف وبدأ يذرع الغرفة بثبات، وهو ينظر إلى الساعة بين الحين والآخر. «في مثل هذه الساعة عدت فوجدته واقفاً عند المدفأة.» هذا ما قاله في نفسه. وحين خيّم الظلام أشعل مصباحه. وبعد فترة أوقف سيره مرة أخرى وذلك ليلوّح بيده بغضب للخادم التي حاولت دخول الغرفة بالشاي وبعض الطعام على صينية. وقد لاحظ الآن أن الساعة كانت تشير إلى الوقت الذي خرج فيه تحت الثلج المنهمر لينفّذ تلك المهمة الرهيبة.

غمغم بوهن: «اشتراك في جريمة»، ثم استأنف ذرعه للغرفة وعيناه مثبتتان على عقارب الساعة وهي تزحف ببطء لتشير إلى وقت عودته.

فكر فجأة: «وعلى أية حال، فلربما كنت بالفعل أداة القضاء الإلهي. هذا نوع من أنواع الكلام، ولكن قد تكمن الحقيقة في كل نوع من أنواع الكلام، ماذا لو كان ذلك القول العجيب صحيحاً في جوهره؟»

فكّر لفترة ثم جلس وبساقين ممدودتين وعينين متحجرتين، وذراعين مدلاتين على كل جانب من جانبي الكرسي كرجل هجرته الإرادة الإلهية تماماً... رجل بائس متوحّد.

لاحظ أن عقارب الساعة أشارت إلى وقت رحيل هالدين ولكنه استمر في الجلوس مدة نصف ساعة أخرى، ثم غمغم: «والآن إلى العمل». ثم اقترب من الطاولة وأمسك بالقلم ثم رماه فوراً تحت تأثير فكرة مقلقة جداً: «مضت ثلاثة أسابيع دون أن يصلني شيء من ميكولين».

Twitter: @ketab_n

ما الذي كان يعنيه ذلك؟ هل تم نسيانه؟ ربما. ثم لماذا لا يبقى منسياً... فيزحف إلى مكان ما؟ يختبئ. ولكن أين؟ كيف؟ مع من؟ في أي جحر؟ وهل سيكون ذلك إلى الأبد أم ماذا؟

ولكن الالتجاء كان مترعاً بالمخاطر الشبحية. فعين الثورة الاجتماعية مسلّطة عليه، وأحس رازوموف للحظة بخوف مجهول يثير اليأس في قلبه، وقد اختلط بإحساس كريه بالذل. هل كان ممكناً أنه لم يعد ينتمي إلى نفسه بعد الآن؟ كان ذلك أمراً لعيناً. ولكن لماذا لا يواظب على المنوال نفسه؟ أن يدرس. أن يتقدم. أن يجتهد كأنما لم يحدث أي شيء (وأن يكسب أولاً وقبل كل شيء الميدالية الفضية) وينال التميّز ويصبح خادماً كبيراً ومصلحاً لأعظم الدول، وخادماً أيضاً لأقوى تجمع بشري متجانس التكوين ذي قدرة على التطوير المنطقي الموجّه في تضامن أخوي يتميز بالقوة والهدف على نحو لم يحلم به العالم من قبل... الأمة الروسية!..

بهدوء وتصميم وثبات. في عزمه العظيم، مدّ يده نحو القلم، ولكنه نظر صدفة إلى السرير، اندفع نحوه غاضباً وهو يصرخ ذهنياً: «إنه أنت أيها المتعصب المجنون الذي يقف في طريقي!» رمى بالوسادة على الأرض بعنف وشد البطانيات جانباً... لا شيء هناك. ثم أشاح بوجهه بعيداً فرأى لبرهة في الهواء، كتفصيل حي في مشهد متلاشٍ لرأسين، عيني «الجنرال تــ....» وعيني المستشار السري ميكولين، جنباً إلى جنب، مثبتة عليه، مختلفة في صفاتها، ولكن لها التعبير القاسي المتعب إنما الهادف نفسه... خدم الأمة!

تعثر رازوموف نحو المغسلة وقد انزعج كثيراً، شرب بعض الماء ثم غسل جبينه. فكر بثقة: «سيمرّ هذا دون أن يترك أثراً. أنا على ما يرام.» ولكن أن يفترض أنه قد تم نسيانه، فهذا هراء تام. إنه رجل

Twitter: @ketab_n

مشبوه. وكان ذلك لا شيء. كان ما يمثله ذلك الشبح البائس هو ما يتوجب إزاحته من الطريق... «لو أني أستطيع فحسب أن أذهب وأبصق الأمر كله بصراحة على بعضهم... وأتحمل بعد ذلك النتائج.»

تخيّل نفسه وهو يبادر الطالب ذا الأنف الأحمر ويهزّ قبضته في وجهه. ثم فكّر: «لا يمكن الوصول إلى أي شيء عبر ذلك الشخص، لأنه لا يملك ذهناً خاصاً به. إنه يعيش في توبة ديموقراطية حمراء. آه! أنت تريد أن تشقّ طريقك إلى سعادة كونية شاملة يا ولدي. سأمنحك سعادة كونية شاملة أيها الغول الأحمق! وماذا عن سعادتي أنا؟ أليس لي الحق في السعادة لمجرد أني أستطيع أن أفكّر على نحو مستقل؟ ....».

ومن جديد, ولكن بلهجة ذهنية مختلفة، قال رازوموف لنفسه: «أنا شاب. كل شيء يمكن أن يُنسى مع مرور السنين.» في تلك اللحظة كان يعبر الغرفة ببطء وهو ينوي أن يجلس على الأريكة ويحاول أن يهدّئ من خواطره. ولكنه قبل أن يصل إليها تخلّى عن كل شيء: الأمل والشجاعة والإيمان بنفسه والثقة في النفس. لقد أفرغ قلبه نفسه فجأة. لم تكن هناك فائدة ترجى من الاستمرار بالنضال. الراحة والعمل والعزلة وصراحة التعامل مع الناس كانت كلها محظورة عليه. لقد ولّى كل شيء. تحوّل وجوده إلى فراغ بارد، شيء ما أشبه بسهل هائل، سهل روسيا كلها، وقد سوّي بالثلج وراح يبهت تدريجياً من كل الجوانب متحولاً إلى ظلال وسديم.

جلس برأسٍ دائخة، وأغلق عينيه وبقي على هذه الحال، جالساً كالسهم باستقامة على الأريكة ومستيقظاً تماماً بقية الليل، حتى دخلت الخادم إلى الغرفة الخارجية مثيرة الضجة وحاملة الساموفار. ثم دقت بقبضتها على الباب وهي تنادي:

ـ كيريلو سيدوروفيتش، من فضلك. لقد حان وقت النهوض من الفراش.

Twitter: @ketab_n

عند ذلك، أطاع رازوموف نداءات القدر المخيفة شاحباً كشبح، ففتح عينيه ونهض.

* * *

لن يُدهش أحد إذا ما سمع، على ما أفترض، أنه حين تم استدعاء رازوموف ذهب هذا ليقابل المستشار ميكولين. لقد صل الاستدعاء في ذلك الصباح بالذات، بينما كانت يحلق لحيته ويبدو شاحباً مرتجفاً كمريض خرج لتوه من الفراش. كانت الكتابة على المغلّف بيد المحامي ضئيل الجسم. وكان هذا المغلّف يحتوي على آخر معنون باسمه بخط يد «الأمير كـ....» وكتب عليه «يرجى توجيهه فوراً ضمن مغلف آخر.» أما الرسالة التي في الداخل فكانت بخط يد المستشار ميكولين. وقد أفاد الكاتب بصراحة أنه لا شيء جديد يتوجّب توضيحه، ولكنه حدّد مع ذلك موعداً مع السيد رازوموف في عنوان معين في المدينة يبدو أنه عنوان طبيب عيون.

قرأها رازوموف، ثم أنهى الحلاقة وارتدى ملابسه، ونظر إلى الرسالة مرة أخرى وغمغم بكآبة: «طبيب عيون.» فكّر في ذلك لفترة من الزمن، وأشعل عود كبريت ثم أحرق المغلفين والرسالة بعناية. وبعد ذلك راح ينتظر وهو جالس دون حراك من غير أن ينظر إلى أي شيء معين حتى اقترب الموعد ثم خرج.

لا نعرف إن كان قد فكّر في الإحجام عن الذهاب إلى ذلك الموعد بسبب صفته اللارسمية. على الأرجح فإن ذلك لم يحدث. وعلى أية حال فقد ذهب، وعلاوة على ذلك، فقد ذهب بلهفة معينة قد تبدو غير قابلة للتصديق إلاّ إذا تذكرنا أن المستشار ميكولين كان الشخص الوحيد على الأرض الذي يستطيع رازوموف أن يحادثه على أساس أن قضية هالدين أمر مفروغ منه. وما أن يكون هالدين أمراً

Twitter: @ketab_n

مفروغاً منه لا يعود شبحاً متنابأ مولّداً للأكاذيب. ومهما كانت القوة المزعجة التي يستطيع الشبح أن يمارسها في كل بقعة من بقاع الأرض، إلاّ أن رازوموف كان يعرف جيداً أنه في عيادة طبيب العيون هذا سيكون مجرد قاتل «السيد دو بـ...» المنفذ به حكم الإعدام شنقاً، ولا شيء آخر. فالموتى لا يمكن أن يعيشوا إلاّ بتلك الكثافة والنوعية الحية اللتين يضيفهما عليهم الأحياء. لذا، ذهب السيد رازوموف، وهو واثق من الفرج، لمقابلة المستشار ميكولين، وذلك بلهفة الشخص الملاحَق الذي يرحّب بأي مأوى.

بعد أن قلنا ما قلناه لم تعد هنالك حاجة إلى قول المزيد عن ذلك اللقاء الأول واللقاءات الأخرى العديدة .بالنسبة إلى المبادئ الأخلاقية الخاصة بالقارئ الغربي فإن وصفاً لهذه اللقاءات سيرتدي ربما لبوس الغرابة التي تميّز الحكايات الأسطورية القديمة حيث يقوم «عدو البشرية» بحوارات كاذبة لطيفة مع روح تم إغراؤها. ليس دوري هو دور المحتجّ. ولكن اسمحوا لي أن أقول إن «الشيطان»، بعاطفته الوحيدة ذات الغرور الشيطاني المتركزة على دافع واحد، قد يسمح له ضمن منظور أوسع وأكثر عصرية أن يكون أقل سواداً ممّا يُصوَّر عادة. لكم علينا إذن أن نكون أكثر تسامحاً حين نقيّم الصبغة الحقيقية للرجل الثاني العادي، بعواطفه الكثيرة وبراعته البائسة في ارتكاب الأخطاء، والمبهور دائماً باللمعان الحقير للدوافع المختلطة والذي تخونه على الدوام حكمة قصيرة النظر.

كان المستشار ميكولين واحداً من أولئك الموظفين الأقوياء الذين كانوا يمارسون تأثيراً كبيراً على الأساليب وليس بالأحرى على سير الأمور وذلك بسبب وجوده في مركز ليس بالمغمور، وليس بالسري، إنما ببساطة غير واضح. الولاء للكنيسة والعرش ليس بحد ذاته عاطفة إجرامية. إن تفضيل إرادة الشخص الواحد مقابل إرادة

Twitter: @ketab_n

كثيرين لا يتم بامتلاك قلب أسود أو يبرهن على غباء فطري. لم يكن المستشار ميكولين موظفاً ذكياً فحسب بل ومخلصاً أيضاً. كان عازباً يحب الراحة، ويعيش وحيداً في شقة من خمس غرف مؤثثة على نحو فاخر، وكان معروفاً لدى أصدقائه المقرّبين بأنه واع متنوّر لفن الرقص النسائي. ولاحقاً سمع به العالم أوّلاً في ساعة سقوطه بالذات، خلال إحدى محاكمات الدولة التي تذهل وتدهش الشخص العادي من قرّاء الصحف بلمحة من المؤامرات المفاجئة. فخلال اضطراب فظاعات غامضة، في ذلك الجيشان المؤقت الغامض في المياه العكرة، هوى المستشار ميكولين مبجّلاً، مع احتجاج هادئ رائع بأنه بريء... ولا شيء آخر. لم يجر أي فضح يسيء إلى حكم فردي استبدادي مُنْهَك، إخلاص كامل لأسرار الدولة العليا البائسة المودعة في صدره الوطني. عرضٌ لـ «رواقية» بيروقراطية في احتقار يكاد يكون سامياً ومتعذراً استئصاله، احتقار موظف روسي كبير للحقيقة، «رواقية» الصمت المفهوم من قبل القلة القليلة من المطلعين فحسب، وليس دون عظمة تهكمية معينة من جانب الشخص المترف المنغمس في الملذات. فالعقوبة الشديدة جداً حولت المستشار ميكولين مدنياً إلى جثة وفعليّاً إلى شيء ما أشبه كثيراً بالمحكوم العادي.

يبدو أن الحكم الفردي المستبد الوحشي، لا يقصر غذاءه على أجساد أعدائه فحسب شأنه في ذلك شأن الديموقرطية الإلهية. فهو يلتهم أصدقاءه وخدمه أيضاً. كان سقوط صاحب السعادة غريغوري غريغوروييفيتش ميكولين (الذي لم يحدث إلاّ بعد سنوات) يُكْمِل كل ما هو معروف عن هذا الرجل. ولكن في الوقت الذي جرى فيه اغتيال «السيد دو بـ...» (أو إعدامه)، كان المستشار ميكولين، تحت اللقب المتواضع «رئيس دائرة في السكرتاريا العامة»، يمارس نفوذاً واسعاً على أنه موضع ثقة «الجنرال تـ....» ويده اليمنى، وكانا زميلي دراسة

Twitter: @ketab_n

وصديقي عمر. ويمكن للمرء أن يتخيّلهما وهما يتحدثان عن قضية السيد رازوموف، بكل مغزى سلطتهما المطلقة على حياة كل روسي، بذلك الاحتقار الخاطف، كما قد يفعل إلهان في جبل الأوليمب وهما ينظران إلى دودة. كانت علاقته بـ «الأمير كـ...» كافية لإنقاذ رازوموف من إجراء اعتباطي طائش، ومن المحتمل جداً على حدّ سواء أنه بعد اللقاء الذي جرى في السكرتاريا كان من الممكن أن يُترك وشأنه. ما كان المستشار ميكولين لينساه (ما كان ينسى أحداً سبق له وراقبه)، ولكن من الممكن أن يهمله إلى الأبد. كان المستشار ميكولين شخصاً طيب المعشر وما كان يرغب في إيذاء أحد. وزيادة على ذلك (وبسبب من ميوله الإصلاحية) كان ذلك الطالب الشاب، ابن «الأمير كـ...» والذي لا يبدو أحمق إطلاقاً، قد ترك لديه انطباعاً جيداً.

ولكن شاء القدر أنه حين كان السيد رازوموف لا يجد أسلوباً ممكناً له في هذه الحياة، كانت قدرات المستشار ميكولين المتميزة قد كوفئت بمركز يحمل مسؤولية كبيرة... لا شيء أقل من مدير الدائرة المسؤولة عن أوربا في رئاسة الشرطة. وعندها، عندها فحسب، ولدى قيامه بتحسين الإجراءات الخاصة بمراقبة نشاطات الثوريين في الخارج، عاد ليتذكر السيد رازوموف. لقد رأى إمكانية كبيرة في أن يكون لهذا الشاب غير العادي فائدة خاصة، هذا الشاب الذي سبق له وتفهّمه، بمزاجه الغريب وذهنه غير المستقر وضميره المهزوز، الذي يناضل واقعاً في شباك موقع مزيف... كأنما كان الثوريون أنفسهم قد وضعوا في يده تلك الأداة الأدق بكثير من الأدوات الشائعة الرديئة، المجهزة على نحو كامل، هذا إذا ما مُنحت ثقة كافية، للتغلغل إلى أماكن لا يمكن للمخبرين العاديين الوصول إليها. إنها يد الرب! يد الرب! و«الأمير كـ...»، الذي ائتمن على هذا السر، كان مستعداً تماماً لتبنّي وجهة النظر الباطنية هذه أيضاً. كان قد اشترط بقلق:

Twitter: @ketab_n

«سيكون من الضروري على أية حال أن يتم إيجاد مهنة ما لـه لاحقـاً.» وقد أيّده ميكولين قائلاً: «أوه! طبعاً. سنهتم بهذه القضية.» كـان تأمـل «الأمير كـ...» الباطني من النوع السـاذج؛ ولكـن المستـشار ميكـولين كان داهية بما فيه الكفاية عن شخصين.

غالباً ما يكون للأشياء والأشخاص حسّ ما، جانب معـين يجـب أن يتم الإمـساك بهـم منـه إذا أراد المـرء أن يـضبطهم جيـداً ويـسيطر عليهم تماماً. كانت قـوة المستـشار ميكـولين تتجلّـى في القـدرة علـى معرفة ذلك الحسّ، ذلك الجانب من الناس الذي يمكن له أن يستغلّه. لم يكن يعنيه ما هو ذاك... الغرور، اليأس، الحب، الحقـد، الـشره، التبجّح الغبي، التيه الأحمق بالذات... كان هذا كان سواء لديـه طالمـا كان ممكناً جعل الشخص يخدمه. كان الطالـب المغمـور رازومـوف، الذي لا أقرباء له، في لحظة الوحدة الأخلاقية العظمى، قد سمـح لـه أن يشعر بأنه كـان موضـع اهتمـام مجموعـة صغيرة مـن النـاس ذوي المراكز العليا. وقد تم إقناع «الأمير كـ...» بـأن يتـدخل شخـصاً، وأن يستـسلم في مناسـبة معينـة أمـام انفعـال رجـولي أثـار انزعـاج الـسيد رازوموف بسبب كونه أمراً غـير متوقـع إطلاقـاً. كـان الناقـد المفـاجئ لذلك الرجل، الذي أثـير بـسبب إخلاصـه للعـرش والعاطفـة الأبويـة المكبوحة، إفشاء للسيد رازوموف بشيء ضمن صدره بالذات.

صاح في نفسه: «هكذا هو الأمر إذن!». لطّف نوع من الرقة المترعـة بالازدراء وجهة نظر الشاب الكئيبة بمركزه وهو يفكر بذلك اللقاء المتصف بالإثارة مع «الأمير كـ...». رجل الحرس السابق المنـصرف إلى الملـذات الساذج التفكير هذا، وعضو مجلس الشيوخ السابق، والذي احتكّ شارباه الخـديان الرماديـان الرسميـان الناعمـان بخـده، أبـوه الارسـتقراطي ذو القناعة، هل كان أقلّ جدارة بالاحترام أو أكثر غرابة بقليل من ذلك الثوري المتعصب الذي عضّه الجوع، ذلك الطالب ذو الأنف الأحمر؟

Twitter: @ketab_n

وكان هناك بعض الضغط أيضاً، إلى جانب القدرة على الإقناع. لقد جعل السيد رازوموف يشعر باستمرار وكأنه قد ألزم نفسه. ما كان هناك مهرب من ذلك الشعور، من ذلك السؤال الرقيق غير القابل للإجابة: «إلى أين؟» الذي طرحه المستشار ميكولين. ولكن لم تُجْرَح أية مشاعر إطلاقاً. كانت تلك مهمة خطرة إلى جنيف للحصول، في لحظة حرجة، على معلومات موثوقة تماماً من جماعة من الحلقة الثورية الداخلية يتعذّر الوصول إليها. كانت هناك تلميحات إلى وجود مؤامرات خطيرة جداً يجري إعدادها... فالأمن الضروري لدولة كبرى معرضة للخطر... وكانت هناك خطة كبرى للقيام بإصلاحات نظامية معرضة للخطر أيضاً... كانت أكبر الشخصيات في البلد تشعر بالقلق خشية على الوطن، وهكذا دواليك. وباختصار، كان المستشار ميكولين يعرف ما عليه أن يقوله. وهذه المهارة يمكن أن يستنتجها المرء بوضوح من مذكرات السيد رازوموف المتصفة بالتحليل الذاتي والاعتراف الذاتي الذهني والسيكولوجي... الملاذ المثير للشفقة لشاب ليس لديه من يلجأ إليه بأسراره، ولا عاطفة طبيعية يلوذ بها.

أما كيف تم إخفاء كل هذا العمل التمهيدي عن أعين المراقبة فأمر لا حاجة إلى توضيحه. كانت ذريعة طبيب العيون مثلاً كافياً. فالمستشار ميكولين واسع الحيلة، ولم تكن المهمة شديدة الصعوبة. كان مسموحاً لأي زميل لرازوموف، وحتى صاحب الأنف الأحمر ذاك، أن يرى السيد رازوموف وهو يدخل داراً خاصة ليستشير طبيب عيون. كان النجاح المطلق يعتمد على مسألة واحدة فحسب ألا وهي خداع الذات الذي وقع فيه الثوريون والذي كان يمنح رازوموف مشاركة غامضة في قضية هالدين. كان تورطه في تلك القضية شرفاً كافياً، وكان ذلك من صنع الثوريين بالذات. كان «ذلك» بالضبط هو الذي طبع السيد رازوموف بطابع الشخص الذي تقف وراءه اليد

Twitter: @ketab_n

الربانية وتجعله بعيداً تماماً - بعد قطبي الأرض عن بعضهما البعض - عن النمط العادي من العملاء المختصين بـ «المراقبة الأوربية».

وكان «ذلك» بالضبط المهمة التي أخذتها السكرتاريا على عاتقها عن طريق القيام بأعمال طائشة ومحسوبة ومزيّفة.

وقد وصل الأمر في النهاية إلى أن حدث في إحدى الأمسيات أن قام أحد الطلاب «المفكّرين» بزيارة السيد رازوموف. وكان هذا الطالب من أولئك الطلاب الذين اعتاد هو أن يجتمع بهم في لقاءات خاصة عديدة قبل حادثة هالدين. وهو شخص ضخم الجثة له أسلوب هادئ غير متكلّف وصوت لطيف.

ميّز رازوموف صوته في الغرفة الخارجية:

ـ هل لي أن أدخل؟

قفز رازوموف من الأريكة التي كان يرتاح عليها بكسل وفكّر بتهكّم: «فلنفترض أنه قادم ليطعنني؟» ثم وضع رقعة خضراء على عينه اليسرى وقال بلهجة قاسية:

ـ ادخل.

أحس الآخر بالحرج وعبّر عن أمله في أنّه لا يزعجه في خلوته.

ـ لم نرك منذ أيام كثيرة، وكنت أتساءل عن السبب.

سعل قليلاً ثم سأل:

ـ هل عينك في حالة أفضل؟

ـ كادت تشفى الآن.

ـ حسناً. لن أتوقف أكثر من دقيقة، ولكنك ترى أنّي... أعني أننا قد أخذنا على عاتقنا مهمة تحذيرك ياكيريلو سيدوروفيتش من أنك تعيش في وضع أمان مزيف على الأرجح.

Twitter: @ketab_n

جلس رازوموف ساكناً ورأسه مسندة إلى يده، ممّا كان يخفي عينه المحجوبة.

ـ لديّ الفكرة نفسها أنا أيضاً.

ـ حسن إذن. كل شيء يبدو هادئاً الآن، ولكن أولئك الأشخاص يحضّرون لعملية قمع شاملة. هذه مسألة مفروغ منها. ولكني لم أحضر إليك لأخبرك بذلك.

اقترب بكرسيه من رازوموف وأخفض صوته:

ـ سيتم اعتقالك قريباً، هذا ما نخشاه.

كان هناك كاتب مغمور في السكرتاريا سمع كلمات قليلة من محادثة جرت هناك، كما لَمَحَ بسرعة خاطفة أحد التقارير. وما كان يتوجّب إهمال مثل هذه المعلومات.

ضحك رازوموف قليلاً، ولكن زائره أصبح قلقاً جداً.

ـ آخٍ يا كيريلو سيدوروفيتش، هذه ليست مسألة تدعو إلى الضحك. لقد تركوك وشأنك لفترة من الزمن، ولكن...! بالفعل، الأجدر بك أن تحاول مغادرة البلاد يا كيريلو سيدوروفيتش بينما لا تزال الفرصة سانحة.

نهض رازوموف وبدأ يشكره على نصيحته بتدفق ساخر، حتى أن الآخر، الذي احمرّ وجهه، خرج وهو يفكّر في أن رازوموف الغامض ليس بالشخص الذي يتوجّب بتحذيره أو نصحه من قبل الأشخاص الأدنى منزلة.

وحين تم إبلاغ المستشار ميكولين بهذه الحادثة في اليوم التالي عبّر هذا عن رضاه.

ـ هم... م! هاهه! هذا ما كان مطلوباً بالضبط!...

ثم نظر إلى الأسفل عبر لحيته.

Twitter: @ketab_n

قال رازوموف:

- أستنتج أن اللحظة قد حانت لأنطلق في مهمتي.

ألحّ المستشار ميكولين بلطف - بجدية كبيرة - كأنما أصيب بالفزع:

- اللحظة السيكولوجية.

تمت كل الإجراءات التي توفّر إمكانيات مظاهر هروب صعب. لم يتوقع المستشار ميكولين أن يرى السيد رازوموف مرة أخرى قبل رحيله. كانت تكمن في تلك اللقاءات مخاطرة كبيرة، ولم يكن هناك شيء آخر تتوجّب تسويته.

- لقد قلنا كل شيء واحدنا للآخر حتى الآن يا كيريلو سيدوروفيتش.

هذا ما قاله الموظف الكبير وهو يضغط على يد رازوموف بالمودة غير المتحفظة التي يمكن لروسي أن يعبّر عنها بأسلوبه الخاص، وتابع:

- لا شيء غامض بيننا. وسأقول لك إني أعتبر نفسي محظوظاً في... التعرّف... احم... عليك...

نظر إلى الأسفل عبر لحيته، وبعد لحظة من الصمت المتأمل، سلّم إلى رازوموف نصف ورقة من ورق الرسائل... ملاحظة مختصرة عن المسائل التي تمت مناقشتها، بضع نقاط للسؤال عنها، والأسلوب المتفق عليه، وبعض التلميحات المتعلقة بشخصيات معينة وغيره. كان تلك هي الوثيقة الوحيدة المعرضة للشبهة في هذه القضية، ولكن كما قال المستشار ميكولين، يمكن تدميرها بسهولة. والأفضل ألاّ يرى السيد رازوموف أحداً الآن... حتى يصبح على الجانب الآخر من الحدود، وعندها سيكون عليه أن... يرى ويسمع و...

Twitter: @ketab_n

نظر إلى الأسفل عبر لحيته؛ ولكن حين صرح رازوموف بنيّته في لقاء شخص واحد على الأقل قبل مغادرة سانت بطرسبورغ، لم يستطع المستشار ميكولين أن يخفي انزعاجاً مفاجئاً. كانت الحياة المجدّة، الوحدانية والمتزمتة لهذا الشاب معروفة لديه. كانت تلك أعظم ضمانة له على جدارته. ولكنه راح يستنكر الآن. هل وضع عزيزه كيريلو سيدوروفيتش في الاعتبار أنه في سبيل مشروع عظيم كمشروعه فقد كان أمراً مستحسناً التضحية بكل عاطفة...؟

قاطع رازوموف العتاب باحتقار. لم تكن تلك امرأة شابة بل شاباً أحمق كان يرغب في أن يراه لغرض محدد. أحس المستشار ميكولين بالراحة، إنما بالدهشة أيضاً.

ـ آه! ولماذا... بالضبط؟

ـ من أجل جعل الأمر كله أكثر قابلية للتصديق. يجب أن أكون موثوقاً فيما أفعله.

هذا ما قاله رازوموف بفظاظة وهو يعبّر عن رغبته في تأكيد استقلاليته.

تراجع المستشار ميكولين بلباقة وهو يغمغم:

ـ أوه بكل تأكيد. إن حكمك على...

وبمصافحة أخرى افترقا.

كان ذلك الشاب الأحمق الذي كان السيد رازوموف يفكّر به هو الطالب الثري المرح المعروف بـ «كوستيا الطائش». وبما أنه كان خفيف العقل، مهذاراً، سريع الاستثارة، فقد كان ممكناً للمرء أن يكون على ثقة من طيشه المطلق الكامل. ولكن ذلك الشاب المشاغب، حين ذكّره رازوموف بعرضه الذي كان قد قدّمه منذ بعض الوقت، انتقل من حالة التيه المعتادة إلى الفزع الذي لا حدود له.

Twitter: @ketab_n

ـ أوه يا كيريلو سيدوروفيتش، يا أعز الأصدقاء -يا مخلّصي- ما بوسعي أن أفعله؟ لقد أنفقت الليلة الماضية كل روبل أخذته من أبي في اليوم السابق. ألا تستطيع إمهالي حتى يوم الخميس؟ سأهرع إلى كل المرابين الذي أعرفهم... لا، طبعاً لا تستطيع! لا تنظر إليّ هكذا. ما الذي سأفعله يا ترى؟ لا مجال لطلب المساعدة من أبي. أقول لك إنه أعطاني ملء قبضته من الأوراق النقدية الكبيرة منذ ثلاثة أيام. يا لي من بائس.

راح يفرك يديه يائساً. من المستحيل الثقة بالأب.

ـ لقد منحوه وساماً، صليباً على العنق في العام الماضي فحسب. وهو يشتم النزعات العصرية منذ ذلك الحين. عندها كان مستعداً لرؤية كل مثقفي روسيا مشنوقين في صف واحد على أن يدفع روبلاً واحداً. انتظر لحظة واحدة يا كيريلو سيدوروفيتش. لا تحتقرني. لقد عرفت الحل. سأفعلها... أجل... سأسرق من مكتبه. لا مفرّ من ذلك. أعرف الدرج الذي يحتفظ فيه بغنائمه، وأستطيع شراء إزميل في طريقي إلى البيت. سينزعج جداً دون شك، ولكن أنت تعرف أن ذلك الغبي العجوز العزيز يحبني فعلاً. سيكون عليه أن يتجاوز ذلك... وأنا أيضاً. يا كيريلو، أيها الروح العزيزة، إذا كنت تستطيع أن تنتظر مجرد ساعات قليلة... حتى هذا المساء... سأسرق لك كل ما أستطيع أن أضع يدي عليه من أموال مباركة! أتشكّ بي؟ لماذا؟ كل ما عليك هو أن تلفظ الكلمة.

قال رازوموف وهو يثبت نظره عليه بتحجّر:

ـ إسرق بأية وسيلة كانت.

ـ فلتذهب الوصايا العشر إلى الشيطان!

هذا ما صاح به الآخر بحيوية هائلة، ثم استأنف قائلاً:

ـ إنه المستقبل الجديد الآن.

ولكنه حين دخل غرفة رازوموف في وقت متأخر من تلك الليلة كان في أشدّ حالة من الوقار بل الرزانة.

Twitter: @ketab_n

قال:

ـ لقد تمّ الأمر.

ارتجف رازوموف، الجالس منحنياً ويداه المتشابكتان مدلاّتان بين ركبتيه، لدى سماعه الوقع المألوف لهذه الكلمات. وضع كوستيا ببطء في دائرة ضوء المصباح رزمة ملفوفة بورق بنّي اللون مربوطة بخيط.

كما قلت لك... كل ما استطعت أن أضع يديّ عليه. سيعتقد العجوز أن نهاية العالم قد دنت.

أومأ رازوموف برأسه من الأريكة وراح يتأمل بجدية ذلك الشاب ذي العقل الخفيف مع إحساس بمتعة شريرة.

قال كوستيا الطائش:

ـ لقد قمت بما عليّ من تضحية. وعليّ أن أشكرك يا كيريلو سيدوروفيتش لمنحي الفرصة لفعل ذلك.

ـ وهل كلفتك شيئاً ما؟

ـ أجل. أنت ترى أن المغفّل العجوز يحبّني فعلاً. سيشعر بالإهانة.

ـ وهل تصدّق كل ما يقولونه لك عن المستقبل الجديد والإرادة المقدسة للشعب؟

ـ تماماً. وأنا مستعد أن أضحيّ بحياتي... ولكنك ترى أني أشبه بخنزير في معلف. لست صالحاً لأي شيء. هكذا هي طبيعتي.

نسي رازوموف، الذي استغرق في التفكير، وجوده حتى أيقظه صوت الشاب الذي راح يتوسل إليه أن يهرب دون أن يضيع المزيد من الوقت.

ـ حسناً. وداعاً.

ـ لن أتركك حتى أراك وأنت تغادر سانت بطرسبورغ.

Twitter: @ketab_n

هذا ما قاله كوستيا على نحو غير متوقع وبتصميم هادئ. ثم استأنف قائلاً:

لن تضنّ عليّ بهذا الآن. حبّاً بالله يا كيريلو، يا روحي، قد تصل الشرطة في أي لحظة، وحين يقبضون عليك سيسجنونك دهوراً بحالها في مكان ما... حتى يبيضّ شعرك. لديّ في الأسفل هنا أفضل جواد في اصطبلات أبي وزلاّجة خفيفة. سنقطع ثلاثين ميلاً قبل أن يغرب القمر، ونجد محطة ما على الطريق...

رفع رازوموف نظره مذهولاً. لقد تقررت الرحلة... ما عاد ممكناً تجنّبها. كان قد قرّر الرحيل في اليوم التالي. وقد اكتشف الآن فجأة أنه لم يكن يصدّق أمر الرحيل. كان قد شرع يصغي ويتكلم ويفكر ويخطط لهروبه الزائف، وبقناعة متنامية بأن هذا كله محال. وهل هناك من فعل ذلك حقاً؟ كان ذلك أشبه بمباراة في الكذب. والآن هاهو منذهل! فها هو شخص صدّق ذلك كله بلهفة يائسة، فكّر رازوموف وقد أجفله الخوف: «إذا لم أذهب الآن وعلى الفور، فلن أذهب أبداً.» نهض دون أن يطق بكلمة واحدة، ورمى كوستيا القلق بقبعة رازوموف على رأسه وساعده على ارتداء عباءته، وإلاّ لكان قد غادر الغرفة حاسر الرأس كما كان. كان يسير بصمت حين سمع صرخة حادة أوقفته:

ـ كيريلو!

ـ ماذا؟

التفت بتردّد عند الباب. هناك، بذراع ممدودة، كان كوستيا يشير بوجه جامد وشاحب وبسبابة بليغة إلى الرزمة البنية الصغيرة التي تركها رازوموف منسية في دائرة الضوء اللامعة على الطاولة. تردّد رازوموف، ثم عاد إليها تحت نظر رفيقه القاسي، وحاول أن يبتسم له. ولكن الشاب الطائش الصبياني كان مقطّباً. فكّر رازوموف وهو

Twitter: @ketab_n

يضع الرزمة الصغيرة في جيبه وينزل الدرج: «هذا حلم. لا أحد يفعل مثل هذه الأشياء.» كان الآخر قد أمسك به من ذراعه وهو يهمس عن الأخطار التي تنتظره، وما عليه أن يفعله في حال حدوث طوارئ معينة. غمغم رازوموف وهو يُدفع به إلى الزلاجة: «محال.» استسلم وراح يراقب الحلم باهتمام شديد. وقد استمر ذلك وفق خطوط متوقعة ومنطقية على نحو عنيد... الرحلة الطويلة بالزلاّجة، الانتظار عند المحطة الصغيرة جالساً قرب المدفأة. لم يتبادلا نصف دزينة من الكلمات إجمالاً. لم يهتم كوستيا، الكئيب هو نفسه أيضاً، في تحطيم الصمت. ولدى الوداع تعانقا مرتين: كان لا بدّ من ذلك، ثم اختفى كوستيا من الحلم.

وحين حلّ الفجر، نهض رازوموف، الذي كان لا يزال في عربة قطار دافئة خانقة مليئة بالأسرّة والأشخاص النائمين على امتداد طولها المضاء بإضاءة خافتة، نهض بهدوء، وأنزل الزجاج بوصات قليلة ورمى على السهل العظيم المغطى بالثلوج رزمة صغيرة ملفوفة بورق بني. ثم جلس مرة أخرى خامداً ساكناً. فكّر وهو يحدق من خلال النافذة: «من أجل الشعب». كانت الصحراء البيضاء العظيمة من الأرض المتجمدة القاسية تنزلق مارة أمام عينيه دون علامة تدلّ على وجود سكان من البشر.

كان ذلك عملاً يدلّ على أنه قد استيقظ، ثم انتابه الحلم مرة أخرى: بروسيا، ساكسونيا، فوتمبرغ، وجوه، مناظر، كلمات... كل ذلك كان حلماً، حلماً راقبه باهتمام غاضب مفروض بالقوة. زيوريخ، جنيف... لازال حلماً، حلماً يراقبه بدقة، حلماً منهكاً متحوّلاً إلى ضحك قاسٍ، إلى جنون، إلى موت.... مع الخوف واليقظة في النهاية...

Twitter: @ketab_n

ثانياً:

فكّر رازوموف وهو يمشي جيئة وذهاباً تحت أشجار الجزيرة الصغيرة، وحيداً مع التمثال البرونزي لروسو: «ربما الحياة هكذا. حلم وخوف.» أصبح الغسق أكثر قتامة. كانت الصفحات المكتوبة والمنزوعة من دفتره أول ثمرات «مهمّته». هنا لا مجال للحلم. فقد كانت الأوراق تحتوي على تأكيد بأنه على وشك القيام باكتشافات حقيقية. «أعتقد أنه لم يبق شيء في طريق قبولي الكامل.»

كان قد استأنف تسجيل انطباعاته في تلك الصفحات وبعض الحوارات. بل إنه ذهب إلى حد كتابة ما يلي: «بالمناسبة فقد اكتشفت شخصية ذلك الـ «ن. ن. أ.» الرهيب(1). إنه وحش متكرّش فظيع. وإذا ما سمعت شيئاً عن تحركاته المستقبلية فسأرسل تحذراً.»

طغت عليه كلعنة فكرة لا جدوى هذا كله. وحتى هذه اللحظة فهو لا يستطيع أن يصدق حقيقة مهمته. راح ينظر فيما حوله بيأس، كأنما كان يبحث عن طريقة ما لتحرير وجوده من هذا الشعور القاهر. سحق بيده بغضب صفحات دفتره: فكّر: «يجب إرسال هذا بالبريد.»

قطع الجسر وعاد إلى الشاطئ الشمالي حيث تذكر أنه رأى في أحد الشوارع الضيقة دكاناً صغيراً منعزلاً مليئاً بالمنحوتات الخشبية الرخيصة وجدرانه مصفوف عليها كتب مجلدة بالكرتون وقذرة جداً، وهي مخصصة للإعارة. كانوا يبيعون القرطاسية هناك أيضاً حيث ينام عجوز نكد المزاج رث الملابس خلف نضد الحساب. قدمت له امرأة نحيلة في ملابس سوداء وذات وجه سقيم، المظروف الذي طلبه دون

---

(1) يقصد «ثيكاتور» الذي ورد ذكره سابقاً خلال حواره الطويل مع صوفيا أنتونوفنا. (المترجم)

Twitter: @ketab_n

أن تنظر إليه حتى. وقد ظنّ رازوموف أن التعامل مع هذين الشخصين مضمون لأنه ما عاد يهتمّ بأي شيء في هذا العالم. كتب العنوان على المظروف مستنداً إلى نضد الحساب فخطّ اسماً ألمانياً لشخص ما يعيش في فيينا. ولكن رازوموف كان يعرف أن هذه الرسالة، وهي أوّل مراسلة له مع المستشار ميكولين، ستجد طريقها إلى السفارة، وهناك تنسخ بالشيفرة من قبل شخص موثوق وترسل إلى المكان المقصود، بكل أمان، مع البريد الدبلوماسي. هذا هو الإجراء الذي تم تدبيره للتغطية على مجرى سير المعلومات من كل العيون غير الموثوقة، ومن كل الحماقات، ومن كل الحظوظ العاثرة والخيانات. كان الهدف من ذلك أن يكون في أمان... في أمان مطلق.

خرج من الدكان البائس واتجه نحو مكتب البريد. كانت تلك هي المرة الثانية التي أراه فيها ذلك اليوم. كان يعبر شارع «مون بلان» وتبدو عليه سيماء الشخص الذي خرج ليتمشى دون هدف محدّد. لم يميزني ولكني ميزته من مسافة. كان وسيماً جداً، كما ظننت، هذا الصديق الرائع لأخ الآنسة هالدين. راقبته وهو يذهب إلى صندوق البريد ثم يعود ليسير في الاتجاه نفسه الذي كان قد قدم منه. ومن جديد مرّ قريباً جداً مني، ولكني على ثقة من أنه لم يرني في تلك المرة أيضاً. كان يرفع رأسه عالياً، ولكن تبدو عليه سيماء السائر في نومه وهو يصارع الحلم الذي يدفع به نحو الأمام ليتجول في أماكن خطيرة. عادت أفكاري إلى ناتاليا هالدين، إلى أمها. كان هو كل ما تبقى لهما من الابن والأخ.

كان الجانب الغربي مني قلقاً. فهناك أمر ما يثير الصدمة في تعابير ذلك الوجه. لو كنت أنا نفسي متآمراً، لاجئاً سياسياً روسياً، لما كنت أستطيع أن أستنتج شيئاً عملياً في هذه اللمحة العابرة. وكما حدث، فقد أثارت تلك قلقي إلى حد كبير، وإلى حد أنها أيقظت فيّ خوفاً

Twitter: @ketab_n

غير محدّد فيما يخصّ ناتاليا هالـدين. كـل هـذا أمـر يـصعب شـرحه بالأحرى، ولكن هكذا كان منشأ تصميمي على الذهاب لزيـارة تينـك السيدتين في ذلك المساء بالـذات، بعـد وجبـة الغـداء الـتي تناولتـها وحيداً. كان صحيحاً أني كنت قد قابلت الآنسة هالـدين منـذ سـاعات قليلة فحسب، ولكني لم أكن قد رأيت السيدة هالدين نفسها منذ مـدة طويلة. والحقيقة هي أني كنت أتهرّب من الزيارة مؤخراً.

يا للسيدة هالدين المسكينة! أعترف أنها أخـافتني قلـيلا. كـان لها واحد من تلك الطباع النادرة لحسن الحظ، والـذي لا يـستطيع المرء سوى أن يكون مهتماً به لأنه يثير الفزع والشفقة معـاً. والمـرء يخشى من الاحتكاك بها خوفاً على نفسه وعلى من يهتم بهم. ومـن الواضح جداً أن هؤلاء يولدون ليتألّموا وليجعلوا الآخرين يتـألمون أيـضاً. مـن الغريـب أن نفكـر أن ليبراليـة الاسـتشراف، ولا أقـول الحريـة، والـتي قـد تبـدو لنـا مجـرد قـضية كلمـات وطموحـات وانتخابات (وإن كانت لها علاقة بالشعور إطلاقـاً، إذن فهـو ذلـك النوع من الشعور الذي يترك أعمق عواطفنا دون أن يلمسها)، هـذه الليبرالية قد تكون بالنسبة إلى آخرين يشبهوننا كثيراً ويعيشون تحت السماء نفسها، امتحاناً قاسـياً للقـوة وقـضية دمـوع وعـذاب وألم. كانت السيدة هالدين قد أحست بآلام جيلها. كان لديها ذلـك الأخ المـتحمس.... ذلـك الـضابط الـذي أُعـدم أيـام حكـم نيكـولاس. الاستسلام التهكمي الضعيف ليس درعاً لقلب غير حصين. لقد كان على السيدة هالدين، التي فُجعت بولـدها، أن تعـاني مجـدّداً مـن الماضي، وأن تشعر بآلام المستقبل. كانت واحدة من أولئك الـذين لا يعرفون كيف يشفون أنفسهم، من أولئك الذين هم واعـون جـداً بقلوبهم، والذين ينظرون إلى جروحهـا، لا بجبن ولا بأنانيـة... ثم يحسبون الثمن.

Twitter: @ketab_n

كانت مثل هذه الأفكار هي التي ملّحت وجبة الغداء المتواضعة الوحيدة الخاصة بالعزاب. ولو أراد أي شخص أن يقول إن هذه كنت طريقة غير مباشرة للتفكير في ناتاليا هالدين، فلا يسعني سوى أن أردّ بأنها تستحق أن أكرّس لها تفكيري بالفعل. كانت حياتها كلها لا تزال أمامها. ولأعترف إذن أني كنت أفكّر بحياة ناتاليا هالدين من خلال شخصية أمها، وهي طريقة تفكير في فتاة قد يكون مسموحاً بها لرجل عجوز مثلي، ولكنه ليس عجوزاً بعد إلى حد أنه أصبح غير قادر على الشفقة. كان أمامها لا يزال شبابها بأكمله تقريباً، شباب سرقت منه اعتباطياً خفّته ومرحه الطبيعيان، والذي طغى عليه استبداد غير أوربي. شباب كئيب إلى حد رهيب يواجه مخاطر كفاح عنيف بين عدائين ضاريين على نحو متكافئ.

تريثتُ بأفكاري فترة أطول ممّا كان يتوجّب. لقد أحسست بالعجز، بل بما هو أسوأ منه... أحسست بأن لا علاقة لي أبداً بالموضوع نوعاً ما. وفي اللحظة الأخيرة تردّدت: هل عليّ أن أقوم بالزيارة أم ألغيها تماماً؟ ما كانت الفائدة منها؟

كان قد سبق للمساء وتقدم حين رأيت النور في النافذة عند الزاوية وأنا أدخل «شارع الفلاسفة». كانت الستائر مسدلة، ولكني استطعت أن أتخيّل خلفها السيدة هالدين جالسة في كرسيها في وضعها المألوف، وهي تنظر إلى الخارج تبحث عن شخص ما، الأمر الذي اكتسب مؤخراً مظهراً لاذعاً يدلّ على الانتظار المجنون.

ظننتني، وذلك لوجود النور، مفوّضاً نوعاً ما أن أطرق على الباب. لم تكن السيدتان قد أوتا إلى الفراش بعد. كنت آمل فحسب أن لا يكون لديهما أي زوار من مواطنهما. كان هناك موظف روسي متقاعد معتلّ الصحة يتواجد عندهما أحياناً في الأمسيات. كان بائساً دون حدود ومضجراً بمجرد وجوده البائس. وأعتقد أن هاتين

Twitter: @ketab_n

السيدتين كانتا تحتملان زياراته الكثيرة بسبب صداقة قديمة له مع السيد هالدين، الأب، أو شيئاً من هذا القبيل. وقد قررت إن وجدته يثرثر هناك بصوته الواهن أن أبقى دقائق قليلة فحسب.

وقد أدهشني الباب بأن انفتح قبل أن أقرع الجرس. وقد واجهتني فوراً الآنسة هالدين، بقبعتها ومعطفها، وهي على وشك الخروج. في مثل هذه الساعة! هل هي ذاهبة لتحضر الطبيب يا ترى؟

ولكن صيحتها الترحيبية طمأنتني. بدا وكأني كنت الشخص الذي كانت تريد أن تراه بالذات. وهكذا استيقظ فضولي. أدخلتني إلى المنزل، وكانت «آنا» المخلصة، الخادم الألمانية العجوز، قد أغلقت الباب ولكنها لم تبتعد بل بقيت إلى القرب منه وعلى استعداد لإخراجي في الحال. وقد بدا أن الآنسة هالدين كانت على وشك الخروج للبحث عني.

تحدثت بأسلوب عاجل على غير عادتها. كانت تريد أن تذهب مباشرة وتقرع باب السيدة تسيغلر، رغم أن الوقت متأخر، فمن عادة السيدة تسيغلر...

كانت السيدة تسيغلر أرملة بروفسور شهير كان صديقاً حميماً لي، وكنت أسكن عندها في ثلاث غرف من شقتها الكبيرة الجميلة التي لم تتخلّ عنها بعد وفاة زوجها؛ ولكن كان لي بابي الخاص عند منبسط الدرج نفسه. وكان ذلك إجراء عمره عشر سنوات على الأقل. قلت إني كنت سعيداً جداً إلى حد أني كنت أظنّ أن...

لم تبدِ الآنسة هالدين أية حركة تدل على أنها ستخلع ملابس الخروج. وقد لاحظت احمراراً في بشرتها، وشيئاً من التصميم الحازم في لهجتها. هل أعرف يا ترى أين يسكن رازوموف؟ السيد رازوموف؟ في هذه الساعة ... بكل هذا الإلحاح؟ رفعت ذراعيّ عالياً

Twitter: @ketab_n

دليلاً على جهلي المطبق. لم تكن لدي أدنى فكرة عن مكان سكنه. لو أني استطعت التنبوء بسؤالها قبل ثلاث ساعات فحسب، لكنت قد غامرت بسؤاله على الرصيف أمام المبنى الجديد للبريد، وربما كان سيخبرني به، وربما كان سيصرفني بفظاظة طالباً مني أن أهتم بشؤوني الخاصة. وربما، وهنا تذكرت ذلك التعبير العجيب المهووس والمتألم والساهم على وجهه، كانت ستنتابه نوبة ما من جراء الصدمة الناجمة عن قيام شخص ما بالتحدث إليه. لم أقل شيئاً من هذا للآنسة هالدين ولم أذكر حتى أني لمحت ذلك الشاب قبل فترة قصيرة جداً. كان انطباعي غير سار إطلاقاً بحيث أني كنت مسروراً بأن أنساه أنا نفسي.

غمغمت بيأس:

- لا أعرف أين يمكن أن أسأل عنه.

كنت أود مساعدتها بأي شكل من الأشكال، وكنت سأنطلق للبحث عن أي شخص، سواء كان شاباً أو عجوزاً، فقد كنت على ثقة كبيرة في فطرتها السليمة.

- ما الذي جعلك تفكرين في القدوم إليّ بحثاً عن هذه المعلومة؟

قالت بصوت خفيض:

- لم يكن لأجل ذلك بالضبط.

كانت تبدو عليها سيماء من هو مضطر إلى تنفيذ مهمة غير سارة.

- هل عليّ أن أفهم أن عليك أن تري السيد رازوموف هذا المساء؟

حركت ناتاليا هالدين رأسها علامة الإيجاب، ثم قالت بالفرنسية بعد أن ألقت نظرة على باب غرفة الاستقبال:

- إنها أمي.

Twitter: @ketab_n

وبقيت محتارة للحظة. وبما أنها كانت فتاة دائمة الجدية ولا تعيقها أية صعوبة خيالية، فقد كان فضولي معلقاً على شفتيها اللتين بقيتا مغلقتين للحظة. ما علاقة السيد رازوموف بذكرها لأمها؟ لم تكن السيدة هالدين على علم بوصول صديق ابنها إلى جنيف.

سألتها:

ـ هل آمل في مشاهدة أمك هذا المساء؟

مدّت الآنسة هالدين يدها كأنما لتسدّ عليّ الطريق.

ـ إنها في حالة رهيبة من الاهتياج. أوه، لن تكون قادراً على أن تميّز ذلك... إنه أمر داخلي، ولكني مصابة بالهلع، لأني أعرف أمي جيداً. لا أملك الشجاعة على مواجهة الأمر أكثر من ذلك. وذلك كله بسبب غلطتي أنا. أعتقد أني لا أستطيع أن أمثل دوراً. لم يسبق لي أن أخفيت شيئاً عن أمي. لم تسنح الفرصة لمثل هذا النوع من الأمور بيننا. ولكنك تعرف سبب امتناعي عن إعلامها فوراً بوصول السيد رازوموف. أنت تفهمني، أليس كذلك؟ ذلك بسبب حالتها البائسة. وأنا لست بالممثلة. وبما أن عواطفي متورطة في الموضوع إلى هذا الحد فإني نوعاً ما... لا أعرف. لقد لاحظتْ شيئاً في سلوكي. خمّنتْ أني أخفي عنها شيئاً. لاحظت أن غيابي أصبح يطول، وقد كنت أقابل السيد رازوموف يومياً في الحقيقة، واعتدت أن أبقى فترات أطول من المعتاد لدى خروجي من البيت. والله يعرف ما هي الشكوك التي انتابتها. وأنت تعرف أنها لم تعد كما كانت منذ ذلك الحين... ولهذا فهي قد بدأت هذا المساء - وكانت صامتة جداً منذ أسابيع - بصبّ الكلام فجأة. قالت إنها لا تريد أن توبخني، وإن لي شخصيتي كما لها شخصيتها، وإنها لا تريد التدخل في شؤوني أو حتى في أفكاري. فهي من ناحيتها لم تخفِ شيئاً عن أطفالها... أشياء قاسية على السمع.

Twitter: @ketab_n

وقد قالت ذلك كله بصوتها الهادئ، وبوجهها المسكين النحيل الهادئ كحجر. كان ذلك أمراً لا يحتمل.

كانت الآنسة هالدين تتحدث بصوت خفيض وعلى نحو أسرع ممّا سبق أن سمعتُه من قبل. وكان ذلك في حد ذاته مقلقاً. كانت الغرفة الجانبية مضاءة بشدة فاستطعت أن أرى تحت الوشاح اللون المتوهّج لوجهها. كانت تقف منتصبة ويدها اليسرى تستريح على طاولة صغيرة، أما اليد الأخرى فمعلّقة إلى جانبها دون حراك. وكانت تلتقط أنفاسها بين الحين والآخر بخفة.

ـ كان ذلك مفاجئاً جداً. تصوّر ذلك فحسب! لقد ظنّت أني كنت أقوم بالاستعدادات لأغادرها دون إعلامها بذلك مسبقاً. وقد ركعتُ إلى القرب من كرسيها ورجوتها أن تفكر مليّاً فيما كانت تقوله! لقد وضعتْ يدها على رأسي، ولكنها استمرّت في وهمها على أية حال. كانت تظن دائماً أنها تستحق ثقة ولديها بها، ولكن يبدو أن الأمر ليس هكذا. لم يكن ابنها قادراً على الثقة بحبها ولا بتفهمّها... وها أنذا أخطط الآن لهجرها بالطريقة القاسية الظالمة نفسها، وهكذا دواليك... لم أستطع أن أقول شيئاً... إنه عناد مرضيّ... قالت إنها تشعر بوجود شيء ما... بوجود تغيير ما في شخصي... وإذا كانت قناعاتي تدعوني إلى الرحيل، فلماذا أرحل سراً، وكأنّها جبانة أو ضعيفة بحيث لا يمكن أن أثق بها؟ قالت: «لكأنّ قلبي يستطيع أن يخون أولادي»... كان ذلك أمرٌ لا يمكن احتماله. وكانت تربت على رأسي طوال هذه المدة... لم تكن هناك فائدة ترجى من الاحتجاج. إنها مريضة. حتى روحها بالذات...

لم أتجرأ على كسر الصمت الذي ساد بيننا. نظرت إلى عينيها اللتين كانتا تلمعان من خلال الوشاح.

Twitter: @ketab_n

صاحت باللهجة الخفيضة نفسها:

ـ أنا؟ أنا تغيّرت؟ كان قاسياً سماع ذلك، لأن مشكلتي هي أنني ضعيفة ولا أستطيع أن أرى ما عليّ أن أفعله. أنت تعرف ذلك. ولوضع حد للمسألة كلها ارتكبت فعلاً أنانياً. لإزالة شكوكها بي أخبرتُها بمسألة السيد رازوموف. كان ذلك عملاً أنانياً. أنت تعرف أننا كنا على حق تماماً في الاتفاق على إبقاء المسألة سراً بالنسبة إليها. كنا على حق تماماً. وما أن قلت لها أن صديق فيكتورنا المسكين هنا حتى عرفت كم أننا كنا على حق. كان يتوجب تحضيرها لذلك. ولكنني كنت في حالة من اليأس فأفشيت لها السر دون تفكير. وقد استثيرت أمي إلى حد كبير وعلى الفور. كم مضى عليه هنا؟ ما الذي يعرفه؟ ولماذا لم يأت ليزورنا فوراً، صديق فيكتورها هذا؟ ما يعني ذلك؟ ألا يمكن الوثوق بها حتى بهذه الذكريات عن ابنها؟... فكّرْ فحسب كيف شعرتُ وأنا أراها، شاحبة كشرشف أبيض، ساكنة تماماً، ويداها تتشبّثان بذراعي الكرسي. قلت لها إن اللوم كله يقع عليّ شخصياً.

استطعت أن أتخيّل الشكل الصامت للأم وهي في كرسيها، هناك، خلف الباب الذي كانت الابنة تكلمني وهي واقفة إلى القرب منه. بدا الصمت هناك وكأنه ينادي بصوت عال للانتقام من حقيقة تاريخية والأمثلة العصرية على نشاطها. التمعت تلك الرؤيا عبر ذهني، ولكني لم أستطع أن أشك في أن الآنسة هالدين قد عانت الكثير. وقد فهمتها تماماً حين قالت لي إنها لا تستطيع مواجهة الليل والانطباع عن ذلك المشهد في ذهنها. لقد استسلمت السيدة هالدين أمام أكثر التخيّلات بشاعة، وأمام أكثر الشكوك فانتازية وقسوة. وكان يتوجب تسكين كل هذا بأي ثمن ودون إضاعة الوقت. لم يَصْدِمْني أن أعلم أن الآنسة هالدين قالت لها: «سأذهب وأحضره لك إلى هنا فوراً.» لم يكن هناك ما هو غريب في تلك الصرخة، ولا مبالغة في الانفعال. لم أكن حتي متردداً حين قلت:

Twitter: @ketab_n

ـ حسناً، ولكن كيف؟

كانت على حق في أن تفكّر بي، ولكن ماذا كان بوسعي أن أفعله وأنا الجاهل بعنوان مسكن السيد رازوموف؟

صاحت:

ـ تصورت أنه قد يكون من سكان الجوار، على رمية حجر ربما!

كنت أشك في ذلك، ولكني كنت مستعداً كل الاستعداد أن أذهب وأحضره من الطرف الآخر لجنيف وبكل سرور. وأعتقد أنها كانت واثقة من استعدادي، حيث كانت أول فكرة خطرت لها هو أن تأتي إليّ. ولكن الخدمة التي كانت ستطلبها مني بالفعل هي أن أصطحبها إلى قصر بوريل.

كانت لديّ رؤيا ذهنية بغيضة للطريق المعتمة، للأرض الكئيبة المحيطة بالقصر، وذلك المظهر المقفر الذي يدعو إلى الريبة الذي كان يتصف به مأوى استحضار الأرواح والتآمر وعبادة الأنثوية ذاك. وقد عارضت هذا الرأي قائلاً إن «المدام دو ســ...» لا تعرف على الأغلب ما نبحث عنه، وإني لا أظن أن الشاب هناك الآن. لقد تذكرت تلك اللمحة الخاطفة لوجهه وكنت على قناعة بأن شخصاً كان يبدو في حال أسوأ من حال من رأى الموتى لتوه سيكون في حاجة إلى أن يعتزل في مكان يكون فيه وحيداً. كنت على ثقة من أن السيد رازوموف كان ذاهباً إلى بيته حين رأيته اليوم.

قالت الآنسة هالدين بهدوء:

ـ إن من كنت أفكر فيه بالفعل هو بيتر إيفانوفيتش.

آه! هو يعرف طبعاً. نظرت إلى ساعتي. كانت التاسعة وعشرين دقيقة فقط...

Twitter: @ketab_n

قلت ناصحاً:

- لنحاول أن نجده في فندقه إذن. إنه يقيم في «فندق الكوزوموبوليتان» في مكان ما من الطابق العلوي.

لم أعرض عليها أن أذهب بنفسي، وذلك بسبب شكي في نوع الاستقبال الذي سيلقاني به. ولكني اقترحت إرسال «آنا» المخلصة ومعها رسالة تطلب فيها العنوان.

كانت «آنا» لا تزال تنتظر عند الباب في الطرف الآخر من الغرفة وقد تناقشنا كلانا في المسألة همساً. كانت الآنسة هالدين تفضل الذهاب بنفسها. «فآنا» خجولة وبطيئة. كما أن المزيد من الوقت سيضيع خلال عودتها بالعنوان ومن وجهة النظر تلك فإن الوقت أصبح متأخراً، فلسنا نعرف إن كان السيد رازوموف يعيش على مقربة من هنا.

قالت الآنسة هالدين:

- سأذهب بنفسي. أستطيع الذهاب إليه مباشرة من الفندق. وعلى أية حال فإن عليّ أن أخرج لأني مضطرة إلى أن أشرح المسألة للسيد رزاوموف شخصياً... وأن أهيئه للمسألة. أنت لا تعرف الحالة الذهنية لأمي.

احمرّ وجهها ثم شحب ثانية. بل إنها فكرت أنه لأجل أمها ولأجلها شخصياً سيكون من الأفضل أن تبتعدا الواحدة عن الأخرى لبعض الوقت. وستكون «آنا»، وهي موضع محبة أمها، في خدمتها.

استأنفت الآنسة هالدين وهي تسير أمامي نحو الباب:

- يمكنها أن تحمل ما تخيطه إلى الغرفة.

ثم قالت وهي تخاطب الخادم بالألمانية وتلك تفتح لنا الباب:

- يمكنك أن تقولي لأمي إن هذا السيد قد زارنا وإنه ذهب معي للبحث عن السيد زازوموف. يجب ألا تقلق إذا تأخرت بعض الوقت.

خرجنا إلى الشارع واستنشقت هي أنفاساً عميقة من هواء الليل البارد.

Twitter: @ketab_n

همهمت:

ـ حتى أني لم أطلب منك رأيك في أن ترافقني!

قلت ضاحكاً:

ـ أعتقد ذلك.

كان أسلوب استقبالي من قبل نصير المرأة العظيم مسألة لا مجال لأخذها بعين الاعتبار الآن. لم أكن أشك في أنه سينزعج من مشاهدتي وأنه قد يقذفني بعبارة وقحة ربما، ولكني افترضت أنه لن يجرؤ على أن يطردني. وكان ذلك هو كل ما يهمني.

سألتها:

ـ ألن تأخذي بذراعي؟

فعلت ذلك في صمت ولم يقل أحدنا شيئاً ذا قيمة حتى أدخلتها قبلي إلى البهو الكبير للفندق. كان مضاء على نحو رائع وفيه الكثير من الناس.

قلت:

ـ يمكنني أن أصعد إلى هناك من دونك.

قالت بصوت خفيض:

ـ لا أحب البقاء وحيدة في هذا المكان. سآتي معك.

قدتها نحو المصعد مباشرة. في آخر طابق قال المشرف إن علينا أن نتجه إلى اليمين حتى نهاية الممر.

كانت الجدران بيضاء والسجادة حمراء والأنوار الكهربائية تشع بوفرة. وقد جعلني الفراغ والصمت والأبواب المغلقة المتشابهة والمرقّمة أفكر في النظام الكامل لسجن شديد الفخامة منشأ على مبدأ

Twitter: @ketab_n

المعزل الانفرادي. هناك في الأعلى، تحت سقف ذلك البناء الهائل لإيواء المسافرين، لم يكن هناك صوت من أي نوع يصلنا، وكان اللباد القرمزي السميك يكتم وقع أقدامنا تماماً. أسرعنا ونحن ننظر واحدنا إلى الآخر حتى وجدنا نفسينا أمام آخر باب في ذلك الممّر الطويل، ثم تقابلت أعيننا، ووقفنا هكذا للحظة ونحن نسمع أصواتاً مهمهمة من الداخل.

همستُ دون ضرورة:

ـ أعتقد أن هذه هي غرفته.

رأيت شفتي الآنسة هالدين تتحركان دون صوت، وبعد أن قرعت على الباب بحدة خفتت همهمة الأصوات في الداخل. دام صمت عميق للحظات قليلة، ثم فتح الباب بفظاظة من قبل امرأة قصيرة، سوداء العينين في قميص أحمر، ولها كثير من الشعر الممشط بإهمال وبأسلوب غير مرتب وغير جميل. كانت قد قربت حاجبيها الرفيعين السوداوين واحدهما من الآخر. وقد علمت لاحقاً وباهتمام أنها كانت صوفيا أنتونوفنا الشهيرة أو رديئة السمعة، ولكنني كنت مصعوقاً وقتها بنظرتها الشيطانية الغريبة المتسائلة، لأنها كانت دون شر إطلاقاً... أو دون شيطانية. وقد لانت هذه النظرة أكثر حين نظرت إلى الآنسة هالدين التي أوضحت بصوتها القوي المباشر رغبتها في رؤية بيتر ايفانوفيتش لبرهة.

ثم أضافت:

ـ أنا الآنسة هالدين.

عندما سمعت ذلك، سارت المرأة ذات القميص الأحمر وبجبين لم يعد متغضناً إطلاقاً الآن، ودون كلمة واحدة، نحو أريكة وجلست تاركة الباب مفتوحاً.

Twitter: @ketab_n

ومن الأريكة، ويداها في حجرها، راحت تراقبنا، ونحن ندخل، بعينيها السوداوين.

تقدمت الآنسة هالدين نحو منتصف الغرفة، أما أنا، المخلص لدوري كمرافق فحسب، فقد بقيت قرب الباب بعد أن أغلقته خلفي. كانت الغرفة، وهي واسعة تماماً، وإن كانت ذات سقف واطئ، قليلة المفروشات، وكان هناك مصباح كهربائي له ظلّه من البورسلان قد أنزل فوق طاولة كبيرة (عليها خريطة كبيرة منشورة عليها)، وكان هذا المصباح يترك الأجزاء البعيدة من الغرفة ضمن غسق خافت اصطناعي. لم يكن بيتر إيفانوفيتش هناك ولا السيد رازوموف. ولكن كان على الأريكة، قرب صوفيا أنتونوفنا، رجل ذو وجه نحيل وعثنون وكان ينحني نحو الأمام ويداه على ركبتيه وهو يحدق بشدة وبتعبير لطيف. وفي زاوية بعيدة كان ممكناً تمييز وجه عريض شاحب وجسم ضخم، كان غريباً وقلقاً في جلسته على الكرسي الواطئ. كان الشخص الوحيد الذي عرفتُه هو جوليوس لاسبارا بحجمه الضئيل والذي كان يبدو وكأنه يحدق إلى الخريطة، وقدماه متشابكتان حول أرجل الكرسي. نزل بخفة وانحنى للآنسة هالدين، وهو يبدو عجيباً كولد ذي أنف معقوف ولحية مزيفة بيضاء وسوداء. تقدم وعرض كرسيه على الآنسة هالدين التي رفضته قائلة إنها قد أتت إلى هنا لتقول بضع كلمات لبيتر إيفانوفيتش.

أصبح صوته الحاد مسموعاً على نحو مزعج في الغرفة:

ـ من الغريب أني كنت أفكر بك عصر هذا اليوم بالذات يا ناتاليا فيكتوروفنا. لقد قابلت السيد رازوموف. وقد طلبت منه أن يكتب لنا مقالة حول أي موضوع يريده. وأنت تستطيعين ترجمتها إلى الإنكليزية... بوجود مثل هذا المعلّم.

Twitter: @ketab_n

أومأ برأسه باتجاهي بإيماءة إطراء. وعندما سمع اسم رازوموف صدر صوت لا يمكن وصفه، نوع من الصرير الضعيف، كأنما هو صوت حيوان صغير غاضب من الزاوية التي كان يشغلها الرجل الذي بدا أكبر بكثير من أن يجلس على الكرسي الذي كان تحته. لم أسمع ما قالته الآنسة هالدين. تكلم لاسبارا مرة أخرى:

ـ لقد حان الوقت لتقومي بشيء ما يا ناتاليا فيكتوروفنا. ولكني أعتقد أن لك آراءك الخاصة. لم لا تكتبين شيئاً ما أنت بالذات؟ ما رأيك لو تأتين لزيارتنا قريباً؟ يمكننا أن نتحدث في الموضوع. أية نصيحة...

ومن جديد لم أسمع كلمات الآنسة هالدين. كان ذاك صوت لاسبارا مرة أخرى:

ـ بيتر إيفانوفيتش؟ لقد ذهب ليرتاح قليلاً في الغرفة الأخرى. نحن جميعاً في انتظاره.

بدا الرجل العظيم الذي دخل في تلك اللحظة أضخم وأطول من المعتاد، ومهيباً في «روب دوشامبر» من قماش داكن كان ينزل في خطوط مستقيمة حتى قدميه. كان يوحي براهب أو بنبيّ أو بساكن صحراء قوي الجسم.... بشيء آسيوي. وكانت النظارتان الداكتنان مع هذا الزيّ تجعلانه يبدو أكثر غموضاً من أي وقت مضى تحت النور المخفف.

عاد لاسبارا ضئيل الحجم إلى كرسيه لينظر إلى الخريطة، الشيء الوحيد المضاء جيداً في الغرفة، وحتى من موضعي البعيد عند الباب كنت أستطيع أن أرى، من شكل الجزء الأزرق الذي يمثّل الماء أنها خريطة لمقاطعات بحر البلطيق. صاح بيتر إيفانوفيتش صيحة خفيفة وهو يتقدم نحو الآنسة هالدين، ثم كبح نفسه لدى مشاهدته لي، على نحو واضح دون شك. ثم حدق من خلال نظارتيه السوداوين. لا شك

Twitter: @ketab_n

أنه قد ميّزني من شعري الأشيب، لأنه التفت، بهزّة واضحة لكتفيه العريضتين، نحو الآنسة هالدين في لفتة تسامح كريم. أمسك بيدها بكفه السميكة اللينة ووضع يده الضخمة الأخرى فوقها كغطاء.

وبينما كان هذان الاثنان الواقفان في وسط الغرفة يتبادلان العبارات غير المفهومة. لم يتحرك أحد في الغرفة: كان لاسبارا وظهره لنا يجثم على ركبتيه فوق الكرسي ومرفقاه على الخريطة ذات المقياس الكبير، وذلك الشخص الضخم المظلّل في الزاوية، والرجل المحدّق بصراحة بعثنونه على الأريكة. والمرأة في القميص الأحمر إلى جانبه... لم يتحرك أي واحد منهم. وأعتقد أنه لم يكن لديهم الوقت الكافي، فالآنسة هالدين سحبت يدها فوراً من يدي بيتر إيفانوفيتش، وقبل أن أصبح مستعداً لها كانت قد تحركت نحو الباب. وقد فتحتُ الباب بسرعة، أنا الغربي الذي تم تجاهله، ولحقت بها إلى الخارج ونظرتي الأخيرة تغادرهم جميعاً وهم ساكنون في أوضاعهم المختلفة: بيتر إفانوفيتش وحيداً وواقفاً بنظارتيه السوداوين كمعلم أعمى ضخم الجثة، وخلفه البقعة القوية من النور على الخريطة الملونة التي يحدق إليها لاسبارا ضئيل الحجم.

وبعد فترة طويلة، عند سماعي بإشاعات صحفية (كانت غامضة وسرعان ما انطفأت) عن مؤامرة عسكرية مُجْهَضَة في روسيا، تذكرت اللمحة التي احتفظتها من تلك المجموعة الساكنة وشخصها الرئيس. لم تُعرف أية تفاصيل، ولكن عُرف أن الأحزاب الثورية في الخارج قد قدمت يد المساعدة وأرسلت موفدين مقدماً، وأنه تم إحضار الأموال اللازمة لإرسال باخرة مع شحنة من الأسلحة ومتآمرين لغزو المقاطعات البلطيقية. وبينما كانت عيناي تنعمان النظر في المعلومات التي تم إفشاؤها على نحو غير كامل (والتي لم يكن العالم مهتماً بها

Twitter: @ketab_n

كثيراً) فكرت في أن أوربا العجوز المستقرة قد مُنِحَتْ من خلال شخصي الذي كان يرافق تلك الفتاة الروسية شيئاً أشبه بلمحة إلى ما خلف الكواليس، لمحة قصيرة إلى الطابق العلوي من فندق فخم في ذلك المكان من العالم: والرجل العظيم نفسه؛ وذلك الرجل الضخم في الزاوية، ذلك القاتل للجواسيس ورجال الدرك؛ وياكوفليتش المخضرم الذي شهد الحملات الإرهابية القديمة؛ والمرأة ذات الشعر الأبيض كشعري والعينين السوداوين الحيويتين؛ كل هذا ضمن ضوء خافت غامض، وخريطة روسيا المضاءة بشدة. لقد أتيح لي أن أرى المرأة مرة أخرى. فبينما كنا ننتظر المصعد أتت مسرعة عبر الممر وعيناها مثبتتان على وجه الآنسة هالدين، ثم أخذتها جانباً كأنما لتفشي لها سراً. لم يدم ذلك طويلاً. بضع كلمات فحسب.

وبينما كنا ننزل في المصعد، لم تحطم ناتاليا هالدين الصمت. ولكن بعد أن خرجنا من الفندق وبينما كنا نسير على امتداد رصيف البحيرة في العتمة الباردة المتلألئة بأضواء هذا الرصيف، المنعكسة في الماء الأسود للميناء الصغير على يسارنا، والفنادق الفاخرة الكثيرة على يميننا، عندها نطقت أخيراً.

ـ تلك كانت صوفيا أنتونوفنا... هل تعرفها؟...

ـ أجل أعرف... تلك المرأة الشهيرة...

ـ لا يهمّ. يبدو أننا بعد أن خرجنا قال لهم بيتر إيفانوفيتش سبب قدومنا. ولهذا السبب أسرعت وراءنا. لقد عرّفت على نفسها ثم قالت: «أنت أخت رجل شجاع ستتذكره دائماً، وقد تشهدين أوقاتاً أفضل». قلت لها إني آمل أن أرى ذلك الوقت الذي سيُنسى فيه هذا كله بما فيه اسم أخي أيضاً. لقد دفعني شيء ما إلى قول ذلك، ولكنك تفهمني، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

قلت:

ـ أجل. أنت تفكرين بعهد الوفاق والعدالة.

ـ نعم. هناك الكثير من الحقد والثأر في ذلك النشاط. لا بدّ من فعل ذلك. إنها تضحية... لذا فلتكن أعظم تضحية. فليُنْسَ الطغاة والجلادون أيضاً، فلا يتذكر أحد سوى البنّائين.

سألتها متشكّكاً:

ـ وهل أيّدت صوفيا أنتونوفنا رأيك هذا؟

ـ لم تقل أي شيء عدا: «جيد أن تؤمني بالحب.» أعتقد أنها فهمتني. ثم سألتني إن كنت آمل في مشاهدة السيد رازوموف في الوقت الحاضر. قلت إني أثق في أني أستطيع أن أحضره ليقابل أمي هذا المساء، حيث علمتُ هي بوجوده هنا وكانت قلقة على نحو مرضيّ لتعرف إن كان لديه ما يقوله عن فيكتور. كان الصديق الوحيد لأخي الذي نعرف اسمه، وهو من رفاقه الحميمين. قالت: «أوه! أخوك... أجل. أرجو أن تقولي للسيد رازوموف إنّي أشعت الحكاية التي وصلتني من سانت بطرسبورغ. وهي تتعلق باعتقال أخيك.» ثم أضافت: «لقد خانه رجل من عامة الشعب ثم شنق نفسه. سيشرح لك السيد رازوموف ذلك كله. لقد أعطيته كامل المعلومات في عصر هذا اليوم. وقولي للسيد رازوموف إن صوفيا أنتونوفنا ترسل له تحياتها. سأرحل في الصباح الباكر... إلى مكان بعيد.»

ثم أضافت الآنسة هالدين بعد لحظة صمت:

ـ لقد تأثرت جداً بما سمعته على نحو غير متوقع بحيث أني لم أستطع أن أكلمك قبل الآن... رجل من عامة الشعب! أوه، يا لشعبنا المسكين!

Twitter: @ketab_n

راحت تسير ببطء وكأنها قد أنهكت فجأة. كانت رأسها مخفضة؛ ومن شبابيك بناء ذي شرفات وصلنا صوت موسيقى فندقية مبتذلة. وأمام مدخل واطئ عادي لأحد الكازينوهات كان إعلانان حمراوان يتوهّجان تحت المصابيح الكهربائية، فلا يتركان إلاّ أثراً ريفياً رخيصاً... وكان لفراغ الأرصفة، ومنظر الشوارع الخاوية كالصحراء، جو الاحترام الزائف والوحشة التي تفوق الوصف.

كنت قد سلَّمتُ جدلاً بأنها قد حازت على العنوان، وتركت نفسي أُقادُ مِنْ قِبَلِها. وعلى جسر «مون بلان» حيث بدت بضعة أشكال داكنة ضائعة في المنظور العريض الطويل الذي تحدده الأضواء. قالت:

ـ ليس بعيداً عن بيتنا. لقد فكرت أنه لا يمكن أن يكون كذلك. العنوان هو: «شارع دو كاروج». وأعتقد أنه لا بدّ أحد تلك الأبنية الكبيرة الخاصة بالحرفيين.

أخذت ذراعي بثقة وحميمية، ثم أسرعتْ. كان هناك شيء بدائي في ما كنّا نفعله. لم نفكر في استغلال وسائل الحضارة. سبقتنا حافلة متأخرة، وكانت صف من عربات الأجرة الصغيرة يقف عند حاجز الحدائق. لم يخطر لنا أن نستخدم وسائل النقل هذه. كانت في عجلة شديدة من أمرها، ربما، أما فيما يخصني أنا... حسناً، فقد كانت قد أخذت ذراعي بثقة. وبينما كنا نصعد منحدر «الكولاتري» السهل، كانت كل الدكاكين مغلقة ولا نور هناك في أي من الواجهات (كأنما كان كل المرتزقة قد هربوا في نهاية النهار). قالت بتردد:

ـ كنت أود لو أعدو بعض الشيء لأرى أمي للحظة. لن يكون بيتنا بعيداً جداً عن طريقنا.

ولكني أقنعتها بالعدول عن ذلك. إذا كانت السيدة هالدين تتوقع

Twitter: @ketab_n

فعلاً رؤية رازوموف في تلك الليلة فليس من الحكمة في شيء أن تريها نفسها من دونه. وكلما أسرعنا وأمسكنا بالشاب وجلبناه إلى البيت لتهدئة خواطر أمها، كلما كان ذلك أفضل. وافقت على رأيي وعبرنا بخط قطري مائل «ساحة المسرح» الرمادية المائلة إلى الزرقة بأرضها المرصوفة بالحجارة، تحت النور الكهربائي، والتمثال الوحيد الراكب للحصان يبدو مسوداً كله في وسط الساحة. في شارع «دو كاروج» كنا في أفقر الأحياء ونقترب من أطراف المدينة. كانت هناك أبنية فارغة وأبنية عالية جديدة. عند زاوية شارع جانبي كان النور العاري لدكان مطلّي بالكلس يسقط على الليل، كمروحة، عبر مدخل واسع. كان بإمكان المرء أن يرى من مسافة الجدار الداخلي برفوفه قليلة البضاعة، ونضد الحساب المطلي باللون البني. كان ذلك هو البناء المقصود. لدى اقترابنا منه على الامتداد المعتم لحاجز من الألواح الخشبية المطلية بالقار، رأينا الوجه الضيّق الشاحب للزاوية المقطوعة، خمس نوافذ عالية دون أي نور فيها، وتزدحم بالظل الثقيل لانحدار سقف بارز.

قالت الآنسة هالدين:

ـ يجب أن تسأل عنه في الدكان.

أنزل رجل شاحب ذو شاربين خديين ويرتدي قبعة بيضاء قذرة وربطة عنق مهترئة، أنزل صحيفته واستند بحميمية بكلا مرفقيه على نضد الحساب العاري وأجاب بأن الشخص الذي نسأل عنه هو بالفعل مستأجر لديه في الطابق الثالث، ولكنه ليس في المنزل في هذه اللحظة.

كررتُ بعد نظرة إلى الآنسة هادين:

ـ في هذه اللحظة. هل يعني ذلك أنه سيعود فوراً؟

Twitter: @ketab_n

كان لطيفاً جداً، بعينين مستجبتين وشفتين ناعمتين. ابتسم ابتسامة خفيفة وكأنّه يعرف كل شيء. لقد عاد السيد رازوموف، بعد أن قضى نهاره كله خارجاً، باكراً هذا المساء، وقد دهش لأنه شاهده منذ نصف ساعة ينزل مرة أخرى. وقد ترك السيد رازوموف مفتاحه، وأفاد أنه قد خرج ليشم بعض الهواء.

من خلف نضد الحساب العاري استمر الرجل يبتسم لنا، رأسه بين يديه. هواء. هواء. ولكن كان من الصعب معرفة إن كان غيابه سيطول أم لا. وكان الليل قريباً جداً، بكل تأكيد.

وبعد فترة صمت، التفتت عيناه اللطيفتان نحو الباب ثم أضاف:

- ستدفعه العاصفة إلى العودة.

سألتُه:

- وهل ستهبّ العاصفة؟

- عجباً! نعم ستهب.

وللتأكيد على كلامه سمعنا صوتاً هادراً عميقاً من البعيد.

استشرت بعينيّ الآنسة هالدين، فرأيتها مترددة في التخلي عن مرامها. فطلبت من صاحب الدكان أن يرجو السيد رازوموف، لو عاد خلال نصف ساعة، أن يبقى في الدكان هنا، فنحن سنعود قريباً.

وكجواب على ذلك هزّ رأسه بحركة ضعيفة جداً. وقد عبّرت الآنسة هالدين عن موافقتها بالصمت. سرنا ببطء في الشارع مبتعدين عن المدينة. كانت أسوار الحدائق الواطئة للفيلات المتواضعة المحكوم عليها بالهدم مغطاة بأغصان الأشجار وأكرام النباتات المضاءة من الأسفل بمصابيح غازية، وكان الصوت العنيف الرتيب للمياه الثلجية لنهر «الآرف» الساقطة من فو سدّ واطئ يقترب منا بتيار هواء بارد عبر مساحة واسعة مفتوحة حيث كان خط ثنائي من أنوار

Twitter: @ketab_n

المصابيح يسير عبر شارع دون منازل. ولكن على الشاطئ الآخر الذي يسير عليه سواد قبيح هو سواد غيمة راعدة، بدا نور وحيد خافت وكأنه يراقبنا بتحديقة متعبة. حين مشينا حتى الجسر قلت:

ـ الأجدر بنا أن نعود...

في الدكان كان الرجل الشاحب لا زال يقرأ في صحيفته القذرة المنشورة على نضد الحساب. رفع رأسه حين نظرت إلى الداخل وهزّ رأسه نفياً، وهو يزمّ شفتيه. عدت إلى الآنسة هالدين في الخارج وانطلقنا بخطوات سريعة. قالت إنها سترسل «آنا» مع رسالة في الصباح الباكر. احترمت سكوتها، فالصمت هو أفضل وسيلة للتعبير عن القلق.

كان الشارع نصف الريفي الذي سرنا فيه في طريق العودة قد تغيّر تدريجياً ليصبح شارع مدينة عادياً، عريضاً ومهجوراً. لم نقابل أكثر من أربعة أشخاص، وبدت الطريق كأنما لا نهاية لها، لأن قلق مرافقتي كان قد انتقل إليّ بسبب تعاطفي معها. وأخيراً انعطفنا إلى «شارع الفلاسفة» الأعرض والأكثر خلواً وموتاً... المعبّر عن الإقفار الكامل للاحترام الهاجع. ولدى رؤيتنا لشباكين مضاءين، واضحين من بعيد، تخيلت السيدة هالدين في كنبتها، في يقظة رهيبة معذّبة تحت السيطرة الشريرة لحكم استبدادي: ضحية الطغيان والثورة، ويا له من مشهد قاس وغريب.

ثالثاً:

قالت ناتاليا هالدين:

ـ ألن تدخل للحظة؟

ترددت لأن الوقت كان متأخراً. ولكنها ألحّت:

ـ أنت تعرف أن أمي تحبّك كثيراً.

ـ سأدخل لأعرف كيف هي حالة أمك فحسب.

Twitter: @ketab_n

قالت كأنما تخاطب نفسها:

- لا أعرف حتى إن كانت ستصدق أني لم أستطع أن أجد السيد رازوموف، حيث أنها قد وضعت في رأسها فكرة مفادها أني أخفي عنها شيئاً ما. قد تكون أنت قادراً على إقناعها.

قلت:

- قد تفقد أمك ثقتها بي أنا أيضاً.

- أنت؟ لماذا؟ ما الذي يمكنك أن تخفيه عنها؟ لست روسياً ولا متآمراً.

أحسست بعمق عزلتي الأوربية، ولم أقل شيئاً، ولكني صممت على أن ألعب دور المتفرج الذي لا حول له حتى النهاية. كان هدير الرعد البعيد في وادي الرون يقترب من المدينة النائمة، مدينة الفضائل المبتذلة والضيافة العالمية. عبرنا الشارع المقابل للبوابة الكبيرة المعتمة، وقرعت الآنسة هالدين جرس باب الشقة. وقد فُتح على الفور تقريباً، وكأن الخادم العجوز كانت تنتظر في الغرفة الخارجية عودتنا. كان لوجهها بسيط الملامح علامة الرضا. قالت وهي تغلق الباب أن السيد موجود في الداخل.

لم يفهم أي منّا ما قالته. التفتت الآنسة هالدين نحو الوراء بفظاظة وقالت:

- من؟

قالت الخادم:

- الهر (السيد) رازوموف.

كانت قد سمعت من حديثنا قبل أن نغادر ما يكفي حتى تعرف سبب خروج سيدتها الشابة. ولذلك، حين لفظ السيد اسمه عند الباب، سمحت له بالدخول فوراً.

Twitter: @ketab_n

غمغمت الآنسة هالدين وعيناها الرماديتان الجديتان مثبتتان على عينيّ:

- ما كان في وسع أحد أن يتنبّأ بذلك.

ولدى تذكري للتعبير الذي كان على وجه الشاب منذ فترة لا تزيد عن أربع ساعات، نظرة شخص مسكون يسير في نومه، فقد أصبت بحيرة وبنوع من الرهبة.

سألت الآنسة هالدين الخادم:

- وهل سألت أمي أوّلاً؟

أجابت وهي مدهوشة من القلق الذي كان على وجهينا:

- لا ، لقد أعلنتُ قدوم السيد فحسب.

قلت بلهجة خفيضة:

- مع ذلك، فقد كانت أمك على استعداد.

- أجل، ولكنه لا يعرف شيئاً عن....

بدا لي أنها كانت تشكّ في مدى لباقته. وعلى سؤالها كم مضى على السيد وهو مع أمها، قالت الخادم إن السيد في غرفة الاستقبال منذ ما لا يزيد عن ربع ساعة.

انتظرتْ لبرهة، ثم انسحبت والخوف بادٍ عليها. حدّقت إليّ الآنسة هالدين في صمت.

قلت:

- طالما حدث ما حدث، فأنت تعرفين بالضبط ما سيقوله صديق أخيك لأمك. وبعد ذلك لا شكّ أن...

قالت ناتاليا هالدين ببطء:

- أجل، ولكنني أتساءل فحسب - أنه طالما لم أكن هنا حين وصل - إن لم يكن من الأفضل ألاّ نقاطعهما الآن.

Twitter: @ketab_n

بقينا صامتين، وأعتقد أن كلاّمنا قد أجهد أذنيه ولكن لم يصلنا أي صوت عبر الباب. كانت ملامح الآنسة هالدين تعبّر عن تردّد مؤلم. تحركت كأنما تريد الدخول ولكنها كبحت نفسها. كانت قد سمعت وقع خطوات على الطرف الآخر من الباب. فتح الباب وخطا رازوموف، دون توقف خارجاً إلى الغرفة الجانبية. كان إنهاك ذلك اليوم والصراع مع نفسه قد بدّلاه كثيراً حتى أني كنت سأتردد في التعرف على ذلك الوجه فقد كان مجفلاً بما فيه الكفاية إنما على نحو مختلف وذلك قبل ساعات قليلة فحسب وذلك حين مرّ إلى القرب مني أمام مكتب البريد. لم يكن شاحباً إلى هذا الحد آنذاك، وكانت العينان غير كئيبتين إلى هذا الحد. كانتا تبدوان أعقل الآن دون شك، ولكن كان عليهما ظلّ شيء ما يتّسم بالشر مع الشعور بالإثم.

أتحدث عن هذا لأن نظرتهما سقطت أوّلاً عليّ، رغم أن ذلك حدث دون أي نوع من التمييز أو حتى الفهم. كنت ببساطة ضمن خط تحديقته. ولا أعرف إن كان قد سمع جرس الباب أو كان يتوقع أن يرى أي شخص هنا. كان خارجاً، على ما أعتقد، ولا أظن أنه رأى الآنسة هالدين حتى تقدمت منه خطوة أو خطوتين. وقد تجاهل اليد التي مدتها له.

ـ أهذا أنت يا ناتاليا فيكتوروفنا... ربما أنت مندهشة... في مثل هذه الساعة المتأخرة. ولكن كما ترين، فقد تذكرت حديثنا في تلك الحديقة. وقد فكرت بالفعل أنها كانت حقاً رغبتك في أن أزوركما... دون تضييع للوقت... لذلك جئت. ليس هناك سبب آخر. فقط لأحكي ببساطة...

كان يتحدث بصعوبة. لاحظت ذلك، وتذكرت تصريحه للرجل الذي في الدكان بأنه كان خارجاً لأنه يحتاج إلى «أن يشمّ الهواء». وإذا

Twitter: @ketab_n

كان ذلك هو هدفه، فقد كان واضحاً إذن أنه فشل على نحو بائس. وبعينين مسبلتين ورأس مطأطئة حاول أن يكمل جملته المخنوقة.

ـ لأحكي ما سمعته اليوم بنفسي... اليوم فحسب... اليوم...

عبر الباب الذي لم يغلقه رأيت غرفة الاستقبال. كان ينيرها مصباح مظلّل... ما كانت عينا السيدة هالدين تتحملان لا الغاز ولا الكهرباء. كانت غرفة كبيرة نسبياً. وبالتباين مع الغرفة الجانبية شديدة الإضاءة فقد كان طولها ضائعاً في عتمة نصف شفافة خلفها ظلال ثقيلة. على هذه الخلفية شاهدت الجسم الساكن للسيدة هالدين، المنحني قليلاً نحو الأمام، ويد شاحبة ترتاح على يد الكنبة.

لم تتحرك. ومع تلك النافذة أمامها لم يعد لها هيئة من يجلس متوقعاً. كان مصراع النافذة مسدولاً في الخارج كانت هناك سماء الليل التي تحتضن غيمة واحدة، والمدينة لا مبالية ومضيافاً في لا تعصّبها البارد بل والمترع بالازدراء تقريباً... مدينة محترمة للجوء لا تعير كل هذه الأحزان والآمال أي اهتمام. كانت رأسها البيضاء مطأطئة.

خطرت لي فكرة مفادها أن الدراما الحقيقية للحكم الاستبدادي الفردي لا يجري تمثيلها على المسرح الضخم للسياسة - وذلك حين كنت أنا الذي حكم عليه القدر لعب دور المشاهد، أخطف لمحة أخرى من خلف الكواليس- شيئ ما أكثر عمقاً من الكلمات والتلميحات الخاصة بالمسرحية العامة. كنت على يقين أن هذه الأم رفضت في قلبها أن تتخلّى إطلاقاً عن ابنها. كان ذلك شيئاً أكبر من حداد «راحيل»[1] الذي لا سلوان له. كان شيئاً أعمق وأكثر تعذراً على البلوغ في هدوئه المخيف. كانت الصورة الجانبية البيضاء غير المحددة في ضياعها ضمن

---

(1) راحيل هي زوجة يعقوب وأم يوسف الصديق. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الكومة غير المحددة للكنبة ذات الظهر العالي، توحي بأنها تتأمل في شيء ما في حضنها، وكأن هناك رأساً محبوبة ترتاح هناك.

اختطفت تلك اللمحة مما وراء الكواليس، ثم أغلقت الآنسة هالدين، وهي تمر بالشاب، الباب. لم تفعل ذلك دون تردد. ولبرهة فكرت أنها ستذهب إلى أمها، ولكنها أرسلت نظرة قلقة إلى الداخل فحسب. ربما لو تحركت السيدة هالدين... ولكن... لا. كان في سكون ذلك الوجه الشاحب العزلة المخيفة للمعاناة التي لا علاج لها.

في هذه الأثناء أبقى الشاب عينيه مثبتتين على الأرض. وكانت فكرة أنه سيضطر إلى تكرار الحكاية التي سبق له وحكاها، كانت تلك فكرة لا يستطيع احتمالها. كان قد توقع أن يجد المرأتين معاً. ثم، كان قد قال لنفسه إن المسألة ستنتهي مرة وإلى الأبد... إلى الأبد. كان قد فكّر بتهكّم: «من حسن حظي أني لا أؤمن بالعالم الآخر.»

كان وحيداً في غرفته بعد أن أرسل الرسالة السرية بالبريد، فاستعاد بعض الهدوء النسبي بأن راح يكتب في دفتر مذكراته السرية. كان مدركاً لخطر هذا التساهل مع الذات. وهو يشير إلى ذلك بنفسه، ولكنه لم يستطع أن يمتنع عن الكتابة. كان ذلك يمنحه الهدوء... كانت تجعله في انسجام مع وجوده. جلس هناك وهو يكتب في نور الشمعة الوحيدة، حتى خطر له أنه بعد أن سمع تفسير عملية القبض على هالدين، كما طرحتها صوفيا أنتونوفنا، فقد كان ينبغي عليه أن يحكي ذلك للسيدتين بنفسه. كانتا ستسمعان الحكاية بكل تأكيد من مصدر آخر، وعندها سيبدو امتناعه عن إبلاغهما أمراً غريباً، ليس بالنسبة إلى الأم والأخت، ولكن إلى الناس الآخرين أيضاً. وبعد أن وصل إلى هذه النتيجة لم يكتشف في نفسه أي تردّد ملحوظ في مواجهة الضرورة، وسرعان ما بدأ التلّهف على الانتهاء من ذلك يعذّبه. نظر إلى ساعته. لا، لم يكن الوقت متأخراً جداً.

Twitter: @ketab_n

كانت الدقائق الخمس عشرة مع السيدة هالدين أشبه بالثأر من المجهول: ذلك الوجه الأبيض الشاحب، ذلك الصوت الضعيف الواضح النبرات، تلك الرأس التي التفتت إليه أولاً بلهفة ثم انحنت بعد فترة. من جديد بقيت ساكنة : في الضوء الخافت الكئيب للغرفة التي رنّت فيها كلماته التي حاول تخفيف وقعها، وقد رنّت عالياً.أثار كل ذلك فيه الاضطراب كأنه اكتشاف غريب. وقد بدا له وجود عناد سري في ذلك الأسى، كان شيئاً لم يستطع أن يفهمه وعلى أية حال كان شيئاً لم يتوقعه. هل كان ذلك عدائياً؟ ولكنه لا يهم. لا شيء يمكنه أن يناله الآن. ففي نظر الثوريين لم يكن هناك الآن أي ظل ملقى على ماضيه. كان شبح هالدين قد تم تخطّيه بالفعل، لقد تُرك هناك ممّدداً دون حول ولا قوة على الرصيف المغطى بالثلج. وكانت هذه هي أم الشبح الذي أنهكها الحزن شاحبة كالأشباح. كان قد أحس بدهشة مترعة بالشفقة. ولكن كانت تلك غير ذات أهمية طبعاً. الأمهات لا شأن لهن. لم يستطع أن يبعد عن نفسه الانطباع اللاذع الذي تركته المرأة الصامتة الهادئة ذات الشعر الأبيض، ولكن نوعاً من الصرامة زحف إلى أفكاره، كانت تلك هي العواقب. حسناً، وما يعني ذلك؟ «وهل أنا على سرير من الزهور؟» هذا ما كان قد قاله لنفسه، وهو جالس بعيداً وعيناه مثبتتان على ذلك الجسم المجسِّد الحزن. كان قد قال كل ما لديه، وحين انتهى لم تكن قد تلفظت بكلمة واحدة، كانت قد أشاحت برأسها بعيداً وهو يتكلم. وكان الصمت الذي سقط على آخر كلماته قد دام خمس دقائق أو أكثر. ما كان معنى ذلك؟ أمام صفته غير المفهومة هذه أصبح مدركاً لغضب في مزاجه الصارم، الغضب القديم ضد هالدين عاد ليستيقظ بسبب تأمله لأم هالدين. أو لم يكن شيئاً أشبه بالحسد هو الذي يتشبث بقلبه، كأنما هو ميزة أُنكرت عليه هو وحده بين كل الناس الذين عاشوا في هذا

Twitter: @ketab_n

العالم؟ كان الآخر هو الذي استطاع أن يرتاح ومع ذلك فقد استطاع أن يستمر في الوجود في عاطفة تلك المرأة العجوز الحزينة، في أفكار كل هؤلاء الناس الذين يدعون حب الإنسانية. كان مستحيلاً التلخّص منه. فكر رازوموف: «إنها نفسي تلك التي سلمتها للدمار... لقد دفعني إلى ذلك. لا أستطيع أن أتخلص منه».

نهض منزعجاً من هذا الاكتشاف وخرج من الغرفة الخرساء خافتة الإضاءة بامرأتها العجوز الصامتة في الكرسي، تلك الأم! لم ينظر إلى الخلف أبداً. كان ذلك هروباً صريحاً. ولكنه حين فتح الباب رأى أن تراجعه قد قوطع. كانت هناك الأخت. لم يكن قد نسي الأخت، ولكنه لم يكن يتوقع رؤيتها آنذاك، أو كان يتوقع ألاّ يراها بعد الآن أبداً، ربما. كان وجودها في الغرفة الجانبية مسألة لم يستطع التنبؤ بها، كما كان شبح أخيها. أجفل رازوموف وكأنه اكتشف أنه قد وقع في الفخ بحذاقة. حاول أن يبتسم، فلم يستطع، فأخفض نظره. سأل نفسه: «هل عليّ أن أكرر تلك القصة الغبية مرة أخرى؟» انتابه شعور أشبه بشعور الغريق. لم يكن قد تناول طعاماً منذ اليوم السابق، ولكنه لم يكن في حالة تسمح له بتحليل أسباب ضعفه. كان ينوي أن يأخذ قبعته ويغادر بأقل ما يمكن من الكلمات، ولكن حركة الآنسة هالدين السريعة التي أغلقت بها الباب فاجأته. التفت إليها نصف التفاتة دون أن يرفع عينيه، بحركة سلبية، كما قد تتحرك ريشة في الريح. وفي اللحظة التالية كانت قد عادت إلى المكان الذي انطلقت منه، فما كان منه سوى أن التفت نصف التفاتة أخرى، بحيث عادا إلى وضعيهما السابقين.

قالت بلهجة عاجلة:

ــ أجل، أجل. أنا ممتنة لك جداً يا كيريلو سيدوروفيتش لقدومك على الفور... هكذا ... ولكني كنت أتمنى لو... هل قالت لك أمي؟

Twitter: @ketab_n

قال كأنما لنفسه ولكن على نحو مسموع:

ـ لا أعرف ما كانت تستطيع أن تقوله لي ولا أعرفه من قبل.

ثم أضاف بصوت أعلى ولكن كأنما في يأس:

ـ لأني كنت أعرف ذلك بالفعل وعلى الدوام.

ترك رأسه مدلاّة. كان لديه إحساس قوي جداً بحضور ناتاليا هالدين بحيث أنه كان يشعر أنه سيرتاح لو نظر إليها. إنها هي التي تسكنه الآن. وهو يعاني من هذه الملاحقة منذ أن ظهرت أمامه فجأة في حديقة «قصر بوريل» بيد ممددة واسم أخيها على شفتيها... كان في الغرفة الملحقة صف من الكتب على الجدار أقرب إلى الباب الخارجي، بينما كان على الجدار المقابل طاولة واطئة داكنة اللون وكرسي واحد. كان ورق الجدران الذي يحمل رسمة باهتة أبيض اللون تقريباً. كما كان نور المصباح الكهربائي العالي تحت السقف مباشرة يضيء بشدة ذلك الصندوق المربع بزواياه الأربع الفارغة، ببساطة، دون ظلال... ويا لها من خشبة مسرح غريبة لدراما مغمورة.

سألته الآنسة هالدين:

ـ ما الذي تعنيه؟ ما هذا الذي كنت تعرفه على الدوام؟

رفع وجهه الشاحب المترع بالمعاناة غير المعبّر عنها. ولكن تلك النظرة في عينيه، نظرة العناد الكئيب الغائب، والتي كانت تصعق وتدهش كل شخص كان يخاطبه، بدأت تزول. كأنما كان يعود إلى نفسه في ذلك الإدراك المستيقظ بذلك التناسق الرائع في الملامح والخطوط والنظرات والصوت التي كانت تجعل الفتاة أمامه كائناً نادراً جداً، خارج وفوق الفكرة المعتادة للجمال. نظر إليها طويلاً جداً حتى احمرّ وجهها قليلاً.

Twitter: @ketab_n

كررّت بلهجة غامضة:

ـ ما الذي كنت تعرفه؟

في هذه المرة نجح في الابتسام.

ـ لولا كلمة تحية أو كلمتين لكنت سأشك في أن أمك كانت مدركة لوجودي. هل فهمت ما أعنيه؟

أومأت ناتاليا هالدين برأسها. تحركت يداها بخفة إلى جانبها.

ـ أجل. أليس في ذلك ما يحطم القلب؟ لم تذرف دمعة واحدة حتى الآن... ولا دمعة واحدة.

ـ ولا دمعة واحدة! وأنت يا ناتاليا فيكتوروفنا؟ هل كنت قادرة على البكاء؟

ـ أجل. وعلى أية حال فأنا شابة بما فيه الكفاية يا كيريلو سيدوروفيتش حتى أؤمن بالمستقبل. ولكني حين أرى أمي حزينة إلى هذا الحد، أكاد أنسى كل شيء. أسأل نفسي إن كان علي أن أشعر بالفخر... أو بالاستسلام. لقد جاء الكثير من الناس لزيارتنا. كان هناك أناس غرباء تماماً كتبوا إلينا يطلبون زيارتنا ليقدموا تعازيهم. كان مستحيلاً علينا إغلاق بابنا إلى الأبد. أنت تعرف أن بيتر إيفانوفيتش نفسه... أجل، كان هناك الكثير من التعاطف، ولكن كان هناك أيضاً أشخاص كانا يعبرون بصراحة عن ابتهاجهم بموته. ثم، حين تركتُ وحيدة مع أمي المسكينة، بدا هذا كله ذا روح خاطئة، شيئاً لا يستحق الثمن الذي تدفعه أمي لقاءه. ولكني ما أن سمعت أنك هنا في جنيف، يا كيريلو سيدوروفيتش، حتى أحسست أنك الشخص الوحيد الذي يمكنه مساعدتي...

ـ في التخفيف عن أم ثكلى؟ أجل!

Twitter: @ketab_n

هكذا قاطعها بأسلوب جعلها تفتح عينيها الرائعتين البريئتين. ثم استأنف قائلاً:

ـ ولكن هناك مسألة الملاءمة. هل خطر لك هذا السؤال؟

كان في كلامه نوع من اللهاث الذي كان يتباين مع التلميح الفظيع إلى السخرية في مغزاه.

همست ناتاليا هالدين بانفعال:

ـ عجباً! ومن هو أكثر منك ملاءمة؟

قام بحركة تشنّجية تدل على اليأس، ولكنه سيطر على نفسه.

ـ بالفعل! ما أن سمعت أني هنا في جنيف وقبل أن تريني؟ هذا برهان آخر على تلك الثقة التي...

تغيّرت لهجته فوراً وأصبحت أكثر حدة وحيادية.

ـ الرجال مخلوقات بائسة يا ناتاليا فيكتوروفنا. إنهم لا يتمتعون بحدس العاطفة. وحتى يستطيع شخص ما التحدث على نحو ملائم مع أم ثكلى عن ابنها الذي فقدته فلا بد أن لهذا الشخص أن يكون قد جرّب علاقة الابن بالأم. وليست هذه حالي إن كان عليك أن تعرفي الحقيقة كلها. على آمالك أن تتعامل هنا مع «صدر لم تدفئه أية عاطفة» كما يقول الشاعر... وهذا لا يعني أنه صدر دون إحساس.

هذا ما أضافه بصوت أخفض.

قالت الآنسة هالدين بلطف:

ـ أنا واثقة من أن قلبك لا يخلو من الشعور.

ـ لا. ليس قاسياً كالحجر.

هذا ما قاله بالصوت الاستبطاني نفسه، وهو يبدو وكأن قلبه كان يقبع ثقيلاً كصخرة في ذلك الصدر غير المدفأ الذي كان يتحدث عنه. ثم استأنف قائلاً:

Twitter: @ketab_n

ـ لا، ليس قاسياً إلى هذا الحد. ولكن كيف أثبت ما تمنحينني الثقة من أجله...؟! آه! هذا سؤال آخر. لم يكن هناك من توقّع مني مثل هذا الأمر سابقاً. لا أحد كان يمكن لرقّتي أن تكون ذات فائدة له. وها أنت تأتين الآن. أنت! لا يا ناتاليا فكيتوروفنا. لقد فات الأوان. لقد حضرتِ بعد أن فات الأوان. عليك ألاّ تتوقعي مني أي شيء.

تراجعت قليلاً مبتعدة عنه، رغم أنه لم يقم بأية حركة، وكأنها رأت في وجهه تبدّلاً ما، وهو يشحن كلماته بمغزى عاطفة سرية ما كانا يشتركان بها معاً. بالنسبة إليّ أنا المشاهد الصامت، كانا يبدوان لي كشخصين أصبحا يدركان أن لعنة ما كانت قد حلّت بهما منذ أن تقابلا لأول مرة. ولو أن أياً منهما نظر باتجاهي في تلك اللحظة، لكنت سأفتح الباب بهدوء وأخرج. ولكن لم يفعل أي منهما ذلك. وبقيت وقد فقدت كل خوف من ارتكابي لعمل طائش وذلك بسبب بعدي الهائل عن أسرهما ضمن الأفق الكئيب للمشاكل الروسية، ضمن حدود أعينهما ومشاعرهما... سجن روحيهما.

سيطرت الآنسة هالدين على صوتها بصراحتها وشجاعتها في خضم ورطتها.

سألته وكأنها تخاطب نفسها:

ـ ما معنى هذا؟

ـ قد يعني أنك قد استسلمتِ لتخيّلات عقيمة بينما استطعت أنا أن أبقي بين حقيقة الأمور وحقائق الحياة، حياتنا الروسية، كما هي فعلاً.

غمغمتْ:

ـ إنها لقاسية.

ـ وبشعة. لا تنسي ذلك... وبشعة. انظري أنّى تشائين. أنظري إلى القرب منك، هنا في الخارج حيث أنت، ثم انظري إلى الوطن من حيث أتيت..

Twitter: @ketab_n

ـ على المرء أن ينظر إلى ما بعد الحاضر.

كانت للهجتها قناعة صادقة.

ـ يمكن للعميان أن يفعلوا ذلك على أفضل وجه. لقد كان من سوء حظي أن ولدت بعينين صافيتي الرؤية. ولو أنك تعرفين فحسب الأمور الغريبة التي رأيتها! يا لها من أشباح مدهشة غير متوقعة!... ولكن لماذا نتحدث عن ذلك كله؟

ـ على العكس، أريد أن أتحدث عن هذا كله معك.

هكذا احتجت الآنسة هالدين بجدية صادقة. لم تكن الروح التهكمية الكئيبة لصديق أخيها قد أثرت فيها، كأنما كانت تلك المرارة، وذلك الغضب المكبوت، أمارات على صحة رأي ساخط. لقد عرفتْ أنه شخص غير عادي، وربما لم تكن تريد منه أن يكون سوى ما كان يبدو لعينيها الواثقتين.

ألّحت:

ـ أجل، معك خصيصاً. معك أنت من بين كل الروس في هذا العالم...

ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيها لبرهة ثم تابعت:

ـ أنا كأمي المسكينة نوعاً ما. أنا أيضاً أبدو غير قادرة على التخلي عن المتوفي الحبيب الذي، وعليك ألاّ تنسى، كان كل ما لدينا في هذا العالم. لا أريد استغلال تعاطفك، ولكن عليك أن تتفهم أننا نستطيع أن نجد فيك كل ما تبقى من روحه الكريمة.

كنت أنظر إليه؛ لم تختلج عضلة واحدة في وجهه. ومع ذلك، وحتى في ذلك الحين، لم أكن لأشكّ في أنه عديم الحساسية. كان ذلك نوعاً من التأمّل السابح في عالم آخر. ثم تحرّك قليلاً.

سألته.

Twitter: @ketab_n

ـ أنت راحل يا كيريلو سيدوروفيتش؟

ـ أنا! راحل؟ إلى أين؟ أوه، أجل، ولكن عليّ أن أحكي لك أوّلاً...

كان صوته مكبوتاً وأجبر نفسه على أن يتكلم باشمئزاز واضح، كأنما كان الكلام شيئاً مثيراً للاشمئزاز أو مميتاً.

ـ تلك الحكاية، أنت تعرفين... الحكاية التي سمعتها عصر هذا اليوم...

قالت بحزن.

ـ أعرف هذه الحكاية.

ـ أنت تعرفينها! هل لديك مراسلون في سانت بطرسبورغ أنت أيضاً؟

ـ لا، إنها صوفيا أنتونوفنا. لقد رأيتها للتو. وهي ترسل لك تحياتها. إنها راحلة غداً.

كان قد أخفض أخيراً نظرته المأخوذة. وكانت هي تنظر إلى الأسفل، وهكذا كانا يقفان الواحد منهما أمام الآخر تحت النور الشديد، بين الجدران الأربعة العارية، فيظهران وكأنهما قد جُلِبا خصيصاً من تلك الضخامة المشوشة للحدود الشرقية ليعرضا بقسوة تحت أنظاري الغربية. وكنت أراقبهما. لم يكن هناك ما أفعله سوى ذلك. بدا وجودي منسياً تماماً من قبل هذين حتى أني لم أجرؤ على القيام بحركة واحدة. ثم فكرت بيني وبين نفسي أنهما لا بدّ أن يتّحدا معاً بالطبع، أخت ذلك الرجل الميت وصديقه. فالأفكار والآمال والطموحات وقضية الحرية المعبّر عنها في عاطفتهما المشتركة تجاه فيكتور هالدين، الضحية الأخلاقية للحكم الفردي الاستبدادي... كل هذا من شأنه أن يجمعهما معاً على نحو لا يقاوم. كانت قلة خبرتها ووحدته التي أشار إليها على نحو غريب جداً ستؤديان إلى تلك النهاية حتماً. وقد رأيت أن ذلك سبق له وتم بالفِعل. طبعاً. كان واضحاً أنهما يفكران واحدهما بالآخر منذ فترة طويلة قبل أن يلتقيا. كانت معها تلك الرسالة من أخيها الحبيب التي

Twitter: @ketab_n

كانت تقدح مخيلتها بذلك المديح الشديد لذلك الاسم الوحيد، وبالنسبة إليه كان يكفي مجرد رؤية تلك الفتاة الرائعة. وكان السبب الوحيد هو هذا التحفّظ الكئيب أمام ترحيبها المعبّر عنه بصراحة. ولكنه كان شاباً، ومهما يكن متزمتاً ومكرساً نفسه لمثالياته الثورية، فهو لم يكن أعمى. لقد انقضت فترة التحفظ. إنه يتقدم بأسلوبه الخاص. لم أستطع أن أخطئ في فهم مغزى زيارته الأخيرة، فلم يكن فيما يريد قوله أي إلحاح. اتضح لي السبب الحقيقي لقدومه: لقد اكتشف أنه في حاجة إليها... وكان يدفعها هذا الشعور نفسه. كانت تلك هي المرة الثانية التي أراهما فيها معاً، وكنت أعرف أن المرة التالية التي سيتقابلان فيها ستكون بدون وجودي، سأكون إمّا متذكَّراً أو منسِيّاً. سأكون قد توقفت عن الوجود بالنسبة إلى هذين الشابين كليهما.

وقد قمت بهذا الاكتشاف خلال لحظات قليلة. وفي هذه الأثناء كانت ناتاليا هالدين تحكي لرازوموف باختصار عن رحلاتنا من أوّل جنيف إلى آخرها. وخلال حديثها كانت قد رفعت يديها إلى ما فوق رأسها لتحلّ وشاحها، وقد كشفت تلك الحركة في لمحة خاطفة الرشاقة المغوية لجسدها الشاب، المرتدي أبسط ملابس الحداد. وفي الظلّ الشفاف الذي كانت حافة القبعة تلقيه على وجهها كان لعينيها الرماديتين بريق جذاب. كان صوتها بمادته غير الأنثوية، وإن تكن فاتنة، ثابتاً، وكانت تتكلم بعجلة وصراحة ودون اضطراب. وبينما كانت تبرر تصرفها بالحالة العقلية لأمها، شوّهت نوبة من الألم التناسق الواثق المعطاء لملامحها. لقد أدركتُ أنه بعينيه الناظرتين إلى أسفل كان يبدو كرجل يصغي إلى لحن موسيقي وليس إلى كلام منطوق. وبالطريقة نفسها، وبعد أن توقفتْ عن الكلام، بدا وكأنه لا يزال يصغي إليها، دون حراك، وكأنه لا يزال تحت تأثير الصوت الموحي. ثم عاد إلى طبيعته وغمغم:

Twitter: @ketab_n

ـ أجل، أجل. لم تذرف دمعة واحدة. لم يبد عليها أنها كانت تسمع ما كنت أقوله. كان يمكنني أن أقول لها أي شيء. بدت وكأنها لم تعد تنتمي إلى هذا العالم.

أومأت الآنسة هالدين بإشارات تدلّ على الحزن العميق. تعثّر صوتها:

ـ أنت لا تعرف إلى أي حد ساءت الأمور. إنها تتوقّع «أن تراه!»

سقط الوشاح من أصابعها فشبكت يديها في ألم. ثم صاحت:

ـ سينتهي الأمر بأن تراه.

رفع رازوموف رأسه بحدة ورمى إليها بنظرة مطوّلة متأمّلة، ثم غمغم بلهجة غريبة كأنه يبدي رأيه في أمر واقع:

ـ هم... م... هذا ممكن جداً. أتساءل إن...

ثم كبح نفسه.

ـ ستكون تلك هي النهاية. سيكون عقلها قد ولّى وستلحق روحها به.

فكّت الآنسة هالدين يديها المتشابكتين وتركتهما تسقطان جانباً.

سألها بعمق:

ـ أوتظنين ذلك؟

كانت شفتا الآنسة هالدين قد افترتا قليلاً، فقد كان قد فتنها شيء غير متوقع وغير ممكن فهمه في شخصية ذلك الشاب منذ البداية. أضاف بعد فترة توقّف ثقيلة:

ـ لا، لا الحقيقة ولا السلوان يمكن الحصول عليهما من أشباح الموتى. كان يمكنني أن أحكي لها شيئاً صادقاً، مثلاً أن أخاك كان يريد إنقاذ حياته... أن ينجو بجلده. لا شكّ في ذلك. ولكني لم أكن أريد.

Twitter: @ketab_n

ـ لم تكن تريد! لماذا؟

ـ لا أعرف. دخلت أفكار أخرى إلى رأسي.

بدا لي وكأنه يراقب نفسه داخلياً، وكأنه يحاول أن يعدّ دقات قلبه، بينما لم تغادر عيناه ولو للحظة واحدة وجه الفتاة. استأنف يقول:

ـ لم تكوني هناك. كنتُ قد قرّرت ألاّ أراك مرة أخرى.

بدا هذا وكأنه قطع أنفاسها للحظة.

ـ أنت... وكيف يمكنك ذلك؟

ـ يحقّ لك أن تسألي... وعلى أية حال، أعتقد أني تجنّبت أن أخبر أمك من باب الحذر. كان يمكنني أن أؤكّد لها أنه في آخر محادثة له كرجل حرّ تذكّركما كلتيكما....

قالت بصوت عميق مؤثّر:

ـ تلك المحادثة الأخيرة كانت معك. يوماً ما سيكون عليك...

ـ كانت معي. قال عنك إن لك عينين مترعتين بالثقة. لا أعرف لماذا لم أستطع أن أنسى تلك العبارة. كان ذلك يعني أنه لا مكر فيك ولا خداع ولا زيف.ولا شكّ... لا شيء في قلبك يمكنه أن يمنحك فكرة عن كذبة حيّة فعّالة ناطقة، هذا إذا ما صادفتها في طريقك. أنت ضحية محكومة بالقدر... ها! يا لها من فكرة شيطانية!

كانت اللهجة التشنّجية غير المسيطرة عليها للكلمات الأخيرة قد كشفت عن مدى لاتحكّمه في نفسه. كان أشبه برجل يتحدّى الدوار الذي يصيبه في المناطق الشاهقة ويترنّح فجأة على حافة الهاوية. ضغطت الآنسة هالدين بيدها على صدرها. كان الوشاح قد سقط من يديها على الأرض بينهما. جعلته حركتها يستعيد توازنه. نظر بتمعّن إلى تلك اليد حتى هبطت ببطء، ثم رفع عينيه مرة أخرى إلى وجهها. ولكنه لم يمنحها الفرصة للتكلم.

Twitter: @ketab_n

ـ لا؟ أنت لا تفهمين؟ حسناً.

كان قد استعاد هدوء، بمعجزة قامت بها إرادته.

ـ إذن فقد تحدثت مع صوفيا أنتونوفنا؟

ـ أجل. قالت لي صوفيا أنتونوفنا...

وهنا توقفت الآنسة هالدين عن، والتعجّب يكبر في عينيها الواسعتين.

غمغم كأنه لوحده:

ـ هم... م ... هذا هو العدو المحترم.

قالت الآنسة هالدين بعد أن انتظرت لفترة قصيرة:

ـ كانت لهجة كلامها عنك ودية جداً.

ـ وهل كان ذلك هو انطباعك؟ وهي أكثرهنّ ذكاء أيضاً. الأمور تسير على ما يرام. كل شيء يتآمر على... آه! هؤلاء المتآمرون.

ثم استأنف بلهجة الاحتقار نفسها وببطء:

ـ سيسيطرون عليك في أقرب فرصة! أتعرفين يا ناتاليا أني ألاقي أشد الصعوبات لإنقاذ نفسي من الخوف المجهول من حكم ربّاني ناشط. هذا أمر لا يقاوم... والبديل هو بالطبع الشيطان الشخصي لأجدادنا البسطاء. ولكن، إن كان الأمر كذلك، فقد بالغ بالأمر كثيراً... ذلك الأب العجوز للأكاذيب - راعينا الوطني - إلهنا المحلي، الذي نأخذه معنا حين نسافر إلى الخارج. لقد بالغ في الأمر. ويبدو أني لست ساذجاً بما فيه الكفاية... هذا كل ما في الأمر، وكان عليّ أن أعرف ذلك... ولقد عرفته.

هذا ما أضافه بلهجة بؤس لاذعة طغت على دهشتي.

قلت في نفسي وأنا أشعر بخوف شديد: «هذا الرجل مخبّل».

Twitter: @ketab_n

وفي اللحظة التالية تلقيت منه انطباعاً خاصاً جداً يتجاوز كل التعاريف العادية. كأنه كان قد طعن نفسه في الخارج ثم جاء ليعرض ذلك، بل وأكثر من ذلك... كأنما كان يقلّب الخنجر في الجرح وراقب تأثير ذلك. كان ذلك هو الانطباع إذا ما عبرنا عنه بلغة الماديات. لم يكن في وسع المرء أن يمنع عن نفسه كمية معينة من الشفقة. ولكني كنت أشعر بالقلق الجدي على الآنسة هالدين التي امتُحنت في أعمق عواطفها. كان موقفها، ووجهها وتعاطفها الواضح يتصارع مع الشك على حافة الرعب.

ـ ما الأمر يا كيريلو سيدوروفيتش؟

كان هناك إيحاء بالرقة في تلك الصرخة. ولكنه حدق إليها في ذلك الاستسلام الكامل لكل قواه والتي نسميها «النشوة» لدى العشاق السعداء.

ـ لم تنظر إليّ هكذا يا كيريلو سيدوروفيتش؟ لقد عاتبتُك بصراحة. وأحتاج في هذه اللحظة إلى أن أرى نفسي بوضوح...

توقفت عن الكلام للحظة كأنما لتمنحه الفرصة ليلفظ أخيراً كلمة تستحقها ثقتها السامية في صديق أخيها. ولكن صمته أضحى مثيراً للخشية، بل وأشبه بدليل على قرار خطير.

وأخيراً استأنفت الآنسة هالدين كلامها بلهجة متوسلة:

ـ لقد انتظرتُك بلهفة. ولكنك ما أن قدمتَ الآن بلفتة كرم منك، حتى أقلقتني. أنت تتكلم على نحو غامض. يبدو عليك كأنك تخفي شيئاً ما عني.

وأخيراً نطق بصوت غريب لا رنّة فيه:

ـ قولي لي يا ناتاليا فيكتوروفنا، من رأيت في ذلك المكان؟

أجفلت، كأنما خدعت في توقعاتها.

Twitter: @ketab_n

ـ أين؟ في غرفة بيتر إيفانوفيتش؟ كان هناك السيد لاسبارا وثلاثة أشخاص آخرين.

ـ ها هه! الطليعة... الأمل اليائس للمؤامرة الكبرى. حاملو شرارة البدء بانفجار سيغير جوهرياً حيوات ملايين كثيرة حتى يكون بيتر إيفانوفيتش رئيس دولة.

قالت:

ـ أنت تغيظني. لقد قال لي ذلك العزيز علينا مرة إن عليّ أن أتذكر أن الأشخاص يخدمون دائماً شيئاً ما أكبر من أنفسهم... الفكرة.

كرّر ببطء:

ـ العزيز علينا.

كان الجهد الذي بذله ليبدو غير منفعل قد امتصّ قوة روحها كلها. وقف أمامها ككائن لا نفس فيه. كانت عيناه، حتى تحت ضغط المعاناة الجسدية، قد فقدتا كل ما فيهما من نار.

ـ آه! أخوك... ولكن على شفتيك، بصوتك، يبدو... وبالفعل فإن كل شيء فيك سماويّ... أتمنى لو أستطيع أن أعرف أعمق أعماق أفكارك، ومشاعرك.

صاحت منزعجة من هذه الكلمات الخارجة من شفتين لا حياة فيهما:

ـ ولكن لماذا يا كيريلو سيدوروفيتش؟

ـ لا تخافي. لن أخونك. إذن، ذهبت إلى هناك؟ ... وصوفيا أنتونوفنا، ما الذي قالته لك؟

ـ قالت القليل جداً. كانت تعرف أني سأسمع كل شيء منك. لم يكن لديها من الوقت ما يكفي سوى لكلمات قليلة.

وهنا خفت صوت الآنسة هالدين وصمتت للحظة.

Twitter: @ketab_n

ثم استأنفت بحزن:

ـ يبدو أن ذلك الرجل قد انتحر.

سألها بعد فترة صمت:

ـ قولي لي يا ناتاليا فيكتوروفنا، هل تؤمنين بالندم؟

ـ يا له من سؤال!

غمغمت بصوت أجش:

ـ وما يمكنك أن تعرفي عنه؟ إنه ليس لأمثالك... كنت أنوي أن أسألك إن كنت تؤمنين بفعالية الندم؟

تردّدت كأنما لم تفهم، ثم أشرق وجهها.

قالت بحزم:

ـ أجل.

ـ إذن فهو مغفور له. وعلاوة على ذلك فإن زييميانيتش ذاك كان فظّاً وسكيراً.

ارتجفت ناتاليا هالدين.

استأنف رازوموف:

ـ ولكنه رجل من الشعب الذي يقصّ عليه أولئك الثوريون حكاية الآمال السامية. حسناً، يجب أن نغفر للشعب... وأنت عليك ألاّ تصدقي كل ما سمعته من ذلك المصدر أيضاً.

هذا ما أضافه بنوع من التردّد الغريب.

صاحت:

ـ أنت تخفي عني شيئاً ما.

ـ هل تؤمنين يا ناتاليا فيكتوروفنا بواجب الثأر؟

Twitter: @ketab_n

ـ اسمع يا كيريلو سيدوروفيتش. أنا أؤمن بأن المستقبل سيكون رحيماً بنا جميعاً: ثوريين ورجعيين، ضحايا وجلّادين، خائنين ومخونين، سيشفق عليهم ويغفر لهم، فبدون ذلك لا يمكن أن تكون وحدة ولم يكون حبّ.

ـ أنا أسمعك. لا ثأر لك إذن؟ أبداً؟ ولا القليل منه؟

ابتسم بمرارة بشفتيه الشاحبتين. ثم استأنف قائلاً:

ـ أنت نفسك أشبه بروح ذلك المستقبل الرحيم نفسه. غريب أنه لا يسهّل الأمور... لا! ولكن لنفترض أن الخائن الحقيقي لأخيك... كان لزييميانيتش دور في ذلك أيضاً، ولكنه دور غير هام وغير طوعي... افترضي أنه كان شاباً، عاملاً مثقفاً وذكياً، مفكراً، شاباً قد يكون أخوك قد وثق به عن خفة، ربما، لكن مع ذلك... افترضي... ولكن هناك حكاية بكاملها.

ـ وأنت تعرف الحكاية! ولكن عجباً، إذن...

ـ لقد سمعتها. هناك دَرَج فيها أيضاً. بل وأشباح حتى، ولكن ذلك لا يهمّ إن كان المرء يخدم شيئاً ما أعظم من نفسه... الفكرة. أتساءل من هو يا ترى أعظم ضحية في تلك الحكاية؟

كررت الآنسة هالدين:

ـ في تلك الحكاية!

بدت وكأنها قد تحولّت إلى حجر.

ـ هل تعرفين لم أتيتُ إليك؟ لأنه ببساطة لا يوجد لديّ في هذا العالم العظيم الواسع أحد آخر أذهب إليه. هل تفهمين ما أقوله؟ لا أحد لديّ أذهب إليه. هل تدركين مدى يأس الفكرة... لا أحد ...أذهب ... إليه؟

Twitter: @ketab_n

وبما أنها كانت مضلّلة تماماً بسبب تفسيرها الحماسي لسطرين في رسالة من شخص مثالي حالم، وكانت تحت لعنة خوفها من أيام الوحدة، في عالمهم المكسوف، عالم الكفاح الغاضب، فقد كانت غير قادرة على أن ترى الحقيقة التي كانت تناضل على شفتيه. كانت واعية بالشكل الغامض لمعاناته فحسب. كانت على وشك أن تمدّ يدها إليه بتهوّر حين نطق مرة أخرى:

ـ بعد ساعة من مشاهدتي لك للمرة الأولى عرفت كيف سيكون مجرى الأمور. إن أهوال الندم والانتقام والاعتراف والغضب والحقد والخوف لا شيء بالمقارنة مع الإغراء الرهيب الذي وضعته في طريقي يوم ظهرت أمامي بصوتك ووجهك في حديقة تلك الفيلاّ اللعينة.

بدت مرتبكة تماماً للحظة، ثم وبنوع من البصيرة اليائية تكلّمت على نحو واضح ومباشر:

ـ الحكاية يا كيريلو سيدوروفيتش، الحكاية!

ـ لم يعد هناك ما يُحكى.

تقدّم بحركة نحو الأمام ووضعت هي يدها على كتفه لتدفعه بعيداً، ولكن قوتها خانتها، وبقي هو في مكانه، رغم أنه راح يرتجف في كل عضو من أعضائه.

ـ إنها تنتهي هنا... في هذه البقعة بالذات.

ضغط أصبعاً محذِّرة على صدره بقوة، وأصبح ساكناً تماماً.

أسرعت نحو الأمام وأنا أختطف الكرسي، ووصلت في الوقت الملائم لأمسك بالآنسة هالدين وأجلسها عليه. وحين سقطت في الكرسي التفتت مستندة إلى ذراعي وبقيت مشيحة وجهها عنّا كلينا، وهي تتهاوى على الكرسي. نظر إليها بهدوء مفزع خال من التعبير.

Twitter: @ketab_n

لقد حرمني عدم التصديق المتنازع مع الدهشة والغضب والاشمئزاز من القدرة على الكلام لفترة. ثم التفتُّ إليه وأنا أهمس غاضباً:

ـ هذا رهيب. لم تتريث خنا إذن؟ لا تدعها تراك مرة أخرى. ابتعد من هنا!...

لم يتحرك.

ـ ألا تفهم أن وجودك أمر لا يطاق... حتى بالنسبة إليّ؟ إن كان هناك أيّ حسّ بالخجل فيك...

تحركت عيناه الكئيبتان ببطء باتجاهي. غمغم مصعوقاً:

ـ كيف أتى هذا العجوز إلى هنا؟

وفجأة نهضت الآنسة هالدين من على الكرسي، وسارت بضع خطوات وترنّحت. فاندفعت لمساعدتها ناسياً سخطي وحتى وجود ذلك الرجل نفسه. أمسكت بها من ذراعها، وتركتني أقودها إلى غرفة الاستقبال. وهناك بعيداً عن المصباح في العتمة الأعمق في النهاية البعيدة للغرفة كانت الصورة الجانبية للسيدة هالدين، وكان ليديها وجسمها كله سكون لوحة كئيبة. توقفت الآنسة هالدين وأشارت بحزن إلى السكون التراجيدي لأمها التي بدت كأنها تراقب رأساً محبوبة في حضنها.

كان لتلك الإيماءة قوة تعبير لا مثيل لها، بعيدة الأثر في بؤسها الإنساني بحيث أن المرء ما كان ليصدّق أنها كانت توضّح فحسب عمل المؤسسات السياسية الذي لا هوادة فيه. وبعد أن ساعدتُ الآنسة هالدين حتى الأريكة، التفتّ لأعود وأغلق الباب. وقد سقطت عيناي على رازوموف، مؤطّراً في الباب المفتوح، في النور المتوهّج للغرفة الجانبية البيضاء، كان لا يزال هناك، واقفاً أمام الكرسي الفارغ، وكأنه قد تسمّر هناك إلى الأبد في بقعة اعترافه الرهيب. طغت

Twitter: @ketab_n

عليّ الدهشة بأن القوة الغامضة التي انتزعت من قلبه لم تقتله وتحطّم جسده. كانت هناك مجرّدة من غمدها. حدّقت إلى الخط العريض لمنكبيه، ورأسه الداكنة اللون، والسكون المدهش لأعضائه. عند قدميه كان الوشاح الذي أسقطته الآنسة هالدين يبدو شديد السواد تحت وهج النور الأبيض. كان يحدّق إليه كأنه مسحور. وفي اللحظة التالية انحنى بسرعة وحشية لا تصدّق، فاختطفه وضمّه إلى وجهه بكلتا يديه. غشّى شيء ما، ربما الدهشة الشديدة، على بصري بحيث أنه قد تلاشى قبل أن يتحرّك.

أعاد صوت إغلاق الباب الخارجي البصر إليّ، ورحت أتأمّل الكرسي الفارغ في الغرفة الجانبية الفارغة. كان معنى ما شاهدته قد وصل إلى ذهني بصورة صاعقة. أمسكت بناتاليا هالدين من كتفها.

صحت بصوت خائف هامد، صوت يدلّ على اكتشاف مخيف:

- لقد سرق ذلك الحقير البائس وشاحك! لقد...

بقي الباقي دون أن أنطقه. خطوت متراجعاً ونظرت إليها في رعب صامت. كانت يداها قابعتين دون حياة والكفّان إلى الأعلى على حجرها. رفعت عينيها الرماديتين ببطء. بدت الظلال تروح وتأتي فيهما كأن شعلة روحها الراسخة قد راحت تنوس أخيراً ضمن التيارات المتقاطعة للهواء المسمّم الآتي من هول العتمة الفاسدة المطالبة بما هو مُلْكُها، حيث الفضائل أنفسها تتقيّح متحوّلة إلى جرائم في سخرية الكبت والتمرّد.

- من المستحيل أن يكون المرء أتعس من هذا...

صعقتني همسة صوتها الواهنة حتى الخوف.

- مستحيل... أشعر أن قلبي يصبح كالثلج.

Twitter: @ketab_n

رابعاً:

سار رازوموف إلى البيت مباشرة فوق الرصيف الرطب اللامع. هطل المطر غزيراً عليه، وأضاء برق بعيد على نحو خافت الأجزاء الأمامية من منازل صامتة والدكاكين المغلقة مصاريعها على امتداد «شارع دو كاروج». وبين الحين والآخر، بعد الالتماع الخافت كان هناك هدير خفيض ناعس، ولكن القوى الأساسية للعاصفة الرعدية بقيت متجمعة في وادي الرون كأنما هي كارهة أن تهاجم المأوى المحترم بارد العواطف للحرية الديموقراطية، المدينة ذات العقلية الجدّية والفنادق الكئيبة، والتي تقدم الضيافة الحيادية نفسها إلى السياح من كل الأمم وإلى المتآمرين الدوليين من كل لون.

كان صاحب الدكان يستعدّ للإغلاق حين دخل رازوموف ومدّ يده دون كلمة واحدة ليأخذ مفتاح غرفته. وبينما كان الرجل يمدّ يده إلى الرف ليعطيه إياه، كاد أن يحكي نكتة صغيرة تتعلّق بشمّ الهواء في عاصفة رعدية، ولكنه بعد أن نظر إلى وجه المستأجر قال لمجرد أن يتفوّه بشيء ما:

ـ أنت مبتل جداً.

غمغم رازوموف الذي كان المطر ينقط منه من رأسه إلى قدميه:

ـ أجلّ لقد غُسِلتُ تماماً.

ثم مرّ عبر الباب الداخلي نحو الدرج المؤدي إلى غرفته.

لم يبدل ملابسه، ولكنه خلع ساعته وسلسلتها بعد أن أشعل شمعة، ثم وضعها على الطاولة وجلس ليكتب على الفور. كان دفتر مذكراته المعرَّض للشبهات في درج مقفول، وقد أخرجه بعنف ولم يزعج نفسه بإعادته إلى مكانه لاحقاً.

Twitter: @ketab_n

في تحذلقه العجيب كرجل طالَعَ وفكّر وعاش والقلم في يده، كان هناك صدق محاولة الإمساك، بالوسيلة نفسها، بمعرفة أخرى أشدّ عمقاً. فبعد بعض المقاطع التي سبق استخدامها في بناء حكايته، أو إضافة شيء جديد إلى الجانب السيكولوجي من إفشائه لما يعرفه (هناك تلميح آخر إلى الميدالية الفضية في آخر جزء من مذكراته)، تأتي صفحة ونصف من الكتابة المشوشة حيث تربك تعبيره جهة وغموض ذلك الجانب من حياتنا العاطفية الذي كان وجوده الوحداني غريباً عنه تماماً. عندها فحسب يقوم بمخاطبة القارئ الذي في ذهنه مباشرة، محاولاً أن يعبر بجمل مكسّرة، مليئة بالتساؤل والرعب، عن السلطة المطلقة (هو يستعمل هذه الكلمة بالذات) لشخصها (يقصد شخص الآنسة هالدين) على مخيلته التي هجعت فيها البذرة النائمة لكلمات أخيها.

«... أكثر العيون في العالم إيحاء بالثقة»... هذا ما قاله أخوك عنك حين كان سيف الموت قد سبق له وأصبح مسلطاً عليه. وحين وقفت أمامي بيد ممدودة، تذكرت نبرة صوته، ونظرت إلى عينيك... وكان ذلك كافياً. عرفتُ أن شيئاً ما قد حدث، ولكني لم أعرف عندها ما هو... لا تنخدعي يا ناتاليا فيكتوروفنا. كنت أعتقد أن لا شيء في صدري سوى ذخر لا ينضب من الحقد لكما كليكما. تذكرت أنه كان يتأمّل منك أن تقومي بجعل روحه الحالمة خالدة. هو، ذاك الرجل الذي سرق مني وجودي الكادح الهادف. وأنا أيضاً كانت لديّ فكرتي الهادية؛ وتذكّري أنه، فيما بيننا، لأصعب على المرء أن يعيش حياة الكدح وإنكار الذات على أن يخرج إلى الشارع ويقتل عن قناعة. ولن يكفينا هذا. الكره أو اللاكره! فقد شعرت لدى تجنّبي لرؤيتك أنه من المستحيل عليّ أن أبعد صورتك. سأقول مخاطباً الرجل الميت: «أهذه هي الطريقة التي ستسكنني بها؟» ولكني لم أفهم سوى لاحقاً... اليوم فحسب، ومنذ

Twitter: @ketab_n

ساعات قليلة فقط. ما كان يمكنني أن أعرف عما كان يمزقني إلى أشلاء ويخرج السر إلى الأبد من شفتيّ؟ كنت أنت هو الشخص الذي عُيِّن ليبطل الشر بأن يجعلني أخون نفسي لأعود إلى الحقيقة والسلام. أنت وقد فعلت ذلك بالطريقة نفسها التي دمرتني بها أيضاً بأن تقحمي عليّ ثقتك. كان ما كرهته لأجله هو ما انتهى عندك نبيلاً وسامياً. ولكن، وأكرّر هنا، لا تنخدعي. لقد كنت مستسلماً للشر. كنت أنتشي بكوني قد أغويت ذلك الأحمق البريء المغفل ليسرق مال أبيه. كان أحمق، وإن لم يكن لصاً. لقد جعلته يتحول إلى لص. كان ذلك ضرورياً. كان عليّ أن أؤكّد نفسي في احتقاري وكرهي لما خنت. لقد عانيت من كثير من مصاصي الدماء في قلبي، بقدر ما عانى أي ديموقراطي اجتماعي منهم جميعاً... النفاق، الطموحات، الحسد، الرغبات المخجلة والعواطف الشريرة، عواطف الحسد والثأر. لقد سرق مني أمني، سنوات من العمل المتواصل الجاد، أفضل آمالي. اسمعي... الآن يأتي الاعتراف الحقيقي. كان الآخر لا شيء. لتنقذيني، كان علي عينيك المترعتين بالثقة أن تغوي فكري حتى الوصول إلى حافة أشد أنواع الخيانة سواداً. كنت أستطيع أن أراهما باستمرار وهما تنظران إليّ بثقة قلبك الطاهر الذي لم تلمسه الأشياء الشريرة. لقد سرق فيكتور هالدين حقيقة حياتي مني، أنا الذي لم يكن عنده شيء آخر في هذا العالم، وكان يتفاخر بأنه سيعيش من خلالك على هذه الأرض التي لا مكان لي فيها أتكئ عليه برأسي. ستتزوج يوماً ما... هذا ما قاله لي... وقال إن عينيك مترعتين بالثقة. وهل تعرفين ما قلته لنفسي؟ سأسرق روح أخته منها. حين تقابلنا للمرة الأولى في ذلك الصباح الأول في الحديقة، وتحدثت إليّ بثقة من خلال كرم روحك، كنت أفكر: «أجل، هو نفسه بحديثه عن عينيها المترعتين بالثقة قد سلّمها إليّ.» لو استطعت آنئذ أن تنظري إلى ما بقلبي، لكنت ستصرخين بحدة من الفزع والاشمئزاز.

Twitter: @ketab_n

«ربما لن يصدق أحد أن وضاعة مثل هذه النيّة قد تكون ممكنة. ومن المؤكد أنه حين افترقنا ذلك الصباح، كنت أشعر بارتياح الظافر لخبيث. رحت أفكّر في أنسب طريقة. لقد أصرّ الرجل العجوز الذي قدمتني إليه، أن يسير معي. لا أعرف من هو. لقد تحدث عنك، عن حالتك الوحدانية البائسة، وكل كلمة كان يقولها صديقك ذاك كانت تحثّني على ارتكاب تلك الخطيئة التي لا تغتفر، خطيئة سرقة روح. هل كان هو الشيطان نفسه في شكل رجل إنكليزي عجوز؟ يا ناتاليا فيكتوروفنا، لقد كنت ممسوساً! لقد عدت لأنظر إليك كل يوم وأشرب في حضورك سمّ نيّتي الشائنة. ولكني تنبّأت بالصعوبات. ثم ظهرت صوفيا أنتونوفنا، التي لم أفكر بها - بل نسيت وجودها - ظهرت فجأة بتلك الحكاية من سانت بطرسبورغ... الشيء الوحيد الذي كنت في حاجة إليه ليجعلني في مأمن... ثورياً موثوقاً إلى الأبد».

«بدا الأمر وكأنّ زيميانيتش قد شنق نفسه ليساعدني على ارتكاب جريمة أخرى. بدت قوة الكذب والزيف أمراً تصعب مقاومته. هؤلاء الناس كانوا محكومين بالحماقة والوهم اللذين هما فيهم... فهم أنفسهم عبيد للأكاذيب. يا ناتاليا فيكتوروفنا، لقد عانقت قوة الكذب والزيف، لقد انتشيت بها... لقد سلمتها نفسي لفترة من الزمان. ومن ذا الذي يستطيع مقاومتها! كنت أنت نفسك جائزتي مقابلها. جلست وحيداً في غرفتي، أخطط لحياة بأكملها؛ ولكن مجرد تفكيري بذلك الآن يبث الرجفة في جسدي، كمؤمن أُغوي على ارتكاب تدنيس للمقدسات. ولكني كنت أتأمّل بحماسة في صورها. إنما الشيء الوحيد أنه لم يكن يبدو أن هناك هواءً فيها. كما كنت أخشى أمك. لم أعرف أمي أبداً. لم يسبق لي أن عرفت أي نوع من أنواع الحب. هناك شيء ما في هذه الكلمة المجردة... منك لم أكن خائفاً... واغفري لي أني أقول لك هذا. لا، لم أكن خائفاً منك. كنتِ الحقيقة نفسها. ما

Twitter: @ketab_n

كان يمكنك أن تشكّي بي. أما فيما يخصّ أمك، فأنت نفسك كنت تخشين أن تكون قد فقدت عقلها من الحزن. من سيصدق أي شيء يقال ضدي؟ أو لم يشنق زيميانيتش نفسه ندماً؟ قلت في نفسي: «لتختبر الأَمْرَ ونَتْبِهِ منه وإلى الأبد.» وقد ارتجفت حين دخلت، ولكن أمك لم تصغ إلاّ بالكاد إلى ما كنت أقوله لها؛ وخلال فترة قصيرة، بدت وكأنها قد نسيت وجودي بالذات. جلست أنظر إليها. لم يكن قد بقي بينك وبيني أي مانع. كنت عزلاء تماماً... وسرعان ما سوف تكونين وحيدة... فكرت بكِ. عزلاء تماماً. كنت منذ أيام تحادثينني وتفتحين لي قلبك. تذكرت ظّل أهدابك على عينيك الرماديتين المترعتين بالثقة. وجبينك الطاهر! إنه منخفض كجبين التماثيل... هادئ ونقي. بدا الأمر وكأن جبينك الطاهر كان يحمل النور الذي سقط عليّ وبحث في قلبي وأنقذني من الخزي، من الدمار المطلق. وقد أنقذك ذلك أنت أيضاً. سامحيني على وقاحتي. ولكن كان في نظراتك شيء بدا وكأنه يقول لي إنك... نورك! حقيقتك! أحسست أن عليّ أن أقول لك إني قد انتهيت إلى أن أحبك. ولكن حتى أقول لك ذلك فإن عليّ أوّلاً أن أعترف. أعترف، وأخرج وأهلك.

«وفجأة وقفتِ أمامي! أنت الوحيدة في هذا العالم الذي عليّ أن أعترف لها. لقد فتنتِني... لقد حررتِني من عمى الغضب والحقد.. الحقيقة التي التمعت فيكِ جذبت الحقيقة مني. والآن بعد أن اعترفت؛ وبينما أكتب هنا، فأنا في أعماق الألم، ولكن هناك هواء أتنفسه أخيراً... هواء! وبالمناسبة فإن الرجل العجوز قفز من مكان ما وأنا أكلّمك، وثار عليّ كشيطان خائب الرجاء. أنا أعاني على نحو رهيب، ولكني لست يائساً. هناك أمر واحد آخر عليّ أن أفعله. بعد ذلك - إذا سمحوا لي - سأبتعد وأدفن نفسي في بؤس في مكان ناءٍ. في تسليمي لفيكتور هالدين، خنتُ نفسي بأحطّ شكل ممكن برغم

Twitter: @ketab_n

كل شيء. عليك أن تصدقي ما أقوله الآن، ولا يمكنك أن ترفضي تصديق هذا. بأحط شكل ممكن. ومن خلالك استطعت أن أشعر على هذا النحو العميق. وعلى أية حال، فهم وليس أنا من يقف الحق إلى جانبه! قوتهم هي قوة السلطات غير المرئية. فليكن. ولكن لا تنخدعي يا ناتاليا فيكتوروفنا، فأنا لم أعتنق المذهب الجديد. هل لي إذن روح الرفيق؟ لا! أنا استقلالي... ولذا فإن الفناء هو قدري.»

وعند هذه الكلمات، توقف عن الكتابة وأغلق الدفتر ولفّه بالوشاح الأسود الذي كان قد حمله من بيت الآنسة هالدين. ثم فتش الأدراج بحثاً عن ورق وخيط، وحزم الدفتر والوشاح على شكل طرد وكتب عليه عنوان الآنسة هالدين، شارع الفلاسفة، ثم رمى بالقلم بعيداً إلى زاوية نائية.

وبعد أن فعل ذلك جلس والساعة أمامه. كان يستطيع الخروج فوراً، ولكن الساعة لم تكن قد حانت بعد. سيكوم ذلك في منتصف الليل. لم يكن هناك أي سبب في اختيار ذلك باستثناء حقائق وكلمات أمسية معينة في ماضيه كانت تؤقّت له سلوكه في الحاضر. لقد عزا السلطة المفاجئة التي أحرزتها ناتاليا هالدين إلى السبب نفسه. سمع نفسه يغمغم: «أنت لا تمشي دون عقوبة فوق صدر شبح.» ثم فكر فجأة: «وهكذا ينقذني. هو نفسه ذلك الرجل المخون.» بدت الصورة الحية للآنسة هالدين وكأنها تقف إلى القرب منه، تراقبه دون هوادة. لم تكن مزعجة. كان قد انتهى من حياته، وحتى فكره. كان يحاول في حضورها أن يكون حيادياً. والآن هاهو احتقاره قد امتد ليطاله هو بالذات. «لم تكن لدي البساطة ولا الشجاعة ولا رباطة الجأش لأكون وغداً، أو شخصاً ذا قدرات استثنائية. فمن يستطيع في روسيا أن يعرف الوغد من الشخص ذي القدرات الاستثنائية؟...».

Twitter: @ketab_n

كان ألعوبة ماضية، لأنه عندما أصبحت الساعة الثانية عشرة، قفز ونزل الدرج مسرعاً كأنه واثق أن باب البناء سيفتح، بقوة القدر، أمام الضرورة المطلقة لمهمته، وكحقيقة، فإنه ما أن وصل إلى أسفل الدرج، فقد فُتح الباب له من قبل بعض سكان البناء العائدين متأخرين إلى البيت: رجلان وامرأة. خرج متسلّلاً عبرهم إلى الشارع، وكانت ريح قوية تجتاحه في ذلك الوقت. وقد أجفلوا تماماً بالطبع. وقد مكّنتهم التماعة برق من أن يروه وهو يسير مبتعداً بسرعة. صرخ أحد الرجلين، وكاد ينطلق وراءه ليطارده إلاّ أن المرأة ميّزته فقالت:

ـ حسناً. إنه ذلك الروسي الشاب من الطابق الثالث.

عادت الظلمة مع قصفة رعد واحدة، كمدفع أطلق للتحذير من هربه من سجن الأكاذيب.

لا بد أنه كان قد سمع في أحد الأوقات وتذكر الآن دون وعي أنه سيكون هناك اجتماع للثوار في منزل جوليوس لاسبارا في ذلك المساء. وعلى أية حال، فقد سار مباشرة إلى منزل لاسبارا، ووجد نفسه دونما دهشة يقرع على الباب الخارجي الذي كان مقفلاً بالطبع. في ذلك الحين كانت العاصفة الرعدية قد شنّت هجومها العنيف. كان الماء يتدفق نازلاً على امتداد الشارع ذي الانحدار الحاد، وكان سقوط المطر الكثيف قد طوّقه كوشاح مضيء تحت نور البرق المتلاعب. كان هادئاً تماماً. وبين كل قصة وأخرى من الرعد راح يصغي بانتباه إلى رنين جرس الباب اللطيف في مكان ما داخل المنزل.

واجه بعض الصعوبات قبل أن سمح له بالدخول. لم يكن معروفاً لدى أحد الضيوف الذي تطوع لينزل إلى الباب الخارجي ليرى ما الحكاية. تجادل رازوموف معه بصبر. لم يكن هناك من ضرر في إدخال زائر. كان لديه شيء ما يقوله للمجتمعين في الطابق العلوي.

Twitter: @ketab_n

- شيء ذو أهمية؟

- هذا ما سنترك الحكم عليه للسامعين.

- هل هو أمر ملّح؟

- لا يتحمل أي تأخير.

في هذه الأثناء كانت إحدى ابنتي لاسبارا قد نزلت وهي تحمل مصباحاً صغيراً في يدها، وترتدي ثوباً متسخاً مجعّداً، بدا كأنه معلق عليها بمعجزة، وتبدو أكثر من أي وقت مضى كدمية ذات شعر مستعار بنّي أغبر سحبت من تحت أريكة. وقد ميّزت رازوموف في الحال.

- كيف حالك؟ طبعاً يمكنك الدخول.

تبع رازوموف نور مصباحها صاعداً مجموعتي الأدراج من العتمة. وبعد أن تركت المصباح على رف على منبسط الدرج، فتحت باباً، ثم دخلت يصحبها الضيف المرتاب. دخل رازوموف أخيراً. أغلق الباب من خلفه، ثم خطا خطوة واحدة جانبية جاعلاً ظهره إلى الجدار.

كانت الغرف الثلاث الصغيرة المتتالية ذات السقف الواطئ المدخّن والمضاءة بمصابيح الكاز مزدحمة بالناس. وكان الكلام المرتفع يجري في الغرف الثلاث كلها، وكؤوس الشاي، الممتلئة منها ونصف الممتلئة والفارغة، متواجدة في كل مكان، وحتى على الأرض. أما بنت لاسبارا الأخرى فكانت جلس شعثاء واهنة خلف ساموفار ضخم. في المدخل الجوّاني لمح رازوموف بروز كرش ضخم ميّزه على الفور. وعلى بعد أقدام قليلة فحسب منه كان جوليوس لاسبارا ينزل مسرعاً من كرسيه العالي.

Twitter: @ketab_n

سبّب ظهور زائر منتصف الليل ضجة كبيرة. هذا وقد كان لاسبارا لاحقاً شديد التلخيص في وصفه لحوادث تلك الليلة. وبعد بضع كلمات ترحيب تجاهلها رازوموف، فإن لاسبارا (الذي تجاهل عن عمد وضع ضيفه الذي كان مبتلاً من الرأس إلى القدم وكذلك أسلوبه الغريب في تقديم نفسه) ذكر شيئاً ما حول كتابة مقال. بدأ القلق يتصاعد في نفسه، وبدا رازوموف غائب الذهن. قال أخيراً بضحكة صغيرة:

ـ قد سبق لي وكتبت كل ما عليّ أن أكتبه.

تركّز اهتمام المجموعة كلها على القادم الجديد الذي كان ماء المطر يقطر منه، الشاحب كالأموات ويحافظ على وضعه والجدار إلى ظهره. أزاح رازوموف لاسبارا جانباً بلطف، كأنما يريد أن يراه الجميع من الرأس حتى القدم. كان أزيز الحوارات قد توقف آنئذ تماماً، حتى في أقصى الغرف الثلاث. وكان المدخل المواجه لرازوموف قد أصبح مسدوداً بالرجال والنساء الذين مدّوا أعناقهم وبدوا بكل تأكيد وكأنهم يتوقعون حدوث شيء مذهل.

سمع تصريح وقح من أحد أفراد تلك المجموعة بصوت كالصرير:

ـ أعرف هذا الشخص المغرور على نحو مضحك.

سأل رازوموف وهو يرفع رأسه المطأطئة ويفتش بعينيه كل العيون المثبتة عليه:

ـ أي شخص؟

دام صمت كثيف مندهش بعض الوقت.

ـ إن كنت تعنينين أنا...

Twitter: @ketab_n

توقف، وهو يفكر في شكل الاعتراف الذي سيدلي بـه، ووجـده فجأة، إذ أوحي له على نحو يتعذّر تجنّبه من قبل تلك الليلة المـصيرية من ليالي حياته.

شرع يقول بصوت واضح:

ـ لقد جئت إلى هنا لأتحـدّث عـن شـخص يـدعى زييميـانيتش. فلقد أخبرتني صوفيا أنتونوفنا أنها تريد أن تعلن على المـلأ محتويـات رسالة وصلتها من سانت بطرسبورغ...

قال لاسبارا:

ـ لقد غادرتنا صوفيا أنتونوفنا في المساء. هذا صحيح تماماً. لقـد سمع الجميع هنا...

قاطعه رازوموف بنوع من نفاد الصبر، فقد كان قلبه يدقّ بقوة:

ـ حسناً جداً.

ثم عاد فسيطر على صوته إلى حد أنه استطاع أن يضع لمـسة مـن التهكّم في بيانه الواضح القويّ:

ـ حـتى لا يُظلـم ذلـك الـشخص، ذلـك الفـلاّح المُـساء إليـه، زييميانيتش، فإني أعلن هنا على رؤوس الأشهاد أن اسـتنتاجات تلـك الرسالة تـدين رجـلاً مـن الـشعب... روحـاً روسـية لامعـة. لا علاقـة لزييميانيتش بحادثة القبض على فكيتور هالدين.

لفظ رازومـوف الاسـم بثقـل، ثم انتظـر حـتى هـدأت الهمهمـة الضعيفة الحزينة التي حيّت هذا الاسم.

شرح يقول من جديد:

ـ لقد التجأ فيكتور فيكتوروفيتش هالـدين عـن طـيش نبيـل، إلى بيت طالب لم يكن هو يعرف شيئاً عن آرائـه سـوى مـا كانـت أوهامـه

Twitter: @ketab_n

توجيه إلى قلبه الكريم. وكان ذلك عملاً غير حكيم. ولكني لست هنا لأقيّم أعمال فيكتور هالدين. هل لي أن أحكي لكم عن مشاعر ذلك الطالب الذي التجأ إليه في عزلته المعتمة، والذي أحسّ بالإساءة لإقحامه بالمشاركة في تلك الجريمة؟ هل أحكي لكم ما فعله؟ إنها بالأحرى حكاية معقدة. في النهاية ذهب الطالب إلى «الجنرال تـ...» نفسه وقال له: «عندي الرجل الذي قتل «دو بـ...»، وهو في غرفتي وقد أقفلت عليه الباب، واسمه فيكتور هالدين... طالب مثلي.»

صدرت ضجة عالية رفع رازوموف صوته ضمنها:

ـ لاحظوا أن ذلك الرجل كانت له بعض المثاليات الصادقة. ولكني لم أحضر إلى هنا لأجله.

خاطبه أحدهم بلهجة جدية:

ـ لا، ولكن عليك أن تشرح لنا كيف وصلت إليك هذه المعلومات.

ـ جبان قذر!

رنّت هذه الصرخة باحتقار. وصرخت أصوات أخرى.

ـ قل لنا اسمه.

قال رازوموف باحتقار ضمن الصمت الذي حلّ مع رفعه ليده:

ـ لماذا تصرخون؟ ألم تفهموا جميعكم أني أنا هو ذلك الرجل؟

ابتعد لاسبارا بفظاظة من جانبه وعاد ليتسلّق كرسيه. وفي أول موجة من الناس اندفعت نحوه، توقع رازوموف أن يُمزَّق إرباً، ولكنهم تراجعوا دون أن يلمسوه، ولم يبدر عنهم سوى الضجيج، كان ذلك محيّراً. كانت رأسه تؤلمه بشدة. وضمن الضجة المشوشة سمع مرات عديدة اسم بيتر إيفانوفيتش، وكلمة «حكم» وعبارة «ولكن هذا اعتراف»

Twitter: @ketab_n

نطقها أحدهم في صرخة يائسة. وفي وسط هذا الغموض، اقترب منه أحد الشباب، وكان أصغر منه سناً، بعينين متوهجتين.

قال بلطف سام:

- أرجو أن تتلطّف فلا تتحرّك من هنا حتى يقال لك ما عليك أن تفعله.

هزّ رازوموف كتفيه.

- لقد جئت طوعاً.

ردّ الآخر:

- ربما، ولكنك لن تخرج قبل أن يُسمح لك بذلك.

أشار بيده منادياً:

- لويزا، لويزا! تعالي إلى هنا من فضلك.

وعلى الفور قامت إحدى ابنتي لاسبارا (كانتا جالستين تحدقان إلى رازوموف من خلف السامو فار) وهي تجر وراءها ذيلاً متسخاً هو حاشية ثوبها القذرة، وكرسياً وضعته أمام الباب وجلست عليه ووضعت ساقاً فوق ساق. شكرها الشاب بإسراف، ثم انضمّ إلى مجموعة كانت تتناقش بحدّة وبأصوات خفية. أضاع رازوموف نفسه للحظة.

صاح صوت ذو صريف:

- اعتراف أو لا اعتراف، أنت جاسوس للشرطة.

كان الثوريّ نيكيتا قد اندفع نحو رازوموف وواجهه بوجنتيه الكبيرتين الشاحبتين وكرشه الثقيل وعنقه الأشبه بعنق الثور وبيديه الضخمتين. نظر رازوموف إلى قاتل رجال الدرك الشهير باشمئزاز صامت.

Twitter: @ketab_n

قال بصوت خفيض:

ـ وما تكون أنت؟

ثم أغلق عينيه وأراح مؤخرة رأسه على الجدار.

سمع رازوموف صوتاً رقيقاً حزيناً يقول:

ـ سيكون من الأجدز بك أن تغادر الآن.

ففتح عينيه. كان المتحدث اللطيف رجلاً عجوزاً، له شعر كثيف ناعم يشكل هالة فضية من حول وجهه الذكي حاد التقاطيع.

ـ سيتمّ إبلاغ بيتر إيفانوفيتش باعترافك... وسيتمّ توجيهك...

وعندا التفت إلى نيكيتا، الملقّب بنيكاتور، الواقف إلى القرب منهما، وناشده مغمغماً:

ـ ما الذي يمكننا أن نفعله سوى ذلك؟ بعد أن أعلن كل ذلك بصدق فلا يمكنه أن يكون خطيراً بعد الآن.

همهم الآخر:

ـ الأفضل أن نتأكّد من ذلك قبل أن ندعه يفلت منّا. اترك ذلك لي. أعرف كيف أتعامل مع مثل هؤلاء السادة.

تبادل نظرات ذات معنى مع رجلين أو ثلاثة أومأوا له برؤوسهم بخفة، ثم التفت بخشونة نحو رازوموف:

ـ هل سمعت؟ أنت غير مرغوب فيك هنا. لم لا تخرج؟

نهضت ابنة لاسبارا الجالسة عند الباب كخفير، وسحبت الكرسي من الطريق دون أي انفعال. وقد حدّقت بعينين ناعستين إلى رازوموف الذي نظر فيما حوله في أرجاء الغرفة ثم مرّ ببطء إلى جانبها كأنما لديه فكرة جديدة.

Twitter: @ketab_n

قال وقد أصبح عند منبسط الدرج:

ـ أرجو أن تلاحظوا أن ما كان عليّ فعله هو أن أمسك بلساني على الكلام. اليوم، بين كل الأيام التي قضيتها هنا منذ أن وصلت إليكم، كنت في أمان، واليوم جعلت نفسي متحرراً من الزيف ومن الندم... مستقلاً عن كل كائن بشريّ فرد على هذه الأرض.

التفت بظهره إلى الباب وسار نحو الدرج، ولكن ما أن أغلق الباب بعنف من خلفه، حتى نظر من فوق كتفه فرأى أن نيكيتا قد لحق به مع ثلاثة آخرين. فكّر: «سيقتلونني على أية حال.»

وقبل أن تسنح له الفرصة للالتفات ومواجهتهم تماماً اندفعوا نحوه وجرّوه نحو الجدار. أكمل تفكيره: «أتساءل كيف؟» صاح نيكيتا بضحكة حادة في وجهه مباشرة:

ـ سنجعلك غير قادر على الإيذاء انتظر للحظة.

لم يقاومهم رازوموف. أمسك به الرجال الثلاثة وسمّروه إلى الجدار، بينما قام نيكيتا الذي اتخذ وضعاً إلى الجانب قليلاً، بالتلويح بذراعه الضخمة. راح رازوموف يبحث عن سكّين في يده ولكنه رآها مفتوحة دون سلاح، ثم تلقّى صفعة هائلة على جانب رأسه وفوق أذنه. وفي الوقت نفسه سمع صوت تفجير ضعيف مكتوم كأنما أطلق شخص ما مسدساً على الجانب الآخر من الجدار. استيقظ فيه غضب هائل بسبب هذه الوحشية. وقد راح الأشخاص المتواجدون في بيت لاسبارا، والذين كانوا قد حبسوا أنفاسهم، يصغون إلى العراك اليائس لأربعة رجال على منبسط الدرج؛ وسمعوا ارتطامات على الجدار ثم صوت اصطدام رهيب بالباب نفسه، ثم سقط الأربعة جميعاً بعنف بدا أنه يهزّ البناء كله. ورأى رازوموف الذي تكاثروا عليه فغلبوه، وهو

Twitter: @ketab_n

مبهور الأنفاس، والمسحوق تحت ثقل أجساد مهاجميه، رأى نيكيتا الهائل يجلس على كاحليه قرب رأسه، بينما كان الآخرون يمسكون به ويركعون فوق صدره، وقد أمسكوا بخناقه وجلسوا فوق ساقيه.

قال الإرهابي ذو الكرش الضخم بصوت جذل وأشبه ما يكون بالصريف:

- أديروا وجهه إلى الطرف الآخر.

لم يعد رازوموف قادراً على المقاومة. كان منهكاً، وقد راقب بسلبية اليد الثقيلة المفتوحة للشخص المتوحش وهي تنزل بضربة عقابية على أذنه الأخرى. بدا له أنها شطرت رأسه إلى شطرين. وفجأة أصبح الرجال الممسكون به صامتين تماماً... ساكتين كالأشباح. وقد أوقفوه في صمت ووحشية على قدميه ونزلوا به الدرج دون ضجيج، ثم فتحوا الباب ورموا به إلى الشارع.

سقط نحو الأمام وراح يتدحرج عاجزاً نازلاً المنحدر القصير مع تدفق ماء المطر الجاري. استقرّ عند مدخل الشارع في الأسفل، ممدّداً على ظهره، وومضة برق هائلة فوق وجهه... لمعة قوية صامتة من البرق أعمته تماماً. تحامل على نفسه حتى نهض ووضع ذراعيه فوق عينيه ليسترجع بصره. لم يصله صوت واحد من أي مكان، ثم بدأ يمشي، مترنّحاً. على امتداد شارع طويل فارغ. كان البرق يتموّج ويرمي عليه بتوهّجاته الصامتة، وماء المطر الغامر يسقط ويجري ويقفز ويندفع... دون ضجة، كاندفاع السديم. في هذا الصمت الخارق للطبيعة كان وقع خطواته صامتاً على الرصيف، بينما راحت ريح خرساء تدفع به وتحثّه نحو الأمام وباستمرار، كميّت ضائع في عالم شبحي تنهبه عاصفة رعدية صامتة. الرب وحده كان يعرف أين كانت قدماه الصامتتان ستأخذانه في تلك الليلة، هنا وهناك، وعودة

Twitter: @ketab_n

مرة أخرى دون توقف أو راحة. ولكننا سمعنا على أية حال لاحقاً عن مكان قادته قدماه إليه. ففي الصباح رأى سائق أوّل حافلة تعمل على خط الشاطئ الجنوبي، وهو يقرع جرسه يائساً، شاباً مبلّلاً ملطّخاً بالوحل ودون قبعة، يسير في الشارع مترنّحاً ورأسه مطأطئة، ويخطو أمام حافلته ثم يسقط تحتها.

حين رفعوه بعضوين مكسورين وخاصرة مسحوقة، لم يكن رازوموف قد فقد الوعي بعد. بدا وكأنه قد تعثر فحطّم نفسه في عالم من الأشياء البكماء. رفعه رجال صامتون، يتحركون دون أن يسمعهم، ووضعوه على الرصيف، وهم يومئون ويكشّرون من حوله معبّرين عن انزعاجهم وتعاطفهم. انحنى رجل ذو وجه أحمر وشاربين فوقه وشفتاه تتحركان وعيناه تتقلبان. بذل رازوموف قصارى جهده ليفهم سبب هذا الاستعراض الأبكم. بالنسبة إلى أولئك الذين وقفوا من حوله، فقد كانت ملامح ذلك الغريب، المصاب على نحو خطير جداً، تبدو هادئة متأمّلة. وبعد ذلك أرسلت عيناه نحوهم نظرة وجل ثم أغمضت ببطء. حدّقوا إليه. بذل رازوموف جهداً ليتذكر بعض الكلمات الفرنسية. قال بصعوبة وبصوت واهن قبل أن يغمى عليه وبالفرنسية:

- أنا أصم.

تبادلوا الكلام فيما بينهم:

- إنه أصم. لهذا لم يسمع صوت الحافلة.

حملوه في تلك الحافلة نفسها. وقبل أن تنطلق في رحلتها، تسلّقت امرأة في ثوب أسود بال كانت قد خرجت تعدو من باب حديقة منزل خاص على الطريق، تسلقت إلى المنصة الخلفية للحافلة وأبت أن تنزل منها.

Twitter: @ketab_n

قالت بفرنسية ركيكة وبإلحاح:

- أنا قريبته. هذا الشاب روسي وأنا قريبته.

ولدى سماعهم هذه الحجة تركوها تتصرّف وفق هواها. جلست بهدوء وأخذت رأسه ووضعتها على حضنها، بينما عيناها الخابيتان الخائبتان تتجنّبان النظر إلى وجهه الأشبه بوجه الأموات. عند زاوية أحد الشوارع، على الطرف الآخر من المدينة، كانت هناك حمّالة في انتظار الحافلة. لحقتْ بها حتى باب المستشفى حيث سمحوا لها بالدخول حتى رأته وقد وضع على سرير. لم تذرف قريبة رازوموف الجديدة أية دمعة، ولكن الموظفين وجدوا صعوبة في إقناعها بالرحيل. وقد لاحظ البوّاب أنها كانت تتسكّع على الرصيف المقابل لفترة طويلة. وفجأة، وكأنما تذكرت شيئاً ما، ركضت مبتعدة.

لقد قررت الكارهة الغيور لكل وزراء المالية وأمَة «المدام دو سـ...» أن تقدم استقالتها كوصيفة لـ «الإيغيريا» بيتر ايفانوفيتش. فلقد وجدت عملاً تستطيع أن تبذل له كل جوارحها.

ولكن قبل ساعات من ذلك، حين كانت العاصفة الرعدية لا تزال تعصف خلال الليل، جرى في شقة جوليوس لاسبارا حدث مثير جداً. فقد رفع نيكيتا الرهيب، العائد من الدرج، صوته الأشبه بالصريف متباهياً أمام المجموعة كلها:

- رازوموف، السيد رازوموف! رازوموف الرائع! لن يكون ذا نفع كجاسوس لأية جهة كانت. لن يتكلم لأنه لن يستطيع أن يسمع شيئاً في حياته... ولا شيئاً واحداً! لقد فجّرت له طبلتي أذنيه. أوه، يمكنكم أن تثقوا بي. أعرف عملي جيداً. ها! ها! أعرف عملي جيداً.

Twitter: @ketab_n

خامساً:

رأيت ناتاليا هالدين للمرة الأخيرة بعد أسبوعين تقريباً من جنازة أمها.

في تلك الأيام الصامتة الكئيبة كانت أبواب الشقة في «شارع الفلاسفة» مغلقة في وجه الجميع عداي. وأعتقد أني كنت ذا نفع في ناحية واحدة هي أني كنت مدركاً للجزء الذي لا يصدق من الوضع. هذا وقد رعت الآنسة هالدين أمها لوحدها حتى اللحظة الأخيرة. وإذا كانت لزيارة رازوموف أية علاقة بموت السيدة هالدين (ولا أستطيع مغالبة التفكير في أنها عجّلت بالأمر إلى حد كبير) فذلك لأنّ الرجل، الذي وثق به فيكتور هالدين سيئ الحظ على نحو متهوّر، لم يستطع أن يكسب ثقة أم فيكتور هالدين. لا أحد يستطيع أن يعرف أية حكاية قصّها عليها. وعلى أية حال، فأنا لا أعرف أيضاً، ولكن بدا لي أنها ماتت من صدمة خيبة الرجاء التي تحمّلتها في صمت. لم تصدقه. ربما كانت لم تعد قادرة على أن تصدق أحداً، لذا لم يكن لديها ما تقوله لأحد ... ولا حتى لابنتها. وأعتقد أن الآنسة هالدين عاشت أثقل ساعات حياتها قرب ذلك السرير الصامت، سرير الموت. وأعترف أني كنت غاضباً من المرأة العجوز كسيرة القلب التي ماتت مصمّمة بعناد على ألاّ تثق بابنتها وبالتالي أن تبقى صامتة.

وحين انتهى كل شيء، ابتعدتُ جانباً. كان مواطنو الآنسة هالدين من حولها آنذاك. وقد حضر عدد كبير منهم الجنازة. وقد حضرتها أنا أيضاً، ولكني استطعت لاحقاً أن أبتعد عن الآنسة هالدين حتى استلمت رسالة قصيرة تكافئني على إنكاري لذاتي: «الأمر كما أردته أنت. سأعود إلى روسيا فوراً. لقد صممت على ذلك. تعال لتراني».

Twitter: @ketab_n

لا شكّ أنها كانت مكافأتي على حفظي للأسرار. وقد ذهبت دون إبطاء لاستلام المكافأة. بدت على الشقة في «شارع الفلاسفة» أمارات كئيبة تدلّ على الهجر الوشيك. بدت لي موحشة كأنما قد سبق لها وأضحت فارغة.

تبادلنا ونحن واقفان كلمات قليلة حول صحتها وصحتي، وبعض الملاحظات حول بعض الأشخاص من الجالية الروسية، ثم بدأت ناتاليا هالدين بعد أن أجلستني على الأريكة بالتحدث بصراحة عن عملها القادم وخططها. كان ذلك كله كما تمنيته أنا. وكان على ذلك أن يستمر مدى حياتها كلها. لن نرى بعضنا البعض مرة أخرى. أبداً!

ضممت هذا النجاح إلى قلبي. بدت ناتاليا هالدين ناضجة بعد تجاربها العلنية والسرية. وبذراعين مطويتين راحت تذرع الغرفة من أولها إلى آخرها وهي تتحدث ببطء، بجبين غير مقطّب وصورة جانبية لوجهها واضح التصميم. لقد منحتني نظرة جديدة إليها، وتعجّبت لوجود شيء ما جدّيّ ومدروس في صوتها وحركاتها وأسلوبها. كان ذلك هو كمال الاستقلال الواثق بالنفس. لقد طفت قوة طبيعتها إلى السطح بعد أن جرى تحريك الأعماق الغامضة.

قالت بعد فترة صمت وبعد أن توقفت أمامي:

ـ نستطيع كلانا أن نتحدث في المسألة الآن. هل ذهبت إلى المستشفى وسألت عن الوضع؟

ـ أجل.

وحين نظرت إليّ بثبات قلت مستأنفاً:

ـ سيعيش، كما يقول الطبيب. ولكني كنت أظنّ أن «تكلا»...

Twitter: @ketab_n

شرحت الآنسة هالدين بسرعة:

- لم أر «تكلا» منذ أيام عدة. وبما أني لم أعرض عليها أبداً أن أرافقها إلى المستشفى، فإنها تظنّ أن لا قلب لي. لقد خاب أملها بي.

وهنا ابتسمت الآنسة هالدين ابتسامة خفيفة.

قلت:

- أجل، إنها تجالسه طالما هم يسمحون لها بذلك. وتقول إن عليها ألاّ تهجره أبداً... طالما هي على قيد الحياة. سيكون في حاجة إلى شخص ما... فهو مقعد عاجز وأصم تماماً أيضاً.

غمغمت ناتاليا هالدين:

- أصمّ تماماً؟ لم أكن أعرف.

- إنه كذلك. وهذا يبدو غريباً. لقد قيل لي أنه لم تكن هناك إصابات واضحة في الرأس، ويقولون أيضاً أنه من الممكن أن يعيش طويلاً بحيث لن تعيش «تكلا» لتعتني به حتى نهاية حياته.

هزّت الآنسة هالدين رأسها.

- طالما كان هناك مسافرون مستعدون للسقوط على الطريق فإن «تكلا» لن تكون عاطلة عن العمل. إنها «سامرية» جيدة بمهنة لا تستطيع مقاومتها. لم يفهمها الثوريون. تصوّرْ مخلوقة كتلك تُستخدم لتحملِ وثائق مخاطة بثوبها، أو لجعلها تدوّن ما يتلي عليها.

- ليس هناك كثير من حدة الذهن في هذا العالم.

ولكني ما أن لفظت هذه الملاحظة حتى ندمتُ عليها. فقد قامت ناتاليا هالدين التي كانت تنظر إلي مباشرة في الوجه، بإشارة برأسها تدل على موافقتها. لم تكن قد أحست بإساءة، ولكنها التفتت ثم

Twitter: @ketab_n

راحت تذرع الغرفة من جديد. بدت بالنسبة إلى عيني الغريبتين أنها كانت تبتعد شيئاً فشيئاً عني، وأضحت بعيدة عن متناولي الآن، ولكن دون أن تصغر رغم المسافة المتزايدة. بقيت صامتاً كأنه كان الكلام دون جدوى. ولكن صوتها القريب مني جداً جعلني أجفل قليلاً.

ـ لقد رأته تكلا وهم ينتشلونه بعد الحادث. وهذه الإنسانة الطيبة لم تشرح لي فعلاً كيف حدث ذلك. ولكنها تؤكد أنه كان بينهما تفاهم - نوع من الاتفاق - أنه في حالة الحاجة الماسة أو المصيبة أو الصعوبة أو الألم، فإن عليه أن يأتي إليها.

قلت:

ـ هل كان هناك مثل هذا الاتفاق حقاً؟ إنه لمحظوظ إذن. سيحتاج إلى كل تفاني المرأة السامرية الطيبة.

وكانت تلك حقيقة، فإن «تكلا» التي كانت تتطلع من نافذتها في الخامسة صباحاً، لسبب ما أو لآخر، قد رأت رازوموف في الأرض المحيطة بقصر بوريل، واقفاً هناك في حالة من الجمود الكامل، حاسر الرأس تحت المطر، عند سفح الشرفة. وقد صرخت فيه منادية باسمه لتعرف ما الحكاية. ولكنه لم يرفع رأسه حتى. وما أن ارتدت من الملابس ما يكفي لتنزل إلى الطابق السفلي كان قد رحل. وقد لحقت به واندفعت نحو الطريق ولكنها وصلت عندما كانت الحافلة قد توقفت وراحت للمجموعة الصغيرة من الناس تنتشل رازوموف. هذا ما قالته لي «تكلا» شخصياً في عصر أحد الأيام حين التقينا عند باب المستشفى، ودون أي تعليق كان. ولكني لم أكن راغباً في التأمل كثيراً في جوهر هذه الحادثة الغريبة.

ـ أجل يا ناتاليا فيكتوروفنا، سيكون في حاجة إلى شخص ما

Twitter: @ketab_n

حين يخرجونه من المستشفى على عكازينـة ة وفي حالـة مـن الـصمم الكامل. ولكني لا أظن أنه حين اندفع كمجنون هارب من المـصح إلى داخل الأرض المحيطة بقصر بوريل كان يفعل ذلـك ليطلـب مـساعدة من «تكلا» الطيبة.

قالت ناتاليا وهي تتوقف أمامي:

ـ لا، ربما لا.

ثم جلست وأراحت رأسها على يدها متأمّلة. دام الـصمت دقـائق عدة. وخلال تلك الفترة تذكرت أمسية الاعتـراف الرهيـب... التفجّـع الذي لم يكن فيها من الحياة ما يكفي لتنطقه: «من المستحيل أن يكـون المرء أكثر تعاسة من ذلك...» وكان من شأن هذه الـذكرى أن تجعلـني أرتجف لو لم أكن مستغرقاً في التعجب مـن قوتهـا وهـدوئها. لم تعـد ناتاليا هالدين موجودة فهي قد توقفـت عـن الـتفكير في نفـسها. كـان ذلك انتصاراً هائلاً، انجازاً روسياً مميزاً في كبح الذات.

وقد أعادتني إلى نفسي بـأن نهـضت فجـأة كـشخص وصـل إلى قرار. سارت إلى طاولة الكتابة المجردة الآن من كل الأدوات الصغيرة المتعلقة بها للاستخدام اليـومي... وأصـبحت مجـرد قطعـة ميتـة مـن الأثاث، ولكنها كانت تحوي شيئاً حيـاً حـتى الآن، منـذ أن أخرجـت منها طرداً مسطحاً جلبته لي.

قالت على نحو مفاجئ:

ـ إنه دفتر. لقد أُرسل لي ملفوفاً بوشاحي. ولم أخبرك به في ذلك الحين، ولكني قررت الآن أن أتركه معـك. لي الحـق في فعـل ذلـك. لقد أُرسل إلي، إنه يخـصني. قـد تحـتفظ بـه أو تتلفـه بعـد أن تقـرأه. وبينما أنت تقرأه أرجو أن تتذكر أني كنت فعلاً عزلاء. وأنه كان...

Twitter: @ketab_n

كررت مندهشاً وأنا أنظر إليها بشدة:

- عزلاء!

همست:

- ستجد هذه الكلمة بالذات مدوّنة في الدفتر. حسناً، هذا صحيح! لقد كنت فعلاً عزلاء... ولكن ربما كنت قادراً على أن ترى ذلك بنفسك.

احمرّ وجهها ثم شحب شحوباً شديداً واستأنفت تقول:

- وحتى لا نظلم الرجل، فإني أريدك أن تتذكر أني كنت عزلاء فعلاً. أوه! لقد كنت!

نهضتُ مترنحاً بعض الشيء.

- ليس من المحتمل أن أنسى أي شيء تقولينه في لقائنا الأخير هذا.

سقطت يدها في يدي.

- من الصعب التصديق بأن على هذا أن يكون وداعنا الأخير.

وقد ضغطت على يدي كما ضغطت على يدها ثم انفصلت يدانا.

- أجل. سأرحل غداً. عيناي مفتوحتان أخيراً ويداي حرتان الآن. أما بالنسبة إلى البقية... فمن منّا يستطيع ألاّ يسمع الصرخة المكتومة لمحنتنا الكبرى؟ قد لا تكون لها أية قيمة في هذا العالم.

قلت:

- العالم أكثر إدراكاً لأصواتكم المتعارضة المتنافرة. هكذا هو العالم.

أومأت برأسها موافقة وهي تقول:

- أجل.

Twitter: @ketab_n

ثم ترددت لحظة قبل أن تستأنف:

ـ عليّ أن أعترف لك أني لن أتخلى على التشوّف إلى ذلك اليوم الذي لا يبقى فيه أي تنافر. حاول أن تتصور فجر ذلك اليوم! حين تكون عاصفة الضربات واللعنات قد انتهت، وقد ساد الهدوء. الشمس الجديدة آخذة بالشروق، والرجال المنهكون موحّدون أخيراً، وقد راحوا يدرسون بضمائرهم الصراع المنتهي، ويشعرون بالحزن على انتصارهم، لأن الكثير من الأفكار قد قُتلت لتحيا فكرة واحدة، وكلأن ثيراً من المعتقدات قد تركتهم دون سند أو مؤيد. سيشعرون بالوحدة على هذه الأرض فيتآزرون. أجل، لا شك أنه ستمر ساعات مريرة كثيرة! ولكن ألم القلوب سيطفئه أخيراً الحب.

وبهذه الكلمة الأخيرة من كلمات الحكمة، الكلمة الندية جداً، والمرّة جداً، والقاسية أحياناً، ودّعتُ ناتاليا هالدين. من الصعب علي أن أفكر في أني لن أنظر مرة أخرى إلى تينك العينين المترعتين بالثقة... المشدودتين بإيمان لا يقهر بقدوم الوفاق الحبّي النابع كزهرة سماوية من تربة أرض البشر، المغمسة بالدم والممزّقة بالنزاعات والمروية بالدموع.

* * *

يجب أن يعرف القارئ أني لم أكن أعرف في ذلك الحين أي شيء يتعلق باعتراف رازوموف للثوار المجتمعين. قد تكون ناتاليا هالدين قد خمنّت ذلك «الشيء الآخر» الذي بقي عليه أن يفعله، ولكن عيني الغربيتين فشلت في رؤيته.

لقد بقيت «تكلا»، الوصيفة السابقة لـ «المدام دو سـ...» ملازمة لسريره في المستشفى. وقد تقابلنا مرة أو مرتين عند باب تلك

Twitter: @ketab_n

المؤسسة، ولكنها لم تكن في تلك المناسبات ميّالة إلى الحديث. وكانت تعطيني أخبار السيد رازوموف بأكبر إيجاز ممكن. كان رازوموف يتحسّن ببطء، ولكنه سيبقى مُقْعَداً طوال عمره. شخصياً، لم أقترب منه أبداً، ولم أره مرة أخرى، بعد تلك الأمسية الرهيبة حين كنت أقف جانباً، كشاهد يقظ إنما متجاهل لذلك المشهد مع الآنسة هالدين. وقد تم إخراجه من المستشفى وقامت «قريبته» - كما قيل لي - بنقله إلى مكان ما.

وقد اكتملت معلوماتي بعد عامين تقريباً. لم أحاول أنا أن أبحث عن تلك المعلومات ولكن حدث صدفة أن قابلت امرأة ثورية موثوقة جداً في منزل شخص روسي بارز ذي قناعات ليبرالية أتى ليعيش في جنيف لفترة معينة.

كانت شهرته تختلف عن شهرة بيتر إيفانوفيتش... وكان شخصاً ذا شعر داكن وعينين لطيفتين وإباء وتهذيب، وفي أسلوبه شيء من الحذر والاحتراس. وقد اقترب هذا مني وقد اختار لحظة لم يكن أحد إلى القرب منا، وتبعته سيدة حيوية ذات شعر رمادي في قميص أحمر، ثم خاطبني بصوته الحذر:

ـ تريد صوفيا أنتونوفنا أن تتعرف عليك. لذا سأترككما معاً لتتبادلا بعض الحديث.

بدأت المرأة رمادية الشعر تقول على الفور:

ـ ما كنت لأتطفل عليك لو لم أُكَلَّف بتبليغك رسالة.

وكانت تلك رسالة من بضع كلمات ودية من ناتاليا هالدين. كانت صوفيا أنتونوفنا قد عادت للتو من رحلة سرية إلى روسيا وقابلت الآنسة هالدين التي كانت تعيش في إحدى المدن في وسط

Twitter: @ketab_n

روسيا موزعة جهودها الرحيمة بين أهوال السجون المكتظة وبؤس المنازل المفجوعة الذي يحطم القلب. لقد أكدت لي صوفيا أنتونوفنا أنها كانت تبذل قصارى جهدها في تقديم الخدمات الطبية.

لخّصت المرأة الثورية الموضوع كله وبلمسة من الحماسة:

ـ لديها روح مخلَصة، روح شجاعة، وجسد لا يعرف التعب.

إن حواراً كهذا ما كان لينتهي بسرعة خاصة وأن اهتمامي لم يكن قليلاً. وقد ذهبنا لنجلس لوحدنا في زاوية لا يقاطعنا فيها أحد. وخلال حديثنا عن الآنسة هالدين قالت صوفيا أنتونوفنا فجأة:

ـ أعتقد أنك تتذكر أنك رأيتني سابقاً! في ذلك المساء الذي جاءت فيه ناتاليا لتسأل بيتر إيفانوفيتش عن عنوان شخص اسمه رازوموف، ذلك الشاب الذي...

قلت:

ـ أتذكر تماماً.

وحين علمت صوفيا انتونوفنا أن مذكرات ذلك الشاب كانت في حوزتي بعد أن أعطتني إياها الآنسة هالدين، فقد ازداد اهتمامها إلى حد بعيد. ولم تخفِ فضولها لترى المذكرات.

وقد عرضت عليها أن أريها إياها، وقد أبدت استعدادها لزيارتي في اليوم التالي لهذا الغرض.

وقد قامت بتقليب الصفحات بلهفة مدة ساعة أو أكثر، ثم أعادت الدفتر إليّ بتنهيدة ضعيفة. فخلال تنقلها في روسيا قابلت رازوموف أيضاً. لم يكن يعيش في وسط روسيا بل في الجنوب. وقد وصفت لي كوخاً خشبياً ذا غرفتين في ضاحية مدينة صغيرة، مختفياً وراء حاجز خشبي لفناء نمت فيه نباتات الشوك على نحو مفرط. كان

Twitter: @ketab_n

مقعداً ومريضاً وصحته آخذة بالتدهور يومياً، وكانت «تكلا» السامرية تعتني به دون كلل بكل ما في التفاني والإيثار من متعة خالصة، لم يكن في تلك المهمة ما يمكن أن يخدع المرء.

لم أخفِ عن صوفيا أنتونوفنا دهشتي بأنها قد قامت بزيارة رازوموف. لم أفهم حتى الدافع وراء ذلك. ولكنها أعلمتني أنها لم تكن الوحيدة التي فعلت ذلك.

ـ البعض «منا» يذهب دائماً ليراه في طريقه. إنه ذكي. لديه أفكار... ويتحدث على نحو جيد أيضاً.

وهنا علمتُ للمرة الأولى بالاعتراف العلني لرازوموف في منزل لاسبارا. وقد حكت لي صوفيا أنتونوفنا بالتفصيل ما حدث هناك. لقد حكى لها رازوموف عن ذلك كله وبكل دقة.

ثم نظرت إلي بشدة بعينيها السوداوين اللامعتين وقالت:

ـ هناك لحظات شريرة في كل حياة. قد تدخل فكرة مزيفة في عقل شخص ما، ثم يولد الخوف... الخوف من الذات، والخوف على الذات، أو هي شجاعة مزيفة... من يدري؟ حسناً، سمّها ما تشاء، ولكن قل لي كم منهم مستعد أن يسلم نفسه طوعاً للفناء (كما يقول هو في مذكراته) على أن يتابع العيش وهو يحتقر نفسه سراً؟... وأرجوك أن تلاحظ أنه كان في مأمن حين فعل ما فعله. لقد حدث ذلك عندما وثق من أنه في أمان، بل وعلاوة على ذلك... عندما اتضحت له إمكانية أن تحبّه تلك الفتاة المثيرة للإعجاب لأول مرة، عندها اكتشف أنّ أكثر احتجاجاته مرارة، أسوأ شروره، والعمل الشيطاني لحقده وكبريائه لا يمكنها أن تغطي على عار ذلك الوجود الذي أمامه. وهناك شخصية متميِّزة في مثل هذا الاكتشاف.

Twitter: @ketab_n

قبلتُ استنتاجها في صمت. من ذا الذي يهتم في أن يجادل في أسس الغفران أو التعاطف؟ وعلى أية حال، فقد ظهر لاحقاً أنه كان بعض من وخز الضمير أيضاً في الإحسان الذي قدمه الثوريون لرازوموف الخائن. وهنا استأنفت صوفيا أنتونوفنا الكلام بصعوبة:

ـ وأنت تعرف أنه كان ضحية اعتداء وحشي. ولم يكن ذلك حسب أوامر. لم يكن هناك أي قرار فيما يتعلق بما عليهم أن يفعلوه به. لقد اعترف طوعاً. ولكن نيكيتا ذاك فجّر له طبلتي أذنيه عن عمد، على منبسط الدرج، كما تعرف، كأنّما دفعه السخط إلى ذلك... حسناً، وقد تبيّن أنه وغد من أسوأ نوع... وأنه خائن هو نفسه، بل وجاسوس. وقد قال لي رازوموف إنه اتهمه بالخيانة بنوع من الوعي...

قلت:

ـ لقد لمحت ذلك الشخص المتوحش. كيف كان ممكناً لأي منكم أن يخدع به لمدة نصف يوم؟ هذا ما لا أستطيع أن أفهمه!

قاطعتني قائلة:

ـ حسناً، حسناً، لا تذكر ذلك. في أول مرة رأيته فيها، شعرت أنا بالرعب أيضاً، ولكنهم أخرسوني. لقد كنا نقول واحدنا للآخر: «عليك ألا تهتم بمظهره.» وكان دائماً مستعداً للقتل. لم يكن هناك شك في ذلك. لقد مارس القتل... أجل، لدى كلا المعسكرين. الشيطان...

ثم حكت لي صوفيا أنتونوفنا بعد أن سيطرت على الارتجاف الغاضب لشفتيها حكاية عجيبة جداً. لقد حدث أن التقى المستشار ميكولين الذي كان يسافر في ألمانيا (بعد اختفاء رازوموف من جنيف بفترة قصيرة) ببيتر إيفانوفيتش في عربة قطار، وبما أنهما كانا

Twitter: @ketab_n

لوحدهما في المقصورة فقد تبادلا الحديث نصف ليلة بكاملها، وعندها أعطى ميكولين رئيس الشرطة لمحة لقائد الثوريين عن الشخصية الحقيقية لأكبر قاتل للدرك. كان يبدو وكأن ميكولين كان راغباً في التخلص من عميله ذاك بالذات! ربما كان قد تعب منه أو كان خائفاً منه. ولا بدّ من القول أن ميكولين قد ورث نيكيتا المشؤوم من سلفه في المنصب.

وهذه الحكاية سمعتها أيضاً دون تعليق حيث أني شاهد صامت على الأمور الروسية التي كانت تكشف عن منطقها الشرقي تحت نظري الغربي. ولكني سمحت لنفسي بطرح سؤال واحد:

ـ قولي لي يا صوفيا أنتونوفنا: هل تركت «المدام دو سـ...» كل ثروتها لبيتر إيفانوفيتش؟

هزت المرأة الثورية كتفيها باشمئزاز:

ـ ولا قرشاً واحداً منها. لقد ماتت دون أن تكتب وصيتها. وقد وصل العديد من أولاد وبنات الأخوة والأخوات من سانت بطرسبورغ كسرب من الطيور الجارحة، وتقاتلوا على أموالها. كل أولئك الوحوش من عائلة «كامر هامر» ووصيفات الشرف... خدم البلاط الكريهون أولئك! تفو!

قلت بعد فترة صمت:

ـ لم نعد نسمع الكثير عن بيتر إيفانوفيتش في هذه الأيام.

قالت صوفيا أنتونوفنا:

ـ بيتر إيفانوفيتش تزوج من فلاّحة.

دهشتُ تماماً.

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا؟ على الريفييرا؟

ـ يا للهراء! طبعاً لا.

كانت لهجة صوفيا أنتونوفنا لاذعة.

صرخت:

ـ هل يعيش إذن في روسيا؟ هذه مخاطرة هائلة، أليس كذلك؟ وكل ذلك من أجل فلاّحة. ألا تعتقدين أنه يرتكب خطأً فظيعاً؟

حافظت صوفيا أنتونوفنا على صمت غامض لفترة، ثم قالت:

ـ إنه وبكل بساطة يعبدها.

ـ حقاً؟ حسناً إذن، آمل أنها لن تتردد في ضربه.

نهضت صوفيا أنتونوفنا وودعتني وكأنها لم تسمع كلمة واحدة من أمنيتي غير اللطيفة؛ ولكنها التفتتْ للحظة عند الباب، حيث رافقتُها إلى هناك، وقالت بصوت حازم:

ـ بيتر إيفانوفيتش رجل مُلْهَم.

* * *

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

JOSEPH CONRAD

UNDER WESTERN EYES

روسيا على ليالي الثورة فالسؤال المطروح أسئلة: ما ستكون عليه إمبرطورية القياصرة، ستتقلص أم ستتسع؟ وفي أي اتجاه ستتسع إذا اتسعت؟ ما سيكون شكلُ الحكم؟ ونوع علائق الناس ببعضهم.

هذه الأسئلة وغيرها يطرحها كونراد في روايته هذه عام ١٩١٧، بالأحرى يحاول الإجابة عنها بلسَان أستاذ سويسري عجوز خبرته اتسعت وعَقله امتد بحيث صار الحاضر عنده مستقبلاً.

الأجوبة والأسئلة شرقية - غربية، إذ إن المؤلف وهو بولوني الأصل يكتب من موقع بريطاني فمنظور الرؤية مزدوج. وهو يعرف أن كل تبديل في روسيا يرتكس لتوهَ على وطنه سلبياً أو ايجابياً، وربما على أممٍ أخرىَ مجاورة لروسيا، ومن المعروف أن حلم القياصرة كان الامتداد نحو المياه الدافئة، أي نحو البحر الأبيض المتوسط.

هل تحققت نبؤات كونراد؟ أترك للقارئ البحث عن الجواب في صفحات هذه الرواية التي استشرفت المستقبل، لأنه ما من شكٍ أن المستقبل حاضر في الماضي.

لوحة الغلاف للفنان ديلان عابدين أمين

9 789933 429584

التكوين